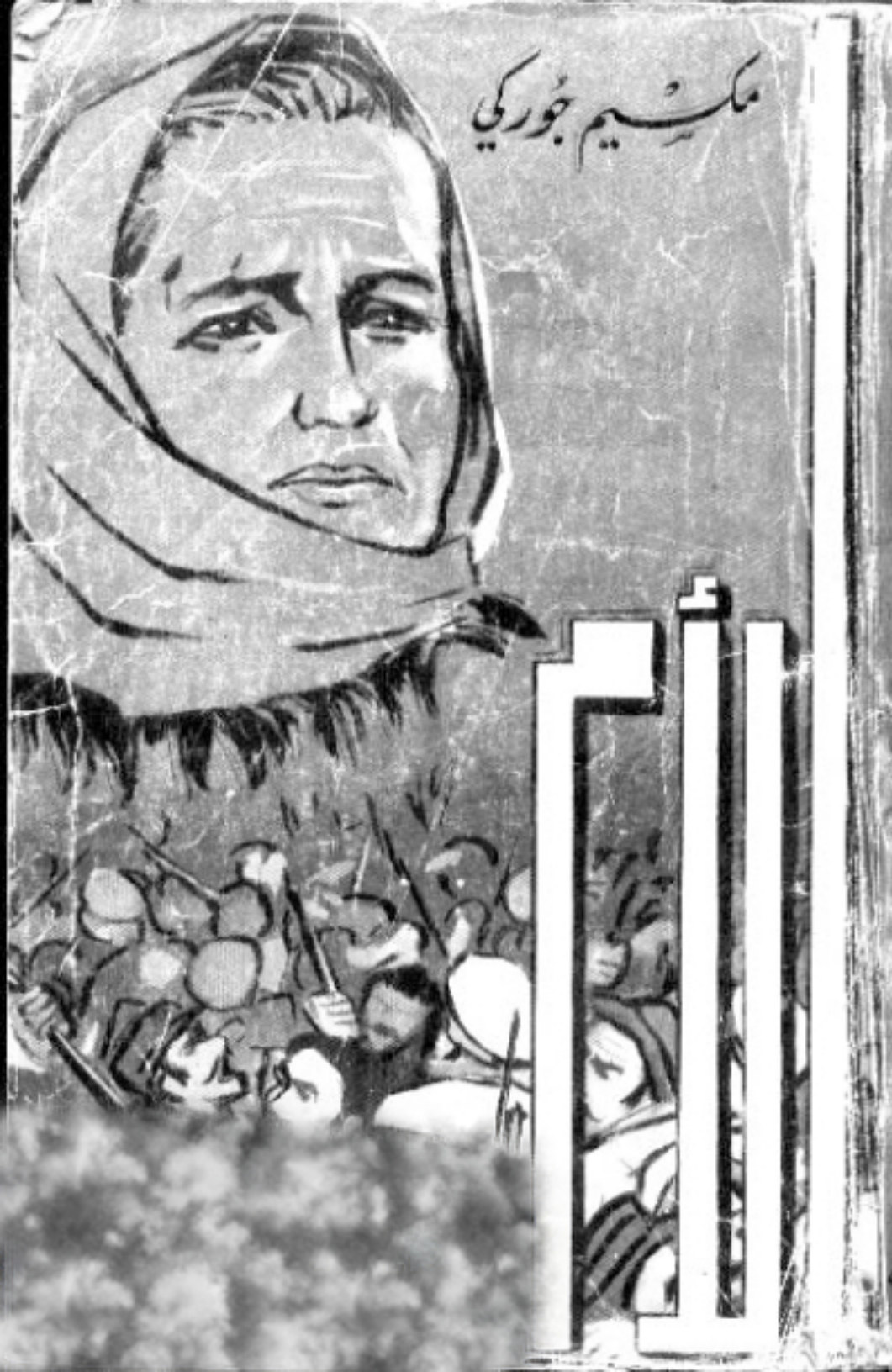


مکسیم جورکی



مقدمة الترجمة الفرنسية

كانت بواكير إنتاج غوركي تعكس روابط القوة الجديدة التي اخذت تتركز مع تطور الرأسمالية السريع في المجتمع الروسي منذ نهاية القرن الأخير ، وما لا شك فيه ان غوركي لم يكن في البدء اشتراكياً إلا في قلبه ، ولكن قصصه الأولى « تشلكاتش » ، « ايزرغيبيل العجوز » و « أغنية البصر » وسواها ، كانت تفيض عزة نفس وإشراقاً وحنوفاً إنسانياً ، وبطولة شخصية لمصلحة الجماعة كلها ؛ وكانت ترفعه الى مستوى ثوري ، وبعضها كقصص « المهرج » - ١٨٩٦ - كانت تشير الى الأهمية التي كان يعلقها على أولى مظاهر الوعي العمالي .

وإذا كانت قضايا الاشتراكية لم تكن في رواية « توماس غوردويف » - ١٨٩٩ - قد تطورت بعد إلا بشكل تعليمي على يد الصحفي « بيجوف » فإن ظهور الوعي الاشتراكي في وسط عمالي هو إحدى القضايا الأساسية التي تعالجها الرواية اللاحقة لها : « الحظوظ الثلاثة » - ١٩٠٠ - .

وفي السنة اللاحقة كان « نيل » في مسرحية « البرجوازيين الصغار » - ١٩٠٢ - نموذجاً للعامل الواعي الذي كان مجرد ظهوره - على قمة هذا الظهور - يسيطر على المأساة كلها . والى هذا العام نفسه ، عام ١٩٠٢ يمكن ان يرد - كما يقول غوركي نفسه - مشروع الرواية التي ستصبح فيما بعد « الأم » .

ففي « نيجني نوفغورد » حيث كان يقم آنذاك ، كانت صلته بالتنظيمات الاشتراكية العملية محدودة ، واننا لا ننسى ان حزب العمال الاشتراكي المديوقراطي في روسيا ، ظل شكلياً عندما التزم في مؤتمر « منسك » ، وانه لم يؤسس بصورة فعلية إلا بعد المؤتمر الثاني الذي انعقد في « لندرة » في تموز عام

١٩٠٣ . أما في «نيجني» فإن لجنة الحزب كانت قد تأسست منذ صيف ١٩٠١ .
وتثبت ذكريات المعاصرين ان «غوركي» كان يب التاثيرين منحه التعليمية
التي يتقاضاها ، ويساعدهم بنصائحه وقله ، وقد نوهت تقارير الشرطة ببراعته في
« جمع الأعمال المشروعة الى العمل السري لدرجة أنه يحول كل نشاط مشروع
الى نشاط ثوري » .

وكان توقيفه في آذار ١٩٠٦ بسبب مظاهرات الطلبة في «سانت بطرسبورغ»
مناسبة لانفضاض عنيفة قام بها عمال «نيجني» وطلابها .

وبعد ستة أشهر من السجن أذن لغوركي المريض الذي يصق دماً ان يذهب
للاستشفاء في «القرم» التي لم يعد منها الى «نيجني» إلا في تشرين الأول عام
١٩٠٢ ، فلم يتح له ، والحالة هذه ، ان يشهد احتفال أول ايار حيث كان صانع
الأقفال الفتي «ب . زالوموف» وعضو اللجنة التي ألقت في العام المنصرم ،
يحمل العلم الأحمر ، ويسير في طليعة الموكب .

هذا الفتى الذي اوقف على الأثر ثم حوكم وأدين ، هو الذي سيتقمص بطل
« الأم » بول فلاسوف .

وكان غوركي ، دون ان يعرفه شخصياً في ذلك الحين ، أحد الذين يسعون
ليخففوا عنه وطأة السجن ، كما سيكون أحد الذين يقدمون له المعونات الضرورية
لتسهيل فراره من سيبيريا ، ولم يقدر له ان يلتقي به إلا بعد سنوات ثلاث .
وقبها كان «بيير زالوموف» مطارداً ، أوقف غوركي بسبب النور الذي قام به
في كانون الثاني عام ١٩٠٥ واستجيز في حصن «بيير وبول» المظلم ، ثم نقل تحت
ضغط الرأي العام العالمي الى «ريغا» حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية ،
ولكنه استطاع الهرب الى فنلندا ، وأقام في «كوفوكالا» عند صديقه الرسام
«ريين» ، وظل من هذه المحطة الصغيرة على الحدود التي تكاد تكون الضاحية
الكبرى لمدينة «سانت بطرسبورغ» ظل على صلته بالمنظمات الثورية ، وعلى الأخص ،
الحزب الاشتراكي الثوري ، وحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي .

ومن فنلندا اجتاز المانيا ، ليحل في الولايات المتحدة حيث كان عليه ان يقوم

بجولة دعائية لصالح الحركة الثورية ، وان يجمع الأموال لتنشيطها وتحشيعها .
وانتا لنجد آثار جهده الدعائي في الندوات الكثيرة التي نشرها في عامي ١٩٠٥
١٩٠٦ باللغات الالمانية والانكليزية والفرنسية ، في الصحف الاشتراكية
بأوروبا الغربية ، وفي رسالته الى «الاول فرانس» التي هاجم فيها القروض
الروسية وخاصة في رسالته لهجائية «فرنسا الجميلة» التي أثار في بلادنا نقاشات
عنيفة ، وقد دمج البورجوازية الأميركية في هجائياته : « في اميرك » ،
« شارلي ماكس » ، « مقابلاتي » .

وفي الوقت نفسه كان يعد « الأم » (بدأ كتابتها في تموز عام ١٩٠٦ وأنهاها
في اوائل كانون الأول) وخلال ذلك انتقل الى ايطاليا ، ولكن قصر هذه المدة
لم يحل دون العمل الكثير . ولقد نسخ النص الأصلي أكثر من خمس مرات ،
وكانت التنقيحات التي تدخل عليه هامة . وفي نهاية كانون الاول بدأت الرواية
تظهر باللغة الانجليزية في «نيويورك» ثم في المانيا في «Vorwärts» ، ومنذ العام
التالي بدأت ترجمة الرواية الى اللغات الرئيسية في العالم ومنها الفرنسية . وقد
اعتمدت في هذه الترجمات المخطوطة التي نصحها غوركي في «كاري» في الاسابيع
الاخيرة من عام ١٩٠٦ ، ولم يكن غوركي نفسه لينقطع عن العودة الى تنقيح
هذه النسخة ، فقد عاد اليها مرتين في عام ١٩٠٧ ثم في عام ١٩١٣ . وأخيراً
في عام ١٩٢٢ .

وهذا النص الأخير يختلف اختلافاً بيناً عن النصوص الأولى من حيث الانشاء
والخصائص ، وحتى الأسلوب . وهو النص الذي نقله لأول مرة الى اللغة الفرنسية .
ان غوركي لم يحدف أو يضيف اليه بعض الحوادث فحسب ، ولم يعدل البعض
المهم منها ، بل انه في جلسة المحكمة جعل دور المحامين ثانوياً ، وأظهر التضاد
العنيف بين العالمين : عالم العمال ، وعالم قضائهم ، واسبغ على افساده بول معنى
ثورياً أكثر عمقاً ، كما حوّر كذلك في الخصائص ، فذرع عن بول الملامح التي
يمكن ان تضعفه كبطل بلشفي شاب ، كالبعض من عدم الثقة بقواه ، والحنو
المصطنع نحو والدته ، واتجاهه الى العاطفية ، وميله الى الزهد .

لقد أجهد نفسه ليظهره في نفس الوقت أكثر كالأكثر طبيعية، وجعل حبه الخفي لساندرين أكثر بساطة وإنسانية .

وكذلك فإن صورة الأم 'عدلت بشكل أكثر عمقا' ، فلقد جدد غوركي من شبابها فهي امرأة في الأربعين ما تزال قوية ، منفتحة ، حساسة ، وخفف من قديتها ، وتحولت شفقتها الشاملة الى حب للفضطهدين ، وكره لمضطهدهم ، وحل محل إيمانها الساذج بغلبة العدالة ، السخبط والازدراء والقيظ .

وبقدر ما اغتنت لغته بالبساطة والحياة ، بقدر ما اخذت تبرز تحرر احكامه . أما الشخص الذي تبدل تبداً جوهرياً فهو على التأكيد « اندريه » : فهذا الثوري العجوز الشديد الرأفة ، الذي كانت يبدو كأنه المعلم « لبول » ، انتقل الى الصف الثاني ، فإذا ضعفه السياسي مثلاً أمام فوضوية الفلاحين ، يجعل ما في انسانيته من عاطفية شديدة أمراً مفلوساً ، ويوضح قوة التفكير والطبع الثوري الاكيد عند بول .

غير أن هذه التنقيحات بالغة ما بلغت من الأهمية ، لا تغير الحان الأساسية للكتاب . أنها فيما تصفيه ، تعمقه ، أنها تنبثق عن الغاية نفسها التي دفعت الى تأليفه . ان غاية غوركي لم تكن في الواقع ، ان يقص ببساطة في عام ١٩٠٦ مقطوعاً من النضال الثوري في « نيجني نوفغورد » ، خلال عام ١٩٠٢ ، بل كانت غايته اثناء ملامح ابطاله بلامح لمجاهدين آخرين ، ومع ذلك فإن من أهم خصائص هذه الرواية ان الجانب الضعيف من الابتداع الذي استباحه المؤلف لنفسه كان بعيداً عن كل تزويق ومحسوراً فيها عرفه أو لاحظته من خلال تجربته الثورية الخاصة . الا ان مبدأ سياسياً هو الذي تحمك فيها اختاره غوركي ، فمنذ عام ١٩٠٢ الى عام ١٩٠٦ كانت الحركة العمالية قد نضجت ، وكان لينين قد أسس الحزب وطهره من « الاقتصاديين » وعصبتهم ، أي من الانتهازية ، وجعل منه منظمة جديدة بقيادة الثورة الديمقراطية في نضالها ضد الحكم الاستبدادي .

وكانت هذه السنوات الأربع من النضال قد انضجت تحت قيادته طليعة عمالية ثورية من طراز جديد ، وهذه الطليعة هي التي اختار غوركي ان يبرزها ،

فأدخل في روايته التجربة السياسية لسنوات الثورة . والى هذا الوعي السياسي كان ابطاله مدنيين بعظمتهم وحقيقتهم ، حقيقة التاريخ .

من أجل هذا لم يكن بناء الرواية قائماً على عقدة محل وتعمد أقداراً شخصية ، بل على نحو روابط طبقية تمكس الاقدار الشخصية فيها ما بينها من تناقضات . فالخصائص والغنى الداخلي عند كل من ابطال الرواية ، وقابليته للانفتاح للحياة وللتأثير عليها ، كل ذلك يتوضح في هذا العرض كما يمكن للكتاب ايضاً ان ينتهي بالحكم على بول واندريه ، بتوقيف الأم ، ولكن هذه الهزيمة لا تضعف شيئاً من الثقة بالنصر النهائي ، نصر القيم الانسانية التي يحملونها في اعناقهم .

وكذلك فإن بول وأمه كانا يدركان دائماً بالأحظ لها بتجنب السجن والتغني ولكنها كانا يدركان أن مصيرها شخصياً ، وهو أبعد ما يكون عن اضعاف الحركة الثورية ، يجب ان يكرس لتنشيط هذه الحركة .

ان اثرهما الشخصي في الكفاح يعادل سمو الوعي عند الجماهير ، هذا الوعي الذي يقود ، بصورة عادية ، ويتصمخ لا يقهر ، الى انتصار الثورة .

وبهذا المعنى تكون خاتمة الكتاب ايجابية متفائلة ، لأنها تظهر الواقعية في ذكريات غوركي الثورية ، ويكون التاريخ هو نفسه الذي تكفل بإظهار الحقيقة .

وما كان يتنبأ لغوركي ان يعطي روايته الصورة الصحيحة إلا لأنه هو نفسه كان يعتبر كتابه الذي خُط في لب المعركة ، عملاً ثورياً ، وقد امتدحه لينين فقال : « انه يربط بصميمية صنيعة الادبي بالحركة العمالية في روسيا وفي العالم أجمع » .

وفي الظروف القاسية ، ظروف القمع التي اعطبت هزيمة عام ١٩٠٥ ، عندما كان « المنشييك » يترجعون برعب ، ارد غوركي ان يذكي شجاعة المناضلين الثوريين بأن يوضح لهم محتوى معركتهم ومتطلعاتها . انه أراد كتاباً يعي ، ومن أجل ذلك كتب الأم بسرعة .

لقد قال له لينين :

د لقد أحسنت اذ أسرعت ، فإن كتابك لمفيد ، لأن كثيراً من العمال

اسموا في الحركة الثورية دونما وعي حقيقي، انهم اسهموا فيها غريزياً، اما الآن
فانهم سيقراون « الأم » وسيجنون منها الكثير .
ثم اضاف : « هذا كتاب تلح اليه الحاجة آنياً »
... اجل ... انه كتاب آني ... ومن هنا كان خارده .

القسم الاول

من قوى ، وامسحى هذا النهار دون أن يترك وراءه آثاراً ، وخطا المرء نحو قبره خطوة... ولكن عذوبة الراحة بدت له قريبة المنال ، وكذلك لذة الملهى العابق بالدخان ... وإنه لسعيد من أجل ذلك !

وفي أيام الأعياد ينام الناس حتى العاشرة ، ثم يرتدي المترصنون منهم والمتزوجون أبهى ملابسهم ، ويذهبون الى الصلاة ، وهم ينعمون على الشباب استهتاره بالأمر الدينية ، وعندما يعودون من الكنيسة ، يأكلون ثم يستسلمون الى الرقاد حتى المساء .

ولما كان الانهك المتكدرس خلال السنين يفسد الشهية ، فإن الكثيرين منهم يلجأون الى الشرب ، ليشيروا نشاط معدم بالاحتراقات الكحولية الحادة . وفي المساء يتزهون في الشوارع بكسل ، يلبس الذين يملكون جزمات اجزماهم ، حتى ولو كان الطقس صالحاً ، ويحمل الذين يملكون مظلات مظلاتهم ، حتى ولو كانت الشمس مشرقة .

وعندما يتلاقون يتحدثون عن المعمل ، عن الآلات ، ويكيلون الشتائم لرؤسائهم . إن أحاديثهم وأفكارهم لا تتعدى الأشياء المتعلقة بالعمل ، وقليل ما تبد خاطر مسكينة سيئة الاداء ، فتلقى التاعة فريدة في رتبة أيامهم الدكناء . وعند العودة ، يتجادلون مع نساءهم ، ويضربونهن غالباً دون ان يزعموا قبضاتهم .

أما الفتيان فإنهم يكتون في المقهى ، أو ينظّمون سهرات قصيرة متناوبة ، يعزفون خلالها على الآكورديون ، ويعنون الأغاني الماجنة ، ويرقصون ، وينثرون النكات ويشربون .

... ويشورون بسهولة لأنهم منهكون بالعمل ، فالشراب يثير فيهم حنقاً لا سبب له ، حنقاً مرضياً ينشد المبرر ، ولكي ينفسوا عن كربهم ، يشتبكون تحت ستار مبرر تافه ، يشتبكون بصرارة وحشية ، فإذا هي معارك دامية ، يخرج البعض منها مشوهاً ، وقد تنجلي بعض الاحيان عن ضحايا .

أما علاقاتهم فإن شعور الحقد ، حقد الكائدين هو الذي يسودها في الغالب ،

- ١ -

في كل يوم ، في دخان زيت الضاحية العمالية ورائحته ، كانت صافرة المعمل تزار وترتعش .

وكالصرابير المروعة ، يخرج على عجل ، ومن منازل صغيرة رمادية ، رجال كئيبو الوجوه ، ما يزالون هلكى العضلات ؛ وفي الظهيرة الباردة ، ينطلقون ، ينطلقون في الشوارع غير المبلطة ، نحو القفص الحجري الشاهق الذي ينتظرهم مهدوء ولا مبالة ، يعيونه المربعة اللزجة التي لا اعداد لها ولا حصر .

تحت أقدامهم يفرقع الرجل ، وهتافات مبجوحة ، هي هتافات الأصوات النعسى كانت تسعى لاستقبالهم ، وسباب بنديء كان يمزق الهواء ، ثم تأتي اصوات اخرى الآن ، هي ضجيج الآلات الأخرس ، وبغام البخار .

وعلى الضاحية تشرف المداخن العمالية السوداء ، عبوسة قائمة ، كالأعمدة الجبارة . وفي المساء ، عندما تغرب الشمس ، وتلمع أشعتها الحمراء على زجاج النوافذ ، نوافذ البيوت ، يقىء المعمل من أحشائه الحجرية ، حثالاته البشرية ، وينتشر من جديد في الشوارع ، العمال الملطخو الوجوه بسواد الدخان ، العمال ذوو الاسنان اللامعة ، اسنان الجياح ، ينتشرون ليثقلوا الهواء بالعبق الرطب ، عبق زيوت الآلات .

إن أصواتهم تنطلق الآن نشيطة ، بل فرحة ، فلقد انتهت سخرة اليوم ، وفي المنازل ينتظرهم العشاء والراحة .

لقد ابتلع المعمل النهار ، وامتصت الآلات من عضلات الرجال ما تحتاج

وهو حقد أكثر عراقة من نصب عضلاتهم .

لقد ولدوا وهم يحملون هذا الداء النفسي الذي ورثوه عن آبائهم ، والذي يلازمهم كالشبح الاسود ، حتى القبر ، ويحملهم على اقرار اعمال بغيضة هي ابنة الفظاظة التافهة .

وفي أيام الأعياد يعود الشبان ، في ساعات متأخرة من الليل ، يعودون وثيابهم ممزقة ، ملطخة بالوحل والغبار ، ووجوههم مشخنة بالجراح ، يتباهون بلؤم بما سدوا الى رفاقهم من ضربات ، أو يحتاجون ويكون للاهانات التي لحقت بهم ، حتى اذا وصلوا الى منازلهم ، وصلوها ثمالي تعساء ، بشكل يثير الشفقة ، والقرق .

وأحياناً يقود الأهل قوام الى البيت ، اذ يعثرون عليه منطرحاً من السكر عند قدم سراج أو في حانة ، فيمطرون الجسد الساكن بشنائهم وضرباتهم ، ثم يلقونه في سريره ، كيفما اتفق ، ليوقظوه في ساعة مبكرة من الغد ، وليرسلوه الى العمل ، عندما ترسل الصافرة ، كالسيل المظلم ، هديرها الحائق .

وإذا كانت الاهانات والضربات تنهمر قاسية على الفتيان ، فإن سكرهم وهذيانهم يبدوان ، في نظر الشيوخ ، شيئاً مباحاً مغتفراً ، فلقد كانوا ، في شبابهم يملون مثلهم ويضربون ... وكان ذووم ايضاً يضربونهم .

انها الحياة ، كالماء العكر تنساب رتيبة بطيئة ، سنة بعد سنة ، وكل يوم يمر به وهو يحمل نفس العادات القديمة اللازمة ، في التفكير والعمل ، وما من أحد يستشعر رغبة للتغيير فيها .

وقد يظهر في الضاحية أحياناً ، غرباء لا يدري أحد من أين أقبلوا ، فيسترعون الانتباه ، أول الامر ، لأنهم ، بكل بساطة مجهولون ، ويشيرون قليلاً من الفضول بعد ذلك ، بمجديتهم عن الأماكن التي عملوا بها من قبل ، ثم يتلاشى جاذب الجديد ، ويتعودهم الناس ، فيدخلون في النسيان ، وتظل أحاديثهم تحمل حقيقة واحدة هي أن حياة العامل هي هي في كل مكان... فلم يتحدث عنها إذن ؟

غير انه قد يوجد بعض الاحيان ، من ينقل الى الضاحية اشياء جديدة بالنسبة لها ، وهؤلاء لا يناقشهم أحد فيما ينقلون ، بل يُصغى ، دونما تصديق الى أقوالهم الغريبة التي تثير عند البعض سخطاً اخرس ، وعند البعض الآخر كآبة . ويشعر فريق ثالث بأن هناك املاً غامضاً يقلقهم ، فينصرفون الى الاسراف في الشراب ، ليطردوا هذا الشعور المزعج الذي لا جدوى فيه .

وكان سكان الضاحية اذا ما لاحظوا على دخيل سمة غريبة ، اخذوه طويلاً بالقسوة ، وعاملوه بازدراء غريزي كأنهم انما يخشون ان يحمل الى وجودهم ما يفسد عليه رتبته المتجهم الأليمة ، الهادئة رغم ذلك .

وكانوا ، وقد تعودوا ان تسحقهم قوة ثابتة لا تتغير ، لا يتوقعون اي تحسن في حياتهم ، بل يعتقدون ان كل تغير قد يطرأ على هذه الحياة ، لن يكون الا وسيلة تجعل نيرهم اشد وطأة .

وكان اولئك الذين يتحدثون عن اشياء جديدة ، يرون ان سكان الضاحية يتجنبونهم بصمت ، فيتوارون ، ويعودون الى التشرذم ، واذا ما لبسوا في المعمل ، فإنهم يعيشون في عزلة لا يستطيعون معها أن ينصهروا في كتلة العمال الموحدة .

لقد عاش الرجل في هذا الجو خمسين عاماً ثم قضى نحبه .

-- ٢ --

هكذا كانت حياة صانع الأقفال ميشال فلاسوف ، الرجل القائم الكثر الشعر ذي البسمة الشريرة ، والعينين الحذرتين القابعتين تحت حاجبيه الكثيفين . لقد كان أفضل صانع للأقفال في المعمل ، وجبار الضاحية . وكان ربحه نزرأ لأنه كان فظاً مع رؤسائه ؛ وفي كل أحدٍ كانت له ضحية . وكان الناس جميعاً يكرهونه ويخشونه ، وقد حاول البعض البطش به ، ولكن هذه المحاولات لم تنجح ، فكلما كان فلاسوف يشعر بأنه هدف هجوم ماء يلمنقط حجراً أو خشبة ، أو قطعة حديد ، وينتصب على قائمته ، ينتظر عدوه بصمت .

وكان وجهه المكسو بلحية سوداء من عينيه حتى عنقه ، ويداه اللتان يغطيهما

الشعر ، مزار رعب شامل ، وكان الناس يرهبون ، بصورة خاصة عينية الضعيرتين
النفاذتين اللتين تحترقان الناس كمنقب من قولاد ، فيستشعر من تقع عليه نظراته ،
انه أمام قوة وحشية ، لا يقهرها الخوف ، قوة على أهبة النطش دوغما رحمة .

— تتحى ايتها الجيف :
هكذا كان يقول بلهجة صماء . ومن خلال صوف وجهه الكثيف تلمع أسنانه
الصفراء ، فإذا بخصومه يتراجعون ، جنباء ، وهم يطرونه وابلأ من السباب .
ويصبح بهم ثانية :

— أيتها الجيف .
... وتبرق نظراته شريرة حادة كالحرز ، ثم يشمخ برأسه في تحد ، ويتدهمهم
ويستقرهم :

— حسناً . من منكم يود ان تشكله امه ؟
ولكن احداً لم يكن يود ذلك .

لقد كان تزر الكلام ، وكان تعبيره المفضل : « ايتها الحقيقة » تبعث بها
مدراء العمل والبوليس ، ويستعملها حين يخاطب زوجته .
— ألا ترين ايتها الجيفة ان سراويلي مزقة ؟

... وعندما بلغ ابنه « بول » الرابعة عشرة ، يراق فللاسوف ان يسكبه
من شعره ، ولكن « بول » أمسك بمطرقة ثقيلة وقال بايجاز :

— لا تتسنى .
وتساءل فللاسوف :

— لماذا ؟
وتقدم نحو الفتى الرشيح الالهيف ، كالظلل الكبير حينما يغمر غصناً طورياً ،

ولكن بول هز المطرقة وقال :
— هذا يكفي . ان ادعك تسمى .

ورنا إلية الأب ، ووضع يديه المكسوتين بالشعر وراء ظهره ، وقال ساحراً :
حسناً .

ثم أضاف وهو يتأوه بعمق :
— يا اللجيفة التنتة .

وبعد قليل قال لزوجته :
— لا تطيبي مني دبراهم بعد الآن . إن يول سيعملك .

وتشجعت زوجته فسألته :
— ولماذا ستهدر مالك كله على الشراب !

بهذا أمر لا يعنك ايتها الجيفة ، سأتحذ لنسني خلية صالحة .
ولم يتخذ خلية ، ولكنه منذ ذلك الحين حتى مماته ، ابي طوال عامين

تقريباً ، لم يلق نظرة على ابنه ، ولم يوجه إليه كلمة .

فيلعبا ، وكان يملك كلباً ضخماً الجثة ، كثيف الشعر مثله . وكان هذا الحيوان
يرافقه كل يوم الى العمل ، وينتظره ، في المساء ، عند بابه .

وفي الاحاد ، كان فلاسوف يجوب المقاهي . يسير صامتاً دون ان يفتس
بكلمة ، وانظراته تجرّح المارة كأنه إنما يفتش عن أحد ما . وكان كلبه يتبعه

طولاً النهار ، يخرج من ذلك التلبذ الضخم .
وعندما كان فلاسوف يعود الى المنزل مثلاً ، يجلس الى المائدة ويقدم لكلبه

الطعام في طبقه ، وكان لا يضره أبداً ولا يوكله ، ولكنه كان أيضاً لا يبدله .
وكان إذا ما تهاونت زوجته برفع المائدة في الوقت المناسب ، يتدف الاطباق

الى الارض ، وينضع أمامه زجاجة من الكحول ، ويسند ظهره الى الجدار ، ثم
يعوي بصوت كرهه أصم ، يعوي بأغنية ما ، وفيه واسع مفتوح وعيناه

مغمضتان .
... وتعلق كلمات الأغنية الرعاعية الكثيرة بشاويبه اللذين يتساقط منها

فتات الحبز ، وتطلق اصابعه الغليظة تمشط لحيته .
ويعني ، فتطلق الكلمات متسحجة مستعصية على الفهم ، ويندكر النغم

بالعواء ، عواء الذئاب في الشتاء . ثم يهوي الى جانب المقعد ، أو
ويستمر في العناء ما احتوت زجاجته شراباً ، ثم يهوي الى جانب المقعد ، أو

يلقي برأسه الى الطاولة ، وينام على هذا الوضع ، وينام معه كلبه .. الى ان يتعالى نداء الصافرة .

... وأودى به فتق بعد ان لبث مسودّ الأسارير ، طوال ايام خمسة ، وكان يتقلب على سريره ، مطبق الاجفان ، ويصر بأسنانه ، ويقول لزوجته أحياناً :
- اعطني سماً ... سم الجرازين .

ووصف له الطبيب الكمادات ولكنه ، بالإضافة الى ذلك ، أعلن ان العملية الجراحية ضرورية ، وأن المريض يجب ان يُنقل ، في النهار نفسه ، الى المستشفى .
وصرف فلاسوف بأسنانه :

... - يا للشيطان . سأموت لوحدي أيتها الجيفة .

وعندما انصرف الطبيب ، ارادت زوجته الباكية ان تقنعه بإجراء العملية ، ولكنه قال لها ، وهو يهددها بقبضته :

- سأريك إذا ما شفيت .

... ومات في أحد الأصابع عندما كانت الصافرة تطلق نداءها الى العمل .
وعندما كان مسجى في تابوته ، كان فمه مفتوحاً غير ان حاجبيه كانا مقطعين مستشارين . وشيعته امرأته وابنه وكلبه ، ودانيلو فيسو فشيكوف ، اللص الكبير الذي طرد من العمل ، وبعض البؤساء في الضاحية .

ولم تبكه زوجته كثيراً ، ولم يسفح عليه بول فمعة واحدة . أما اولئك الذين كانوا يميرون بالموكب ، من سكان الضاحية ، فكانوا يتوقفون ويرسمون علامة الصليب ويقولون لجيرانهم :

- يجب ان تكون بيلاجي مسرورة بلا شك ... لأنه مات !

ويرتفع صوت آخر مصححاً :

- انه لم يميت ولكنه انفلت .

... وبعد ان انزل النعش في حفرته ، انكفأ الناس ، ولكن الكلب ظل هناك منظرحاً على الثرى الرطب ، يشم طويلاً ، تراب القبر ، دون ان ينبج .
وبعد ايام قليلة ، صرع الكلب ولا يدري أحد من الذي صرعه .

وفي يوم أحد ، وبعد وفاة أبيه بخمسة عشر يوماً عاد بول فلاسوف الى المنزل ثلثاً ، وولج اول حجرة وهو يترنح ، ثم صاح وهو يضرب الطاولة بقبضته ، كما كان يفعل والده :- الى العشاء .

واقتربت امه فجلست الى جانبه ، واحتضنته ثم جذبت رأسه الى صدرها ، ولكنه ؛ وقد كان يستند يده الى كتفها ، دفعها وصرخ :

- ابتعدي يا اماه ، ابتعدي خيباً .

وخاطبته بصوت حزين ملاطف ، منتصرة على مقاومته :

- أيها الحيوان الصغير .

وغتم بول ، ولسانه العصي يدور بصعوبة :

- اريد ان ادخن ، اعطني غليون أبي .

لقد كانت هذه هي المرة الاولى التي يثمل فيها ، وكانت الكحول قد انهكت جسمه ، ولكنها لم تكن قد أخذت ضميره ، وكان هناك سؤال يضح في رأسه :

- هل انا ثمل ؟ هل انا ثمل ؟

... وأربكته ملاطفات امه ، ومسته الحزن المثل من عينها ، فشرع برغبة في البكاء ، ولكنه تظاهر ، لكي يقهر هذه الرغبة ، بأنه ثمل اكثر مما هو في الواقع .

وظلت هي تداعب شعره المشعث ، المبلبل بالعرق ، وتخطبه برقعة :

- ما كان يجب ان ...

... وأخذته نوبة تقيؤ ، فحملته الى سريره ، بعد سلسلة من التقيؤات العنيفة ، وغطت جبينه الباهت بمنديل مبلل ، فاستعاد نشاطه بعض الشيء ، ولكن كل شيء كان يدور حوله ، وفي محجريه ثقل وفي فمه مرارة وتقزز ؛ وكان يرنو من خلال أجفانه الى وجه امه الواسع ، ويفكر بلا انقطاع :

- أي ما أزال صغيراً على الشرب .. إن الآخرين يشربون فلا يحدث ذلك

اي ازعاج هم .. أما أنا فالشرت بسبب لي التقيؤ .

وتناهي إليه صوت أمه العذب العبد :

— كيف ستمكن من إعالي ، إذا ما بدأت تدمن الشراب ؟

فأغض عينيه وأجاب :

— إن الجميع يشربون .

... وتأوهت بيلاجي ، فهو على حق ، وهي تعلم إن الرجال لا يجتهدون

مكاناً آخر سوى الحانة ، ينشدون فيه المنة ، ومع ذلك فقد أجابته :

— أما أنت فيجب ألا تشرب ؛ لقد شرب إوك كثيراً بالنيابة عنك ؛

وعذبني كثيراً ، واستطاعتك أنت إن ترفقي بأملك .

وأصغى بول الى هذه الكلمات الحزينة الوداعة ، وذكر كيف عاشت امه في

الصمت ، والنسيان ، يعذبها الانتظار الممزق ؛ انتظار الصفعات ، لقد كان في

الفترة الاخيرة لا يمكث في المنزل إلا قليلاً تجنباً للمقاء أبيه ، فكاد لذلك ان ينسى

امه ، والآن وقد أخذ يستعيد وعيه شيئاً فشيئاً ؛ ها هو يحقدق بها بأمعان .

إنها كبيرة ، مقوسة القلعة قليلاً ، وجسمها الذي أنهكه الجسد الطويل

المتواصل ومعاملة أبيه السيئة ، يتحرك دونما ضجة ، يتحرك بانحراف ؛ كأنها

تحين تحطو ، تخشى الاصطدام بشيء ما . وفي وجهها البيضوي الراسع المنتفخ

الذي حفرته التجاعيد تشع عيناها قاتمتان ، حزيتان ؛ تلفها الكراوية ، كيمون

معظم النسوة في الضاحية . وفوق حاجبها الأيمن يلوح ندب عميق الغور ، ويجهل

للرائي ان أنفها الليمي ، أعلى قليلاً من الأخرى ، فهي تبدو لبدأ كأنها تنشر في

الفضاء ادنا كثيبة ؛ وفي شعرها الكثيف الاسود تلوح خصل بيضاء تميز بلونها

عن الاخريات .

ولقد كانت كها تمشي رفة وحزننا واستسلاماً ؛ وكانت عيناها تبسل على خديها ببطء .

— لا تبيكي ، واحطئي إماماً لا شربها امه ؛ فبالفعل بالخشية بول كان

شاكساً سكتيك ببعض المياه المثلج ؛ به مشاربه أيقظه بالليله .

وعندما عادت إليه بالماء وحدثه قد غفا ، فلبثت جامدة امامه لحظة ، وفي

يديها يرتجف الأبريق ، ويفرقع الجليد على حفافه .

ووضعت الأبريق على الطاولة ، وركعت بصمت أمام صور القديسين !

... وهزت زجاج التوافذ صرخات سكرى ؛ وفي الظلمات ، وضباب الليلة

الخريفية تعالي نباح الكوردون . وكان احد المارة يغنى بصوت مرتفع جداً ، وآخر

يحذف بكلمات بذئية ، وكانت تسمع ايضاً اصوات نسوة مستثارة ، نسوة كثيبة

منهيكة . وكانت الحياة في منزل آل فلاسوف الصغير تتابع سيرها أكثر هدوءاً

وسلاماً من ذي قبل ، ومختلفة بعض الشيء عما هي عليه في المنازل الاخرى . وكان

منزلهم هذا يقوم في طرف الشارع الكبير ، قريباً من منحى قصير وعري يؤدي

الى مستنقع ، وكان ثلث المنزل عبارة عن مطبخ وغرفة صغيرة تنام فيها الام ،

وفصلها عن المطبخ حاجز رقيق ؛ أما الباقي فيؤلف غرفة مربعة ذات نافذتين ،

يقوم في زاوية من زواياها سرير بول ، وفي زاوية اخرى مائدة ومقعدان . ولم

يكن في البيت من اثاث سوى بعض الكراسي ، وخزانة فوقها مرآة صغيرة ،

وصندوق للثياب ، وساعة جدار ، وايقونتان في احدى الزوايا .

وقد فعل بول كل ما يوافق مزاج شاب فاشيء ، فاشترى « الكورديون » وقمصاً

منثى الصدر ، ورباط عنق براقاً ، وجزمة وعصاً ، فسأوى بذلك أترابه ؛ وكان

يسمر ويرقص بعض الرقصات التي تعلمها ، ويعود في الأحاد ، بعد ان يكون قد

شرب لفأعريف ؛ وكانت « الفودكا » ذات تأثير سيء قوي عليه ، فإذا شرب ،

شكا في اليوم الثاني صداعاً وحرقة في المعدة ، وشحوباً في الملامح وخموداً .

وسألته امه يومئذ ب صراحة : « لماذا شربت الفودكا ؟ »

— لا تقل لي ، هل هويت جيداً أسلمة الأسماء ؟ والارطرية ؟ فمما كان

مديباً فأحاطها بخمق قاتم ؛ فوجدت ذلك الصغار يعضو مسانداً ربه ، وكان

— لقد تناولت بعض الكافيار الملعون ، وسأذهب غداً لصيد السمك فنزلك

بمجاناً ؛ أوفاني سأشترى بندقيته . فقولتم وحسنا ؛ إننا نرجو له ان

قبحه ، وكان يشتغل باليد ففاجع ، دون ان يغيب عن العمل أو عوقوبة ، وكان كثير

الضمت ، تعبر عيناه الزرقاوان الواسعتان كعيني امه ، عن عدم رضاه .

... ولم يشتر بندقية ، ولم يذهب الى صيد السمك ، ولكنه كان يصدف رويداً رويداً عن الحياة المشتركة التي يحياها الفتيان ، فلا يشهد السهرات الا نادراً وانسى كان يذهب ، في الآحاد ، فإنه كان يعود دون ان يكون قد تناول شيئاً من الشراب ابداً .

وكانت امه التي تراقبه بعين يقظة ، كانت تلاحظ ان وجهه الاممر المسفوح يهزل ، وأن نظرتة تغدو اكثر صرامة ، وشفتيه تحملان تغصن قسوة غريبة . وكان يبدو كمن ملأه غيظ أخرش ، أو كمن تلبسه داء وبيل .

لقد كان رفاقه من قبل يأتون إليه ، أما الآن فقد انقطعوا عن زيارته ، لأنهم لا يجدونه ابداً في البيت ؛ وكانت امه تلاحظ بكثير من الغبطة انه لا يقلد أترابه في المعمل ، ولكن احساساً بنظر مجهول كان يحتاج قلبها ؛ عندما كانت تلمس عناده وتهربه من الانتظام في تيار الحياة العامة .

وكانت تسأله أحياناً :

- إنك لست على مايرام يا صغيري بول .
- فيجيب : بلى ... اني على مايرام .
- وتتأوه : كم انت نحيل .

ويدأ يحمل كتباً ويقراها في الخفاء ثم يخبئها في مكان ما ، وكان أحياناً ينسخ فصلاً بكامله على ورقة ، ثم يخبئها هي أيضاً .

وكانا قليلاً ما يتحدثان ، أو يتقابلان ، كان يشرب شايه في الصباح دون ان ينبس بكلمة ، ثم ينطلق الى عمله . وعند الظهر يعود ، لتناول الغداء ، فيتبادلان على المائدة بعض الكلمات المجردة من المعنى ، ويتوارى هو من جديد حتى المساء .

وإذا ما تصرّم النهار استحم بعناية ، وتناول عشاءه ثم انصرف الى كتبه طويلاً ، فإذا أقبل الأحد ، انطلق منذ الصباح ، كيلا يعود إلا في ساعة متأخرة

من الليل .

وكانت بيلاجي تعرف انه يذهب الى المدينة ، ويتردد على المسرح ولكن احداً لم يعد من المدينة ليخبرها انه رآه . وكان يخيل اليها ان ابنها يغدو على مر الأيام اقل ثرثرة ، ولكنها كانت تلاحظ ، في الوقت نفسه ، انه كان يستعمل بين الفينة والفينة ، ما لا تدري من الفاظ جديدة لا تفهمها ، في حين ان التعابير الفجة القاسية التي تعودتها منه ، قد اخذت تحتفي من لغته .

وظهرت في سلوكه تفاصيل كثيرة استرعت انتباهها ، فلقد أفلح عن التصنع وصار يظهر عناية اشد بنظافة جسمه وثيابه ، واصبحت مشيته اشد اطمئناناً وتجرراً ، ومظهره اكثر بساطة ورقة ، وهذا ما كان يقلق امه .

وكان هناك ايضاً شيء جديد في سلوكه نحوها ، فلقد كان يكنس أحياناً حجرته ، ويرتب سريره ، أيام الآحاد ، ويجتهد ، على وجه العموم ، في ان يخفف من عبء مشاغلها ، ولم يكن في الضاحية كلها من يتصرف مثل هذا التصرف وفي احد الأيام حمل بول معه لوحة تمثل ثلاثة اشخاص يسرون بخفة

وجذل ، ويتحدثون ، وثبتت هذه اللوحة في الجدار وعلق عليها قائلاً :

- هذا هو المسيح الذي بُعث حياً في طريقه الى عمواس .
- وأعجبت اللوحة بيلاجي ، ولكنها اعترضت :
- إنك تبارك المسيح ، ولكنك لا تذهب الى الكنيسة .

... وكان عدد الكتب يتكاثر باطراد ، فوق الرف الذي صنعه رفيق له نجار ، وكذلك كانت حجرته تأخذ شكلاً لطيفاً محبباً ، وكان يخاطب بيلاجي بتعظيم ويسمها « الأم » ، ولكنه كان في بعض الأحيان يفاجئها متردداً :

- لاتقلقي يا أماه ... فسأعود متأخراً .

... ومن خلال هذه الكلمات كانت تستشعر انه ينطوي على شيء قوي جاد يثلج صدرها ، ولكن قلقها كان ينمو ، وكان الوقت الذي يمر لا يفلح في تهدئة هذا القلق لأن الأحساس بأمر غريب مجهول كان يسحق فؤادها . وكان عدم الرضا من ابنها يداخلها أحياناً فتفكر :

« إن الآخرين يعيشون كرجال ، اما هو فيحيا كراهب . انه مسرف في الحدية والاذن وهذا ما لا يتلاءم وسنه . »
وكانت تتساءل : اتراد عاشقا ؟

ولكن الاهتمام بفتاة ما ، يستلزم توفر النقود ، اما هو ، فإنه كان يلقي اليها كل اجره تقريباً .
... وانسلخت على هذا المنوال اسابيع وشهور . بل سنتان من حياة غريبة

صامتة تجمع الخواطر ومشاعر الخوف والقلق . وهي خواطر ومشاعر كانت تنمو بلا انقطاع .
... وانشأت في نفسي صورة واضحة من الفتاة التي كنت أعرفها من قبل .

وفي إحدى الأمسيات اتسحي بول بعد العشاء زاوية ، بعد ان اسدل ستائر النوافذ ، وشرع يقرأ ، والقنديل البترولي معلق في الجدار فوق رأسه .
وخرجت امه من المطبخ بعد ان رتبت الأواني ، واقتربت منه مترددة

الخطى ، فرفع رأسه ، ونظر اليها نظرة متسائلة .
وقالت هي : لا شيء يا بول ... هذه انا ... ثم نأت عنه بانفعال . وتم عن ارتباكها ارتفاع حاجبها ؛ ومكثت في المطبخ زمناً ، وهي جامدة باهامة

مشككة تتشاغل طويلاً بغسل يديها ، ولكنها ارتدت أخيراً نحو ابنتها لقول له بهمس :
- اريد ان أسألك ... ماهذا الذي تقرأه باستمرار ؟

... وألقى بول الكتاب :
- احبسي يا امه ...
... وجلست الى جانبها يتناول ، وتحفرت كأنها تستعد لشيء امره فطعم به

ودون ان يرفع اليها بصره ، أخذ بول يتحدث بصوت منخفض ، وقصير اقسام حديثه بطابع من خشونة :
... وهدأ فضاله عندما كان المعمل لا يزال مؤلفاً من

- اتي اقرأ كتباً ممنوعة . انهم يحرمون قراءتها لأنها تنطق بالحقيقة عن حياتنا كعالم . وهذه الكتب تطبع في الخفاء وإذا عثروا عليها في حوزتنا ، فإنهم يزجوني في السجن ، أجل في السجن ، لأني اريد ان اعرف الحقيقة !
... باهتت الاربع ؟

... وشعرت بضيق في التنفس ، ووجدت على ابنتها عينين شاردين :
لقد بدأ لعينها عربياً متغيراً ، وزن لها ان صوتها قد تغير ، فهو اكثر خفوتاً ، اكثر امتلاءً ، اكثر رنيناً . وكانت أصابعه الخفيفة تمسك شاربيه الناعمين

ونظرة الغربية تنطلق من تحت حاجبيه لتضيح في المهيم .
وداخلها شعور هو مزيج من الخوف والشفقة على ابنتها ، وسألته :
... ولم تفعل ذلك يا بول ؟

فرقع رأسه ، وقذفها بنظرة قاسية وأجاب دون ان يرفع من صوته ،
أجاب بهدوء : اريد ان اعرف الحقيقة .
... وكان صوته خفيضاً ولكنه حازم ، وكانت عيناه تلمعان عبيديتين ...

ووهو ككتبهني راف ابنتها فله وهب نفسه ، الى الاب ، لايسر غامض رهيب له الله كان كل شيء في الحياة بالنسبة لها .
... وحتمياً لا يمكن تجنبه ، ولقد تعودت ان تصيح دون غلظتكبير ، لذلك ، راحت تبكي ، وقبلها فريسة الجزن والغم ،
تبكي تجرد دون ان تجهد الكلمات للتعبير .

... وقال لها بول بصوت خشن :
... قال له ابنتها بملء صوته :
... له ولشيكيا يا امه .

فضيل إليها كأنه إنما يسميها كتابه الوداع :
... وسيد قلبي ليتحيلة هي حياتك لقد بلغت الأربعين من عمرك ، ومع ذلك هل طمئت حقاً ؟ لقد كان أبي يصر بك ، وأنت أدرك الآن أنه كان يبارك على حساب

اضلاك ، من شقاءك ، لبقاء حياته التي بختته دون ان يدري من اين جاءه هذا الشقاء له لقد اضل ثلاثين عاماً ، وبدأ فضاله عندما كان المعمل لا يزال مؤلفاً من

تشعر بفيض من الأحاسيس العذبة يتدفق في صدرها ، وبعدوبة هذه الأحاسيس
المجهولة تبعث الدفء في قلبها .

— ثم .. ماذا تريد ان تفعل ؟

— أعلم ثم أعلم الآخرين . يجب علينا نحن معشر العمال ان ندرس ، ان
نعرف ، ان ندرك لم كانت حياتنا هكذا شديدة القسوة !
واستعدت ان ترى عينيه الزرقاوين القاسيتين الجادتين أبدأ ، نومضان الآن
بكثير من الرقة والعذوبة ، وبدت على شفيتها ابتسامة خفيفة ، ابتسامة رضى ،
في حين ان عبارتها كانت ما تزال ترتعش في تجاعيد وجهها .

لقد كانت موزعة بين شعورين : كانت فخورة بإنها الذي يدرك جيداً
أسباب البؤس في الحياة ، ولكنها كانت لا تستطيع أن تنسى أنه ما فتى صغيراً ،
وأنه لا يتكلم كأترابه ، وأنه قرر أن يخوض المعركة وحده ضد الحياة الرتيبة
التي يحياها الآخرون ، والتي تحياها هي أيضاً ، وكانت تود أن تقول له :
« وماذا تستطيع أن تفعل وحدك يا صغيري ؟ » ولكنها كانت تخشى أن
تفطمه حقه من الاعجاب ، حقه هو الذي بدا لها بغتة حاد الذكاء ، فيه بعض من
غرابية .

ورأى بول البسمة على شفتي امه ، وقرأ الانتباه في ملاحظها والحب في عينيها ،
فأدرك أنه استطاع أن يفهمها حقيقته ، وفجّر الزهو الفتي ، الزهو بقوة حديثه ،
الإيمان في نفسه ، فاندفع ، وقد ملاء الحماس ، يتكلم ساخراً تارة ، مقطب الجبين
تارة أخرى . وكان الحقد يدور في بين الفينة والفينة في صوته ، وكانت أمه ،
حين تسمع مقاطعه العنيفة القاسية تهز رأسها مدعورة وتساله بصوت خفيض :
— أهكذا إذن يا بول ؟

وكان يجيب بصوت حازم : نعم .

لقد كان يحدثها عن اولئك الذين يبتغون خير الشعب ، عن اولئك الذين
يبدرون الحقيقة ، والذين يطاردهم أعداء الحياة من أجل ذلك ، يطاردونهم
كالحيوانات المتوحشة ، ويزجونهم في السجن ، وصاح بحدة :

بناءين .. أما الآن فهو مؤلف من سبعة !

وكانت تصغي اليه برعب ونهم ، وكانت عيناه تبرقان جميلتين صافيتين ،
وكان يقترب من امه ، وهو يسند ظهره الى الطاولة ، حتى كاد يلامس وجهها
الغارق بالدمع . ولأول مرة ، كان يبوح بما وعى ، ويتحدث بكل إيمان الشباب ،
وحرارة التلميذ الفخور بمعرفته للحقيقة ، هذه المعرفة التي يؤمن بها كدين اتد
كان يتحدث عما يمتقده جلياً واضحاً ، ولم تكن غايته ان يتحدث الى امه
فحسب ، بل ان يبرهن أيضاً عن إيمانه .

.. وكان يتوقف بين الفينة والفينة ، إذ تعوزه الكلمات فيرون الى الوجه
الكئيب الذي تلمع فيه عينا طيبتان غاصتان بالدمع ، ملفعتان بالرعب والقلق ،
يرنو إليه فيشفق عليها ، على امه ، ويمضي ليتحدث عنها هذه المرة ، عن حياتها :
— أية هنا أت عرفتها .. ؟ أستطيع ان تحدثني عن شيء يهيج في حياتك ؟
.. وكانت تصغي ، وتهز رأسها بأسى ، وتعاني احساساً بشيء جديد لم تعرفه
من قبل ، احساساً هو مزيج من الغضب والغبطة ، وكان هذا الإحساس يداعب
بعذوبة قلبها المتوجع .

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها حديثاً كهذا عن نفسها ، عن
حياتها ، وكانت تلك الكلمات التي سمعتها توقظ فيها تخواطر مبهمة طواها
الحذر منذ أمد بعيد ، وتعيد بلطف ، الحياة الى إحساسها المنطفيء بالحرمان
المظلم ، الحرمان من الحياة . وتبعث من جديد خواطر شبيها البعيد وانطباعاته .
لقد كانت تستعيد قصة طفولتها مع أترابها . وتتحدث طويلاً عن كل شيء .
ولكنها كانت ، كالأخريات ، لا تعرف إلا التشكي ، ولم يكن احد ليشرح لها
لم كانت الحياة شديدة القسوة ، شديدة العسر .

وهو ذا ابنها القابع هناك ، عيس بكل ما تقوله عيناه وملاحظه وكلماته ، عيس
بذلك كله قلبها . ويملاً هذا القلب زهواً به ، هو الذي قهم جيداً حياتها ، وحديثها
عن آلامها ورثى لها كل ذلك . ما كان لأحد أن يرثي للأمهات !

وكانت تعلم ان ما قاله بول عن حياة النساء هو الحقيقة ، الحقيقة المرة . وكانت

— لقد رأيت رجالاً كهؤلاء .. وانهم لأفضل من في الدنيا .
وأثار « هؤلاء الرجال » رعب أمه وودت أن تسأله ثانية :
— أهكذا إذن يا بول ؟

ولكنها لم تفعل ، بل راحت تصغي ، مبهورة ، إلى أحاديث بول عن هؤلاء الرجال الذين لا تستطيع فهمهم ، والذين لقيتوا فيها اسلوباً خظراً في القول والتفكير .

وقالت له : لقد أوشك النجر أن يبرغ ، فهلاً ذمبت لتنام ؟
فأجاب : سأذهب حالاً .

ومال إليها يسألها : هل فهمتني الآن ؟
— هل فهمتني الآن ؟ فأضفت دموعها من جديد . وأضافت وهي تشفق :
— إنك تلقي بنفسك إلى التهلكة .

وتنهض ، وخطا يضع خطوات في العرفسة :
— حسناً . لقد عرفت ماذا أفعل ، وأي طريق أسلك ، لقد بحثت لك بكل شيء ، واني لأتوسل إليك يا اماء ، إذا كنت تحبيني حقاً ، ألا تحولي بيدي

وبين ذلك :
— وضرت : يا عزيزي .

ثم تغمضت : لبتة لم يبع لي شيء . فأخذت يدها ، وشدها عليها بقوة بين يديه .
ومستها هذه الكلمة التي لفظها بكثير من الحرارة « يا اماء » ، وهذا الضغط

الغريب على يديها وهو ما لم تألفه من قبل ، فقالت بصوت لاهث :
— لن أفضل شيئاً لأحول بينك وبين ما تبغي ، ولكنني أطلب إليك فقط أن تكون حذراً ، أن تكون حذراً .

و دون أن تدري هم تحذره أضافت بأسى :
— إنك تزدد تحولاً يوماً عن يوم .

ولفت جسمه القوي المتين بنظرة حادة مدله ، وقالت له بصوت منخفض ،
وعلى عجل :

— ليحفظك الله يا بني . افعل ما تشاء فلن امنعك أبداً ، ولن أطلب منك إلا أمراً واحداً فحسب ، هو أن تكون حذراً حين تخاطب الناس . يجب أن تتجنبهم . انهم يكرهون بعضهم بعضاً . انهم طماعون حسودون ، يسودهم أن يفتروا الأذى ، واذا ما شرعت في اطلاعهم على حقائقهم ، في الحكم عليهم ، فإنهم سيكرهونك ، سيقضون عليك .

وابتسم بول الذي كان يصغي إلى هذه الكلمات المرة ، وهو منتصب بالقرب من الباب :

— أجل إن الناس أشرار ، ولكنهم أصبحوا ، مذ تعلمت أن هناك حقيقة على الارض ، خيراً مما كانوا وأفضل .
وابتسم ثانية ثم أردف :

— برأنا نفسي لا أدري كيف حصل ذلك . لقد كنت في طفولتي اخشى كل شيء في العالم ، وعندما كبرت هيئت لأن أكره البعض لجنهم ، ولأن أكره الآخرين هكذا دون ان أعرف لذلك سبباً ، أما الآن ، فانهم مختلفون بالنسبة لي ، وائي لأشفق عليهم كما اعتقد ، انا لا أدري كيف ، ولكن قلبي يتفطر عندما أدرك انهم ليسوا هم المسؤولين عن خساستهم !

وصمت لحظة ، كأنه إنما يصغي لشيء في داخله ، ثم تابع وهو مطرق :
— هذا ما تهمس به الحقيقة .

وروت إليه بعينها وتغمضت :
— لشدة ما تغيرت ، ولشدة ما تخيفني ... آه يا ربي .

... وعندما أوى إلى فراشه وتام ، نهضت دونما جلبة ، ودنت من سريره بهدوء ، وكان بول مستلقياً على ظهره ، ووجهه الشاحب الصارم يلقي بظله على الوسادة البيضاء ، ويدها تتعقدان فوق صدره ... وكانت هي إلى جانب السرير حافية القدمين ، تتحرك شفتها بصمت ، وتندحر من عينيها ، ببطء ، دموع كبيرة عكرة تتساقط دموعاً بعد دموعاً .

... واستمرت حياتها صامتة ، واستمر اقربيين بعيدين ؛ حتى إذا كان يوم عيد في وسط الاسبوع ، قال بول لأمه وهو بهم بالذهاب :
- سيكون عندي ، نهار السبت ، ضيوف من المدينة ؟
وسألته امه : من المدينة ؟
ثم انخرطت في البكاء .
وصاح بها بول محتثاً : لم تيكين يا اماه ؟
فتأوهت وهي تسمح دمعها بمثررها : لا أدري لماذا ؟
- هل أنت خائفة ؟
فاعترفت : أجل ... اني خائفة .
فقال اليها ، وقال لها بصوت غاضب كما لو كان يخاطب طفلاً :
- هذا الخوف هو الذي يفجرتنا جميعاً . أما اولئك الذين يحكوننا فإنهم يستغلون هذا الخوف ، ويزيدوننا وهبة .
فناحت امه : لا تغضب . أتريدني ألا أخاف وقد عشت حياتي كلها خائفة ؟
فأجابها بصوت خفيض ناعم :
- اغفري لي ، لا أستطيع أن أفعل غير هذا .
ثم خرج .
وظلت مضطربة طوال ايام ثلاثة ، وكان قلبها يتوقف عن الوجيب كلما تذكرت أن اولئك الناس سيأتون الى منزلها .. إنهم غرباء لا بد أن يكونوا مخيفين ، ثم إنهم اولئك الذين اوضحوا لابنها الطريق الذي يسلكه الآن .
وفي مساء السبت عاد بول من المعمل ، فاستحم ، وأبدل ملابسه ، ثم غادر المنزل وهو يقول لأمه دون أن يرفع إليها بصره :
- قولي لهم إذا جاءوا ، اني سأعود في الحال ؛ وأرجوك ألا تخافني .
... وتهاكت على المقعد خائرة القوى ، فقطب بول حاجبيه وسأها :

- ربما كنت تودين الخروج !

فأحنقها ذلك ، وهزت رأسها بالنفي :
- لا ، وعلام أخرج ؟

... وكان ذلك في نهاية تشرين الثاني ، وكان ثلج خفيف ناعم قد تساقط اثناء النهار على الأرض المتجمدة ، وانها لتسمعه الآن يفرقع تحت أقدام بول الذي مضى ، وفي زجاج النافذة كانت تزدحم الظلمات الكثيفة البغيضة ، تزدحم دون حراك في الكوى ، في حين ظلت هي جالسة تسند مرفقيها الى المقعد ، وتتنظر وبصرها مستمر على الباب .

وكانت تتراءى لها في العتمة كائنات شريرة ، غريبة الازياء ، تتوافد نحو المنزل من كل صوب ، وكانت هذه الكائنات تمشي بخطى ذنبية مقوسة الظهور ، تتلفت في كل اتجاه ؛ وهوذا الآن شخص منا يطوف بالبيت ، ويتحسس الجدار بيديه .

وتعالى صغير شق طريقه في الصمت كالخط الدقيق ، حزينا منغمماً ، وناه متأملاً في فراغ الظلمات ينشد شيئاً ما ، ويدنو ، ثم غار فجأة تحت النافذة ، كأنه إنما تخار في خشب الحاجز .

وسمعت وقع خطوات تتساحب في الداخل ، فارتعشت ، ونهضت تمد عينها الجاحظتين .

وشرع الباب وظهر أولاً رأس يعتمر قبعة واسعة من القطيفة ثم انسلت جبطم قامة فارعة مخنية ما لبثت أن انتصبت ورفعت ، على مهل ، ذراعها الأيمن ، وتنفس الداخل الصعداء بصوت صادرٍ من اعماق الصدر وحيثاً :
- طيبم مساءً .

فأحنخت الأم دون أن تنبس بينت شفة .
- أليس بول هنا ؟

... وخلع الرجل ببطم سترته المصنوعة من الفرو ، ورفع رجله ، وراح ينكت بقبعته ، ما علق على جذائه من ثلج ، ثم كرر نفس الحركة ونفض الثلج

عن حذائه الآخر ؛ والقى بالقبعة في احدى الزوايا ، ودخل الحجره مترخماً على ساقيه الطويلتين .

ودنا من كرسي فتفحصها كما لو كان يتأكد من متانتها ، ثم جلس وتشاءب مغطياً فمه بيده .

وكان رأسه كامل الاستدارة ، نظيفاً من الشعر ، وكان حليق الوجه يحمل شاربين طويلين متهديي الاطراف .

وتفحص الحجره بعينه الواسعتين الجاحظتين كعيني ثمل ، ووضع احدى ساقيه فوق الاخرى ، وسأل وهو يهدد كرسيه :

— وكوخك ، أهو ملك لك أم أنك تشغلينه بالايحار ؟

وأجابته بيلاجي التي كانت تجلس قبالته :

— إننا نشغله بالايحار .

فقال : إنه ليس فحماً .

وقالت بفتور : سيعود بول بعد قليل ، فانتظره .

فأجاب الرجل الطويل بهدوء :

— وهذا ما أفعله .

وأعاد هدوءه وصوته العذب وبساطة ملامحه ، الشجاعة الى نفسها ، وكان هو ينظر اليها بصراحة ووجه عطوف ، وكان شعاع من المرح يتراقص في عينيه الشفافتين ، وكان في هيكله المقرن المحدودب ، بساقيه الطويلتين ، شيء يثير البسمة ويحبيه الى القلب ، وكان يرتدي قميصاً أزرق ، وبنطالوناً اسود أدخلت اطرافه في الحذاء .

وودت الأم أن تسأله من يكون ؟ ومن أين أقبل ؟ وما اذا كان يعرف ابنها منذ امد بعيد ، ولكنه تملل فجأة ، وبأدورها هو بالسؤال :

— ومنذا الذي ثقب جبهتك هكذا ايتها الأم الصغيرة ؟

وكانت لهجته لا كلفة فيها ، وكانت في عينيه بسمة طيبة صافية ، ولكن السؤال أحنقها ، فزمت شفتيها ، وبادهته بعد لحظة من الصمت ، وبتهذيب بارد :

— وماذا يعنيك امر ذلك ايها السيد العزيز ؟

فاستدار نحوها بكل كيانه :

— لا تخفي ، فلقد سألتك هذا السؤال لان أمي بالتيني كانت هي أيضاً تحمل في جبهتها ندباً كالذي تحملينه ، ولقد احده لها قرينها الذي كان اسكافياً إذضربها بأحد القوالب ، لقد كانت هي غسالة ، وعندما تبنتني كان ذلك السكير قد عثر عليها لسوء حظها ، في مكان لا أدريه ، وكان يضربها ولن اقول لك غير هذا ، فقد كان يتولاني خوف منه كخوفي من الشياطين .

وشعرت الأم ان هذه الصراخه قد جردتها من سلاحها ، وفكرت بأن ما أظهرته من طبع سيء تجاه هذا الرجل الشاذ ، سيحتمق بول ، فابتسمت ابتسامة الغشبية :

— أنا لم أغضب ، ولكنك فاجأتني بالسؤال : إن زوجي ، تعمد الله برحمته ، هو الذي قدم لي هذه « الهدية » ... ثم ألسنت انت تقريباً ؟

... وارتعشت ساقاه الطويلتان ، وتألقت وجهه ببسمة عريضة جداً بحيث قدالت معها اذناه حتى عنقه ثم قال يحيد :

— كلا ، لست تقريباً حتى الآن !

فقال ، وقد ادركت مغزى مزاحه :

— ولكن لهجتك ، كما يقال ، ليست لهجة روسي .

فصاح الضيف بمرح ، وهو يهز رأسه وقد ادرك نكتتها :

— بل احسن من لهجة روسي . إنني « بيوروسي » (١) من مدينة « كاينيف » .

— وهل انت هنا منذ زمن طويل ؟

فقال وهو يمسد شاربيه :

— لقد حللت في المدينة منذ غام تقريباً ، ومضى حتى الآن شهر على مجيئي

الى العمل . لقد التقيت في العمل برجال اخبار ، ابنك والآخرين ، واتي اود ان استقر هنا .

(١) من سكان روسيا البيضاء

حوائر اعجابها ، واحسث برغبة في ان تشكره للكلمة الطيبة التي اثنى بها على ولدها :

- أود ان تتناول قليلاً من الشاي ؟

فأجاب وهو يهز كتفيه :

- ولكن أتريدني ان اكون المدعو الوحيد ؟ عندما يجتمع الشمل تقومين بواجبات الضيافة !

وعاودها الخوف فهيمت بجرارة :

« شريطة ان يكونوا جميعهم مثله »

وسمع من جديد وقع اقدام في الرواق ، وفتح الباب بعنف ، فنهضت الأم ، وادهمشها كثيراً ان ترى ان القادم لم يكن سوى فتاة حديثة السن ، ذات وجه قروي بسيط ، وضافئر كثيفة من شعر متألق :

- احسب اني لست متأخرة ؟

فأجاب البيوروسي الذي كان ما يزال في الحجره :

- كلا .. وهل أتيت مشياً ؟

- اجل ... وهل انت والدة بول ؟ طاب مساؤك ... اني ادعى ناتاشا .

- واسم ابيك ؟

- فاسيليفنا . وانت ؟

- بيلاجي نيوفنا .

- ها نحن إذن قد تعارفنا .

وأجابت بيلاجي بزفرة خفيفة :

- اجل .

ثم راحت تتفحص الفتاة باسمة .

... وساعد البيوروسي الفتاة على خلع معطفها :

- هل الطقس بارد ؟

- نعم ... إنه بارد جداً في الحقول .. والرييح تصفر ...

... وكان صوت الفتاة صافياً مرناناً ، وفيها صغيراً مكتنزاً ، وجسمها لدناً

ملتفاً ، وبعد ان خلعت معطفها ، راحت تفرك بشدة وجنتيها القرمزيتين بيديها

الصغيرتين اللتين احمرتا من البرد ، ثم ولجت الغرفة بسرعة ، بعد ان نفضت على

العتبة اعقاب حذائها .

ونمرت يحاطر الأم هذه الفكرة :

- لعلها لا تملك حزمة .

وقالت الفتاة وهي ترتجف ، وتمط كلماتها :

- اجل .. اني متجمدة ... يا آلمي .

وقالت الأم بجرارة وهي تتوجه نحو المطبخ :

- ساعد لك الشاي بسرعة ، وستشعرين بالدفء .

... وخيل اليها انها تعرف الفتاة من زمن بعيد ، وانها تحبها كأم طيبة رؤوم ،

وراحت وهي تبتسم ، تصفي الى الحديث الذي يدور في الحجره .

- إنك لا تبدو متشرحاً يا ناكودكا .

ويجب البيوروسي بصوت منخفض :

- وهو كذلك . ان لهذه الأرملة عينين طيبتين ، واعتقد ان عيني أمي ربما

كانتا شبيهتين بها . وانت تعلمين اني كثير التفكير بأمي ، ويخيل اليّ دوماً انها

ملا تزال حية .

- اتقول انها ماتت ؟

- كلا... هذه أمي بالتبني... وانا اتحدث عن امي الحقيقية . اني اتصورها

تلسول في ناحية ما من « كييف » ، وتشرب الفودكا ، وعندما تشعل ، يشم

رجال الشرطة وجيها .

وقالت الأم في نفسها : « يا للسكين » ثم تأوهت .

.. واخذت ناتاشا تتكلم بسرعة وحرارة ، ولكن بصوت خفيض ، ثم رن

من جديد صوت البيوروسي .

— أنت ما زلت غرةً يارقيقة . انك لم تتعودي شطف العيش . ان الاتيان
يطفل الى الدنيا أمرٌ عسير ، وتربيته تربية صالحة أمر أشد عسراً .
وقالت الأم لنفسها : أرأيت ؟

وودت أن تتوجه بكلمة لطيفة معزية الى السيوروسي ، ولكن الباب فتح
بيطء ودخل نيقولا فيسوشيكوف ، ابن ذلك اللص المعجوز ، لص «دانيلو» .
ان الضاحية كلها تعتبره كذب . إنه ابدأ مقطب الجبين ، يعيش في عزلة عن
الناس ، وهو دائماً عرضة لسخريتهم بسبب خلقه النفور .
وسألته بيلاجي وقد اخذتها الدهشة :

— ماذا تريد يا نيقولا ؟

فمسح براحته الواسعة وجهه المجدور النائيء الوجنتين ، ودون ان يلقي تحية
المساء سألها بصوت خفيض :

— هل بول هنا ؟

— لا .

... وألقى نظرة على الحجرة ثم دخل .

— طيب مساءً ايها الرفاق .

ومست الأم بحقد : «وهو ايضاً» ؟ وادهمها ان ترى ناناها تمد اليه يدها
بوجه طلق ودود .

... ثم اقبل شابان يافعان يكادان يكونان غلامين ، وعرفت بيلاجي احدهما .
إنه «تيو» حفيد عامل في المعمل يدعى «سيروف» ، وكان ذا وجه مقرن ،
وجبهة عالية وشعر مضفور . أما الثاني فكانت لا تعرفه ، وهو ذو شعر أملس
ومظهر متواضع ، وليس في شكله — هو الآخر — ما يبعث على الخوف .
... وأخيراً اقبل بول يصحبه رفيقان تعرفهما ، انهما من عمال المعمل .
وسألها ابنها بلطف :

— هل اعددت الشاي ؟ شكراً .

وسألته ، وهي لا تعرف كيف تعبر له عن شعورها بالتقدير الذي تحسه في لاوعياها :

— اينبغي استحضار بعض المشروب ؟

فأجابها بول وهو يتسم بطيبة .

— كلا ... لا لزوم لذلك .

وراودها خاطرٌ بأن ابنها قد بالغ كثيراً في تصوير خطر هذا الاجتماع ،

اليسخر منها ، فسألته بصوت هامس .

— أهؤلاء هم الناس الخطرون ؟

فأجاب وهو يلج الغرفة :

— انهم هم بالضبط .

فقالت بغبطة : حسناً ..

ولكنها غفمت في سرها :

— انه ما زال طفلاً ...

— ٦ —

كان الماء يغلي في ابريق الشاي ، فحملته الأم الى الغرفة ، وتحلق الضيوف
حول الطاولة ... أما «ناناشا» فظلت ، قابضة ، وفي يدها كتاب تطلبه ، تحت

المصباح ، في احدى الزوايا .

— لكي ندرك لم يعيش الناس حياةً سيئة جداً ..

فقاطعها البيوروسي :

— ولكي ندرك لم يكونون هم انفسهم اشراراً ...

— يجب أن نعرف كيف بدأوا حياتهم .

ومست الأم وهي تهيب الشاي :

— اسمعوا يا ابنائي اسمعوا ...

وصمت الجميع وسألها بول مقطب الحاجب :

— ماذا قلت يا اماء ؟

— أنا ؟

— ٢٩ —

— ٢٨ —

ولكنها ، وقد رأت عيونهم جميعاً مركزة عليها ، اجابت بارتباك :
- لقد قلت ما قلته عفواً ، قلته هكذا لنفسى .

وضحكت نانا ، وابتسم بول ، أما البيوروسي فقال :
- شكراً على الشاي أيتها الأم الصغيرة .

وردت :

- أتشكرني ولم تتذوقه بعد ؟

ثم أضافت ، وهي تحديق بابنها :

- لعل وجودي بينكم يزعجكم .

وأجابتها نانا :

- وكيف تزعجين ضيوفك وانت ربة البيت ؟

ثم صاحت بلهجة طفولية صارعة ؟

- اعطني الشاي بسرعة يا بيلاجي الطيبة ، إني ارتجف ، ورجلاي متجمدان .

وردت الأم : حالاً ، حالاً .

وشربت نانا شاي فنجانها ، وتهدت بصوت مسموع ، وقذفت ضفيريها الى ما وراء ظهرها ، واخذت تقرأ في كتاب مصور أصفر الجلد .

... وراحت الأم ، وهي تحاول الا تحدث بفناجينها أية جلبة ، راحت

تسكب الشاي ، وتصغي الى صوت الفتاة الايقاعي الصافي النبرة ، هذا الصوت الذي كان يواكب الأغنية العذبة ، أعنية إربيق الشاي .

... وكالثوب الرائع انبسطت أمام عينيها قصة اولئك البدائين المتوحشين

الذين كانوا يعيشون في الكهوف ، ويصطادون الحيوانات الضارية بالحجارة .

لقد كانت القصة ممتعة ، وكانت بيلاجي ، بين الفينة والفينة ، تلقي على ابنها

نظرة متسائلة ، وتود أن تسأله عما هو محرم في هذه القصة ؛ ولكنها لم تلبث أن

تعبت من متابعة السرد ، فراحت تتفحص ضيوفها :

لقد كان بول يجلس الى جانب نانا ، وكان هو اوسمهم جميعاً ؛ وكانت

الفتاة وهي منكبة على كتابها ، ترد بين اللحظة واللحظة ، شعرها الذي ينهمر على جبينها .

لقد كانت تهز رأسها ، وتترك كتابها قليلاً ، وتخفض من صوتها لتدلي ببعض

الملاحظات الشخصية ، في حين كان بصرها ينزلق بمحبة ، على وجوه سامعيها .

وكان البيوروسي يستند بصدرة العريض الى زاوية الطاولة ، ويلقي نظرة حواء

على شاريه ، محاولاً أن يرى أطرافها العصية . وكان فيسو شيكوف جالساً على

كرسيه ، جامداً كالمثال ، ويداه على ركبتيه ، ووجهه المجدور ، العطل من

الحاجين ، يبدو بشفتيه الرقيقتين جامداً كالقناع ؛ وكانت عيناه الضيقتان ،

تتركزان على ملامحه التي يعكسها النحاس المتألق ، فيبدو كأنه خامد الأنفاس .

وكان «تيو» الصغير يصغي الى القراءة ، وهو يجرك شفتيه بصمت كأنه

يستعيد الكلمات ، في حين كان رفيقه يبسم بتفكير ، محدودب الظهر ، ويسند

مرفقيه الى ركبتيه ، ويحضن خده بإظن كفتيه .

وكان احد الشابين اللذين رافقا بول اشقر الشعر ، اجعده ، ذا عينين

خضراوين مرحتين ، وكان يريد بلا شك أن يقول شيئاً لأنه كان يتملبل بصبر

نافذ . أما الآخر ، ذو الشعر الأشقر القصير ، فقد كان يمر يده على رأسه المائل

نحو الارض ، ولا يرى من وجهه شيء . وكان الجو في الحجرة على ما يرام ،

وكانت الأم تستشعر ارتياحاً خاصاً تجمل سببه حتى الآن ، وعندما عادت نانا

إلى القراءة ، مزهوة ، كانت هي تستعيد أمسيات شبابها الصاخبة ، والأحاديث

الفجة ، أحاديث الفتيان الذين كانت رائحة الحمرة تتضوع من انفاسهم ؛ وتتركز

مزاحهم الوقح الماجن ؛ وهصر قلبها ، وهي تستعيد هذه الذكريات ، احساساً

بالشفقة ، الشفقة على نفسها .

... وانبعثت في خاطرها ذكرى خطبتها لزوجها الراحل : لقد امسك بها

في احدى الامسيات ، في ظلام المدخل ، وحشرها بالجدار وهو يميل عليها بكل

ثقله ، وسألها بصوت محنق اصم :

- هل تريدن الزواج مني ؟

وشعرت بأنها اهتت ، وآلمته وهي تعرك صدره ، فنشق مخاطه ، واطلق
في وجهها انفاسه الحارة الرطبة ، فيما ظلت هي تحاول ان تفلت من بين يديه ، ان
تهرب منه . وزيجر :

— الى اين تذهين ؟ اجيبي .

.. ولم تجب ؛ فهي جريحة الكرامة حتى الاعماق ، يكاد الخجل يخنقها .

وفتح باب المشى فجأة ، فأفلتها ببطء وقال :

— سوف ابعث نهار الاحد بن يطلب لي يدك !

... ولم يخلف وعده .

وأغمضت بيلاجي عينيها ، وارسلت زفرة عميقة .

وبقعة ، دوى صوت فيسو شيكوف الحائق :

— أنا لست بحاجة لان اعرف كيف كان الناس يعيشون من قبل ، ولكنني

بحاجة الى أن اعرف كيف ينبغي أن يعيشوا اليوم .

فصاح الفتى الاحمر الشعر وهو يثب واقفاً :

— أجل هذا ما ينبغي ان نعرفه .

ورد تيو :

— انا لا اوافقكما على ذلك .

واحتدم النقاش ، وكانت صرخاتهم تتدفق كألسنه اللهب ، ولم تكن الأم

لتدرك لم يتصايحون ، وكان الانفعال يضرع وجوههم جميعاً ، ولكن احداً

منهم ، لم يتلفظ بما تعودت سماعه من خشن الكلام .

ومرت بخاطرهما هذه الفكرة :

«لعل وجود الفتاة بينهم هو الذي يهذب الفاظهم»

ووجدت لذة في تأمل وجه ناتاشا الصارم ، ناتاشا التي كانت تراقبهم بيقظة كما

تراقب الأم اطفالها .

وصاحت بهم الفتاة فجأة :

— اصغوا الي ايها الرفاق .

فصمتوا جميعاً ، واستدارت نحوها عيونهم .

— إن اولئك الذين يقولون بأنه ينبغي لنا ان نعرف كل شيء هم المصيدون .

إن نور العقل يجب ان يهديننا نحن ايضاً ، واذا كنا نود ان نمد بالنور اولئك الذين

يعتقون في الظلمات ، فيجب ان يكون باستطاعتنا الرد بشرف وامانة على كل

الاسئلة . يجب علينا ان نعرف الحقيقة كلها ، والبهتان كله .

وكان البيوروسي يصغي ، ويهز رأسه على إهتاج كلماتها ، أما فيسو شيكوف

والفتى الاحمر الشعر ، والعامل الذي جاء مع بول ، فقد كانوا يشكلون زمرة

متميزة . وكان ذلك لا يروق للأم ، دون ان تدري لماذا .

وعندما انتهت ناتاشا كلامها نهض بول ، وسأل يهدوء :

— هل ان ما نبغيه هو أن نأكل حتى التخممة ؟

ورد بنفسه على هذا السؤال ، وهو يحدق بثبات ، الى زملائه الثلاثة :

— كلا .. علينا ان نبرهن لأولئك الذين يسكون بأعناقنا ويسملون ابصارنا

اننا نرى كل شيء ، واننا لسنا بلهاء ولا بدائيين فطريين ، وان ما ننشده ليس

هو أن نأكل فحسب ، بل أن نعيش ككائنات جديرة بالحياة . يجب ان نبرهن

لأعدائنا ان حياة الارهاق التي يفرضونها علينا ، لا تحول هون ان نكون في

مستواهم ذكاء ، بل ، وفوق مستواهم .

... وكانت الأم تصغي اليه وترتمش مزهوة اذ تسمعه يحسن الكلام الى

هذا الحد .

وقال البيوروسي :

— في الناس اكثر من مشخم ، ولكن ليس فيها شرفاء . وعلينا ان نقيم عبر

المستنقع الآسن ، مستنقع الحياة ، ممرأ يقود خطانا نحو عالم جديد من الطيبة

الاخوية . هذه هي مهمتنا ايها الرفاق .

وردد فيسو شيكوف يهدوء :

— عندما تحين ساعة المعركة ، لا يبقى هناك من وقت لتنظيف الاظافر .

.. وكان اكثر من نصف الليل قد تصرم ، عندهما افترقوا ، وكان اول

المنصرفين فيسو شيكوف والفتى الاحمر الشعر ، ولم يعجب ذلك ايضاً الام ،
فغمغمت في سرها مخنقة ، وهي ترد على تحيتهم :

— انظري كم هم متمجلون !

وسألت ناناشا :

— هل ترافقي يا ناكودكا ؟

فأجاب البيوروسي : هذا اكيد ،

وفيا كانت ناناشا ترتدي معطفها في المطبخ قالت لها الأم :

— إن جواربك شفافة لا تلائم طقساً كهذا الطقس ، وسأصنع لك ، اذا

واقفت ، جورباً من الصوف .

فأجابت ناناشا ضاحكة :

— شكراً يا بيلاجي . إن جوارب الصوف خشنة تحز ساقى .

— ولكني سأصنع لك زوجاً ناعماً لا يحز ساقيك .

فتأملتها ناناشا بعين غامزة قليلاً ، واريكت هذه النظرة الثابتة الأم ،

وأردفت بصوت خفيض :

— اغفري لي بلاهتي ، فلقد قلت ما قلته عن طيبة قلب .

وردت عليها ناناشا ، برقة ، وهي تشد يدها :

— لك انت طيبة .

وقال لها البيوروسي وهو ينظر اليها نظرة صريحة :

— طابت ليلتك أيتها الأم الصغيرة .

واغنى ليخرج في اعقاب ناناشا .

ورنت الأم الى ابنها الذي كان واقفاً على عتبة الحجره يبسم وسألته مضطربة :

— ما الذي يضحكك ؟

— اضحك لانني فرح .

فقالت بعصبية :

— اني عجزت بلها ، هذا اكيد ، ولكنني ، في الوقت نفسه ادرك ما هو حسن .

فرد عليها :

— إنك على حق ، وعليك ان تنامي فلقد حان وقت رقادك .

— سأذهب الى فراشي حالاً .

.. ودارت حول الطاولة تقوم بتنظيفها راضية ، ومع ذلك ففسد كانت

ملاحظتها تم بعض الشيء عن القلق الحلو الذي كانت تستشعره . لقد كانت سعيدة ،

لأن الأمور قد سارت يهدوء ، وعلى احسن ما يكون الحال .

— لقد كان رأيك مصيباً يا صغيري بول . ان البيوروسي لطيف جداً ،

والفتاة ، يا لها من فتاة ذكية .. فمن تراها تكون ؟

وأجاب بول بإيجاز وهو يندرع ارض الغرفة بخطاه :

— انها مدرسة .

— لذلك فهي فقيرة ، ورويدة الثياب جداً . انها ستصاب بالبرد . واهلها ؟

أين هم اهلها ؟

— انهم في موسكو .

وتوقف بول أمامها وقال لها بصوت وقور :

— اسمعي .. إن أباها ثري يبيع الحديد ، ويملك بيوتاً كثيرة ، ولقد طردها

لأنها اختارت لنفسها هذا الطريق . لقد نشأت نشأة مرفهة ، وكان ذوها جميعاً

يدلونها .. اما الآن فهي با ترين . انها ستمشي ، على قدميها ، وفي ظلام الليل

ستمشي وحيدة ، أكثر من سبعة كيلومترات .

وأذهلت هذه التفاصيل بيلاجي ، فوقفت في وسط الحجره تحديق بولدها

صامتة ، وقد انشغل حاجباها من الدهشة :

— هل هي ذاهبة الى المدينة ؟

— نعم .

— آه .. ألا يساورها الخوف ؟

وقال بول مبتسماً :

— كلا . إنها لا تخاف .

— ولكن لم ذهب؟ لقد كان بإمكانها ان تقضي الليل هنا ، كان بإمكانها ان تنام في سريري .

— ليس ذلك يسيراً ، فلو بقيت لرأها الناس في الغد وهي تخرج من هنا . وهذا ما نتحاشاه .

وألقت الام بصرها على النافذة ، بسووم ، وارذفت برقة :
— لا أفهم يا بول لم كان ذلك خطراً ومحرمًا ، فانا لا أرى فيه اي ضرر ..
أليس كذلك؟

ولم تكن متيقنة ؛ بل كانت تريد من ابنتها تأكيداً ، فحدق في عينيها وقال بهدوء :

— أجل . ليس في ذلك اي ضرر ، ومع ذلك ، فالسجن ينتظرنا جميعاً ، ويجب ان تدركي هذا جيداً .

وأخذت يداها ترتعشان وقالت بصوت منسحق :

— ولكن قد يساعدكم الله ، فيغيّر الحال .

ورد عليها بحنو :

— كلا ، فانا لا اريد ان اخدعك . إننا لن ننجو من السجن .

وابتسمت :

— إنك مجهد فهباً الى سريرك . طابت ليلتك .

وعندما أصبحت وجدها ، اقتربت من النافذة ، وتسمرت هناك تنو الى الشارع :

لقد كان الطقس في الخارج بارداً ، وكان الظلام مسيطراً ، وكانت الرياح ، وهي تلهو ، تكنس الثلج عن سطوح المنازل الصغيرة الهاجعة ، وتلطم الجدران مدمدمة ؛ ثم تهوي الى الارض ، وتطارده ، على امتداد الشارع ، السحب البيضاء المتكونة من تنف الثلج المتناثر .

وغمغت بهدوء :

يا يسوع ارحمنا .

... وأحست بالدموع تتجمع في عينيها ؛ ورف في داخلها البؤس المنتظر الذي تحدثها عنه ابنتها بكثير من الوضوح والتأكيد ، رف ، كفراشة ليل عمياء مهبطة الجناح .

وانبسط امام عينيها سهل عسار تغمره الثلوج ، وكانت الرياح تهب باردة هوجاء بيضاء ، يواكبها صفير خفيف . وفي وسط السهل ، كان يعدو وحيداً متعثراً ، شبح صغير قاتم ؛ تلتف الرياح حول ساقيه ، وتنفخ رداهه ، وتذرو في وجهه ذرات الثلج الوخازة .

انها منهكة ؛ يغوص قدمها في الطبقة الكثيفة ، وتعاني البرد والخوف . انها مقوسة الظهر ، انها كعشبة ضعيفة في السهل الاغيش ، في اللعبة المجنونة ، لعبة وريح الجريف .

وعلى يمينها ، عند المستنقع ، كان ينتصب جدار الغابة القاتم ، حيث تنوح اشجار الحور والصنوبر عجفاء عارية .

وأمامها ، في البعيد يلوح ألق باهت من أضواء المدينة

وغمغت الأم وهي ترتعد خوفاً .

— يا الهي ارحمنا .

— ٧ —

... كانت الايام تنزلق يوماً بعد يوم كجبات السبحة ، وانجمعت أسابيع واشهرًا ، وفي كل سبت ، كان رفاق بول يجتمعون في منزله ، وكان كل اجتماع من اجتماعاتهم كدرجة من سلم طويل ، هين المرتقى ، يفضي الى البعيد البعيد ، دون ان يدري احد الى اين ؛ سلم يرفع ببطء اولئك الذين يتسلقونه .

.. وكانت وجوه جديدة تظهر ، حتى ضاقت بهم حجرة آل فلاسوف الصغيرة ، وكادوا يحتنقون فيها . وكانت نانا ، تصل مرهقة مقرورة ، ولكنها مزودة دائماً بمخزون لا ينضب من المرح والحياة .

وكانت الأم قد حاكت لها جورباً ، وألبسته القدمين الصغيرين بنفسها ،

— ٤٧ —

— ٤٦ —

وصار بول يتولى المبادرة في الحديث ، أكثر فاكثراً ، ويناقش بجرارة فائقة
ولكنه كان يزداد نخولاً ، وكانت الأم تلاحظ انه حين يخاطب نانا ، او حين
ينظر اليها ، ترق نظراته القاسية ، ويزداد صوته عذوبة ، ويبدو أكثر بساطة .
وتهمس الأم في سرها وتبتسم : ان شاء الله .

... وفي الاجتماعات ، عندما كان النقاش يبلغ إوج حرارته وعنفه ، كان
البيوروسي يقف مترنحاً كضرب الجرس ، ويتكلم بصوته المرّ الصّاج ،
فتقطعي بساطته وما يحمله هذا القول من طيبة ، على اصوات الآخرين ، ويعيدهم
الى الهدوء والاعتدال . أما فيسوس شيكوف العبوس أبداً ، فإنه كان يثير جواً
من التوتر الشامل ، وكان هو والفتى الأحمر الشعر المدعو « ساموالوف » يبدأان
العراك ويشد أزرها أيفان بوكين ، الفتى المستدير الرأس ، الأشقر الحاجب
الذي يبدو كالمفسول .

وكان « جاك سوموف » الفتى الأملس الشعر ، الشديد النظافة ، يتكلم
نزراً دون ان يرفع صوته المتلي ، وكان كـ « ثيو » مازين الشاب الديرىض
الجبهة ، يتفق دائماً في وجهة نظره مع بول والبيوروسي .

واحياناً ، كان نقولا ايفانوفيتش هو الذي يأتي من المدينة بدلاً من نانا ؛
وكان يلبس نظارتين ، ويحمل حية صغيرة صهباء ، ويحتفظ بلهجة الاقليم النائي
الذي تحدر منه ، وكان يبدو دائماً ساهم النظرة ، موزع الفكر ؛ وكان يتحدث
عن الاشياء البسيطة ، عن حياة العائلة ، عن الاطفال والتجارة والبوليس ، وعن
الحب والحم ، وكل ما يتعلق بالحياة اليومية ، وكان يكتشف في كل شيء
التفاق والفوضى ونوعاً من البلاهة المضحكة غالباً ، المؤذية دائماً ؛ وكانت بيلاجي
تشعر كأنه آت من بعيد ، من مملكة أخرى يحيا الفارس فيا حياة شريفة هينة ،
لذلك يبدو له كل شيء هنا غريباً ، فهو لا يستطيع أن يتعود هذه الحياة ،
وإن يتقبلها كضرورة . إنها لا تروق له ، ولا تبتعث فيه أية رغبة مطمئنة ، بل
إنه يصير بعناد على أن يعيد صياغتها كما يشتهي .

وضحكت نانا بأدى الأمر ثم صمتت وقالت وهي مفرقة في التفكير :
— لقد كانت مربيتي أيضاً طيبة ، الى ابعده حدود الطيبة . لكم هو غريب
أن يحيا الشعب حياة قاسية مليئة بالحزبي والمهانة ، ثم يكون اكثر طيبة ، وارق
قلباً من الآخرين .

وأشارت الأم بحركة من يدها ، الى مكان مجهول ، في البعيد القصي وقالت :
— وإنك كذلك ، فلقد ضحيت بدويك وبكل ...
ولم تستطع ان تكلم جملتها ، فتأوهت ، وصمتت ، وراحت تحديق بنانا .
إنها تشعر نحوها بعاطفة من عرفان الجميل ، ولا ندري لماذا .
وظلت جالسة امامها على الارض ، في حين كانت الفتاة تبتسم حالة ، مخنية
الرأس :

— ذوي ؟ ان ذلك لا يهم . فوالدي فظ شديد الفظاظ ، وكذلك أخي .
ثم إنه سكير يدمن الخمر . وشقيقي الكبرى بائسة . فلقد افترنت برجل
يكبرها سناً ، يكبرها بكثير . وهو فوق ذلك ، ثري بمثل شحيح . أما أمي ،
فوا حسراته عليها . إنها بسيطة مثلك ، صغيرة كفارة ، شرود تخشى الناس
جميعاً . لك يحتاجني احياناً الحنين الى رؤيتها .

وقالت الأم وهي تهز رأسها حزينة :
— اواه يا صغيرتي المسكينة .
فانتفضت الفتاة بغتة ، ومدت يدها كأنها تريد أن تدفع عنها شيئاً ما ؛
— أوه .. كلا .. هناك بعض الاوقات استشعر فيها مثل هذا الفرح ، ومثل
هذه السعادة .

وهبت وجهها ، ولعلت عيناها الزرقاوان ، ووضعت يدها على كتف الأم ،
وأردفت وهي تهمس بصوت عميق متزن :
— ليتك تعرفين ، ليتك تدري كين أي عمل عظيم نأتيه .
ومس قلب بيلاجي شعور كالغيرة ، كالحسد ، فنهضت ، وقالت بكآبة :
— لقد فات الاوان ، فانا عجوز مسرقة في الشيخوخة ، جاهلة مسرقة في الجهل .

لقد كان شاحب اللون ، تتوزع حول عينيه تجعدات خفيفة ، وكان صوته عذبا ويديه أبداً حارتيين ؛ وعندما كان يضافج بيلاجي ، يمتصن يدها كلها بين اصابعه القوية الخشنة ، وكانت هذه الحركة تبعث في قلبها الراحة والاطمئنان . وكان بين الذين يقبلون من المدينة أيضاً فتاة هي اكثرهم مشاركة على الحضور ، فتاة متناسقة الجسم فارعة القوام ، رجة العينين ، ذات وجه أصفر هزيل ، تدعى « ساندرين » .

وكان في خطوها وحركاتها شيء من الرجولة ، وكانت تقطب حاجبيها الاسودين كالاستشارة ، وكانت جوانب أنفها الأفنى ترتعش عندما تتكلم . وكانت هي اول من اعلن بصوت قوي أجش :
— نحن اشتراكيون .

وعندما سمعت الأم هذه الكلمة ، رفنت الى الفتاة برعب صامت . لقد سمعت - وكان ذلك في شبابها - ان الاشتراكيين هم الذين قتلوا القيصر ، وشاع يومذاك ان الملايين ، وقد رغبوا في الانتقام من القيصر لأنه حرر الاقنان ، اقساموا على ألا يقصوا شعورهم إلا إذا صرعوه ، وهم من اجل ذلك سماوا اشتراكيين .
والآن ... لا تستطيع ان تفهم لم كان ابنها ورفاقه اشتراكيين !
... وعندما أنصرف الحضور جميعاً كاشفت بول :

— اصحيح انك اشتراكي يا بول ؟

فاجاب بجزم وصراحة كعادته :

— اجل ، فهل في ذلك ما يضير ؟

فاطلقت زفرة عميقة ، وتابعت ، منكسة الاجفان .

— أهذا ممكن يا بول؟ ولكنهم ضد القيصر . وقد قتلوا واحداً من القياصرة .

وخطا بول في الحجره بضع خطوات ، وقال وهو يمرر يده على خده باسمياً :

— إنهم شيء لا حاجة لنا به .

... وحدثها طويلاً ، وبصوت رصين مطمئن ؛ وكانت هي تحدد في عينيه

وتفكر :

« إنه لن يقترف شراً ابداً ، ولن يستطيعه . »
.. واخذت هذه الكلمة الرهيبة « اشتراكي » تتردد بعد ذلك كثيراً ، ثم اخذ اثرها العنيف يتلاشى رويداً رويداً حتى غدت شيئاً مألوفاً في سمعها ، تماماً كمجموعة التعابير الاخرى التي تستعصي على فهمها .
ولكن « ساندرين » كانت لا تعجب الأم ، وكانت كلما رأتها ، تشعر بالاضطراب والضييق .

وفي احدى الامسيات قالت وهي تقلب شفتيها استمياً :

— ان ساندرين شديدة القسوة . انها تأمر دائماً : « افعل هذا وانت افعل ذلك » ... واطلق البيوروسي ضحكة هدوية :

— احسنت ... لقد اصبت الهدف ايها الأم .. أليس كذلك يا بول ؟

ودنا الى الأم ، وقال ساخر النظرة :

— يا للنبلاء .

ورد بول يحفاف :

— انها فتاة طيبة .

— حقاً انها كذلك ولكنها لا تدرك ان عليها هي كنبيلة ان تطيع ، واننا

نحن الذين نشاء وتقدر ان نحقق ما نشاء .

ودخلا في نقاش حول موضوع لم تفهمه .

... ولاحظت الأم ان ساندرين كانت ، بصورة خاصة ، شديدة القسوة .

بالنسبة لبول . وكانت هذه القسوة تبلغ احياناً حد العنف ؛ وكان بول يبتسم

ويصمت ، ويتفرس في وجه الفتاة بنفس النظرة الوادعة التي كان من قبل ينظر

بها الى ناناشا ؛ وكان هذا أيضاً لا يروق للأم .

وكانت بيلاجي احياناً تفاجأ بغمرة الفرح الذي يستخف الفتيان فجأة وينتشر

بينهم كالعدوى . وكان ذلك يحدث عادة في الامسيات ، حين يقرأون في الصحف

اتباء تتعلق بالعمل في الخارج . إن عيونهم حينئذ تلتصق بالفرحة ، ويفدون ،

وهذا ما يحيرها ، سعداء كالاطفال ، ويضحكون ضحكات صافية مرحة ، ويربتون .

حجب ، على اكتاف بعضهم بعضا
ويصرخ احدهم وقد اغلته الغبطة .

— يا لهم من ابطال . . العمال الالمان .

ويتعالى الهتاف ثانية :

— ليحيا عمال ايطاليا .

وعندما كانوا يرسلون بهتافات الاعجاب هذه الى البعيد ، الى وفاق لا يعرفونهم
ابداً ، ولا يفهمون لغتهم ، كانوا على يقين بأن اولئك الجمهوريين سيستمعونهم ،
سيدركون تحمسهم .

ويعلن البيوروسي براق العيتين ، طافح القلب بحب يحتضن الكائنات جميعاً ، يعلن :
— انه لجميل ان نكتب اليهم ، اليس كذلك ؛ لكي يدركوا ان لهم في
روسيا اصدقاء يعتقدون نفس العقيدة ، ويعيشون للاهداف نفسها ، ويفتبطون
باتتصاراتهم .

ويتحدثون جميعاً ، والنظرة الخاملة في عيونهم ، والبسمة على شفاههم ، يتحدثون
طويلاً عن الايرنسيين والبريطانيين والسويديين كأصدقاء شخصيين لهم ،
ككائنات قريبة منهم يقدرونها ويقاسمونها افراحها ، ويستشعرون آلامها .

وفي الحجرة الصغيرة ، كان يولد شعور القربى الروحية التي تربط بين عمال
الارض كلها ؛ وكانت الأم أيضاً تلمس هذا الشعور الذي يجعلهم جميعاً قلباً
واحداً ، تلمسه رغم انها لا تفهمه بوضوح ، وكانت تستمد منه الفرح والشباب ،
وقوة طاغية تزخر بالامال .

وقالت يوماً للبيورومي :

— غريب امركم . ان الجميع بالنسبة لكم رفاق ؛ ارمنيين كانوا ام يهوداً ام
مخاويين ، انكم تحزنون لحزن الناس جميعاً ، وتفرحون لفرحهم .
وهتف :

— « أجل ، رفاق للجميع ايها الام الصغيرة ، رفاق للجميع . ليس هناك
بالنسبة لنا اسم ولا عروف ، بل هناك اصدقاء او اعداء ؛ والعمال جميعاً اصدقاء .

لنا ، اما الأثرياء ، وأولئك الذين يحكون ، فهم جميعاً اعداء لنا .

إننا حين نلقي نظرة مجردة على العالم ، ونرى اية كتلة ضخمة تكوّن نحن
العمال واية قوة مختزنة فينا ، نحس بغمرة من الفرح كأن قلوبنا في عيد . ان هذا
الشعور نفسه ، ايها الام الصغيرة ، هو ما يحسه الفرنسي والالمانى ، والايطالي ،
حين يصون الحياة . إننا جميعاً أبناء ام واحدة ، وفكرة واحدة لا تقهر ، هي
اخوة العمال في الاوطان كلها ؛ وهذه الاخوة تبعث فينا الحرارة . انها الشمس
المشرقة في سماء العدالة ، وهذه السماء هي في صدر العامل .

إن الاشتراكي ، مهما كان مبتغاه ، وأي اسم اختار ، اخ لنا في الفكر ، اخ
لنا اليوم والى الابد ، اخ لنا على مدى الاجيال .

.. وكان هذا الايمان الطفولي الذي لا يتزعزع ، يعبر عن نفسه يوماً بعد
يوم في هذه الشلة القليلة ، وبقوة متنامية ؛ وكانت الام كلما لاحظت ذلك الفيض
من الأمل ، تشعر شعوراً غريزياً بأن هناك شيئاً عظيماً مشعاً قد ولد في العالم ،
شيئاً كالشمس ، التي تترى في كبد السماء .

وكانوا يغنون احياناً كثيرة ، يغنون بمرح وملء حناجرهم ، اغنيات شائعة ،
وأحياناً كانوا يستهلون مرثعهم باغنيات جديدة فائقة الخلاوة ، ولكنها غريبة
الالمان كئيبتها ، يخفضون فيها من اصواتهم الجهيرة ، كأنهم إنما يؤدون لحناً
دينياً ، وتصفّر وجوههم ، وتتأجج باللب ، وتتساب من الكلمات الرنانة قوة
فائقة .

وكانت إحدى هذه الاغنيات الجديدة ، بوجه خاص ، تبعث الكتابة والقلق
في نفس بيلاجي . انها اغنية لا تسمع فيها التأملات الحزينة لنفس جريحة وجيدة ،
تائهة في الدروب المظلمة ، دروب الشكوك المعذبة ، ولا شكائات لا وصف لها
ولا لون ، شكائات روح هدها الاملاق والحرف . ولم تكن ترن بالاهاث
المقنومة ، آهات قلب قوي يشده الى المدى نهم غامض ، ولا بصرخات التحدي
من تجسور يقف على اهبة الاستعداد ليسحق الخير والشر دون تمايز ، ولم يكن
فيها ابداً ذلك الحقد الاعمى ، حقد المهان الذي يحطم كل شيء ليثأر لكرامته .

وبكلمة واحدة ... لم يكن فيها اي صدى للعالم الهرم ، عالم العبيد .
لم تكن تروق للام كلماتها القاسية ، ولا نغمها الصارم ، ولكنها كانت مع ذلك ، تزخر بقوة اكبر من الكلمات والانغام ، قوة تتخطى الكلمات ، الانغام لتوقظ في النفس شعوراً مسبقاً بشيء فائق السمو . وكانت الام تقرأ ذلك في وجوه الفتيان وعيونهم ، وتحسه يضح في صدورهم ، وكانت ، تحت تأثير تلك القدرة الغامضة الكامنة في الاغنية ، تصغي اليها ابدأ ، بانتباه شديد ، وبقلق يفوق كثيراً ذلك الذي تثيره الاغنيات الاخرى في نفسها ...

... وكانوا يؤدونها بهدوء اكثر من الاخرى ، ولكنها كانت تضح بالقوة ، وتسكر كأنسام اليوم الاول من آذار ، كأنفاس اول يوم من ايام الربيع .
وكان فيسوشيكوف يقول مقطب الحاجبين :

— سيأتي اليوم الذي يفتح لنا فيه ان نشدها في الشارع .
وفي احدى المرات التي ادخل والده فيها الى السجن بتهمة السرقة ، اعلن بهدوء :
— نستطيع الآن ان نجتمع في منزلي .

وفي كل مساء تقريباً ، بعد الانصراف من العمل ، كان لا يد لاحد افراد هذه الأسرة من أن يأتي الى منزل بول ، وكانوا يقرأون معاً ، وينسخون بعض الفصول من الكتب ، ويبدون كثير من المشاغل ، ولم يكن لديهم وقت للاستحمام ؛ وكانوا يتناولون العشاء ، والشاي ، دون ان يتخلوا عن كراريسهم ، وكانت اجاديتهم تزداد استعصاء على إدراك الام .

وكان بول يردد دائماً :

.. نحن بحاجة الى جريدة !

وكانت حياتهم تزداد حركة وحرارة ، وكانوا ينتقلون بسرعة من كتاب الى كتاب ، كما ينتقل النحل من زهرة الى زهرة .

رتان فيسوشيلوف يوماً :

.. لقد بدأ الناس يتحدثون عنا ، ومن الاكيد انه سيكهن علينا عما قريب .
واجاب البيوروسي :

— لقد وجد السئمن ليقع في الشبكة .

... وكان اعجاب بيلاجي بالبيوروسي يزداد يوماً عن يوم ، وكان اذا مادعاها الام الصغيرة .. يحيل اليها كأن يد طفل ناعمة تدغدغ وجنتيها ؛ وكان هو الذي يقطع لها الحطب عندما يكون بول مشغولاً .

وفي احد الأيام أقبل يحمل على كتفه لوحاً خشبياً ، ثم اخذ الفأس واستبدل بهارة ورشاقة ، احدى الدرجات المهترئة أمام مدخل البيت . وفي مرة أخرى ، اصلىح السهاج المتهدم ، وكان ، وهو يقوم بعمله ، يصفر ألحاناً حلوة كثيبة .
وقالت الام يوماً لابنتها :

— لم لا تؤوي البيوروسي في منزلنا ؟ فذلك خير لكما معاً ، لأنه يوفر على كل منكما الذهاب لرؤية الآخر ؟

فسأها بول وهو يهز كتفيه :

— ولم تزعجين نفسك ؟

— إزعاج ؟ لقد كانت حياتي كلها مليئة بالإزعاج دون ان ادري سبباً لذلك . واني لأرى ان بإمكانني ان أؤدي هذه الخدمة لفتي طيب مثله .

— افعلني ما شئت ، وسأكون سعيداً اذا ما رضي بذلك .

... وجاء البيوروسي فأقام في بيتهم !

— ٨ —

ولفت للبيت الصغير في طرف الضاحية انتباه الناس ، فراجت الأبصار المراقبة تخترق جدرانها ، واخذت تحوم فوقه اجنحة الشائعات من كل لون .

وكان الناس يحارلون ان يكشفوا السر الغامض الذي يخفيه ، وكانوا ، في ظلمة الليل يتلصصون ، من النوافذ ، وفي بعض الاحيان كان ينقر الزجاج جبان ، ثم لا يلبث أن يولي الأبدار سريعاً .

واستوقف بيلاجي ، في احد الأيام ، صاحب فندق يدعى « بيغوتسوف »

استوقفها في عرض الشارع . وكان عجوزاً ، ضئيل الجسم ، حسن البزة ، يربط
بأحكام حول عنقه الأحمر المترهل ، مندبلاً من الحرير الأسود ؛ ويرتدي صدرة
سميكة ، خبازية اللون ، وتمتطي أنفه الدقيق الماع نظارتان من صدف ، وهذا
ما أكسبه لقب : « العين العظيمة » ، وبدون ان يتوقف او ينظر جواباً فاجأها
يسيل من الكلام المفرق كالخطب اليابس :

— كيف انت يا بيلاجي ؟ وكيف حال صغيرك ؟ ألن تزوجيه عما قريب ؟
لقد اصبح في سن الزواج ، وفي زواج الأبناء راحة الأهل . إن الحياة الزوجية
فكسب المرء عافية عقلية وجسدية . إنها تحفظه كما يحفظ الحلُّ الفطر . وأنا لو
كنت مكانك لزوجته . في عصرنا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار وجود كل انسان ،
فلقد اخذ الناس يعيشون على هواهم ، وغزت الفوضى العقول ، وصار الناس
يأتون اعمالاً ذميمة . لقد انصرفت الشيبية عن بيوت الله وتجنبت الأندية العامة ،
وصارت تجتمع في الحفاء ، وتتهامس في الزوايا . ولماذا يتهامون ؟ أسمحين لي
أن أسألك ذلك ؟ ولم يتعبدون عن المجتمع ؟ وماذا يعني القول الذي لا يستطيع
المرء ان يجهر به امام الناس ، في الفندق مثلًا ؟ اسرار ؛ اسرار ؛ ... ولكن
كديستنا الرسولية المقدسة هي مكان الأسرار ؛ اما الأسرار الاخرى التي تطبخ
في الزوايا فنشؤها ضلال العقل . أتمنى لك صحة طيبة .

... ورفق قبعتي ، وهو يطوي ذراعيه بمودة ، ولوح بها في الهواء ثم مضى
وتركها فريسة الارتباك .

وفي مرة أخرى التقت ماريا كورسونوف ، جارة آل فلاسوف ، وهي ارملة
مهددة كانت تباع المآكل عند باب المعمل ، التقت الأم في السوق وقالت لها :

— راقبي ابنك قليلاً يا بيلاجي ؟

— ولماذا ؟

واجابها ماريا ببلهجة غامضة :

— انه يثير الاقاويل ، الاقاويل السيئة يا عزيزتي ، ويشاع انه ينظم نوفاً
من الجمعيات العمالية على طريقة الشياطين ، وهذا يدعى « فرقا » . انهم سيبادلون

ضرب الشياطين مثلهم .

— كفى حماقات يا ماريا .

وردت البائعة :

— يجب ان تصبي اللوم على مرتكبها لا على ناقلها .

... وحملت الأم كل هذه الاقاويل الى ابنها ، فهز كتفيه دون ان يجيب :

أما البيوروسي فقد أطلق العنان اضحكته الطيبة الداوية .

وقالت لها : ... والنتيات أيضاً ناقات عليكم جداً ؛ فأنتم من خير الفئات ،

وكلكم من اطيب العمال ، وكلكم لا تماقرون الحجرة ، ولا تأهبون لهن ؛ ويقال

أن فتيات منحطات يأتين من المدينة للقائم .

وصرخ بول بسخرية القرف :

— لا شك في ذلك .

وزفر البيوروسي

— كل ما في المستقيم تفج منه رائحة النتن . وكنت تحسنين صنماً آيتها الأم

الصغيرة لو شرحت لهذه البطات الناشئة ما هو الزواج ، لكيلا يستعملن . طم

اضلاعهن .

— إنهن يعرفن ذلك جيداً يا عزيزي . ويدركنه ولكنهن لا يعرفن ماذا

يفعلن بأنفسهن .

ولاحظ. بول :

— إنهن يسئن الفهم ، وإلا لو جدن طريقاً آخر .

والقت الأم نظرة على وجهه الصارم :

— حسناً ، علمن أنت ، فليس عليك إلا ان تدعو أقرنهن طيشاً .

واجاب بول بجفاف :

— ليس ذلك مستطاعاً .

وسأل البيوروسي : وماذا لو حاولنا ؟

نصفت بول لحظة ثم قال :

— إن ذلك يبدأ بنزهات ثنائية ... ثم يتزوج البعض ، وينتهي الأمر .
... وأوغلت الأم في تأملاتها . لقد كانت صلابة بول الرهبانية تقلقها ،
وكانت تلاحظ ان رفاقه ، حتى الأكبر منه سناً كالبيوروسي مثلاً ، يعملون
بتوجيهاته ، غير انه كان يتراءى لها أن الجميع يهبطونه ، ولا يحبونه بسبب من
هذه القسوة .

وفي إحدى الامسيات كانت مضطجعة ، وكان بول والبيوروسي ما زالوا
يقرآن ، فأصاحت بسمها ، من خلال الحاجز الرقيق ، الى حديثها الخفيض :
وقال البيوروسي فجأة :
— أتعلم أن ناتاشا تعجبني ؟
ولم يجب بول على التو ، بل قال بعد صمت :
— أعلم ذلك .

واحست بالبيوروسي ينهض ببطء ويندفع الحجره ، وسمعت قدميه الحافيتين
تتساحبان على أرضها ؛ وسمعته يصفر لحناً حزيناً ، ثم يعود الى الكلام :
ولكن هل لاحظت هي ذلك ؟

وصمت بول ، وسأله البيوروسي خافضاً من صوته :
— وماذا تعتقد أنت ؟

— لقد لاحظت . ومن اجل ذلك رفضت العمل معنا .

وعادت خطى البيوروسي تتساحب على أرض الحجره ، وعاد صفيحه الخفيف
يتهدج ، ثم سأل .

— وماذا قلت لها ... ؟

— ماذا ؟

همس : أي ... أي .

فقاطعه بول : ولم تقول ذلك ؟

وتوقف البيوروسي ، واحست الأم انه يبتسم :

— حسناً . انا اعتقد ان الشاب اذا احب فتاة وجب عليه ان يهوج لها بذلك

والا فان حبه لن يقضي الى نتيجة .

وصفق بول كتابه وهو يفلقه :

— واية نتيجة تنتظر منه ؟

وصمت الاثنان هنيهة .

وسأل البيوروسي : وأذن ؟

فأجاب بول بتأن : يجب ان يتصور المرء بوضوح مقصده . لنفترض انها
هي ايضا تحبك يا اندريه ، وهذا ما لا اعتقده ، ولكننا نفترضه افتراضاً ؛
وانكما تزوجتما . ياله من زواج طريف : زواج عامل ومثقة ... وسترزقان
اطفالاً ؛ وستوجب عليك ان تعمل وحدك ، وان تعمل بارهاق ؛ وستصبح
حياتك حياة حرمان ، لأنك ستحتاج ان تدفع نفقات الاطفال والمسكن ؛
وستنتهيان كلاكما ، من اجل ذلك ، الى الدمار .

وخيم الصمت ، ثم استأنف بول كلامه بصوت هاديء :

— الافضل يا اندريه ان تدع هذا الامر ، والا ترعجها .

وخيم الصمت ثانية ، ونبضت ساعة الجدار تحصي بدقاتها الثواني التي تمر ،

وقال البيوروسي :

— أهو قلب ذلك الذي يجب بنصفه الاول ويكره بنصفه الآخر ؟

... وسمع حفيف اوراق تقلب . لقد عاد بول بلا شك الى القراءة .

... وظلت الأم مستلقية ، مغمضة العينين ، تخشى الاثيان بأية حركة ،

وداخلها اشفاق على البيوروسي كاد يستدر عبراتها ، واشفاق اشد منه على ابنها

فمنعت في سرها : « يا حبيبي » .

وسأل اندريه فجأة :

— اذاً فعلياً ان اصمت ؟

فرد بول بهدوء : ذلك اشرف لك .

فقال اندريه : حسناً . هذا هو السبيل الذي سأملكه .

ثم صمت لحظة ، و اضاف بلهجة حزينة :

- وسيكون هذا عسيراً عليك يا صغيري بول عندما انت ايضا...
- لقد كان عسيراً علي ...

ولامست جدران المنزل هبة ريح ، وسجل دقات الساعة ، بدقة ، تفككت
الزمن ، وقال البيوروسي ببطء :

-- هذه القضايا يجب الاثير ضحكنا !

فدفنت الام وجها في الوسادة وبكت بصمت .

... وفي الصباح بدا لها اندريه اصفر قامة واكثر رقة ، وكان ابنها ، كما
تعمده ، نخيلاً ، منتصب القامة ، صموتاً ، وكانت ما تزال حتى ذلك الحين ،
قنادي البيوروسي باندرية اونيسيموفيتش ، ولكنها خاطبته اليوم ، دون
اكثرات :

- يجب ان تصلح حذاءك يا صغيري اندريه ، والا فستبرد قدمك .

واجاب هو : سوف اشترى بأجري حذاء جديداً .

ثم شرع يضحك ، وراح فجأة يسألها ، وهو يضع يده الطويلة على كتفها :
- بما كنت انت امي الحقيقية ، ولكنك لا تودين ان تعترفي بذلك امام
الناس ؟ انك لا تجدينني وسيماً .. أليس كذلك ؟
واجابته بأن ربتت على يده . وكانت تود ان تحدثه احاديث كثيرة مفعمة
بالود ، ولكن قلبها كان يعصره الاشفاق ، ولسانها يأبى ان يطيع .

- ٩ -

... وانتشر الحديث في الضاحية عن الاشتراكيين الذين ينترون في كل مكان
وربقات مكتوبة بالجر الأزرق . وكانت هذه الوريقات تقض بخنف ما يدور
في المعمل ، وتحدث عن الاضرابات العالمية في (بطرسبورغ ، وجنوب البلاد ،
وتهيب العمال الى الاتحاد والنضال دفاعاً عن مصالحهم .
وكان اولئك الذين يملون جيلاً معيناً ، ويتقاضون في المعمل اجراً طيباً

يحملون الوريقات الى ادارة المعمل ويصيحون :

- نخريون ... يجب ان تحطم رؤوسهم .

اما الشبان فكانوا يقرأونها بحمية :

- هذه هي الحقيقة .

وكانت الاكثرية التي سحقها العمل والتي لا تقبالي بشيء تجيب بكسل :

- لن يؤدي هذا الى خير ... أفمن المستطاع أن ...

ولكن الأوراق كانت تروق للناس ، فاذا مر اسبوع دون أن تصدر ،

سأل بعضهم البعض الآخر :

- لقد انتهى امرهم ؟ .. يقال ...

خير ان الوريقات لا تلبث أن تعود الى الظهور تبار الاثنين ، ويبدأ التعليق

الطاهيء عليها من جديد

وفي المعمل والفندق كان يلاحظ وجود أشخاص لا يعرفهم احد ؛ يطرحون

الاسئلة ، ويختبرون ، ويتنسمون الأخبار ، ويستلفتون ، بغتة ، أنظار الجميع .

بعضهم يستلفت النظر بحذره المريب ، وبعضهم الآخر باجتماعيته المفرطة .

وكانت الأم تعرف أن هذا الاضطراب كله من صنع ابنها ؛ وكانت ترى

الناس يتألبون حوله ، فتختلط مخاوفها على مستقبله بزهوسا في أن تكون

أماً له .

وفي احدي الامسيات نقرت ماريا كورسونوف زجاج النافذة ، وعندما

فتحت الأم لها ، وشوشت في أذنها على عجل :

- إحدري يا بيلاجي ... لقد أنهى حملناك الصغار ضحكهم ... ففي هذه

الليلة سيفتش منزلكم ومنزل مازين وقيسو شيكوف .

وكانت شفتا ماريا الغليظتان تصطلان بسرعة ، وانفها المكتنز ينشق ،

وعينها تغمزان وتدوران من اتجاه الى آخر ، وما ترقبان شخصاً في الشارع .

- وأنا لا اعرف شيئاً ، ولم أقل لك شيئاً ... وحتى أي لم أرك اليوم

أبدأ ... أسمعت ؟

ثم قوارت .

واغلقت الأم النافذة ، وتهاقت ببطء على كرسي ، غير ان حسن الخطر الذي كان يهدد ابنها ، جعلها تثب بسرعة واقفة على قدميها . وارتدت ثيابها برشاقة ، ولفت رأسها بشال أحكت شده ، واسرعت الى منزل « تيومانين » الذي كان مريضاً فلا يذهب الى العمل .

وكان ، عندما دخلت عليه ، يجلس بالقرب من النافذة يقرأ ، ويده اليسرى ، تهدد اليمنى بشكل يظل معه المختصر طليقاً . وما كاد يسمع انبأ حتى انتصب بمنصف مصفر الوجه ؛ ودمدم :

— هذه المرة ... اذن ...

وسألته بيلاجي ، وهي تمسح بيدها المضطربة ، العرق عن جبينها :

— ماذا ينبغي ان تفعل ؟

فأجاب تيومان وهو يمسح بيده السليمة شعره الأجمد :

— مهلاً ... ولا تخافي .

فصاحت به : ولكني واثقة من انك انت ايضا خائف .

— انا ؟

وتضرجت وجنتاه على الفور ، وابتسم بارتباك :

— نعم ... نعم ... يا للشيطان . يجب اخطار بول ، وسأرسل اليه من يخطره

حالاً ؛ اما انت فعودي الى منزلك ، ولا تهتمي فالامر بسيط ، انهم لن يشفقوا ... سترى .

وعادت مسرعة ، وجمعت الكتب كلها في كومة احتضنتها ، ودارت في المنزل طويلاً تفتش عن مخبأ لها . لقد فكرت ان تخبئها في الفرن تحت المدفأة ؛ وحتى في برميل الماء ؛ وكانت تعتقد ان بول سيرك عمله ويعود سريعاً الى المنزل ، ولكنه لم يأت ... واخيراً جلست متعبة منهكة على مقعد في المطبخ ، وخبأت الكتب تحت ثيابها ، وظلت على وضعها هذا دون ان تجرؤ على التحرك ، الى ان عاد بول واندرية .

وصرخت دون ان تنهض : هل عرفت ؟

فاجاب بول مبتسماً : نعم ... وهل انت خائفة ؟

— اجل انا خائفة . جد خائفة .

وقال اندرية : يجب الاتخافي ، فالخوف لا يجدي شيئاً .

ولاحظ بول : حتى ابريق الشاي لم تهيئه .

فنهضت الام عندئذ ، وأشارت الى الكتب ، وقالت بارتباك :

— لم افعل بسبب هذه .

وانفجر بول واندرية ضاحكين ، فرد ذلك عليها شجاعتها . وتناول بول

بعض المجلات ، وانطلق يخبئها في الخارج ، في حين كان اندرية يشمل موقد الشاي .

— يجب الاتجزعي ايها الأم الصغيرة ؛ فنحن نخجل لأولئك الذين يشغلون

أنفسهم بمحافات كهذه .. لسوف يأتي قتيان ضخام اقوياء البنية ، على جنوبيهم

سيوف ، وفي جزماتهم مهامين ؛ وسينقبون في كل مكان : يفتشون تحت السرير ،

وتحت المدفأة ، واذا كان هناك من قبو ، فانهم سيهبطون اليه ، او اهراء فانهم

سيصعدون اليه ، وتلتف على خراطيمهم خيوط العنكبوت ، فيحشرجون .

ولا تعجبهم التسلية ، بل يداخلهم الخجل ، فيبدون من اجل ذلك ، بلامح

الإشعار ، ويفضون . عمل قذر يعرفونه جيداً . لقد قلبوا مرة كل ما في بيتي ،

قلبه رأساً على عقب ؛ وكانوا ، كذبي قبل ، اغبياء بلهاء فانصرفوا دونما كلفة .

وفي مرة اخرى اقتادوني معهم ، وزجوني في السجن حيث لبثت اربعة اشهر ...

وهو ، على ما ترين ، وقت قصير .

انهم يقبلون اليك ، فيجتازون الشارع بموكب ، ويطرحون عليك كومة

من الاسئلة . انهم ليسوا خبيثاء ، ولكنهم يفكرون كالطبول ، ويقودونك ،

من بعد ، الى السجن . انهم يتقاذفونك من جهة الى جهة ، فلا تلمهم . فعليهم

ان يحصلوا قوتهم . ومن ثم فانهم يطلقون سراحك ، وهذا كل ما في الامر .

وصاحت بيلاجي :

— إن لك دائماً طريقة خاصة في الكلام يا صغيري أندريه .

وكان ، وهو جاثٍ أمام الموقد ، ينفخ النار ليؤجج الجمر ، ثم ما لبث أن رفع وجهه العابق بالدم نتيجة للجهد الذي بذل ، وسأل وهو يعقص شاربيه :
— وكيف أتكلم ؟

— كأن أحدًا لم يذقك الهوان أبدًا .

فتنهني وقال وهو يهز رأسه باسمًا :

— أهناك فوق سطح الأرض أمروءٌ لم يُذَلْ ؟ لقد أذقت الهوان حتى لم يعد

الهوان يثير حنقي . إذ ما العمل إذا كان الناس لا يستطيعون التصرف إلا بهذه الطريقة ؟ إن الاستفزازات تعرقل سير العمل ، والتوقف عندها ، يعني إضاعة الوقت ، هذه هي الحياة . لقد كنت قبلاً أنقم على الناس ، ولكنني فكرت في بعد ، فوجدت ألا داعي لذلك ، فكل امرئٍ يخشى أن يتلقى الضربة من جاره ، وهو من أجل ذلك ، يتأهب ليسبقه إليها . هكذا هي الحياة أيتها الأم الصغيرة .

... وكانت كلماته تنساب بهدوء واتزان ، فتلطف من حدة القلق الذي يشيعه انتظار التفتيش ، وكانت عيناه الجاحظتان تبتسمان صافيتين ، وقامته الفارعة المترنحة تبدو رشيقة .

وزفرت الأم وقالت بحماسة :

— ليهبك الله السعادة يا صغيري أندريه .

وخطا البيوروسي خطوة واسعة نحو الموقد ، واقعى من جديد وهو يغمغم :
— إذا وهبت السعادة فلن أرفضها ، أما أن أطلبها ... فإني لن أفعل ذلك أبدًا .

وعاد بول من فناء الدار ، وقال بصوت واثق وهو يشط شعره :

— إنهم لن يعثروا على شيء .

ثم تابع وهو يسح يديه بعناية :

— إذا أظهرت لهم بأنك خائفة ، يا أمه ، فانهم سيقولون في انفسهم : لا بد

ان هناك شيئاً ، وإلا لما اضطربت هكذا . انك تدريين جيداً أننا لا نضمر الشر أبداً ، فالحقيقة هي في جانبنا ، واننا من أجلها نعمل طوال حياتنا . هذه هي جريمتنا ، فلم الارتعاش اذن ؟

ووعده : سأستعيد رباطة جأشي يا بول .

وفي الوقت نفسه أردفت :

— ليتهم ، على الأقل ، أسرعوا في الهجاء .

ولكنهم لم يأتوا تلك الليلة . وفي صباح الغد ، توقعت أن تكون مخاوفها مثار مزاح ، غير أنها كانت على العكس أول الضاحكين من نفسها :
— لقد خشيت ان أخاف .

— ١٠ —

وبعد شهر تقريباً من ليلة الذعر تلك ، جاؤوا .

وكان نقولاً نيسوشيكوف هناك ، وكانوا ثلاثتهم يتحدثون عن جريدتهم . وكان الوقت متأخراً ، نحو نصف الليل ، وكانت الأم مضطجعة توشك ان تغفو ، ولكنها كانت تسمع بغموض اصواتهم الخفيفة القلقة .

ونهض أندريه بغتة ؛ واجتاز المطبخ وهو يمشي على رؤوس أصابعه ، ثم أحكم بهدوء أقفال الباب وراءه . وفي المدخل تعالت جلبة دلو حديدي وشُرع الباب فجأة على مصراعيه ، وخطا البيوروسي خطوة في المطبخ ، وقال بصوت خفيض ولكنه واضح :

— اني أسمع صوت مهميز .

ووثبت الأم من سريرها تتلصق يداها المرتعشتان ثيابها ، ولكن بول ظهر

على العتبة وقال لها بهدوء :

— إبقى في سريرك فأنت مريضة .

وُسمع خفيف خفي في الردهة ، فاقترب بول من الباب وقال وهو يدفعه بيده :

— من هناك ؟

وفي سرعة البرق انتصب في العتبة شبحٌ طويل رمادي، ثم تبعه آخر، وأحاط
الدركيان بالفتى، ورن صوت حادٍ ساخر :
— لسنا من تنتظرون أليس كذلك ؟

وكان المتكلم ضابطاً طويل القامة نحيفاً، يحمل شارباً أسود كثيفاً، وظهر
بالقرب من سرير الأم « فيدياكين » موظف البوليس في الضاحية، وهو يؤدي
التحية بإحدى يديه في حين تشير الثانية الى بيلاجي، ويقول، وهو يقلب
عينيه الخيفتين :

— هذه أمه يا صاحب السعادة .

ثم يضيف، وهو يحرك ذراعه باتجاه بول :
— وهذا هو بالذات .

وتساءل الضابط وهو يرخي أذنيه :
— بول فلاسوف ؟

وهز بول برأسه أن « نعم » وتابع الضابط وهو يقتل شاربه :

— يجب ان أجري تفتيشاً في منزلكم. انهضي أيتها العجوز.. من يوجد هناك؟
ونظر الى الحجره ثم توجه اليها بخطى واسعة :
— أسماءوك ؟

ودخل شخصان طلباً كشاهدين. إنها « تيرياكوف » السبّاك العجوز وأجيره
السائق « ريبين » الرجل الجاد ذو الشعر الأسود واللحية السوداء، الذي
قال، عند دخوله، بصوت ممتليء رنان : تحية يا بيلاجي .

وارتدت الأم ثيابها، ثم دمدمت لتمنح نفسها شيئاً من الشجاعة .

— يا لأساليهم . يأتون في الليل والناس نيام !

واكتظت بهم الحجره التي كانت تقح منها رائحة دهان قوية، وتقدم دركيان
ومفوض شرطة الضاحية « ريسكين » وهم يضربون بأحذيتهم أرض الغرفة ؛
فحملوا ما على الرف من كتب، وكدسوها على الطاولة أمام الضابط ؛ وكان
هناك آخران يضربان الجدار بقبضتيهما، ويفتشان تحت الكراسي، وتسلق

أحدهما المدفأة بصعوبة . وكان البيروسي وفيسوشيكوف ما يزالان في إحدى
الزوايا، يلتصق أحدهما بالآخر، وكان وجه نيقولا المجدور مغطى ببقع حمراء،
وعيناه الصغيرتان لا تتحولان عن وجه الطابط؛ أما اندريه فقد كان يمسد شاربه،
وعندما دخلت الأم الى الحجره حيّتها باحناء رأس حيمه باسمه .

وتقدمت بيلاجي، وهي تبذل جهدها في كبت رعبها، تقدمت لا بمشية
جانبيه كعادتها، بل شاحخة الصدر، وهذا ما أضفى على شخصيتها عظمة مصطنعة
ساخرة . لقد كانت تسير دونما ضجيج، وكان حاجباها يرتعشان .

وكان الضابط يأخذ الكتب برشاقة، يأخذها بين أنامله البيضاء النخيفة،
فيقلبها، ويهزها، ثم يطرحها جانباً بحركة بارعة. وكان أحدها يهوي احساناً الى
الأرض بشيء من الفتور. وكانوا جميعاً صامتين، فلا تسمع إلا شخير الدركيين
الذين يتصليون عرقاً، ورنين المهاميز، وسؤالاً يرتفع بين الفينة والفينة :
— هل فتشتم هنا ؟

وجلست بيلاجي بجانب بول قرب الحاجز، وشبكت مثله ذراعيها فوق
صدرها، وحدقت كذلك بالضابط، وكانت ركبتيها ترتعشان، والضباب
يقشّي عينها .

ولعل صوت فيسوشيكوف فجأة، حاداً قاطعاً :

— ولم تطرحون الكتب في الأرض ؟

وارتمشت الأم، وحرك فيرياكوف رأسه كأنه إنما تلقى صفة على رقبته،
وسعل ريبين وحدق في نيقولا بإمعان .

وأسدل الضابط أذنيه، ثم أغرق بصره، للحظة، في الوجه الجامد المجدور،
وراحت أصابعه تقلب الصفحات بسرعة أكثر، وكان، بين الفترة والفترة يبخلق
بمعيته الرماديتين، حتى ليخيل للرائي أنه يعاني ألماً خفيفاً، وأنه يكاد يطلق في
وجه هذا الألم صرخة كلية من الرعب .

وصاح فيسوشيكوف من جديد :

— ايها الجندي . اجمع هذه الكتب ..

وكان شخص ما يسير أمام المنزل ، والثلج يصر تحت خطواته .
وسأل الضابط :

- هل سبق يا ناكودكا أن أجري معك تحقيق في جرائم سياسية ؟
- نعم ، في روستوف ، وساراتوف ، ولكن رجال الدرك هناك كانوا
يخاطبونني باحترام .

وغمز الضابط بعينه اليمنى ، ثم فكرها ، وتابع ، وهو يكشر عن أسنانه الصغيرة :
- وألا تعرف ، يا ناكودكا ، نعم أنت بالذات ، ألا تعرف من هم السفلة الذين
ينشرون في المعمل النداءات المجرمة ؟

وترنح البيوروسي فوق قائتيه وكان ، والبسمة العريضة تنطرح على شفتيه ،
همم بأن يقول شيئاً ، عندما ارتفع من جديد ، صوت نيقولا المحنق :

- هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها سفلة !
واصفرت ندوب الجرح في وجه الأم ، وشغل حاجبها الآمين ، وراحت لحية
ريبين تهتز بشكل غريب ، وراحت أصابعه تسرحها ببطء وهو مطأطئ الرأس .
وصاح الضابط :

- إطرحوا هذا الحيوان خارجاً .
وتقدم دركيان فأخذوا نيقولا من إبطه ، واقتاداه بعنف الى المطبخ حيث
وقف ، وقد ستمر رجله في الأرض ، وصاح :
- انتظروا ريثما ارتدي ثيابي .

وعاد مفوض الشرطة ليقول : لقد فتشنا كل مكان فلم نعث على شيء .
وهتف الضابط مبتسماً : - مفهوم .. فنحن هنا أمام رجل خبير .
وكانت الأم تصغي الى صوته النسائي الراجف ، وتنظر برعب الى وجهه الأصفر ،
وتتدين ، في أعطاب هذا الرجل ، عدواً لا رحمة عنده ، وقلباً يملأه احتقار
ارستقراطي للشعب . إنها لا ترى ، رجالاً من هذه الفضيلة ، إلا نادراً ، حتى كادت
تنسى أنهم موجودون ؛ ودار في خلدتها : « هؤلاء هم الذين نضايقهم . »

وتلفت الدركيون جميعاً نحوه ، ثم تلفتوا الى الضابط الذي رفع أيضاً رأسه
ولفت هاماً نيقولا الضخمة بنظرة متفحصة ، وقال بصوت متساحب أخن :
- اجمعوها .

وانحنى أحد الدركيين ، وراح وهو يرمق فيسوشيكوف بطرف عينه ،
يجمع الكتب المتناثرة الأوراق .
ومست الأم في أذن ابنها :

- يجب ان يصمت هذا الـ « نيقولا » !
ولكن ابنها هز كتفيه : أما البيوروسي فطأ رأسه
- من منكم يقرأ الكتاب المقدس ؟

وأجاب بول : انا
- ولن هذه الكتب كلها ؟
فأجاب بول أيضاً : انها لي .
وقال الضابط وهو يستلقي على متكأ المقعد :
- حسناً .

ثم شد اصابع يديه الدقيقة ، ومد ساقيه تحت الطاولة ، وقتل شاربه ،
ونادى فيسوشيكوف :
- أنت اندريه ناكودكا ؟

وأجاب نيقولا وهو يتقدم نحوه :
- نعم .
ومد البيوروسي يده ، وأمسك نيقولا من كتفه ، وأرجعه الى الورا :
- انه مخطيء ، فأنا اندريه .

ورفع الضابط مهدداً فيسوشيكوف بسبابته :
- إحذر يا هذا ..
ثم راح يقلب اوراقه .

وفي الخارج كانت العيون اللامبالية ، عيون الليلة القمراء ترؤ من النافذة ،

- أيها السيد اندريه او نيسيموف فاكودكا، المجهول الأب، إني أمر بتوقيفك .

وسأل البيوروسي هدهود :

- ولأي سبب توقفتني ؟

وأجاب الضابط بتهديب حاقد : هذا ما سأقوله لك فيما بعد .

واستدار نحو بيلاجي : أتعرفين القراءة ؟

فرد بول : كلا .

- إني لا أسألك انت .

قال ذلك بقسوة ثم أردف :

- أجيبي أيتها العجوز .

وانتصبت الأم وقد اجتاحتها حقد غريزي عليه ، وانتظمتها رعدة كأنها انما

أغرقت في ماء بجمد ، وتخضبت ندوب وجهها بلون ارجواني ، وحط حاجبها ، ثم

أجابته وهي تمد نحوه ذراعها :

- لا ترفع من صوتك . فأنت ما تزال شاباً ، ولم تعرف الأسى بعد .

وقاطعها بول : هدئي من روعك يا أماه .

فصرخت وهي تندفع نحو الطاولة : لحظة يا بول ... ولم توقفون هؤلاء ؟

فصاح بها الضابط وهي تنهض :

- اخبرني ، هذا أمرٌ لا يعينك . أحضروا فيسوشيكوف .

وراح يقرأ في ورقة أمامه ، وهو يرفعها ويدنيها من وجهه .

وأدخل نيقولا . وصاح به الضابط بعد أن توقف عن القراءة :

- اخلع قبعتك .

واقترب ريبيّن من بيلاجي وقال لها بصوت خفيض وهو يدفعها من كتفها .

- لا تحتدي أيتها الأم .

وسأل نيقولا قاطعاً على الضابط قراءة المحضر :

- كيف أستطيع ان أخلع قبعتي ويدي مغلولتان ؟

فطرح الضابط الورقة على الطاولة وصاح به :

- وقتها .

ورنت الأم الى الحضور وهم يقعون محضر الضبط ، وكان انفعالها قد خمد ،

وقلبها قد وهن ، ودموع الاستخذاء والضعف تملأ عينيها . لقد سفحت مثل هذه

الدموع طوال الأعوام العشرين من حياتها الزوجية ، ولكنها ، كانت في سنواتها

الأخيرة ، قد نسيت حرقتها الكاوية .

ورنا اليها الضابط وقال بإيماء احتقار :

- لم يئن بعد أو ان البكاء يا سيدي... فاحذري . فقد لا يبقى لك شيء من

الدموع للغد .

فأجابته وقد عاودها الحنق :

- إن دموع الأمهات لا تنضب فعندهن منها ما يكفي ... وإذا كانت لك

أم فإنها تعرف ذلك جيداً .

ورتب الضابط أوراقه بسرعة في محفظة جديدة ، ذات قفل لamac ، وأمر :

- الى الامام ... سر .

وبصوت منخفض تملأه المرارة قال بول وهو يشد على أيدي رفاقه :

- الى اللقاء يا اندريه .. الى اللقاء يا نيقولا .

ورد الضابط بسخرية :

- أجل الى اللقاء .

كان فيسوشيكوف يتنفس باعياء ، وعنقه الضخم يحتمن بالدم ، وعيناه تبرقان

بالغضب الشديد . وكان البيوروسي ضاحك الوجه ، يمز رأسه ، موجهاً بعض

الكلمات الى الأم التي كانت تباركه بإشارة الصليب قائلة :

- إن الله يرى العادلين .

وتهادت الشرذمة ذات المعاطف الرمادية ، تهادت في المدخل على رنين المهاميز ،

ثم توارت . وكان ريبيّن هو آخر من انصرف . ولقد لف بول قبل ان يخرج

بنظرة متفحصة من عينيه السوداوين وقال حالماً :

- حسناً ... الوداع .

وخرج بطيء الخطى ، يسعل في لحيته .

وظل بول ، وقد شبك يديه وراء ظهره ، ظل يذرع ببطاء أرض الغرفة ، يذرعها طولاً وعرضاً بين الكتب المبعثرة ، والثياب التي تغطي الأرض ... ويردد متجههم الاساريير :

— أرايت كيف حدث هذا ؟

وغنمت الأم وهي تتأمل بقلق وحيرة ، الحجرة التي عصفت بها الفوضى .

— لم كان نيقولا فظلاً غليظاً ؟

ورد بول بهدوء :

— لقد كان بلا شك خائفاً .

ودمدمت بيلاجي ، بوهن واعياء :

— لقد جاؤوا ، وقبضوا عليهم .. ثم اقتادوهم ..

ولم يبق لها إلا ابناها . وأخذ الاطمئنان يعود الى نفسها ، في حين كان تفكيرها يتركز بلا جدوى ، على الواقع . هذا الواقع الذي لا تستطيع فهمه وإدراكه :

— لقد سخر منا ذلك الرجل الشاحب . إنه يهدد ..

وقاطعها بول بحزم :

— كفى يا أماه ، وتعالى ، نرتب ما بعثوا ..

لقد خاطبها بيا أماه ، وبصيغة المفرد كما كان يخاطبها حين يكون أكثر قرباً منها . وسارت هي اليه ، وحدثت في عينيه ، وسألته بهمس :

— هل أهانوك ؟

— نعم ... وانه لشديد عليّ ذلك . لقد كنت أفضل أن اذهب معهم .

وخيل للأم انها ترى الدموع في عينيه ، وتحس ألمه ، فصعدت زفرة وقالت له لتسري عنه :

— انتظر فسيأتي دورك أيضاً .

— أجل .

وبعد صمت قصير قالت بمرارة :

— لك انت قاسٍ يا بول ، فليتك على الأقل تواسيني . اني اذا ما تفوهت

بأشياء رهيبية ، زددت عليّ بما هو أشد رهبة .

فرشقها بنظرة ، واقترب منها وقال بهدوء :

— هذا ما لا أدريه يا أماه .. وعلى كل حال ، يجب ان تتعودي ذلك .

فتأوهت وصمتت ، ثم تابعت ، وهي تكبت ارتعاشة رعب :

— وهل يمكن ان يعذبوهم ؟ ان يمزقوا اجسادهم ويسحقوا عظامهم ؟ اني

عندما أفكر في هذا ، اواه .. انه لشيء رهيب يا صغيري بول . يا ابني الحبيب .

— انهم يعذبون الروح ، وهذا العذاب أشد إيذاءً وألماً حين تقتفره ايديهم القادرة .

— ١١ —

وفي صبيحة اليوم التالي علم ان بوكين وسوموف وخمسة آخرين قد اوقفوا ،

وفي المساء مر تيومانين مروراً خاطفاً : لقد فتشوا منزله هو ايضاً ، وشفوا غلته

ولذلك فهو يشعر بأنه بطل .

وسألته الأم : هل داخلك الخوف يا تيوي ؟

فشحب لونه ، وتقرع وجهه ، وارتعشت فتحة أنفه :

— لقد خشيت ان يضربني الضابط ، فلقد كان مارداً أسود اللحية ، يغطي

الشعر ذراعيه ، وتتركز فوق أنفه نظارتان سوداوان تبدو معها انه لا يحمل

في وجهه عينين . وكان يصرخ ، ويرفس الأرض بقدمه ، ويقول بأني سأتعفن في

السجن ، انا الذي لم يضربني احد من اهلي ، لا ابني ولا أمي ، فلقد كنت وحيدهما ،

وكانا يجبانني .

وأغمض عينيه لحظة ، وعض شفتيه ، وبجرمة سريعة نفس شعره بكلتا يديه ،

وقال وهو يحدث في وجه بول بعينه المحمرتين قليلاً :

— اذا ضربني احد ، فإنني أبقر بطنه بسكين ، واقطعه بأسناني . انه ليحسن

صنعاً حين يقتلني على الفور .

وصاحت به بيلاجي .

— إنك شديد الهزال ، شديد النحول ، فماذا تصنع للدفاع عن نفسك ؟

ولاك تيو هذه الكلمات :

- سوف افعل .

وعندما انصرف قالت الأم لبول :

- سيتحطم هذا قبل الآخرين .

واعتصم بول بالصمت .

وبعد لحظات قليلة فتحت باب المطبخ ببطء ، ودخل ريبين وقال باسمًا :

- تحية . هو ذا أنا . لقد حملت مساء أمس على المجيء ، اما اليوم ، فلقد

جئت بمطلق ارادتي .

وشد بين بول بحرارة ، وأمسك الأم من كتفها قائلاً :

- هل تقدمين لي الشاي ؟

وتحصن بول بصمت وجهه المريض ، البرونزي اللون ، ذا اللحية السوداء

الكثة ، والعينين القاتنتين ، وكان في نظراته الهادئة ما يبعث على الرهبة .

وانطلقت ببلاحي الى المطبخ تعد الشاي ، أما ريبين فقد جلس يداعب لحيته ،

وراح وهو يسند مرفقيه الى الطاولة ، يلف بول بنظرته السوداء .

وقال ... وكأنه يكل حديثاً سابقاً :

- وهكذا ... يجب عليّ ان أحدثك بصراحة . لقد راقبتك منذ أمد طويل

- فنحن نكاد نكون جارين - فلاحظت انك تستقبل كثيراً من الناس ، دون

ان ينتج عن ذلك شغب او فضائح .

هذا أولاً ... ثم ان الناس الذين لا يثيرون الفضائح ، يستلقتون الانظار

بسرعة : أليس كذلك ؟ وانا بزعمني ان ارى قوماً يعيشون في عزلة .

وكانت لهجته صارمة ، ولكنه كان يتكلم ببسر ، ويمسح لحيته بيده السمراء ،

وعيناه لا تتحولان عن بول :

- لقد اخذوا يتحدثون عنك ... ولكن رؤساءك في المعمل يسمنوك

زنديقاً ، فأنت لا تذهب الى الكنيسة ... وانا كذلك لا أذهب اليها ... ثم

هناك قضية المناشير التي ظهرت ... فهل انت صاحب هذه الفكرة ؟

- نعم ... انا .

فصاحت الأم هائجة وهي تخرج من المطبخ :

- ولكنك لست وحدك .

فابتسم بول ؛ وابتسم ريبين كذلك ، وهو يقول :

- حسناً .

وأحرق الأم انها لم يعبروا كلامها أي انتباه ، فنشقت بصوت مسموع ،

وعادت الى المطبخ .

هذه المنشورات كانت فكرة جميلة ... انها تحرك الجماهير ... بلغت

تسع عشرة نشرة ؟

- أجل

- لقد قرأتها جميعها بامعان ، وهناك أشياء لم أفهمها . اشياء لا ضرورة لها .

نعم . فعندما يتكلم المرء كثيراً ، تكون هناك كلمات كثيرة لا قيمة لها .

وابتسم ريبين ، وكانت اسنانه بيضاء قوية .

- ثم كان التفتيش ... وهذا على الأخص ما حملني على اثناذ موقف . أما

أنت والبيوروسي ونيقولا فلقد اسفرتن عن وجوهكم و...

ولم يجد اللفظة المبتغاة ، فصمت ، وألقى نظرة نحو النافذة ، وهو ينقر

بأصابعه على الطاولة :

- لقد أعلنتن عن عزمكم ... فكأنكم قلتن : « يا صاحب السعادة : تم بعملك

ونحن نقوم بعملنا » ... والبيوروسي هو ايضاً فتى طيب . لقد سمعته مراراً

يتكلم في المعمل ؛ وقلت في نفسي : هذا الفتى لا يمكن ان يحطّم والموت وحده

هو الذي يقهره . انه قوي الأعصاب ... أتصدقني يا بول ؟

فأجاب بول وهو يهز رأسه : نعم .

- حسناً . انت ترى أي في الاربعين ، فأنا أكبر منك مرتين ؛ وهذا يعني

أني رأيت أكثر منك عشرين مرة . لقد خدمت في الجندية ثلاث سنوات ،

وتزوجت مرتين ، أما زوجتي الأولى فقد ماتت ، وأما الثانية فقد هجرتها .

وكنت في القوقاز وعرفت الدوخوبورين « Dokhodors ». بحسب الناس يابني
انهم أسياذ الحياة المسيطرون عليها ، ولكن الأمر على عكس ما يعتقدون .

وكانت الأم تصغي بنهم الى حديثه الواصل ، وقد سرها ان ترى رجلاً ناضجاً
مثله ، يزور ابنها ويحدثه كأنه انما يعترف له ؛ ولكنها كانت تلاحظ ان بول
يعامل ضيفه بكثير من الفتور ؛ ولكي تزيل من نفسها هذه الانطباعه سألت ريبين :

— أتريد شيئاً من الطعام يا ميشال ؟

— اشكرك ايتها الأم فلقد تناولت عشائي ... هكذا إذن يا بول ، فأنت

تعتقد ان الحياة لا تسير حسب القانون ؟

ونض بول ، وراح يذرع أرض الغرفة ، ويداه وراء ظهره :

— كلا ... ان الحياة تسير على احسن حال . ألا ترى انها قادتك إلي متفتح

البصيرة ؟ انها توحد بيننا شيئاً فشيئاً ، نحن الذين نعطي العمل كل وجودنا ؛

وسأتي الوقت الذي توحدنا فيه جميعاً . انها جائزة قاسية بالنسبة لنا ، ولكنها

هي نفسها التي تقفح عيوننا وتكشف لنا عن معناها المرير . انها هي نفسها التي

تعلم الانسان كيف يستحث خطاه .

وقاطعه ريبين :

— هذا صحيح . يجب ان يُجدد الانسان . اذا كان جرباً فقد

الى الحمام ، اغسله وألبسه ثياباً نظيفة ، فإنه سيشفى ... أليس هذا صحيحاً ؟

ولكن كيف ننظف الإنسان من الداخل ! هذه هي المشكلة .

وراح بول يتحدث بحرارة وحيوية عن السلطات ، عن العمل ، عن الطريقة

التي يدافع بها العمال في الخارج عن حقوقهم . وكان ريبين ينقر الطاولة أحياناً

بأصبعه ، كأنه إنما يضع النقاط ، ولكنه كان يصيح في كل مرة

— هذا هو الواقع .

وجاء وقت ارتسمت فيه على شفتيه بسمة مخترلة ، ثم قال يهدوء :

— هه ؛ انك شاب ؛ انك لم تعرف الناس بعد .

ولكن بول أجابه باتزان وهو ينتصب أمامه :

— يجب ألا تتحدث عن الشيخوخة او الشباب ، ولننظر أي الأفكار

هي الأصح .

— إذا فإتهم ، حسب رأيك ، بخدوعتنا حتى في الله ؟ هذا صحيح . ثم إني

اعتقد ايضاً ان الدين الذي نتمسك به ليس هو الدين الصحيح .

... وهنا تدخلت الأم . لقد كانت حين اخذ ابنها يتحدث عن الله ، وعن

كل ما عيس الإيمان ، وعمما هو عزيز لديها ومقدس ، كانت تلاحق باستمرار نظراته

لتطلب اليه بصمت ألا يترق قلبها بتبشير القاسي الكنود ، ولكنها كانت تعتقد

انها تتلمس الأيمان في تشككه ، وهذا ما كان يطمئنها ويجعلها تسائل نفسها :

« كيف استطيع ان افهم افكاره ؟ » ، ولقد تصورت انه لمن المزعج والمشين في

آن واحد ، ان يستمع ريبين ، وهو الرجل الناضج ، الى موعظة بول ، ولكنها

عندما طرح الضيف سؤاله لم تتالك ان تجيب بإيجاز واصرار :

— عندما تتحدثون عن الله تعالى ، يجب ان تكونوا أكثر جذراً ، أما انتم ،

فمن المؤكد انكم تفعلون ما تشاؤون .

واستعادت انفاسها ، وتابعت باندفاع وقوة :

— علام تعتمد عجوز مثلي في حزنها اذا انتزعت الله منها ؟

وظفحت عيناها بالدمع . وكانت تغسل الآنية ويدها ترعشان .

وقال بول بوقار وحنو :

— إنك لم تقهيننا يا أمّاه .

وأضاف ريبين بصوت بطيء معبر وهو يلتفت الى بول باسمًا :

— ساحيني ايتها الأم ، فلقد نسيت أنك طمنت في السن لدرجة لا نستطيع

معها اجثاث ثأليلك .

وتابع بول :

— لم اكن اتحدث عن الله الطيب الرحيم الذي تؤمنون به ، بل عن الله الذي

تهددنا به الكهنة ، كما لو كانوا يهدوننا بعضاً عن إله يُراد باسمه ان يخضع العالم

كله للإرادة القاسية ، ارادة البعض .

وصرخ ريبين وهو يضرب الطاولة :

- اجل . هذا هو الواقع . لقد زيفوا لنا حتى الله ، وسخروا ضدنا كل ما في ايديهم . أتذكرون ايتها الأم ؟ لقد خلق الانسان على شاكلته ، على صورته ، اذا فهو يشبه الانسان اذا شابه الانسان ، ولكننا نحن لا نشبه الله ، بل نشبه الوحوش الضارية . انهم يظهره لنا في الكنيسة على شكل فزاعة . لذا ينبغي ان نطور الله ، ايتها الأم ، ينبغي ان نظهره ، فلقد ألبسوه ثوباً من الكذب والتميمة وشوهوا وجهه ليقتلوا روحنا .

وكان يتكلم بصوت منخفض ، ولكن كل كلمة من كلماته كانت تنقض على رأس الأم كالقبضة الثقيلة ، فترميها بالصمم ، وكان وجهه العريض الذي توطره لحيته السوداء بإطار من حداد ، يثير رعبها ، وألق عينيه القاتم يثقل عليها ويوقظ في قلبها الخوف المعضب .

وقالت وهي تهز رأسها :

- خير لي ان انسحب ، فإن سماع هذا التجديف أمر فوق احتمالي .

وهربت الى المطبخ في حين كان ريبين يصرخ :

- أرايت يا بول ؟ ليس هو العقل مرتكز كل شيء بل القلب ، فالعقل منطقة في الانسان ، لا ينبت فيها شيء آخر ... ابدأ ..

فقال بول بإصرار :

- ان العقل وحده هو الذي سيجرر الانسان .

وأجاب ريبين بعناد :

- ان العقل لا يعطي القوة ، أما القلب فيعطي قوة ، ولكنه لا يعطي عقلا . وكانت الأم قد تحففت من ملابسها ، واستلقت دون ان تؤدي صلاتها ، وكانت تحس بالبرد ، وتشعر بانحراف صحتها .

ان ريبين الذي بدا لها ، أول الأمر ، متزنًا صحيح التفكير ، يثير الآن كرها . وكانت تردد وهي تصغي الى صوته :

- زنديق ، باذر فوضى .. لقد كان ينقصنا ان يأتي هو أيضاً ..

... اما هو فكان يتكلم بهدوء وثقة :

- ان المكان المقدس يا بول يجب ألا يظل فارغاً . وان نفسنا نقطة حساسة . انها المكان الذي يسكنه الله ، فإن يهجرها يشق فيها جرحاً ، وعلينا ان نكتشف ايماناً جديداً ، ان نبدع إلهاً يكون صديقاً للناس .
فصاح بول : هذا ما كانه المسيح .

- لم يكن المسيح ذا إرادة ثابتة : لقد كان يقول : ابعدي هذا الكأس . ولقد كان يعترف بقيصر ، أما الله فلا يعترف بسلطان انسان على الآخرين لأنه هو السلطان كله . انه لا يجزيء نفسه ، ولا يقول : هذا إلهي ... وذلك بشري . وكان المسيح يبيع التجارة ، ويبيع الزواج ، ثم انه لمن شجرة التين ، فكان ذلك ظلماً ، فمجرمة هي لأنها كانت لا تحمل ثمراً ؟ اذا كانت النفس لا تعطي الثمر الطيب ، فليس الذنب في ذلك ذنبها ، افأنا الذي غرس الشر فيها ؟ قل لي ؟

وكان صوتها لا يفتأ يلعلع في الحجرة ، يعلو تارة وينطفئ أخرى ، وكان بول يروح ويحيي ، والحشب يصير تحت خطواته ، وكانت الأصوات كلها تنصهر حين يتكلم ، في دوي صوته ، أما ريبين فكانت دقائق الساعة تسمع عندما يجيب بصوته الاجش الهادي ، كما تسمع ايضاً الفرقة الجافة ، فرقة الجليد الذي كان يخذش بأظفاره الحادة جدران المنزل .

- سأقول لك على طريقي كسائق ، ان الله كالنار . انه يعيش في القلب ، ولقد قيل : ان الله هو الفعل ، والفعل هو الفكر ...

فردد بول بإصرار : هو العقل .

- هو كذلك ، وهذا يعني ان الله هو في القلب ، وفي العقل وليس في الكنيسة . ان الكنيسة هي قبر الله .

وكانت الام قد نامت ، فلم تشعر بريبين عندما خرج .

... وأخذ يتردد على بول دائماً ، وكان حين يجد أحد رفاقه عنده يقبع في

الزوايا صامتاً يردد بين الفينة والفينة هذه الكلمة :

- هذا هو الواقع .

وفي احدى المرات نقل بصره بين الحضور ، وقال بوجه باسم :

- يجب ان تتحدثوا عما كان ... أما الذي سيكون فلا يعرفه أحد .

اسمعوا : عندما يتحرر الشعب يقرر بنفسه ماذا يحسن به ان يفعل . انهم يحشون رأسه بأشياء لا يريدوها ، وهذا يكفي . ليختبر الشعب نفسه ، فلربما كان يود ان يرفض كل شيء ، الحياة كلها ، والعلم كلها ، ولربما رأى أن كل شيء موجه ضده ، كإله الكنيسة مثلاً ، وليس لكم انتم إلا ان تضعوا بين يديه الكتب كلها ، وسيجيب هو بنفسه جيداً .

وكان إذا ما وجد بول وحده ، يدخلان في نقاش لا نهاية له ، ولكنه نقاش هادئ أبداً ، وكانت الام تصغي اليها بقلق ، وتتبعها بنظراتها محاولة ان تفهم ما يقولان . وكان يخيل لها أحياناً ان الفلاح ذا المنكين العريضين واللحية السوداء ، وابنها القوي الشديد البنية . قد أصيبا كلاهما بالعمى . لقد كانا يسيران من ناحية إلى أخرى بحثاً عن مخرج ، ويتشبهان بكل شيء ، ويزعزعات كل شيء بأيديها القوية غير الحاذقة ، ويبدلان وضع الأشياء ، ويطحرانها ارضاً ثم يدوسانها بأقدامها ... وكانا يلامسان هذا ، ويتلمسان ذلك ، ثم يدفعاها كليهما دون أن يفقدا الامل ، ولا الإيمان .

وكانا قد عوداها سماع الكثير من الكلمات الخفية ، يتلفظان بها بجرية ووقاحة ، ولكن هذه الكلمات كانت لا تصدمها بنفس العنف الذي تعرضت له أول مرة ، فلقد تعلمت كيف تتحامي تأثيرها ، وكانت أحياناً تستشعر وراء الكلمات التي تتكرر وجود الله ، إيماناً قوياً به ، وإذا كان ريبين لا يعجبها ، فإنها لم تعد تضمير له الكره الذي عرفته من قبل .

وكانت تذهب الى السجن مرة في الاسبوع لتحمل إلى البيوروسي الثياب والكتب ، وقد استحصلت يوماً على إذن بمقابلته ، وعندما قفلت ، راحت تتحدث عنه بجنان :

- إنه ما فتىء كما عرفناه في البيت ، لطيفاً مع كل الناس ، يازح من يمازحه . إن السجن بالنسبة له قاسٍ ومؤلم ، ولكنه لا يُظهر ذلك ابداً .
وعلق ريبين :

- هكذا يجب ان يكون الرجل . إننا نعيش جميعاً في العذاب ، وتنفس به ، كأنه جزء من كيانتنا ، وليس هناك ما نزهو به . إن الناس ليسوا معصوبي العيون ، كلهم ، بل هناك من يعصب عينيه بنفسه . وعندما يكون الناس ضرباً من الحيوانات ، لا يكون لنا إلا ان نصبر .

- ١٢ -

كان منزل آل فلاسوف الصغير الأشهب ، يسترعي اكثر فأكثر ، انتباه سكان الضاحية ؛ وكان في ذلك الاهتمام الذي يولونه إياه كثيرٌ من الحذر والريبة ؛ والكره اللاواعي ؛ والى جانب هذا الشعور كان ينمو باطراد فضولٌ مطمئن . وكثيراً ما كان يقبل على المنزل رجل مجهول ليقول لبول وهو يتفحص ما حوله بكثير من الاحتراس :

- يا بني إنك تقرأ الكتب والقوانين ، ومن المحتم أنك تعرفها ، إذن تعال فاشرح لي .

ثم يروي لبول ظلامة أحققها به رجال البوليس أو إدارة المعمل ، وفي الحالات المعقدة ، كان بول يسطر بطاقة صغيرة ، ويرسل الرجل الى المدينة ، الى محام من معارفه ، وقد يشرح بنفسه للسائل الأشياء التي تستعصي على فهمه ، حين يكون ذلك بمقدوره .

وأخذ شعور الاحترام يتنامى شيئاً فشيئاً ، الاحترام لهذا الشاب المتزن الذي يتكلم عن كل شيء ببساطة وجرأة ، ويلاحظ ويصغي لكل شيء بانتباه ، وينغمس بعناد في خضم كل قضية خاصة معقدة ، ويكتشف أبداً الخيط المشترك ، الخيط الذي لا نهاية له والذي يربط الآلاف من البشر بوشائج لا تنفصم .

وزادت مكانة بول في نظر الرأي العام أيضاً ، بعد حادثة «كوبك المستنقع»^(١) فلقد كان ينبسط وراء المعمل مستنقع واسع ، تنمو فيه اشجار الشربين والخور ويكاد يؤلف حوله حلقة عفنة ؛ وفي الصيف كانت الاجخرة الصفراء الكثيفة تتصاعد

(١) الكوبك جزء من مائة من الروبل - اي الليرة الروسية .

(المترجم)

منه ، مع سحب البعوض التي تنتشر في الضاحية ، فتزرعها بالحيئات .
وكان المستنقع ملكاً للمعمل ؛ وقد وضع المدير الجديد مشروعاً لتجفيفه
يقصد الاستفادة منه ؛ وفي الوقت نفسه لاستخراج ما فيه من فحم . وقد قال
للمال ان هذه العملية تجعل جو المنطقة صحياً ، وتحسن شروط المعيشة ، وأصدر
أوامره باقتطاع كوبك واحد من كل « روبل » من اجورهم ؛ لتأمين المال اللازم
للتجفيف .

وكان استياء العمال عظيماً ، وأثارهم بشكل خاص ان هذه الضريبة الجديدة لم
تكن تطبق على الموظفين المستخدمين .

وفي اليوم الذي اعلن فيه قرار المدير اي يوم السبت ، كان بول مريضاً فلم
يشتغل ، ولم يعرف شيئاً عن القضية ، وقد جاءه في اليوم الثاني ، بعد القداس ،
المعدن سيزوف - وهو عجوز لطيف - وصانع الاقفال « ما كوين » وهو رجل
فارح القامة شديد النزق فقصاً عليه ما حدث .
وقال سيزوف باتزان :

- لقد اجتمع المستون فينا وتباحثنا في الموضوع ، فأوقدنا رفاقنا إليك
لنساءك لأنك رجل واع مثقف ، عما إذا كان هناك قانون يميز للمدير ان يشن
الحرب على البعوض بدرامنا ؟

وقال ما كوين وهو ينقل عينيه المتقبضتين :

- إنك تذكر ان « الشطار » كانوا قد جمعوا المال منذ سنوات اربع .
لبناء حمامات . ولقد تجمع لديهم يومذاك ثلاث آلاف وثمانماية روبل . ولم تنشأ
الحمامات فأين ذهب المال ؟

وبين بول جور هذه الضريبة ، وأظهر الفائدة الكبرى التي يجنيها المعمل من
تحقيق هذا المشروع ، وعلى هذا الأساس انصرف الرجلان ، وقد بدا عليها التجهم .
وقالت الأم باسمة بعد ان شيعتها الى الباب :

- ارأيت يا بول . حتى الطاعنون في السن يأتون إليك ليتزودوا من فطنتك .
ولم يجب بول ، بل جلس الى طاولته مهيموماً ، وراح يكتب ، وبعد بصح
دقائق قال لها : ارجوك الذهاب فوراً الى المدينة لا يصلح هذه الوريقة .

- وهل الامر خطير ؟

- أجل ... فهناك تطبع جريدتنا ، ويجب مها كلف الامر أن تظهر قصة
« الكوبك » في العدد المقبل .

واجابت : حسناً ، سأنتقل حالاً .

وكانت هذه اول مهمة يكلفها بها ، وكانت سعيدة لأنه أنبأها عن محتواها
بصراحة .

وقالت وهي ترتدي ثيابها :

- إني ادرك هذا يا بول ، انه عمل لا يختلف عن السرقة . ماذا يدعى ذلك
الرجل ؟ ايفور ايفانوفيتش ؟

... وعادت في المساء متأخرة منهكة ، ولكنها سعيدة ، وقالت لابنها :
- لقد رأيت ساندرين وهي تسلم عليك ... وايفور هذا ، ليس بالمتعجرف
إنه يمزح بلا انقطاع .

واجابها بول برقة :

- اني في غاية السرور لأنهم ظفروا باعجابك .

- يالهم من قوم بسطاء يا صغيري بول . كم هو جميل ان يكون الناس بسطاء .
ثم ... انهم جميعاً يقدرونك .

ولم يذهب بول نهار الاثنين الى العمل ، فلقد كان يشكو بعض الصداع ، غيظ
ان « تيومازين » اقبل عليه ، عند الظهر ، منفعلاً مسروراً ، وأخبره وهو
يسترد انقاسه :

- اسمع . لقد ثار عمال المعمل جميعاً ، وبعثت اليك لأحضرك . فلقد قال
سيزوف وماكوتين انك تستطيع شرح القضية احسن من الآخرين . ليتك ترى
ما يحدث ؟

وارتدى بول ثيابه دون ان يتفوه بكلمة .

- لقد تجمعت النسوة ، وبدأن الصراخ .

وقالت الأم : وانا ايضاً سأذهب ، لأرى ماذا يطبخون هناك ؟ سأذهب

وقال بول : اذهي .

وساروا مسرعين ، صامتين ، وكان الانفعال يرهق الأم ، فتحس ان شيئاً
فظيحاً سيحدث . وعند باب العمل ، كان رهطٌ من النساء ، يصرخن ويتشاجرن .
وعندما اوشك الثلاثة ان يندفعوا الى الساحة ، اصطدموا فجأةً بجمع كثيف
اسود يضح هياجاً ، ولاحظت الأم ان العيون كلها كانت تتلفت باتجاه واحد ،
نحو جدار معمل الحديد . وهناك كان يقف سيزوف ، وماكوتين ، وفيالوف ،
وخمسة آخرون او ستة من العمال النافذين الناضجين ؛ يقفون على كومة من بقايا
الحديد ، وهم يؤشرون بأيديهم .

وصاح احد الناس : هو ذا فلاسوف .

— فلاسوف ؟ ليأت الى هنا .

وتعالت الصيحات من هنا وهناك :

— الصمت . الصمت .

وارتفع من مكان قريب صوت ريبين المتسقى الثبرات :

— يجب ان تقاوم من اجل العدالة ، لا من اجل «كوبك» ؛ وان ما
تتمسك به ليس هو هذا الكوبك ؛ فهذا القرش الصغير ليس اكبر من سواه
ولكنه اثقل وزناً ، لانم اغنى بالدم البشري من « روبل » مدير . إننا لا نصنع
منه قضية ولكننا نصنعها من دمنا ، من الحقيقة .

— احسنت . هذا صحيح يا ريبين .

— انك على حق ايها السائق .

— هو ذا فلاسوف .

وكانت الاصوات تتلاقى في عاصفة من الضجيج والضوضاء ، فتطنفى على جلبة
الآلات وتأوهات البخار العميقة ، ودوي الحركات ، وكان الناس يترაკضون
من كل صوب ، يلوحون بسواعدهم ويحمس بعضهم بعضاً ، بكلمات ملهبة مثيرة .
إن الهياج الذي كان يغفو ابدأ في الصدور المتعبة يستيقظ الآن ، وينشد لنفسه
منطلقاً ؛ وهامي القضية تنطلق منتصرة ، ناشرة جناحيها القاطنين لتنظيم الجماعات

بقوة متناهية ولثيها وتمخضها وتهدما بالحقد اللاهب المسعور .
وكانت سحابة من الضباب والغبار تسبح فوق الحشد ، وكان العرق يتصبب
من الوجوه المحترقة ، وهمي دموعه السوداء على الوجنات المسفوعة ، وكانت
الاسنان تلعب ، والعيون ينطلق منها الشرر .

وظهر بول الى جانب سيزوف وماكوتين ، وعلت صرخته :

— ايها الرفاق .

ولاحظت الأم ان وجه ابنها كان مصفراً ، وان شفتيه كانتا ترتعشان
فاندفعت بلا وعي منها الى الامام ، تشق لنفسها طريقاً بين الحشد . وكان
الحضور يتدافعونها ويقولون لها بحق : الى اين تريدن الذهاب ؟ ولكن ذلك
لم يثنها ، إذ استطاعت ان تشق طريقها بين الجمهور بكتفها ومرفقيها ، واستطاعت
ان تقترب ببطء من ابنها ، مدفوعة برغبة جاحدة في ان تكون على مقربة منه .
وعندما قذف بول تلك الكلمة التي شحنها بمعنى عميق هائل ، احس بتشنج
الفرحة ، فرحة النضال يزحم حنجرتة ، واجتاحته الرغبة في ان يلقي الى الجماهير
بقلبه ، هذا القلب الذي استغرقه حلمه اللاهب بالحقيقة والعدالة .

— ايها الرفاق

وكررها ، وهو يصب فيها كل حيويته واندفاعه :

— إننا نحن الذين نبني الكنائس ونقيم المصانع ؛ نحن الذين نصنع السلاسل
ونصهر النقود ، نحن القوة الحية التي تهب الناس جميعاً الحسب والملاذات من المهدي
الى اللحد .

وصرخ ريبين : اصبت ، اصبت .

— ابدأ وفي كل مكان . نحن اول من يعمل ، وآخر من يعيش . من من
الناس يتم بأمرنا ؟ من منهم ينشد خيرنا ؟ من منهم يعاملنا كبشر ؟ لا احد .
... ودوت صوت : لا احد .

وراح بول بعد ان سيطر على نفسه ، يتكلم بكثير من البساطة والهدوء ،
واخذ الحشد يدنو منه شيئاً فشيئاً ، ويكتظ حوله كجسد قائم كثير الرؤوس

ويحدق به بثات العيون اليقظة ، وينتشي بأقواله .

— لن يكون لنا مصير إذا لم نشعر بأننا رفاق ! وإذا لم نكون أسرة واحدة من الاصدقاء ، تربطها بقوة رغبة واحدة ، رغبة النضال من أجل حقوقنا .

وتعالت بالقرب من الام اصوات خشنة :

— اخلص بنا الى النتائج .

وتصاعدت اصوات اخرى من هنا وهناك :

— دعوه يتكلم .

وكانت السحن المسودة المحتقنة تبدو حذرة متشككة ، وكانت بعض الابصار تتركز على بول وقورة متاملة .

وقال أحدهم : انه اشتراكي ، ولكنه ليس غيباً .

وصاح رجل أعور ضخم الجرم ، متين البنية ، صاح وهو يدفع الأم يكتفهم :

— انه ليس بخائف .

— لقد آن ايها الرفاق ، ان ندرك ان احداً لن يساعدنا إذا لم نساعد نحن

انفسنا . الفرد للجميع ، والجميع للفرد ، هذه هي شريعتنا إذا كنا نريد ان نقهر عدونا .

وصاح ما كوتين : إنه على حق ايها الفتيان .

ثم لرج بقبضته في الهواء ، بمحركة عريضة .

وتابع بول : يجب ان نحمل المدير على الحضور الآن ...

وكان إعصاراً أعصف بالحشد ، فأخذ يتموج ، وأخذت عشرات الاصوات

تتعالى متضامنة :

— المدير ، المدير .

— لترسل إليه وفداً في الحال .

وكانت بيلاجي قد بلغت الصف الامامي ، وراحت تحدق ، من اسفل ،

بابنها ، وقد امتلأت زهواً . وكان بول هناك ، بين العمال الشيوخ الذين يحظون

بالاحترام والتقدير ، وكانت الجموع كلها تصفي إليه وتمتصوب رأيه ، ومر ما أنه

لم يفقد اعتداله ، وانه لا يجدف كالأخرين .

وكنقاط الماء المتساقطة على سطح من تنك ، انهمرت الهتافات المتقطعة ،

وانهمر معها السباب والشتم ، وكان بول يتطلع من على الى الحشد ، بعينه

الواسعتين المفتوحتين كأنه إنما يبحث عن شيء ما .

— اعضاء الوفد .

— سيزوف .

— فلاسوف .

— ريبين ... فهو شرس الناب .

وفجأة نددت بعض الصرخات اقل دويلاً :

— هو ذا مقبل علينا .

— المدير .

وافسح الجمهور الطريق لرجل فارح القامة ، مستطيل الوجه ، يحمل في اسفل

ذقنه لحية خفيفة ، فاندفع ، ينحني العمال من طريقه بمحركة عصبية من يده ،

ينحيتهم دون ان يلسمهم ، مردداً :

— اسمحوا لي .

وكانت عيناه مزورتين ، وبصره يتفحص وجوه العمال بنظرة متقصية مستشفة ،

نظرة رجل مجرب ، وكان هؤلاء يرفعون له قبعاتهم ، وينحئون ، في حين كان

هو يتابع طريقه دون ان يرد على مظاهر الاحترام هذه ، ناشراً الصمت

والاضطراب في صفوفهم ، بشكل يستشعر المرء معه ان وراء البسات المرتبكة

وضجيج الهتافات الاصم ، ندم أطفال واعين ، على الحماقات التي ارتكبوها .

ومر أمام الام مصوباً إليها نظرة قاسية ، ثم توقف أمام كومة الحديد .

ومد له احداهم يده من اعلى فلم يلسمها ، وبمحركة رشيقة قوية تسلق ، واتخذ

لنفسه مكاناً امام بول وسيزوف .

— ماذا يعني هذا الاجتماع ؟ ولماذا تركتم العمل ؟

وخيم الصمت في لحظات ، وتموجت الرؤوس كالسنابل ، وبدا على سيزوف

انه يود لو يقذف بقبعته في الفضاء ، ثم هز كتفيه وطأطأ رأسه .

وصرخ المدير : أجيئوا .

فانتقل بول الى جانبه ، وقال بصوت قوي مشيراً الى سيزوف وريبين :
- لقد كلفنا نحن الثلاثة ، من قبل وفاقنا ، ان نبذلك ضرورة الرجوع عن
قرارك باقتطاع « كوبيك » من اجورنا .
وقال المدير دون ان ينظر الى الشاب :
- ولماذا ؟

فرد بول بصوتٍ داورٍ :

- لاننا نعتبر هذه الضريبة جائزة .

- انكم إذا لا ترون في مشروعى الراي لتجفيف المستنقع إلا رغبة في
استئثار العمال ، لا وسيلة لتحسين مستواهم ، أليس كذلك ؟

وأجاب بول : نعم !

وسأل المدير ريبين : وأنت أيضاً ؟

فرد هذا : ان وجهة نظرنا جميعاً متفقة .

وقال المدير ، وهو يستدير نحو سيزوف :

- وأنت أيها « البطل » ؟

- وأنا أيضاً أرجوك ان تتخلى عن « قرشنا » .

وابتسم بارتباك وهو يطأطئه رأسه من جديد .

وأجال المدير بصره ، في الحشد ، ببطء ، وهز كتفيه ثم صب على بول نظرة

متفحصة وقال :

- إنك شاب مثقف ، كما أحسب ، فهل أنت أيضاً لاتدرك فائدة هذا المشروع ؟

- إذا جفف المستنقع على نفقة العمل ، فإن كلامنا يمس فائدة ذلك .

فأجاب المدير بيجفاف :

- ليس العمل مؤسسة للإحسان ، واني أمرمك جميعاً باستئناف العمل فوراً .

ثم هبط ، تتحسس أطراف قدميه الحديد بجذر ، ولا يلتفت الى أحد .

وانتشرت بين الجمع ضوضاء تم عن عدم الرضا فتوقف المدير وسأل :

- ما هذا ؟

وصمت الجميع إلا صوت لعلع من بعيد ، من بين العمال :

- اذهب واعمل بنفسك .

وصاح المدير وهو ينتزع الكلمات انتزاعاً :

- سأفرض الغرامة عليكم جميعاً إذا لم تستأنفوا العمل في مدى ربع ساعة .

ثم تابع سيره وسط الزحام ، وارتفعت وراءه غمغمة خرساء ، وكان كلما

نأى ، تغلوشيناً فشيناً ضوضاء الأصوات .

إذهب الآن وكلمه .

- هذا هو موقفهم من حقوقنا .. آه .. إننا حقاً لمحظوظون .

وكانوا يصرخون في وجه بول :

- هه أيها الهامي ، ماذا يجب ان نفعل الآن ؟

فيما يشطن بالكلام ، لقد أحسنت الكلام . . . ولكنه أتى ولم يتيسر

الحال .

- وأنت يا فلاسوف ... ما العمل ؟

وتلاحقت النداء آت الملحة ، فأعلن بول :

- إيها الرفاق .. إني أقترح ان تتركوا العمل ما زال مصراً على اقتطاع

« كوبيك » من أجرنا .

وتأججت جذوة الهياج من جديد :

- إنك تحسبنا بلهاء .

- الاضراب ؟

الاضراب من أجل « كوبيك » ... ؟

- وماذا بهم ؟ ... فلنضرب .

- إنهم سيطرحوننا جميعاً خارج الابواب .

- ومنذ الذي يستجديهم البقاء ؟

- سيجدون من يتوسل إليهم .

- أمثال يرضاس ؟

ونزل بول ، وعاد الى جانب امه ، وعاد حولها الطين : هذا يجادل ذلك ،
والكل منفعلون صارخون .

وقال ريبي لبول وهو يقترب منه :

— لا تلعن الاضراب ، فالشعب متعطش الى الريح ولكنه جبان ، وهناك
ثلاثمائة عامل فقط قد يتبعونك لا أكثر . إننا لن نستطيع ان نزيح « مزبلة »
ك هذه بمذراة واحدة !

وكان بول صامتاً ينظر الى الحشد ذي الوجه الاسود الهائل ، ينظر إليه وهو
يتامل ، ويحرق به ينتظر منه شيئاً ، وكان قلبه يخفق بضيق ، ويتراءى له ان
كلماته قد تبددت دون أن تترك أثراً في نفوس القوم ؛ كالمطرات المتناثرة
المتساقطة فوق أرض أنهاكها طول الجفاف .

وقفل الى منزله حزيناً منهكاً ، وكانت امه وسيزوف يسيران وراءه أما
ريبي فكان يسير الى جانبه وصوته يطن في اذنه :

— إنك تتكلم جيداً ، هذا صحيح ، ولكنك لا تمس القلب ، والشرارة يجب
ان تلقى في أعماق القلب . إنك لن تقنع الناس بالمنطق ، فالخذاء لطيف جداً
ولكنه شديد الضيق على أقدامهم .

وكان سيزوف يقول للأم :

— هذا هو الزمن الذي يجب أن نرحل فيه ، نحن المجائز ، الى المقبرة ؛ لاننا
الآن أمام شعب جديد ينمو . كيف نعيش ؟ لقد كنا نرحف ، وننحني حتى
الأرض لكي نحيا . ولكنني لا أدري ما إذا كان الشبان قد تابوا اليوم الى رشدهم ،
أم أنهم ما زالوا ينغمسون في ضلال يفوق ضلالنا أنهم على كل حال ليسوا مثلنا .
لقد رأيتهم كيف يخاطبون المدير كأنه نداء لهم . أجل . . . الى اللقاء يا بول ،
لقد أحسنت يا بني الدفاع عن الناس ، وستجد بعونه تعالى للطريقة التي تتقدم
بها ، إن شاء الله .

ومضى سيزوف ؛ ودمدم ريبي :

— الى قبرك ، لا رذك الله . فإنك لم تكن اليوم إنساناً بل غراء صالحاً لسده
الشقوق . رأيت يا بول ؟ إن أولئك الذين كانوا يهتفون ليرسلوك مندوباً عنهم .
إنهم هم أنفسهم الذين كانوا يقولون عنك أنك اشتراكي مشاغب . أجل إنهم هم .
لقد كانوا يتهامون : سيترد من المعمل ، وهذا ما يليق به .
— إنهم على حق بوجهة نظرهم .

— والذئاب أيضاً على حق عندما يمزق بعضها بعضاً .

وكان وجه ريبي مكفهراً وصوته يرتعش بشكل غير معتاد .

— إن الناس لا يصدقون الكلام المجرد العاري ، بل يجب أن تتألم ليصدقوك ،
وأن تقمس كلماتك بالدم .

... وظل بول طوال نهاره مغموماً ، مضنياً ، يسيطر عليه قلق غريب ،
وكانت عيناه البراقتان تبدوان كأنها تبحثان عن شيء ، وقد لاحظت امه ذلك ،
فسألته يجزع : ما بك يا صغيري بول ؟

فأجابها مطرقاً : إنه الصداع .

— يجب أن تنام ، وسأذهب لاستدعاء الطبيب .

— لا حاجة لذلك .

وحدث نفسه بصوت هامس :

ما زلت فتى تنقصني القوة . هذا هو الواقع . إنهم لم يثقوا بي ، ولم يتبعوني
لأنني لم أعرف كيف أقول لهم الحقيقة . وان ذلك لإذلال لي .

وقالت له أمه برقة ، وهي تزو الى وجهه المتجهم وتغزيه :

— قليلاً من الصبر ، إنهم لم يفهموا اليوم شيئاً ، ولكنهم غداً سيفهمون .
يجب أن يفهموا .

— هذا مؤكد ، فلقد فهمت أنا نفسي حقيقتك .

ودنا بول منها : ولكنك يا أماه امرأة طيبة .

ثم تحول عنها أما هي فقد هزتها الرعدة ، كما لو أحرقتها النار ، متأثرة
بالكلمات التي سمعته يردد ما هاساً ، ووضعت يدها على قلبها ، وابتعدت متقبلة

بجذر دعاب ابنها .

، وفي الليل عاد رجال الدرك ، فيما كانت هي نائمة ، وكان هو في سريره يقرأ ، عادوا واستأنفوا التفتيش بضراوة . لقد فتشوا في كل مكان ، في غرفة المؤونة ، في فناء الدار ، وتصرف الضابط الباهت اللون ، كالمرّة الأولى ، تصرفاً جارحاً ساخراً ، كأنما كانت هوايته أن يسخر ، وقد أجهد نفسه ليمسهم بسخريته حتى الأعماق ، وكانت الأم تجلس في إحدى الزواليا صامتة لا تحول بصرها عن ابنها ، أما هو فكان يحاول أن يكبت اضطرابه ، ولكن أصابعه كانت ترتعش بشكل غريب عندما يضحك الضابط ، وكانت تشعر أنه يكاد يعجز عن الاجابة على أسئلة الدركي ، وأنه يتحمل مزاحه الثقيل ، ولم يكن دعرها كمثل عند التفتيش الأول ، وكانت تستشمر كرهاً أكثر لضيوف الليل هؤلاء بلباسهم الرمادي ومهاميزم ، وكان كرهاً يطنى على خوفها .

وجاء بول يوشوشها :

— إنهم سيأخذونني .

فطأطأت رأسها ، وأجابت بصوت خفيض .

— أفهم ذلك .

أجل . لقد كانت تفهم أنهم سيزجونه في السجن لانه خطب اليوم في العمال ، ولكن العمال جميعاً كانوا موافقين على كل ما قاله ، وسيدافعون عنه جميعاً فلا يلبث أن يطلق سراحه .

واشتهت أن تضمه الى صدرها ، وأن تبكي ، ولكن الضابط كان الى جانبها يراقبها مسبل الأجناف ، وكانت شفتاه تحتلجان ، وشارباه يتراقصان ، وداخلها احساس بأن هذا الرجل ينتظر منها أن تسفح بين يديه الدموع ، والشكوى والتوسلات ، وظلت تضغط على يد ابنها ، وهي تحشد كل إرادتها ، وتحاول ان تجتريء في كلامها . وقالت له ببطء ، وهي تمسك أنفاسها ، هامسة :

— الى اللقاء يا بول ، هل أخذت كل ما يلزمك ؟

— أجل ... لا تقلقي .

— ليكن الله معك .

وعندما اقتادوه تهالكت على المقعد مغمضة العينين ، وراحت تتعجب ببطء .
... وانتعجت طويلاً وهي مطاطئة الرأس ، تسند ظهرها الى الجدار كما كان يفعل زوجها ، ويثقل عليها الضيق وشعورها المذل بضعفها ؛ وتصب في نوح وتأوهات الرتيب كل ما في قلبها المجرّوح من أسى . وكانت ترى أمامها ، كالبقعة الجامدة ، ذلك الوجه الشاحب ، ذا الشاربين الخفيفين ، الذي تبدو الغبطة في عينيه المتغضنين ، فيتدحرج في صدرها ، كالكرة السوداء ، الغضب الشديد والسخط على اولئك الذين ينتزعون الأبن من والدته ، لا لسبب إلا لأنه ينشد الحقيقة .
... وكان الطقس بارداً ، والمطر ينقر زجاج النوافذ ، وكان يخيل إليها أن أشباحاً ترود حول منزلها في حلك الليل ، أشباحاً رمادية ، طويلة الأذرع ، ذات وجوه حمراء عريضة لا عيون فيها . وكانت هذه الأشباح تسير ورنين مهاميزها يتصادى ضعيفاً :

وكانت الأم تتمنى :

— ليتهم على الأقل أخذوني معه .

وعوت صافرة المعمل بصوتها الأمر تدعو لاستئناف العمل ، وكان صوتها اليوم أصم خفيفاً ، مضطرباً ، ودخل رييين وهو يمسخ قطرات المطر عن لحيته ، وسألها :

— هل أخذوه ؟

وتهدت : أجل ... لقد أخذوه « الملاحين »

وقال رييين ساخراً : حسناً ... ولقد فتشوا منزلي ، نبشوا كل شيء ، نعم ... وعوروا ، ولكنهم لم يوجوهوا اليّ أية إهانة . إذن لقد أخذوا بول ؟ لقد أدركت المؤامرة ، فلقد غمز المدير غمزة ، وأشار الدركي إشارة معناها : لقد فهمت ... ومن ثم ... كان الاعتقال آه ... انهم زملاء ... بعضهم ينهك في حلب الشعب ، في حين يمستك الآخرون بقرونه .
وصاحت الأم وهي تنهض :

- يجب أن تعملوا شيئاً من أجل بول ، لأن ما فعله كان من أجلكم جميعاً .
- ومن الذي يجب أن يعمل ؟
- أنتم جميعاً .

- اتصدقين أن ذلك يحدث ؟ لا ... يجب الا تدخل في حسابك .
ومضى ضاحكاً ثقيل الخطى ، وظلت كلماته القاسية اليائسة تؤجج حزنها .
- إنهم قد يضربوه ويعذبونه ...

وتخيلت جسد ابنها وقد أشبع ضرباً ، تخيلته ممزقاً مدمى ، فجثم الرعب على صدرها كالخرف البارد ، وسحقها هذا الرعب ، واحست بألم في عينيها . ولم تشعل في هذا اليوم موقدها ، ولم تهيب فطورها ، ولم تشرب الشاي ، ولم تتناول إلا كسرة من الخبز أكلتها عند المساء .

وعندما آوت الى فراشها استعرضت حياتها كلها . أنها لم تكن في يوم من أيامها شديدة الوحدة ، شديدة العري كمثلها الآن . لقد تعودت في سنواتها الأخيرة أن تعيش في الترقب الدائم ، ترقب شيء ذي أهمية ، شيء يحمل إليها السعادة ، وكانت ترى الفتيان حولها يضطربون ضاجين جذلين تملأهم الحيوية ، وكان وجه ابنها الجاد نصب عينيها أبداً ، وجه ابنها ، خالتي حياتها المنكودة ، الطيبة مع ذلك . وها هو الآن بعيد عنها ...

- ١٤ -

ومر النهار بطيئاً ، وجاء في أعقابه ليل مؤرق ونهار آخر أشد طوولاً ، وكانت ترجو أن يلم بها خلاله أحد ، ولكن أحداً لم يأت ، وهبط المساء ، ثم نيم الظلام .

وكان المطر ينتحب ، ويرشح من الجدران ، والريح تعصف في المدخنة ، وشيء ما يتحرك تحت الخشب في أرض الحجر ؛ وكانت قطرات الماء تتساقط من السقف فيواكب نقرها الكئيبة دقائق الساعة . وبدأ المنزل كله كأنه يتأرجح بفتور وهو منغرس في قلب الغم ، غير مبالي بما يحدث به .

- ٩٤ -

ونفرت النافذة نكرة ... ثم نفرتين ..

لقد كانت تعرف هذه الإشارة ، ولم تك من قبل تروعا ، ولكنها هذه المرة أحست معها برعشة من الغبطة ، وقذفها من سريرها أمل غامض ، فطرحت على كتفها شالاً ، وفتحت .

ودخل ساموا لوف ، وتبعه آخر كان يغطي وجهه بقبعة معطفه وينثال شعره على عينيهِ .

وسألها سامو الوف دون أن يحبسها ، وكان ، على غير عادته ، قائم الوجه مغموماً ، سألها :

- لعلنا أيقظناك من رقادك ؟

فأجابته : لم أك نائمة .

وسمّرت على الزائرين عنين يملأهما الترقب .

وخلع رفيق سامو الوف قبعته ، وهو يطلق آهة ثقيلة مبجوحة ، ومد الى الأم يداً عريضة قصيرة الأنامل ، وقال لها بمجبة كما لو كان يخاطب صديقة قديمة :

- طاب مساؤك يا أماء ... ألم تعريفني ؟

وصرخت بيلاجي فجأة وبفرح غامر :

- أهذا أنت . يا يغور ايفانو فيتش ؟

ورد وهو يحني رأسه الضخم ، ذا الشعر الطويل ك شعر الكاهن :

- بلحمي وعظمي .

وتألق وجهه المستدير ببسمة حلوة ، وكانت عيناه الصغيرتان الرماديتان تركزان على الأم نظرة صافية ودوداً . لقد كان ، بعنقه الضخم المستدير وذراعيه القصيرين ، أشبه ما يكون باريق الشاي ؛ وكان وجهه يطفح بالبشر ، وينساب من صدره صوت كأنه الحشرة المبجوحة .

واقترحت الأم :

- تفضلا الى الغرفة ، فسأرتدي ثيابي بسرعة .

وأجاب سامو الوف وهو قلق الملامح ، بصوب إليها نظرة مزورة :

- ٩٥ -

— تريد أن نحدثك في أمر .

ودخل ايغور ايفانوفيتش الغرفة وقال :

— في هذا الصباح يا عزيزتي خرج من السجن نيقولا ايفانوفيتش الذي تعرفينه .

— لقد كان في السجن إذن !

— لقد قضى فيه شهرين وأحد عشر يوماً ، والتقى بالبيوروسي وبول اللذين يقرآنك السلام . إن ابنك يتوسل إليك الا تقلقي ، ويقول لك إن الطريق التي اختارها تستلزم أن يكون السجن أبداً موطن الراحة ، وأن هذا هو ما قررته « سلطاتنا الباسلة » . ولننتقل الآن الى الموضوع ... أفتدرين كم هو عدد الذين أوقفوا نهار أمس ؟

— كلا .. هناك إذن آخرون غير بول ؟

فقاطعها ايغور يهدوء :

— إنه الموقوف التاسع والأربعون ، وينتظر أن يصطاد البوليس دزينة

أخرى ، وهذا السيد واحد منهم .

وقال سامو الوف متجهماً : نعم ... أنا واحد منهم .

وشعرت بيلاجي انها تتنفس بسهولة أكثر ، ومرت بخاطرها هذه الفكرة

كالبرق :

« إنه ليس وحده هناك » .

وعندما ارتدت ثيابها ، دخلت الغرفة ، وقابلت ضيفها بدسمة شجاعة :

— حتماً إذا كانوا قد اعتقلوا عدداً كبيراً ، فإنهم لن يوقفهم طويلاً .

وأجاب ايغور ايفانوفيتش .

— هذا صحيح . وإذا نظرنا أنفسنا لنفسد عليهم لعبتهم ، فإنهم سيكونون

كالسابق بلهاء أغبياء ، وهذه هي الخطأ . إننا إذا ما توقعنا الآن عن توزيع

المناشير في المعمل ، فإن رجال الدرك ، عليهم اللعنة ، سيرتاحون من هذا العمل

المؤسف ، وسيكربون جهودهم لمقاومة بول ورفاق سجنه ...

وصاحت الأم مضطربة :

— وكيف ذلك ؟

فقال ايغور يهدوء : انه امر بمنتهى البساطة . ان رجال الدرك قد يفكرون احياناً تكبيراً صحيحاً : عندما يكون بول طليقاً يكون هناك كراريس وناشير ، واذا لم يكن كذلك ، فليس هناك كراريس ولا مناشير . فماذا يعني هذا؟ هذا يعني انه هو الذي ينشرها . أليس كذلك؟ واذن فسيبدأ رجال الدرك في نهشهم ، لأنهم يحبون ان يعملوا أسنانهم في احد ما ، فلا يبقوا منه إلا الغبار .

وزدت الأم مضطربة ؟

— لقد فهمت ، لقد فهمت ... يا آلهي ، ما العمل إذن ؟

ورفع سامو الوف من صوته :

— لقد اعتقلهم السفلة ، اعتقلوا الجميع تقريباً ، وعلينا الآن أن نتابع العمل

كالسابق ، ليس من أجل قضيتنا فحسب ، بل لانقاذ رفاقنا .

واضاف ايغور وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :

— ليس لدينا رجال للعمل ، ولدينا مقال رائع أنشأته بنفسي ؛ فكيف ندخله

الى المعمل ؟ هذه هي العقدة .

وقال سامو الوف : لقد بدأوا في تفتيش الداخلين جميعاً ، عند الباب .

وأدركت الأم انهم ينتظرون منها شيئاً فسارعت تسأل :

— حسناً ... ما الذي يجب عمله ، وكيف ؟

وظهر سامو الوف على العتبة :

— أنت على صلة طيبة بالباثة ماريا كورسونوف .

— نعم .. وماذا يعني ذلك ؟

— فاتحياً بالأمر فقد تقوم هي بتهريب الكراريس ...

فأشارت الأم بيدها إشارة الرفض :

— لا ، لا ، إنها ثرثرة ، وسيصرفون أن ذلك قد حصل بإيجاء مني وبأنه

صدر عن بيتنا ...

وفجأة ، لمعت في خاطرها فكرة ، فقالت بصوت خفيض :

— ماتوها ، اعطوني إياها فسأتدبر الأمر جيداً وسأجد الوسيلة ، سأطلب من ماريا أن تأخذني كمساعدة لها . سأقول لها : انني مضطرة أن اعلم لكي أكل .
وسأحمل الطعام الى المعمل . سأتدبر الأمر جيداً .

وأكدت لهم بكلام سريع ، وهي تضع يديها فوق صدرها ، بأنها ستؤدي المهمة على وجهها الاكمل دون أن ينكشف أمرها ، ثم انتهت الى القول بلهجة ظافرة :

— سيرون إنه وإن كان بول ليس هنا ، فان يده تطالم حتى وهو في سجنه . سيرون .

وانتشي الثلاثة ، وكان ايغور يتسم ويفرك يديه بجمرة :

— عظيم أيتها الأم . ليتك تعلمين كم هو مدهش هذا ... إنه بكل بساطة شيء رائع .

وقال ساموا لوف وهو يفرك يديه ايضاً :

— اذا نجحت الخطة فسأكون في السجن اسعد حالاً مما لو كنت على مقعد وثير .

وصاح ايغور بصوته المبحوح : إنك كنز ، إنك ثروة .

وابتسمت الأم ، فلقد كانت تدرك انه اذا ما ظهرت المناشير في المعمل ، فان الادارة ستأكد أن ابنها ليس هو الذي يحملها . وكانت ترتعش من الغبطة ، ترتعش بكل كيانها ، وهي تأنس في نفسها القدرة على إداء هذا الواجب .

وقال ايغور لساموا لوف :

— أبلغ « بول » عندما تذهب لزيارته ان له أما مدهشة .

وأجاب ساموا لوف والبسمة ترتسم على ثغره :

— سأقابلة أولاً .

— قل له اني سأعمل ما يتوجب عمله ؛ وليثق من ذلك .

وقال ايغور وهو يشير الى ساموا لوف :

— واذا لم يوقفوه ؟

— وماذا نصنع ؟ ليكن ما يكون .

وانفجرا ضاحكين ، وابتسمت هي ، بعد أن أدركت هفوتها ، ابتسامة طويلة غامضة فيها شيء من الحث ؛ ثم قالت وهي تطرق برأسها :

— لكل موممه التي تشغله عن التفكير بهوم الآخرين !

واندفع ايغور يقول :

— هذا طبيعي . اما بشأن بول فلا تقلقي ولا تبتئسي ، انه سيخرج من

السجن افضل من ذي قبل ، ففي السجن يرتاح المرء ويتنقف ، وهذا — ولنتكلم بحرية — ما لا يتيح لنا الوقت ، نحن الآخرين ، ان نحصل عليه . وانا مثلاً ، دخلت السجن ثلاث مرات ! لم ادخله بفرح عظيم طبعاً ، ولكن دخوله كان شيئاً مفيداً جداً بالنسبة لي روحياً وفكرياً .

وقالت الأم وهي تتأمل بمحبة وجهه البسيط الملامح :

— انك تتنفس بصعوبة .

فأجاب وهو يرفع اصبعه في الهواء :

— ان لذلك اسباباً خاصة . والآن ... هل ماقلته مفهوم يا اماه ؟ غداً

سنهيه لك المواد ، وستبدأ الآلة التي تبدد ظلمات القرون عملها . عاش القول الحر ، وعاشت قلوب الأمهات ... والى اللقاء بانتظار الغد .

وقال ساموا لوف وهو يشد على يده بقوة :

— الى اللقاء ، اما انا فلا استطيع ان امس مثلك اية كلمة من هذا ، في

اذن الأم .

واجابت بيلاجي تجامله :

— سننتهي جميعاً الى الفهم .. !

وأوصدت الباب بعد انصرافهم ، وركعت في وسط الحجره تصلي ، في حين

كان المطر يتساقط في الخارج .

لقد كانت تصلي دون ان تنبس بكلمة ؛ وكانت تجمع في فكرة واحدة

عظيمة ، كل اولئك الذين اقحمهم بول في حياتها . لقد كانت تراهم يعبرون بينها وبين الصور القديسة ، وكانوا جميعاً شديدي البساطة ؛ شديدي التواضع ، والانفراد .

وفي ساعة مبكرة من الغد انطلقت الى ماريا كورسونوف ، فاستقبلتها البائعة الصاخبة ابدأ ، الملطخة ابدأ بالشحم ، استقبلتها بجرارة وسألتها وهي تربت على كتفها بيدها السمينة :

— هل تشعرين بالسأم ؟ لا لا تقلقي فالامور تسيّر في مجراها وليس ثمة خبير . لقد كانت الامور في السابق هكذا . كانوا يسجنون الناس عندما يسرقون ولكنهم الآن يسجنونهم اذا جهررو بالحقيقة . ربما كان بول قد قال ما لا يجب قوله ، ولكنه ، انبرى للدفاع عن الجميع ، والناس جميعاً يعرفون هذا ؛ فلا تقلقي . انهم لا يقولون جميعاً قوله ، ولكن الشجعان منهم يعرفونه جيداً . لكم وددت ان الزورك دائماً ولكن ليس لدي متسع من الوقت ، فأنا اهتم بشؤوني المطبخية ... ثم بتجارتني ؛ وسأموت متشردة . ان عشاقني — يا لهم من سفلة — هم الذين ينهشونني . ! انهم شرهون ، شرهون كالديويات في قطعة خبز . لقد وفرت عشرة روبيلات ولكن واحداً من هؤلاء المارقين زحف ، فالتهم منها على الاقل روبلين . لكم هو بائس ان يكون المرء امرأة ، ولكم هي قدرة الحياة على وجه هذه الارض . انه لقاس حقاً ان يعيش المرء وحيداً ، ولكنه شيء قاتل ايضاً ان يعيش مع آخر .

وقطعت بيلاجي هذا السيل من الكلام :

— لقد جئت اطلب اليك ان تقبليني مساعدة لك .

وسألت ماريا : وكيف ذلك ؟

ثم راحت بعد ان فرغت صديقتها من الكلام ، تهز رأسها مدعنة :

— هذا ممكن . اتذكرين كم مرة حبيتني من زوجي ؟ حسناً ... فسأحميك

أنا الآن من العوز . يجب علينا جميعاً ان نساعدك لان ابنك يقاسي العذاب من اجل قضية هي قضية الجميع . انه فقي شجاع ؛ هذا ما يقوله الجميع ويتألمون له ،

اما انا فأتنبأ بان هذه التوقيفات لن تحمل الهناء للادارة ... الا تعلمين ما يحدث في المعمل ؟ انهم يا عزيزتي مستأؤون . اما في الادارة فانهم يقولون لبعضهم بعضاً : لقد عُص الرجل في كاملة ، ولن يستطيع ان يتابع طريقاً طويلاً ... اما النتيجة فهي انه من اجل عشرة ضروباً ، يثور سخط المئات . وتوصلنا الى اتفاق . وفي اليوم التالي ، وفي وقت الغداء كانت بيلاجي في المعمل ، تحمل الطعام الذي اعدته ماريا في طنجرتين ؛ اما هذه ، فكانت في السوق تشتري حوائجها .

- ١٥ -

وسرعان ما تنبّه العمال الى البائعة الجديدة ، وكان البعض يقتربون منها مشجعين :

— هل عثرت على عمل يا بيلاجي ؟

وكانوا يواسونها ، ويؤكدون لها أن بول سيطلق سراحه عما قريب ، وكان آخرون يثيرون بعباراتهم المواسية قلبها المعذب ، في حين يكيل آخرون غيرهم الشتائم للادارة ورجال الدرك ، فيتكسب سخطهم هذا أعمق الأثر في نفسها .

والى جانب هؤلاء كانت هناك فتاة تنظر اليها بشهامة ، حتى ان المصوب « ايساي غوروف » قال لها وهو يركز اسنانه :

— لو كنت حاكماً لشنقت ابنك ، لأعلمه كيف ينكب الشعب الطريق القويم .

وجمدهما هذا التهديد الحقود ببرد ميت ، ولم تجب على « ايساي » بشيء ، بل ألقت نظرة خاطفة على وجه الضيق المغطى ببقع الكلف ، ثم اسبلت عينيها متأومة . وكان الإضطراب يسود المعمل ، والعمال يتناثرون جماعات صغيرة ، وينقدون باهتمام وبصوت خفيض ، ارباب العمل وتند عنهم من حين الى حين ، وهم يطوفون ارجاء المعمل ، شتائم وهتافات حائقة .

ورأت بيلاجي ساموا لوف يمر بالقرب منها يخفّره اثنان من رجال البوليس ،

وكان يسير واحدى يديه في جيبه ، والأخرى تلامس شعره الأشقر والأشهب ،
ونحو من مئة عامل يواكبونه ، ويفرقون رجلي البوليس بالسباب والسخرية .
وصاح به أحدهم : هل ستقوم بجولة ؟
وهتف آخر : الحمد للعال ... انهم يسيرونهم بركب . ثم نادت عنه شتيمة
صارخة .

وصرخ رجل اعور ضخيم ، صرخ بجنون :

— انه لأجدى لكم ان تقبضوا على اللصوص ، لا أن تطاردوا الشرفاء .
واكمل آخر من بين الجمع :

— ليتهم فعلوا ذلك في الظلام ، ولكنهم سفلة لا يتجولون حتى في وضوح النهار .
وكان الشرطيان يسيران مسرعين متجهي الملامح ، يحاولان ألا يريا شيئاً مما
حولهما ، ويتظاهران بأنها لا يسمعان الهتافات التي كانت تواكبها . وتقدم منها
ثلاثة عمال يحملون عصياً ضخمة من الحديد ، فهددوهم بها صاحبين :

— حذار يا عشاق الصيد .

وعندما مر ساموا لوف بالقرب من بيلاجي ، أوما لها برأسه ضاحكاً وقال :

— لقد امسكوني .

وحيته باكيار وصمك ، وقد أثر فيها مشهد أولئك الفتيان الشرفاء الذين لا
يعاقرون الحجرة ، بل ينطلقون الى السجون والبسمة تقوف شفاهم ؛ وبدأت
تكن لهم حبا عطوفاً ، حب ام .

وبعد عودتها من العمل ، قضت بعد الظهر كله عند ماريما ، تساعدها في عملها
وتستمع الى ثرثرتها ، وفي ساعة متأخرة من المساء عادت الى بيتها الفارغ البارد
الذي لا ود عنده ، ولبثت وقتاً طويلاً تروح وتجيء ، قلقه لا تدري أين تجلس
ولا تدري ماذا تفعل . لقد كانت قلقه ؛ اذ هبط الليل ولم يأت ايغور
والمنشورات التي وعد باحضارها .

وراء النافذة كانت تتراقص تنف الثلج الثقيلة الرمادية ، ثلج الخريف ،
وتعلق بالزجاج ثم تنزلق بصمت ، وتدوب تاركة بقايا رطبة . وكانت بيلاجي

تفكر بانها .

وطُرق الباب بمحذر ، فعدت اليه مسرعة لتفتحه ، فاذا الطارق ساندرين . انها
لم ترها منذ أمد بعيد ، وكان اول ما فاجأها من الفتاة بدانتها المفرطة .

وحيتها ، سعيدة بأن تبار على رفيقة ، تجنبها قضاء جزء من ليلا في الوحدة ،
وكان قد مضى عليها زمن طويل لم تلتقيا فيه فسألتها :

— هل كنت في سفر ؟

واجابت الفتاة باسمه :

— كلا .. لقد كنت في السجن مع نيقولا ايغور فيتس ، الا تذكرينه ؟
وصاحت الأم :

— وكيف انساه ، لقد قال لي ايغور البارحة انهم اطلقوا سراحه . أما انت
فلم اك اعلم ، ولم يقل لي احد انك ...

وقاطعتها الفتاة وهي تدير بصرها فيما حولها :

— ولم الخوض في هذا الحديث ؟ يجب ان استبدل ثيابي ريثما يصل ايغور .
— إنك مبتلة ،

— لقد كنت احمل المنشورات .

وقالت الأم بلهفة : اعطينها ، اعطينها .

... وفكت الفتاة ازرار معطفها بسرعة ثم انحنت فتساقطت منها رزم
الأوراق كما تساقط اوراق الشجرة ، فجمعتها الأم ضاحكة :

— لقد قلت في نفسي عندما رأيتك منتفخة هكذا أنك لا شك متزوجة ،
وانك تنتظرين مولوداً ... يا لله ، كيف حملت هذا كله ؟ .. ألم تأتي سيراً
على قدميك ؟

وقالت ساندرين وهي تبدو رشيقة رقيقة كالسابق :

— بلى .

ورأت الأم ان وجنتها كانتا غائرتين ، وان عينيها قد أمستا واسمتين تحف
بهما هالات سوداء .

وقالت الام وهي تهز رأسها متأومة :

.. لقد اطلقوا سراحك منذ قليل ، وكان عليك ان ترتاحي ، وبدلاً من ان...

.. ذلك واجب . قولي لي كيف حال بول ؟ أليس شديد الوهن ؟

وكانت تتكلم دون ان ترفع بصرها الى الأم ، وتصف شعرها بحنية الهام ،

صوت عشة الأنازل .

.. أوكد لك انه قوي العزيزة ، وانه على ما يرام .

وتابعت الفتاة بصوت خفيض :

.. إن سمعته حسنة أليس كذلك ؟

.. إنه لم يعرف المرض أبداً ... لشد ما ترتجفين ... مهلاً ، سأتيك بقدر من

الشاي مع مربى التوت الشوكي .

.. لا بأس ... ولكن علام ترعجين نفسك ؟ إن الوقت متأخر فاسمحي لي

إن أعيد ذلك بنفسني .

وردت الأم بلهجة مؤنبة :

.. إنك جد متعبة .

ثم انهيمكت في اعداد الشاي ، وتبعتها ساندرين الى المطبخ ، وجلست

على المقعد .

وقالت وهي تلقي بيدها وراء رأسها :

.. ومع ذلك فالسجن ينهك القوى . يا للبطالة اللعينة ، فليس هناك ما هو

اشد إبلاماً منها . إن المرء ليعرف كل ما عليه ان يعمل ... ولكنه يظل هناك

في قفصه كالحيوان .

.. ومن يتبيك عن هذا كله ؟

وردت الأم بنفسها على السؤال الذي طرحته ، ردت متأومة :

.. لا احد إلا الله . اما انتم فما من ريب انكم لا تؤمنون به .

واجابت الفتاة بإيجاز وهي تهز رأسها :

.. كلا ...

واعلنت الأم بلهجة حماسية مفاجئة :

.. حسناً ... وانا لا اصدقكم .

وبعضية مسحت بمرورها يديها الملطختين بالفحم ، وتابعت بأيمان متأجج :

.. انكم لا تفهمون عقيدتكم ! كيف يستطيع المرء ان يحيا حياة كهذه دون

ان يؤمن بالله ؟

وتساحت في المدخل خطىً صاحبة ودمدم صوت ، واخذت الأم رجفة

اما الفتاة فانتصبت واقفة ، ووشوشت بسرعة :

.. لا تفتحي إذا كانوا من رجال الدرك . قولي لهم انك لا تعرفيني ، وأنتي

اخطأت المنزل فدخلت بيتك صدفة ، وانتي كنت في غيبوبة ، فنضوت عني

ثيابي ، ووجدت الكتب .. أفهمت ؟

وسألها الأم بخنان :

.. ولم ذلك يا صغيرتي العزيزة ؟

.. انتظري .

واصفت ساندرين : يخيل إلي انه ايغور .

وكان القادم هو ايغور فعلاً ، وكان مبلل الثياب يحطمه التعب ، وعندما

دخل صاح :

.. آه . آه . ابريق شاي ؟ هذا افضل ما في الدنيا يا أماه ؟ هل وصلت

يا ساندرين ؟

وكان ، وهو يملأ المطبخ الضيق برنات صوته المبحوح ، يخلع ببطء معطفه

الثقيل ، ولا يتوقف عن الكلام :

.. هي ذبي يا أماه فتاة غير مرغوب بها من السلطات . لقد أهانتها خارسن

السجن فأعلنت أنها ستدع نفسها تموت جوعاً اذا لم يقدم لها اعتذاره ، ولبثت

ثمانية أيام مضرية عن الطعام ، وكان من العدل ألا تخرج إلا وقد ماها من أملم ...

وبطني الصغير ماذا تقولون عنه ؟

ودخل الغرفة وهو ما زال يثرثر ويحتضن بذراعيه القصيرين بطنه المترهل ،

— أنت ابنة « نيل » الاعرج ؟ لقد عرفته جيداً ، ولقد شد اذني أكثر من مرة .

وكانا يتضحان واحدهما يقف قبالة الآخر ، يتضحان تحت نار الاسئلة والأجوبة المتشابكة ، وكانت ساندرين ، وهي منهمكة في اعداد الشاي ، ترفو اليها وتضحك .

وبنه احتكاك الاقداح الأم الى واجباتها :

— آوه ، المعذرة . اني اثرثر . ولكنه من الجميل جداً ان يلتقي المرء بمواطن ...

— انا الذي يتوجب علي ان اطلب منك المعذرة لتصرفي في بيتك كما اتصرف في بيتي ... ولكن الساعة الآن قد بلغت الحادية عشرة ، وامامي طريق طويل يجب ان اقطعه ...

وصاحت الأم بدهشة : الى اين ؟ الى المدينة ؟

— نعم .

— كيف ذلك . ان الوقت ليل والسماء ممطرة ، والنت منهك ... ابق الليلة هنا .

والتفتت الى ساندرين :

— ينام ايغور في المطبخ ، وننام نحن هنا .

فأجابت الفتاة ببساطة :

— كلا ... يجب ان انصرف .

وقال ايغور :

— أجل ... يجب ان تتواري هذه الفتاة يا مواطني ، فهي معروفة هنا ، واذا ظهرت غداً في الشارع فسيكون ذلك سيئاً .

— ولكن ... هل ستذهب وحدها ؟

وقال ايغور والبسمة ترتسم على شفثيه : نعم .

وصبت الفتاة شيئاً من الشاي لنفسها ، وتناولت قطعة من الخبز ، واخذت

ثم ما لبث ان صفق الباب وراءه .

وسألت الأم ساندرين مندهشة :

— أصبح أنك لم تأكلي طوال أيام ثمانية ؟

فردت الفتاة وهي تهز كتفها بتأثر ظاهر :

— لقد كان عليه أن يقدم لي اعتذاره .

وأثار هدوؤها وعنادها الصارم شعوراً في نفس الأم يمازجه التعنيف ، فسألها

من جديد :

— وماذا الومت ؟

— فأجابت بصوت خفيض :

— ليكن ، ومع ذلك فقد اعتذر . إن الاهانة يجب ألا تغتفر .

وقالت الأم ببطء :

— أجل . . . ولكننا نحن النساء نهن طوال حياتنا .

وصاح ايغور وهو يفتح الباب :

— لقد تحققت من حلي الآن . هل الشاي جاهز ؟ اسمحي لي ان اذهب

لأحضاره .

واضاف وهو يقترب من ابريق الشاي :

— كان ابي الفاضل لا يشرب أقل من عشرين قدح من الشاي يومياً . ولذلك

سلخ بسلام في هذا العام الحقيير ثلاثاً وسبعين عاماً دون أن يمرض . لقد كان يزن مئة وخمسة وعشرين كيلو غراماً ، وكان خادم رعية في قرية فوسكريسانسكي .

وصاحت بيلاجي :

— أنت ابن الكاهن جان ؟

— أجل ... وكيف عرفت ذلك ؟

— لأنني انا أيضاً من قرية « فوسكريسانسكي »

— اذن أنت مواطنة ؟ من اي عائلة ؟

— نحن جيران لكم ... فأنا من آل « سيرغين »

- سوف تصل منهكة . لقد سهر السجن غورها ، وكانت من قبل اصلب
عوداً ، خاصة انها لم تربّ تربية قاسية ... واعتقد انها تشكو مرضاً في رثتها .
واستوضحت الأم :
- من اي عائلة هي ؟
- انها ابنة ملاك ، ووالدها - كما تقول هي - رجل خليع ... أتعرفين
يا اماء انها سيتزوجان ؟
- ومن هما اللذان سيتزوجان ؟
- بول وهي ... ولكن ذلك متعذر ، فحين تكون هي طليقة يكون هو
في السجن ، والعكس بالعكس .
واجابت الأم بعد صمت :
- لا اعرف شيئاً من ذلك ؛ فإن بول لا يتكلم ابداً عن خصوصياته .
كانت ما تزال تحس بالاشفاق على الفتاة ، فقالت لضيفها وهي ترمقه بنظره
حقد غير مقصود :
- لقد كان من الواجب ان ترافقها .
واجاب يهدوء :
- إن ذلك مستحيل ، فلدي هنا كومة من الاعمال يتوجب علي ان انجزها
واحتاج معها الى السير نهراً بكامله ... وانه لعمل سيء بعض الشيء ... مع
الربو الذي اعانيه .
وقالت بلهجة لا يمكن تعريفها :
- إنها الفتاة جريئة .
وكانت تفكر بما قاله لها اينغور ، ويعيظها الا تتلقى هذا النبأ من ابنها مباشرة
بل من رجل غريب ... وكانت من اجل ذلك تزم شفيتها وتقطب حاجبيها .
وقال اينغور وهو يهز رأسه :
- جريئة جداً . ولكنني لاحظت انها تثير فيك الشفقة فعلام ذلك؟ اذا كنت
ستوزعين شفقتك علينا جميعاً فلن يكفيك ما عندك . إننا جميعاً ، نحيا ، في الواقع

قلتهما ، وعيناها التاملتان تتركزان على الأم .
- وكيف تستطيعين السير بمفردك ؟ وناشاً ايضاً ؟ .. انا لا اسير وحدي "
لأنني اخاف .
وقال اينغور : وهي تخاف ايضاً . ، أليس كذلك يا ساندريين ؟
- هذا أكيد .
ونقلت الأم بصرها عليها واحداً بعد الآخر ، وهتفت بصوت كالمس :
- لكم انتم قساة .
وعندما انتهت ساندريين من شرب الشاي ، شدت على يد اينغور مودعة ،
دون ان تنبس بكلمة ، واجتازت المطبخ ، والام تتبعها :
- ارجوك ان تلبقي بول تحيتي اذا ما رأيتك .
وكانت يدها على مزلاج الباب ، حين استدارت بغتة ، وسألت بصوت خفيض :
- هل لي ان اعانقك ؟
واحتضنتها الأم دون ان تجيب ، وعانقتها بحرارة :
- شكراً لك .
... وخرجت بعد ان حيتها بايماة من رأسها .
وألقت الأم ، وهي تعود الى الحجرة ، نظرة خاطفة مقومة عبر النافذة . لئلا
كانت تنف الثلج المتساقط في الظلمات ثقيلة بطيئة . وسألها اينغور :
- أتذكرين آل بروزوروف ؟
وكان يجلس متباعد الساقين ، وينفخ قدح الشاي بصوت مسمر وكأن
وجهه احمر مطمئناً ، ينضح بالعرق .
وقالت الأم بسهيم وهي تتجه نحوه بخطى مزورة :
- اجل اني اذكرهم .
ثم جلست ، وركزت على الرجل نظرة حزينة ، وسألته بلهجة رؤوم :
- آه ... وساندريين ... كيف ستصل ؟
وابشتم اينغور :

حياة قاسية، فنذامد غير بعيد مثلاً عاد احد رفاقي من المنفى؛ وعند وصوله الى « نيني - نوفغورد » كانت زوجته وطفله ينتظرانه في « سمولانسك » وعندما بلغها كانوا في سجن من سجون موسكو. اما الآن فلقد جاء دور زوجته للذهاب الى سيبريا . وانا ايضاً كانت لي زوجة ، زوجة رائعة ، ولكن خمس سنوات من هذه الحياة جرتها الى المقبرة .

وكرع قدحه دفعة واحدة ، واستمر في كلامه ، وراح يعد الاشهر والسنين التي قضاها في المعتقل والمنفى ، ويسرد قصص الشقاء المتنوع ، والضرب الذي تعرض له في السجون ، وقصص الجوع في سيبريا . وكانت الأم ترنو اليه ، وتصفي رقد اذهلتها تلك البساطة ، وذلك الهدوء اللذان كان يصف بها تلك الحياة المقهمة بالآلام والاضطهاد ، والمذلة .

- ولكن ... لتحدث في موضوعنا ...

وتغير صوته واتزنت ملامحه وسألها أولاً عن الحطة التي اعدتها لأدخال المناشير الى العمل ؛ وذهلت بيلاجي لمعرفة الدقيقة للتفاصيل كلها ، حتى اذا انتهيا من هذا الحديث ، عادا الى استرجاع الذكريات ، ذكريات مسقط الرأس . وفيما كان ايغور يتفكه ، كانت هي تتبعب مجرى سنيها العابرة فتبدو لها كالمستقع تتناثر فيه الهضاب المتشابهة ، وتتمو شجيرات الحور بارتعاشها الجبان ، واشجار الصنوبر ، والصفصاف الابيض الضائع بين التلال . لقد كانت اشجار الصفصاف تنبت ببطء وتميش خمساً من السنوات أو ستاً ، فوق هذه التربة والموارة العفنة ، ثم تتساقط ، وتتعفن هي الأخرى .

لقد كانت الأم تستحضر في ذهنها هذه اللوحة وقد استبد بها اشفاق ينوء به قلبها ، وكان ينتصب امامها ظل لفتاة قاسية الملامح ، عنيدة التقاطيع ، تنطلق الآن تحت تنف الثلج الرطبة ، وحيدة هلكى .

... وابنها في السجن قد يكون ما زال حتى الآن ارقاً لم ينم .. إنه يفكر ، ولكنه لا يفكر بأمة ، بل هناك من هو أقرب اليه منها .

وكفامة ملونة الانمكاسات ، حائرة الاشكال ، كانت الافكار الثقيلة تزحف ،

نحوها وتهصر قلبها بقوة .

وقال ايغور وهو يبتسم : انك متعبة يا اماء ، فيها الى النوم . وتمنت له ليلة طيبة ، واجتازت المطبخ بخطى متأرجحة وحذر ، تحمل في قلبها اساهها المحرق ، وفي الصباح ؛ عندما كانا يتناولان الشاي سألها :

- . . واذا قبضوا عليك ، وسألوك من أين لك هذه المنشورات الملحدة ، فماذا تقولين لهم ؟

- أقول لهم ان هذا الأمر لا يعينهم .

- نعم ... ولكن هذا القول لا يقنعهم ، وسيقنعون جيداً ، فيما لو كان الأمر يعينهم بالفعل ؛ وسيسألونك بالحاح دون ان يضجروا ..

- ولكنني لن ابوح لهم .

- إنهم سيسجنونك .

فزفرت : سأحمد الله ، لأنني سأكون عضواً صالحاً لشيء ما على الأقل . من يحتاج اليّ ؟ لا احد .. ثم انهم - على ما يقال - لا يعذبون ...

وهمم بعد أن حدق فيها بامعان :

- كلا .. انهم لا يعذبون ... ولكن سيده جريئة مثلك يجب ان تحتاط ... واجابت بابتسامة مرة :

- انه لجليل منك ان تلقنني هذا الدرس .

وصحت ايغور لحظة ، وذرع ارض العرقة ثم اقترب منها :

- ان هذا العسير يا مواطني ، اشعر جيداً انه عسير جداً بالنسبة لك .

واجابت بحركة من يدها :

- إنه عسيرٌ بالنسبة للجميع ، ولكنه ربما كانت يسيراً على اولئك الذين

يدركون ، وأنا ، ادرك شيئاً فشيئاً ما ينشده الناس الطيبون .

وقال ايغور بلهجة وقور :

- اذا كنت يا اماء تدركين ذلك فالطيبون جميعهم ، اجل جميعهم ،

بمحابة اليك .

ورشقها بنظرة خاطفة ، وابتسم بصمت .

... وعند الظهيرة خبات النشرات في صدرها بهدوء وبكثير من المهارة مما حمل ايتور على ان يصيح مقتبظاً :

« شيرغات » كما يقول الالماني الطيب عندما يكرع اناء من الجمعة . ان الأدب لم يبدل فيك شيئاً ايتها الام ، فلقد ظلت امرأة باسلة طيبة ، متقدمة في السن بعض الشيء ، ولكنها قوية كبيرة ، ألا فلتبارك خططك الالهة التي لا عد لها .

.. وبعد نصف ساعة وصلت الى باب المعمل وهي تنوء بحملها الثقيل ، ويبدو عليها الهدوء ورباطة الجأس .

وكان هناك حارسان احنقها هزه العمال ، يفتشان كل من يدخل الباحة دوئماً تمييزاً ، ويتراشعان الشتائم مع الداخلين ، وكان احد رجال البوليس يقف جانبا ، كما يقف ايضاً رجل آخر هزيل القامتين ، احمر الوجه ، زائغ النظرة ، وقد اخذت بيلاجي ، وهي تنقل حملتها من كتف الى آخر ، تتتبع حركاته بطرف عينها ؛ ويداخلها إحساساً بأنه جاسوس .

وكان هناك فتى فارغ الطول اجعد الشعر ، يعلق قبعته في عنقه ، ويصرخ في وجه الحارسين اللذين كانا يفتشانه :

— يجب ان تفتشوا في الرأس أيها الأبالسة لا في الجيب .

واجابه أحد الحارسين :

— ليس في الرأس شيء سوى القمل .

— حسناً ... التقطوا هذا القمل . فهذا هو العمل الوحيد الذي تتقنونه .

ولف الجاسوس الفتى بنظرة سريعة ثم بصق .

وقالت الأم : اسمحوا لي بالمرور ، فأنتم ترون اني مثقلة ، وان حملي

يقصم ظهري .

وضاح بها الحارس الرهيب : مرّي ، مرّي ولا تثرثري .

وروضت الأم آنيتها على الأرض ، عندما وصلت الى مكانها المعتاد ، ثم القت

نظرة عجلى على ما حولها وهي تمسح العرق المتصبب من وجهها ... واقترب منها في الحال صانما اطفال هما الاخوان «غوسوف» وسألها أكبرهما ، ويدعى «فاسيلي» ، سألها بصوت مرتفع ، وهو مقطب الحاجبين :

— هل يوجد معك فطائر ؟

فأجابته : كلا .. سوف احضر منها غدأ ..

وكانت تلك كلمة المرور ، فبرقت أسارير الأخوين ، ولم يتالك جان وهو اصغرهما ، من أن يهتف : آه ايتها الأم ... إنك امرأة فاضلة .

وقرفض فاسيلي وراح يحدق في أحد الأوعية بينما كانت رزمة من الأوراق تنزلق تحت سترته .

وقال لأخيه بصوت جهير :

— لن نذهب الى المنزل يا جان ، وستتناول غداءنا من طعام السيدة ، إذ من

الواجب ان نقدم العون للبائعة الجديدة ..

ثم دس ببراعة ، كلية من المنشورات في ساق جزمته .

ووافق جان على الفكرة : هذا صحيح ... ثم انفجر ضاحكاً .

وكانت الأم تتلفت حولها مجذرة ، وتنادي بين الفترة والفترة معلنة عن بضاعتها :

— شوربا ... عجة سخنة ...

وكانت تحتال فتسحب من المنشورات رزمة بعد رزمة ، ثم تدسها في أيدي

العمال الأصدقاء ، ومع كل رزمة ، كان وجه ضابط الدرك يبدو لعينها كبقعة

صفراء أشبه ما تكون بلهيب عودٍ من الثقباب في غرفة مظلمة ؛ وكانت تقول له

بذكاء وغبطة ساخرة :

— خذ ... هذه لك يا ابني الصغير .

ثم تضيف منشرحة الصدر وهي تدس الرزمة التالية :

— خذ أيضاً ...

... وعندما أقبل العمال وصحونهم في ايديهم أخذ جان يضحك بضجيج ،

فتوقفت بيلاجي عن توزيع النشرات ، وراحت تسكب شورباً الملفوف والعجة ،

واجتاحها مرارة الأمل الخائب ، وفرحة اللقيا ، لقا اندريه ، وامترج
الاحساسان المتفجران في احساس واحد ، احساس عميق لأهب ، ملأها بوجته
العارمة ، وعصف بها فألقاها على صدر اندريه .

وضمها اندريه بذراعيه الراعشين ، وكانت هي تبكي بصمت دون ان تنفوه
بكلمة وكان اندريه يداعب شعرها ، ويقول لها بصوت غريد :

— لا تبكي أيتها الأم الصغيرة ، ولا تنهكي قلبك . أقسم لك انهم سيطلقون
مراحه قريباً ، فهم لا يملكون ضده أي دليل ، لأن الشبان التزموا الصمت جميعاً
كالأسماك المشوية .

وقادها إلى الحجره وهو يفمر كنفها بذراعه ، وراحت وهي تلتصق به ،
تمسح الدموع عن وجهها بجذر السنجاب ، وبدا وجودها المتمسك لساع ماسيقول ،
بدا هذا الوجود كله معلقاً بشفتيه .

— ان بول يعانقك ؟ وهو بصحة جيدة وعلى أحسن ما يكون نشاطاً ، ولا شيء
يشكو منه إلا ضيق السجن ، فلقد أوقف عدد من الناس يفوق المئة ، من هنا
ومن المدينة ، ولذلك يقيم في الغرفة الواحدة ثلاثة أو أربعة . ولا مجال للتشكي
من إدارة السجن فالقوم هناك ليسوا بأشراراً ، ولكنهم مرهقون بالعمل ، العمل
الذي أغرقهم به حتى الآذان رجال الدرك الشياطين ؛ وهم ليسوا ، في مطلق
الأحوال ، قساة القلوب ، بل انهم يرددون دائماً : « الهدوء أيها السادة ، الهدوء .
لا تخلقوا لنا المتاعب » ، وهكذا تسير الأمور على أحسن وجه .

أما السجناء فإنهم يثرثرون ، ويتبادلون الكتب ويتقاسمون الطعام ، والسجن
سجن جيد ، صحيح انه قديم البناء ؛ مسرف في القدم ، ولكنه رغم ذلك لطيف ،
لا يصاب المرء فيه بالصقار . ورجال السلطة العامة قوم طيبون يساعدوننا
كثيراً . لقد أطلق سراحى أنا ، وسراح يوكين وأربعة آخرين ، وسيطلق سراح
بول عما قريب ، وهذا أمر أكثر من أكيد ... اما فيسو شيكوف فسيطول أمد
اعتقاله : انهم غاضبون عليه وهو يوسعهم سباً بلا هوادة . ورجال الدرك لا يطيقون
رؤيته ، وربما أحيل إلى المحاكمة أو إلى الجلد ... ويحاول بول أن يهدئه

في حين كان غوسوف يقول مازحاً :

— لكم هي بارعة ... هذه البيلاجي .

ورد عليه سائق متجهم الوجه :

— الحاجة تعلمك كيف تصطاد الجرذان . لقد اختطف الاوباش ذاك الذي
كان يعولك .. حسناً .. اعطني عجة بثلاثة قروش .. ولا تبتشي أيتها
الأم .. فستدبرين أمرك .

وابتمت الأم : شكرأ لهذا الكلام الطيب .

وابتعد العامل وهو يغمغم : هذا الكلام الطيب لا يكلفني غالباً .

وعادت بيلاجي تنادي من جديد :

— شوربا سخنة ، عجة ، شوربا بالمقوف ..

وكانت تقول في نفسها بأنها ستقص على ابنها حديث هذه الخطوة الأولى ،
وكان وجه الضابط الشاحب يثل أمامها أبداً ، كرهياً قلقاً ، وشارباه الاسودان
يتراقصان فيمان عن اضطرابه ، وكانت أسنانه المتراسة تلمع تحت شفته العليا
التي قلصها الغضب ، وكان الفرح يغرد في قلب الأم كالمصفور ، وعيناها تنغضنان
بجذب ، وكانت تحدث نفسها وهي توزع بضاعتها بمهارة فتمس :
— خذ هذه ... وهذه ايضاً .

- 11 -

وفي المساء بينما كانت تتناول الشاي ، تعالى ، تحت النافذة ، وقع حوافر ،
حوافر جواد تحب في الوحل ، وسمعت صوتاً تعرفه ، وبوثبة واحدة تخطت
المطبخ إلى الباب ؛ فإذا بها ترى شخصاً يجتاز الباحة بخطى واسعة ، فيزوغ
بصرها ، وتدفع الباب برجلها وهي تستند إلى حاجز السلم .

وقال الصوت الذي تعرفه جيداً :

— طبت مساءً أيتها الأم الصغيرة .

واستقرت على كتفها يدان طويلتان خشتان .

فيقول له : «استكن يا نيقولا ، فإنهم لن يكونوا أفضل مما هم ، اذا صرخت في وجوههم» ولكن نيقولا يخور : «سأبقر بطونهم كالأرانب» ... أما بول فيظل هادئاً مترناً ، واني لأؤكد انهم سيطلقون سراحه عما قريب .

ورددت الأم باسمه مطمئنة :

— نعم ... عما قريب ، أنا أعلم ذلك ، عما قريب .

— حسناً ... ما دمت تعرفين ذلك ، فصبي لي قدحاً من الشاي وحدثيني

عن الحال .

وكان يرناولها متهلل الوجه ، وقد التمع في عينيه لب ودود يخالطه حزن خفيف . وقالت الأم ، وهي تطلق زفرة عميقة ، وتتأمل وجه النحيل الذي يشير السخرية بما انبت فيه من أجمات الشعر القاتم :

— يا صغيري اندريه ... إني أحبك حباً جماً .

ورد البيوروسي وهو يتأرجح فوق كرسيه :

— ان القليل منه يكفيني ؛ فأنا أعلم أنك تحبيني ، وانك تستطيعين ان تحبي

العالم كله ، لأن لك قلباً كبيراً ...

واصرت : لا... إني احبك انت بصورة خاصة ، فلو كانت لك ام لغبطها

الناس لأن لها ابناً مثلك .

وقال بهمس : وانا أيضاً لي ام في ناحية ما من الارض .

وهتفت : هل عرفت ما فعلته اليوم ؟

وقصت عليه بجملة ، ولسانها يتعثر من الغبطة ، كيف ادخلت المنشورات

إلى العمل وزوّقت القصة بعض التزييق .

وجحظت عيناه دهشة ، ثم انفجر ضاحكاً ، هازاً فخذه ، ولطم رأسه بيده

وصاح يلاّ الفرح .

— اوه ، اوه ... ولكن هذا ليس مزاحاً . إنه عمل جدي سيسريه بول

أليس كذلك ؟ هذا جميل أيتها الأم الصغيرة بالنسبة لبول ، وللجميع .

وكان يفرقع بأصابعه جندلاً ، ويتأرجح في مقعده ويصفر ، وكانت فرحته

المتفجرة الغابرة توقظ فيها رجماً قوياً .

وعادت إلى الكلام كأنما قد فتح قلبها على مصراعيه وانجس منه كينبوع

طروب ، فيض من الألفاظ المعبرة عن تلك الغبطة الهادئة التي تقعمها .

— يا إلهي ... لقد تأملت حياتي ، وتساءلت ... لماذا عشت ؟ عشت

للضرب ... والعمل ... وكنت لا أرى أحداً سوى زوجي ؛ ولا اعرف شيئاً

سوى الخوف . وحتى أنني لا أدري كيف نشأ بول . هل أحببته عندما كان

زوجي حياً ؟ لا أدري ؛ لقد كان همي كله ، وافكاري كلها تدور حول امر

واحد هو ان اطعم ذلك الوحش الضاري ، ليشعر بالاكفاء والشبع ، وأن أضع

نفسي في خدمته في الوقت المناسب ، كيلا يستشيط غضباً ، ويشبعني ضرباً ؛

أو على الأقل ، لكي يوفرنى من الضرب هذه المرة . ولا أذكر انه فعل ذلك

أبدأ . لقد كان يضربني بضراوة ، حتى لأحسب انه كان لا يضربني أنا بالذات ،

بل يضرب في كل اولئك الذين يكرههم . ولقد عشت عشرين عاماً على هذه

الوئيرة ، ولا أعرف شيئاً مما حدث قبل زواجي ، وقد تعاودني الذكرى ؛

ولكنني لا ألث أن أصبح كالعمياء ، لا أرى شيئاً أبداً .

لقد كان ايفغور ايفانوفيتش ، وهو ابن قريتي ، كان هناك ، وكان يتحدث

عن هذا أو ذاك . أما أنا فأذكر بيوتاً وناساً ... أما كيف كان يعيش هؤلاء

الناس ، وماذا كانوا يقولون ؟ وماذا حل بهم ؟ فذلك ما لا أذكره ، وانما

أذكر بعض الحرائق ، بل اثنتين منها . لقد أفلت مني كل شيء وياتت نفسي

مغلقة كمنزل مهجور . انها عمياء صماء .

وتنفست الصعداء وتنشقت الهواء بنهم كسمكة خرجت من الماء ، وانحنت

ثم تابعت بصوت أشد خفوتاً :

— عندما قضى زوجي نحيبه تعلقت بابني . أما هو فقد أخذ يهتم بهذه الامور

التي ، تعرفها ، وكنت انظر إلى تصرفه بعين غير راضية ، وكنت في الوقت

نفسه أشفق عليه ؛ وأسائل نفسي : كيف أعيش وحيدة إذا هلك لا سمح الله ؟

أية كآبة كنت استشعرها وأي قلق ؛ لقد كان قلبي يتمزق كلما فكرت بالبصير

الذي ينتظره .

وصمت وهزت رأسها بهدوء ثم أردفت بلهجة متزنة :

— ليس حيننا نحن النساء حبا صافيا، فنحن نحب ما نشعر اننا بحاجة الي حبه .
خذ على ذلك مثلا . أنت الذي تعيش معذباً بعيداً عن أمك ما حاجتك اليها ؟
وكل اولئك الذين يتعذبون من أجل الشعب ، والذين يذهبون إلى السجن أو
إلى سيبيريا ، أو يموتون ، وتلك الفتيات اللاتي ينطلقن وحدهن في الليل ، في
الوحل ، وتحت الثلج والمطر ، واللاتي يقطنن سبعة كيلومترات ليأتين الينا ...
هؤلاء جميعاً من يدفهمم ؟ من يستجشهم ؟ .. إنهم يحبون فحسب ، وهذا هو الحب
الصافي . إنهم يعتقدون . أنهم يؤمنون يا اندريه .. أما أنا فلا أعرف حبا
كهذا ، إنني احب ما في ذاتي ، وكل ما يتعلق بي .

وقال البيوروسي الذي كان يفرك كعاداته بمصيبة ، وأسه ووجنتيه وعينيه ،
قال لها دون أن يرفع بصره :

— إنك تستطيعين أيضاً . فنحن جميعاً نحب ما هو أقرب إلينا ، ولكن ما هو
بعيد يغدو بالنسبة للقلب الكبير .. قريباً . إنك تستطيعين أن تحي حبا عظيماً
لأن قلبك كام ..

وقاطعته هامسة : إن شاء الله . أنا احسن هذا الحب بكل تأكيد ، أحسه
جيداً ، وان الحياة الجميلة معه . إسمع . إنني أحبك ، وربما كنت احبك أكثر مما
احب بول . إنه منطو على نفسه . تصور انه يود أن يتزوج من ساندرين ، وانه لم
يحدثني عن ذلك ابداً ؛ لم يحدثني أنا .. أمه ..

— ليس هذا صحيحاً . أنا أعلم ذلك . أما الصحيح فهو انه يحبها وهي تحبه ،
ولكن غاية هذا الحب ليست الزواج ؛ إنها تتمنى ذلك ، ولكن بول لا يبغيه .
وقالت الأم بشرود ، وبصرها الحزين يتعلق بأندرية :
— إذأ فالأمر هكذا ؟ إن الناس يتنكرون لدواتهم .

وأجاب اندريه بصوت خفيض :

— إن بول رجل فذ .. إنه من حديد .

وتابعت هي بلهجتها الحزينة :

— والآن .. هوذا في السجن . وذلك أمر مريع مخيف ، يختلف عن ذي قبل .
إن الحياة لم تعد هي نفسها ، وكذلك الخوف ، وكلاهما يربعانني .

وقلبي ... هو الآن غيره بالأمس . لقد فتحت نفسي عنها وتطلعت ، فإذا
الحزن فيها يمتزج بالغبطة . إني أدرك قليلاً من الأمور ، وانه لشديدٌ عليّ ألا
تؤمنوا بالله . هذا هو الواقع ، ولست استطيع حياله أن أفعل شيئاً ، ولكنني ،
مع ذلك أرى انكم قومٌ طيبون .. وانكم نذرتم أنفسكم لحياة قاسية في سبيل
الشعب ، نعم .. حياة قاسية في سبيل الحقيقة .

لقد أدركت أنا أيضاً تلك الحقيقة التي تنشدهونها ، ما دام هناك أغنياء فيسيطر
الشعب معدماً لا يعرف العدالة ولا الفرحة ، ولا أي شيء آخر . إني أعيش
بينكم ، وفي كل ليلة أتذكر حياتي الغابرة أكثر من مرة ، وأتذكر قوتي التي
سحقتها الأقدام ، وقلبي الفتي المرغ ، فأشفق على نفسي ، وهذا أمرٌ شديد
المرارة ؛ ومع ذلك فإن الحياة أصبحت بالنسبة لي أفضل من ذي قبل ، وأنا أرى
نفسي بوضوح يوماً عن يوم .

ونفض البيوروسي ، وراح يذرع ارض الغرفة بقامته الفارعة الهزيلة ، جاهدأ
ألا يجر قدميه جراً :

— إن ما قلته حسن ، حسن .. ولقد كان في « كيرتش » شاب ينظم
الأشعار ، فكتب يوماً هذين البيتين :

... والأبرياء الذين أعدموا ،

ستبعثهم من رموسهم قوة الحقيقة ..

وقته البوليس ، هو نفسه ، في « كيرتش » ، ولكن ذلك لا أهمية له ، بل
المهم انه كان يعرف الحقيقة ، وأنه بذرها بين الناس ، وانت أيضاً ، كما ترين ،
مخلوق بريء حكم بالموت ..

وقناطعته الأم : لقد جاء دوري .. اني اتكلم ، وأصغي ، ولا
اصدق اذني .

وفي الغد عندما بلغت بيلاجي باب العمل مثقلة بحملها أوقفها الحرس بخشونة
وأمرها بأن تضع طنابها في الأرض ، ثم فقتشوها بدقة .
واحتجت يهدوء فيما كانوا يتحرون ثوبها دونما خجل :

— سيرد طعامي بسببكم .

وأجابها أحدهم بصوت كرهه : اخرسي

وقال لها الآخر بثقة وهو يدفعها بكتفه دفعا رقيقا :

— وإذا لم تصمتي فسيلقي طعامك كله في السياج .

وكان أول من أقرب منها سيزوف المعجوز . لقد تلفت حواليله بجذره ،
وسألها بصوت خافت :

— هل سمعت ما يقال أيتها الأم ؟

— وماذا يقال ؟

— لقد عادت المناشير الى الظهور . لقد نثرت في كل مكان . نثرت كالمخ في
الحيز . وبدأت الاعتقالات ، والتحريرات . لقد زجوا بحفيدي مازين في السجن ،
واعتقلوا ابنك ، ثم ظهر بصورة أكيدة أنهم ليسا هما اللذين يوزعانها .. لقد
ظهر ذلك جليا الآن .

وجمع لحيته في قبضته ، ورنأ الى بيلاجي وقال وهو يتأى عنها :

— عرجي على بيتنا .. فأنت وحيدة ، وهذا ما يبعث السأم . أليس كذلك ؟

وشكرته . وكانت وهي تملن عن بضاعتها تراقب بعين يقظة ، الاضطراب

غير العادي الذي يسيطر على العمل . لقد كان العمال جميعا كأنهم في هياج ؛

يتجمعون في زمر لا تلبث أن تتفرق ، ويتنقلون من ورشة إلى أخرى ،

وكنت تنسم في الهواء المثقل بالهباب نفحة استبسال وجراة . وكانت تتصاعد

من هنا وهناك صيحات تحريض ، وهتافات ساخرة وكان العمال المتقدمون في

السن يكتفون بالابتسام ، والمناظرون بروحون ويحيثون ، والقلق باد في

ملاحظهم ، ورجال البوليس يتراكضون فيتفرق العمال ببطء حين يرونهم ، أو

لم أفكر قط في حياتي إلا بأمر واحد هو ان اعبر مع النهار منسية ، لا يراني
احد قانعة فقط بالسلامة . أما الآن فأنا أفكر فيكم جميعا . أنا لا أفهم تمام الفهم
تصرفاتكم ، ولكني احسكم جميعا قريبين مني . اشفق على الناس جميعا ، وأتمنى لهم
الحير جميعا ، وبصورة خاصة ، لك انت يا عزيزي اندريه .
ودنا منها وقال :

— شكراً .

وأخذ يدها بين يديه ، وشدها بجمرة وطواها ثم استدار عنها سريعا .
وارهق الانفعال الأم ، فراحت تغسل آنية المطبخ متباطئة . وكانت تلنم
الصمت ، ويدفء قلبها شعور البأس والبسالة .

وقال لها البيورومي :

— اسمعي ايتها الأم الصغيرة . عليك ان تدللي ، في يوم من الأيام ،
فيسوشيكوف بعض الدلال ... لأن اباه ، هو أيضاً في السجن . وبإله من شيخ
قهي مقرف ؛ اذا رآه نيقولا من نافذته شتبهه ، وليس هذا باللائق . إن نيقولا
وجل طيب ، يجب الكلاب والفئران والمخلوقات كلها ، ولكنه لا يجب الناس ..

آه .. لشد ما يمكن ان يُفسد إنسان .

وقالت بيلاجي وهي مطرقة :

— لقد اختفت امه ، وأباه لص كبير ..

وعندما مضى اندريه لينام باركنه الأم دون أن يلحظ ذلك ، وكان قد مضى

عليه وهو في سريره نحو نصف ساعة عندما سأله بركة :

إنك لم تتم بعد يا اندريه .

— لا ... ولماذا ؟

— طابت ليلتك .

وأجابها ممتنا : شكراً أيتها الأم الصغيرة . شكراً .

يكونون عن الحديث دون أن يتحركوا من أماكنهم ، ويرنون إلى وجوههم
الكرمية الحانقة بصمت .

وكان العمال يبدون كمن استختم في النضارة ، وكان الشبح الشامخ ، شبح
«غوسيف» البكر يظهر هنا وهناك ، يتبعه اخوه الأصغر كظله ، ويقهقهه
بصوت داو .

ومرّ النجار «فافيوف» والثقاب ايساي ، بالقرب من الأم على مهل ،
وكان ايساي ، وهو رجل صغير هزيل ، شامخ الرأس ، يميل بعنقه إلى اليسار ،
ويرنو إلى النجار المنتفخ الوجه ، الذي تبدو عليه اللامبالاة ، ويحدثه بجرارة
ولحيته تهتز :

— انظر يا إيفان إيفانوفيتش . انهم يقهقهون . انهم مغتبطون رغم ان تصرفهم
كما قال حضرة المدير ، يؤدي إلى خراب الدولة . إنه لا يجب هنا ، يا إيفان
إيفانوفيتش تنقية التربة من النباتات الطفيلية فحسب ، بل يجب حرثها .
وكان فافيوف يسير ، ويدهاء مشبكتان وراء ظهره ، وأصابعه تتشنج وكان
يقول بصوت مرتفع :

— قل ما شئت يا ابن الكلبة ، ولكن لا تحاول أن تأتي على ذكري
واقترب غوسيف من الأم :

— لقد جئت لأتناول طعامي عندك .. لأن «بضاعتك» جيدة .
ثم أضاف وهو يخفض صوته ويغمز بعينه :

— لقد كانت ضربتك محكمة أيتها الأم .. هذا عظيم .
وأومات إليه بيلاجي برأسها إيماء ود ، وكان يسره أن يرى ذلك الفتى ،
الذي يُعد أكثر شبان الضاحية مزاحاً ، وأن يتحدث إليه سرّاً ، مخاطباً إياه
باحترام . وكانت هي سعيدة ، بهذا الهيجان الشامل وتحدثت نفسها :
— من الأکید اني لو لم أكن هناك ..

وتوقف ثلاثة جنود على مقربة منها ، وقال أحدهم بصوت خفيض ولهجة
متحسرة !

— لم اعثر على واحد من المنشورات .

— ينبغي أن يقرأ المنشور بصوت عالٍ . صحيح اني لا اعرف القراءة
ولكنني أرى جيداً انهم تلقوا ضربة في الضلوع ..

وتلفت الثالث حوالبه واقترح :

— هيا بنا الى غرفة الوقود .

وتتم غوسيف غامزاً :

— لقد بدأت النتائج تظهر ..

.. وعادت بيلاجي الى منزلها شديدة الابتهاج .

وقالت لأندريه : انهم يتحسرون لأنهم لا يعرفون القراءة .. أما انا فقد

كنت اعرفها عندما كنت صغيرة .. ولكنني نسيته .

— يجب ان تتعلمها من جديد .

— وفي سن مثل سني ؟ علام تريدني أن أثير ضحك الناس عليّ ؟

ولكن اندريه تناول كتاباً عن الرف ، وأشار الى حرف من حروف

الغلاف برأس سكينه وسألها :

— اي حرف هو هذا ؟

فأجابت ضاحكة : انه حرف الراء .

— وهذا ؟

— حرف الألف .

وكانت مضطربة منفعلة . فلقد توهمت ان عيني اندريه تضحكان منها

وتسخران ، وكانت تتحاشى نظراتها ، ولكن صوته كان يرن عذباً صافياً ،

ووجهه يبدو متزنًا جاداً ، فسألته ببسمة مكتوبة :

— أمن الممكن يا اندريه انك تفكر حقاً في تعليمي ؟

— ولم لا ، ما دمت تعرفين القراءة ؛ فإنك ستتذكرين بسهولة ؛ ولقد قال

المثل : « اذا لم تكن هناك معجزة فيا للخسارة .. واذا كانت .. فذلك أحسن . »

كما قال أيضاً : « إنك لا تصبح قديساً بمجرد التطلع الى الايقونات »

ثم أردف وهو يهز رأسه :

— أجل .. إن الأمثال لا تفعل شيئاً ، فلقد قيل : « إذا عرفنا قليلاً نمنا هنيئاً » فهل هذا صحيح ؟ إن المعدة هي التي تفكر بالأمثال ؛ إنها تحبك منها لجأماً للنفس ، لتمسك بزمامها جيداً .. وهذا الحرف ما هو ؟
وكانت الأم تجهد نفسها ، مسترخية النظرة مقطبة الحاجب ، لتتذكر الاحرف المنسية وكانت وقد استغرقتها هذه الغاية ، تنسى الأحرف الباقية .
وبدت عينها منهكتين ، وظهرت فيها أولاً دموع الإجهاد ، ثم غزرت فيها دموع الأسى .

وقالت وهي تنفجر منتحبة :

— أنا أتعلم الأيجدية . أتعلم القراءة في سن الأربعين .

وقال اندريه بصوت خفيض ملاطف :

— يجب ألا تبكي ، فأنت لا تستطيعين العيش إلا كذلك ؛ ومع هذا فأنت تدركين الآن ان الناس يعيشون حياة منكودة . إن هناك آلافاً منهم يستطيعون أن يحيوا حياة أفضل من حياتك ، ولكنهم يعيشون كالحوانات ، وهم مع ذلك ، يعتزون بحياتهم تلك . فأى خير يتحقق في وجود هؤلاء ؟ إنهم اليوم يعملون ويأكلون ، وسيفعلون ذلك في الغد ، وسيظل الأمر هسو نفسه طوال حياتهم : عمل وأكل . وفي خلال ذلك ينفحون الدنيا أطفالاً يكونون في ياديء الأمر مصدراً لسواهم ، ولكن عندما يبدأ هؤلاء في الأكل كثيراً ، يحق الأهل ، ويسيتون معاملتهم : « هيا ، أيها الشرحون ، انوا سريعاً . يجب أن تشتغلوا » إنهم يودون ان يجعلوا من صغارهم بقرة حلوباً ، ولكن هؤلاء يكدهون بدورهم من أجل بطونهم ؛ ويمحون بدورهم ، حياة بائسة ، كحياة المحكوم بالاعدام وهو في اغلاله . إن هؤلاء وحدهم هم الذين يحطمون قيود العقل البشري ، وأنت الآن ، أيها الأم تتصدين على قدر طاقتك ، لمثل هذه المهمة .

وزفرت الأم : لا تحذني عن نفسي ، فماذا أستطيع أنا أن افعل ؟

— وإلـم ذلك ؟ إن كل قطرة من المطر تروي بذرة . إنك عندما تستطيعين القراءة ..

.. وراح يضحك ، ثم نهض ، واخذ يذرع الغرفة طولاً وعرضاً :

— أجل ستتعلمين .. وعندما يعود بول .. أليس كذلك ؟

وردت عليه :

— آه يا اندريه . عندما يكون المرء شاباً يسهل عليه كل شيء .. ولكنه يغدو كلما تقدم في السن ، غنياً بالأحزان ، فقيراً بالقوى ، وبالعقل .. ثم لا يعود يملك شيئاً ..

- ١٨ -

وفي المساء خرج اندريه من المنزل ، واشملت بيلاجي المصباح ، وجلست قرب الطاولة تنسج جورباً ؛ ولكنها ما عتمت ان نهضت ، وسارت بضع خطوات حيرى ، وانطلقت نحو المطبخ ، ثم احكمت اقفال الباب وعادت الى الغرفة وقد ارتسم على جبينها تغضن قلق .

وأسدلت الستائر ، ثم أخذت كتاباً كان على الرف ، واقتعدت من جديد ، مكانها من الطاولة ، وسرحت بصرها في ارجاء الغرفة ، وانكبت على الصفحات ، وراحت شفتاها تتحركان . وكانت عندما تقرامى الى سمعها جلبة في الشارع ، تطبق الكتاب وتصغي بانتباه شديد ؛ ثم لا تلبث ان تعود من جديد ، فتفتح عينها تارة ، وتغمضها تارة اخرى ، وتغمغم :

« ا .. ر .. ض .. نا »

وطرق الباب فوثبت على عجل ، والقت الكتاب على الرف وسألت محنقة :

— من الطارق ؟

— أنا .

ودخل ريبين ، فسد لحيته بزهو وقال :

— لقد كنت قبلاً تسمحين بالدخول دون أن تسألني من الطارق ؟ هل أنت

- ١٢٥ -

- ١٢٤ -

وحده؟ لقد كنت اعتقد ان البيورومي هنا، فلقد رأيته اليوم .. ان السجن لا يفسد الرجال .

وجلس ..

- حسناً . لتتحدث قليلاً .

وكان على ملامحه مسحة جد ، وسرّ خفي بعثا في قلبها رعباً غامضاً .
ورن صوته المتزن :

- كل شيء يكلف مالا ، فلا شيء يتم بدون بذل ، لا الحياة ولا المات ، وهكذا النشرات فانها تكلف مالا .. فهل تعرفين من أين يأتي المال الذي يغطي نفقاتها ؟

وأجابت بيلاجي بهدوء وهي تتوقع خطراً :

- لا ادري .

- وأنا أيضاً لا أدري شيئاً من ذلك .. أفهل تدرين ايضاً من يكتبها ؟
- انهم فئة من العلماء ...

وقال ريبين ، ووجهه الملتحي يستطيل ويتضج :

- انهم سادة . أجل . انهم سادة اذن اولئك الذين يصوغونها بوزعونها ، وفي هذه النشرات يهاجم السادة ، فقولي لي الآن .. أية فائدة يجنونها من بذل المال لإثارة الشعب ضد أنفسهم ؟

وارتعتت أحفان الأم ، وصرخت بهلع :

- ماذا تتخيل ؟

وقال ريبين وهو يتململ فوق مقعده يتثاقل الدب :

- وأنا ايضاً شعرت بالبرد عندما توصلت الى هذه الفكرة .

- هل توصلت الى معرفة شيء ما ؟

- اشم رائحة الخديعة . انا لا اعرف شيئاً ولكني موثق انها خديعة . اني احتاج الى معرفة الحقيقة ، وقد عرفتها لن أتعاون مع هؤلاء السادة فهم اذا ما احتاجوا اليّ دفعوني الى الأمام لتكون عظامي الجسر الذي يعبرونه الى

من ذلك ،

فأنت كلماته القائمة كأنها انما تهصر قلب الأم ، فصرخت وقد تملكها الضيق :

- يا سيد .. أمن الممكن الا يدرك بول ذلك ؟ واولئك الذين ..

.. وأخذت الوجوه النبيلة الصارمة ، وجوه ايفور ونيقولا ايفانوفيتش وساندرين تنتصب أمامها ، فيتفطر قلبها ، وتتابع وهي تهز رأسها بالنفي :

- كلا ، كلا .. انا لا استطيع ان اصدق . إنهم يعملون بوحى ضمائرهم ؟

- عن تتحدثين ؟

- عنهم جميعاً . عن كل اولئك الذين رأيتمهم بلا استثناء .

وأطرق ريبين وقال :

- يجب ان ينطلق بصرك الى أبعد ، أيتها الأم ، فقد لا يكون اولئك الذين يترددون الى هنا ، والذين كنا نراهم عن كذب ، قد لا يكونون هم انفسهم على علم بشيء . إن هؤلاء يؤمنون ، وهذا ما يجب ان يكون ، ولكن ربما كان وراءهم آخرون لا يفتشون إلا المصلحة .. إن المرء لا يتدفع ضد مصلحته إلا يفتن .

ثم أضاف بايمان عنيد ، ايمان قروي :

- لا خير أبداً يرجي من هؤلاء السادة .

بوسأله الأم وقد وقعت من جديد فريسة للشك :

- وماذا قررت ؟

وتأملها ، وصمت لحظة ثم قال :

- انا ؟ يجب الا استمر في التعاون مع هؤلاء السادة .. هذا هو ما قررت .

ثم صمت من جديد ، وهو متجهم الأساريير .

- لقد أردت أن اضع نفسي انا وفتيانك ، للعمل معهم ، واني لاصح لهذه

المهمة ، واعرف ماذا يجب أن يقال للناس .. اما الآن فسأرحل . انا لا استطيع

ان اتق بهم ، وعليّ أن اذهب

وطأطأ رأسه ، يفكر :

- سأنتقل وحدي في القرى والداكر ، سأوقظ الشعب ، إذ على الشعب ان يأخذ مكانه في النضال . واذا ادرك ذلك فإنه لن يضل الطريق ابداً .
وسأبذل جهدي لكي يدرك بأنه لا امل له إلا بنفسه ، والا منطلق إلا منطقته .
هذا هو الواقع .

وداخل الأم إشفاق عليه وخوف ، ولم تك من قبل تشعر نحوه بأي تعاطف ، ولكنه اصبح فجأة قريباً من نفسها ؛ فقالت له برقة :

- سوف يقبضون عليك .

فرنا اليها وأجاب بهدوء :

- سيقبضون عليّ ثم يطلقون سراحي فأعيد الكرة .

- ان الفلاحين انفسهم سيوثقون يديك ، وستزج في السجن .

- إذا زججت في السجن فاني سأخرج منه ، وسأعود للعمل . اما الفلاحون

فانهم سيوثقون يدي مرة ومرة ، ثم ينتهون الى الاعتقاد بأنه يجب الاصغاء إليّ لا القبض عليّ ، وساقول لهم : « لا تصدقوني ولكن اصغوا إليّ فقط ... »
وإذا أصغوا إليّ فانهم سيصدقوني .

وكان يتكلم ببطء كأنه يتحسس كل كلمة قبل ان يلفظها :

- لقد مررت ، في الزمن الأخير هذا ، بتجارب كثيرة ، وأدركت كثيراً

من الامور ..

وقالت بيلاجي وهي تهز رأسها بأسى :

- سوف نهلك يا ميشال .

فركز عليها عينيه السوداوين العميقتين اللتين كانتا تبدوان كأنها تنتظران

جواباً ، وكان جسمه القوي يميل الى الامام ، ويدها تستندان الى متكأ المقعد ،

ووجه البرونزي يبدو شاحباً في اطار لحيته السوداء .

- انت تعرفين ما قاله يسوع عن حبة القمح . « ينبغي ان تموت لتبعث في

سنبلة جديدة ، وما زال لديّ متسع من الوقت .. قبل أن اموت .. واني

لامرؤ ذو حيلة ..

وتأمل في مقعده ثم نهض متباطئاً :

- أنا ذاهب الى الفندق ، وسأمكث هناك ، بعض الوقت . يظهر أن

البيوروسي لن يحضر ، فهل تراه انهمك في العمل من جديد ؟

وأجابت الأم باسمه :

- نعم .

- هذا ما يجب . أعيدي عليه ما قلته لك .

واجتازا المطبخ بثقل ، وتبادلا بعض العبارات دون ان ينظر أحدهما الى

الأخر .

- والآن ، وداعاً .

- لقد قضي الأمر .

- ومتى ترحل ؟

- غداً ، في الصباح الباكر . وداعاً .

وسار ريبين بحني الظهر واجتاز الردهة كالمكره ، وظلت الأم على العتبة

لحظة تصيح بسمها الى الخطى الثميلة ، والى الشكوك التي استيقظت في قلبها ؛ ثم

ارتدت دونما جلبة الى الغرفة ، ورفعت طرفاً من أطراف الستارة ، وتطلعت من

النافذة . لقد كانت الظلمات الكثيفة وراء الزجاج جامدة لا تتحرك .

وقالت في نفسها :

- إنه الليل .

وكانت تشفق على هذا القروي النير التفكير ، وكان هو واسع الصدر

شديد البأس .

... وأقبل اندريه بادي النشاط والمرح .

وعندما حدثته عن زيارة ريبين صاح :

- حسناً ، لينطلق في القرى ، يبشر بالحقيقة ويوقظ الشعب . إنه لا يشعر

بالراحة معنا ؛ فلقد نبقت في رأسه أفكاره القروية ، ولم يبق في هذا الرأس

مكان لأفكارنا .

وقالت بغبطة :

— إن ما قاله عن السادة يدل على أن هناك أمراً مبيتاً ... فضلاً عن أنهم يخدعوننا .

وصاح البيوروسي ضاحكاً :

— هل يزعجك هذا؟ آه ... المال ... ليتنا نملك المال أيتها الأم الصغيرة ؛ فنحن ما زلنا نعيش حتى الآن بمال الآخرين : خذي مثلاً نيقولا ايفانوفيتش . إنه يقبض خمسة وسبعين روبلاً في الشهر يدفع لنا منها خمسين . والآخرون كذلك . وهناك طلابٌ جياع يبعثون إلينا ، أكثر الأحيان ، ببعض المال الذي يجمعونه فلساً فلساً . إن السادة بلا شك أنواع : بعضهم يخدع ، والبعض الآخر في المقدمة ، أما أفضلهم فإنهم معنا .

وفرك يديه وتابع بقوة :

— إن نصرنا ليس للعد ، ولكننا سنعد بانتظار أول أيار ، عيداً « صغيراً » طيباً ، وسيكون هذا العيد بهيجاً .

وطردت حاسته الكتابة التي زرعا ريبين في نفسها ، وكان يختال في الغرفة وهو يسح شعره بيده ، ويقول ، وعيناه مسمرتان في الأرض :

— أني أحس أحياناً تفجر حياة عجيبة في قلبي ، ويخيل الي أن المرء يلقي أصدقاءً أنتى ذهب ، أصدقاء يدفعهم جميعاً نفس الذهب ، أصدقاء طيبين ، مرحين ، يتفاهمون دونما كلام ؛ ويعيشون في انسجام رائع ، ويفني كل قلب انشودته ، وتسيل هذه الأناشيد كلها كالجداول ، وتصب في نهر واحد يندفع عريضاً ، حرراً ، نحو البحر ، بحر الهناآت الصافية ، هنا أت الحياة الجديدة . وكنت بيلاجي تجهد نفسها في ألا تأتي بأية حركة كيلا تقطم عليه حديثه . لقد كانت تصغي إليه دائماً أكثر مما تصغي للآخرين ، وكان يتحدث ببساطة أكثر ، فتمس كلماته القلب بقوة . كان بول لا يقول أبداً كيف يرى المستقبل ، في حين أن المستقبل كان في نظر اندريه كخطر من قلبه ؛ وكان يخيل إليها وهي تستمع الى خطبه أنها تصغي الى حكاية حلوة ، حكاية العيد العظيم الذي

سيشرق على الناس جميعاً ، وكانت هذه الحكاية تلقي الضوء ، بنظرها ، على اتجاه حياة ابنها وعمله ، هو ورفاقه .

وتابع البيوروسي وهو يهز رأسه :

— وعندما تعود الى الواقع ، عندما نتلفت حولنا نجد كل شيء بارداً موحلاً ، والناس هلكى محقين .

ثم تابع بحزن عميق :

إن هذا المهين ؛ ولكن ينبغي أن نحذر الإنسان ، أن نخافه . وحتى أن نكرهه . إن الانسان موزع . وعلينا أن نجح فقط ... فهل هذا ممكن ؟ كيف تغفر لمن ينقض عليك كوحش ضار لا يعترف بأن فيك روحاً تحياً ؛ ويسدد ضربات قبضته الى وجهك كإنسان ؟ محال أن تغفر له ذلك ؛ وهذا ليس بالنسبة لي أنا ، فأنا أتحمّل الإهانات كلها إذا لم يكن سواي ، ولكنني لا أريد أن أخضع أبداً ، لأولئك الذين يستخدمون القوة ولا يريدون ان يتعلموا ضرب الآخرين على حسابي .

وهنا لمعت عيناه بأللق بارد ، فأخنى رأسه بعناد وقال بكثير من الحزم :
— يجب ألا أعتقر أي عمل سيء ؛ حتى ولو لم يكن يمسي شخصياً ؛ فأنا لست وحدي على الأرض . لنفترض اني استكنت اليوم للإهانة فلم أرد عليها ، وبأني ضحكت منها لأنها لم تجرحني ؛ فإن وجهها الذي اختبر قوته في ، سيعتدي غداً على شخص آخر . من أجل هذا يجب التمييز بين الناس ، ويجب أن يكون المرء ثابت الجنان ، وأن يقول : « هؤلاء اخوتي ، وهؤلاء ليسوا كذلك » إن هذا الموقف صحيح ولكنه لا يبعث على السرور .

وانطلق تفكير الأم بصورة لا واعية الى الضابط وساندرين فزفرت :

— كيف نضع الحبز من قح لم يزرع بعد ؟

فصاح اندريه :

— هذه هي المصيبة .

— أجل .

وتراعى لها فجأة شيخ زوجها عبوساً ثقيلاً كصخرة ضخمة يغطيها العشب ،
وتحملت البيورومي وقد تزوج نالاشا ، وابنها وقد ربط مصيره بساندرين .

وتابع اندريه مستشاطاً :

- وعن أي شيء ينتج هذا ؟ إنه ناتج فقط - وهذا ما يبدو في الوقت نفسه
مضحكاً - ناتج عن أن الناس غير متساوين . لنضع الناس جميعاً في مستوى
واحد ، لنوزع بالتساوي كل ما أبدع العقل وكل ما صنعتته الأيدي ، نتحرر من
عبودية الخوف والحسد واغلال الطمع والعبادة .

هذه هي الأحاديث التي كانت تدور غالباً بين البيورومي والأم .
وكان اندريه الذي عاد الى العمل في المصنع ، يضع أجره كله بين يدي بيلاجي
التي كانت تقبضه - بكل بساطة - كما تقبض أجر بول .

وكان اندريه يقترح أحياناً بعين ضاحكة :

- لم لا نقرأ قليلاً ابنتها الأم الصغيرة ، لم لا نقرأ ؟
وكانت هي ترفض مازحة ، ولكنها ترفض بعناد ، وكانت بسمة اندريه
تربكها وتحققها فتقول :

- أراك تضحك ، فهل في هذا ما يضحك ؟

وكانت تسأله دائماً عن معنى هذه اللفظة أو تلك ، حين يشكل عليها معناها ،
تسأله دون أن ترفع إليه بصرها ، ويصوت تحاول أن تشحنه باللامبالاة ؛ وقد
استنتج انها كانت تدرس على نفسها في الحفاء ، وأدرك مبلغ ضيقها فلم يعد يقترح
عليها أن تقرأ معه .

وصارحته مرة :

- إن بصري ضعيف يا اندريه . إنني بحاجة الى نظارتين .

- ربما كان ذلك . سندهب نهار الأحد الى المدينة ، وسأخذك الى الطبيب ،
وسيكون لك نظارتان .

كانت قد طلبت السماح لها بمقابلة بول ثلاث مرات ، وكانت تتلقى ، في كل
مرة ، رفضاً « شهماً » من قائد الدرك ، وهو عجوز صغير قرمزي الوجنات ،
ضخم الأنف : سزى خلال اسبوع ياسيدي على الأقل ، وليس أقل من ذلك .
أما الآن فستحيل .

وكان مربوع القامة ممتلئاً ، بذكرها بحجة خوخ ناضجة طال عليها الأمد في
الدكان وعلاها زغب التعفن ؛ وكان ينقب دائماً أسنانه النضيدة البيضاء بقطعة
صغيرة من الخشب الأصفر المدبب ، وكانت عيناه الصغيرتان المدورتان والحضراوان
تبتسان بجمرة ، وفي صوته جرس محبب ودود .

وقالت الأم للبيورومي : إنه عالي التهذيب ، ينتم أبداً .

- أجل . أجل . إنهم في غاية اللطف والبشاشة . يُقال لهم : خذوا . هو ذا
رجل ذكي شريف . إنه خطر علينا فاشنقوه ، فيبتسمون ويشنقون الرجل ثم
يعودون الى الابتسام .

- لقد كان الضابط الذي قام بالتفتيش عندها شديد البساطة ، ثم تبين على الأثر
انه كان سافلاً .

- هؤلاء ليسوا ببشر . إنهم مطارق لسحق الناس وابتلائهم بالسم . إنهم
آلات تستخدم لتكليفنا نحن أفراد الشعب ، لنغدوا اداة طيبة ، وهم أنفسهم في
خدمة اليد التي تحركنا . إنهم ينفذون ما يؤمرون به دونما تفكير ، ودون ان
يسألوا عن الغاية .

وأخيراً أعطي الاذن لبيلاجي .

واقبلت يوم الأحد الى نظارة السجن ، وقبعت متواضعة في إحصى الزوايا ،
وكان في الغرفة الضيقة القذرة المنخفضة السقف بصعة أشخاص غيرها ينتظرون
موعد الزيارة ولم تكن هذه ، بلا شك ، هي المرة الأولى التي يأتيون بها الى السجن ،
فلقد كانوا يعرفون بعضهم بعضاً ، وكانوا ، يتجادون فيما بينهم ، بصوت منخفض
متساحب ، حديثاً لمنته الشكوى والهذر ، حديثاً لزجاً كنسيح المنكحوت .

— من لك هنا ؟
فأجابت العجوز بسرعة وبصوت عال : — ابني ، وهو طالب ... وأنت ؟
— ابني أيضاً ، وهو عامل .
— ما اسمه ؟
— فلاسوف .

— لا أعرفه ... أ منذ وقت طويل هو في السجن ؟
— منذ ستة أسابيع .
— أما ابني فهو هنا منذ أكثر من عشرة أشهر .
وخيل لبيلاجي انها تتميز في صوتها إحساساً لا يوصف ، إحساساً كأنه الزهوء .
وكان العجوز الصغير الأملح يقول بسرعة :
— نعم ، نعم . . . لقد فقد صبر الناس . إنهم جميعاً غاضبون . إنهم يضجون
فلقد ارتفع سعر كل شيء ، وأصبح الناس ، بنتيجة ذلك ، أقل قيمة . إننا لا
نسمع أصوات المصلحين .

— هذا صحيح كل الصحة . يا للفوضى ، يجب أن يرتفع صوت ليأمر بالصمت ،
هذا ما يجب ان يحصل ؛ صوت حازم .

ونشط الحديث واشترك به الحاضرون ، وكان كل واحد منهم يسارع الى
قول كلمته عن مستوى المعيشة ، ولكنهم كانوا جميعاً يتكلمون بصوت منخفض
وكانت الأم تستشف في حديثهم شيئاً بدا لها غريباً . إن الآخرين يتكلمون في
منزلها بشكل آخر . إنهم يتكلمون لغة أكثر بساطة ، ووضوحاً ، وأدنى
الى الفهم .

ونادها حارس ضخمة الجثة ، مربع اللحية أشقرها ، وتفحصها من رأسها حتى
أخمس قدميها ، ثم راح يخلج أمامها بعد أن قال لها :
— اتبعيني .

وتبعته ، وراودتها رغبة في ان تدفعه من وراء ليسرع خطاه ، وفي غرفة
صغيرة كان بول واقفاً ينتسم ويبسط لها يده . وحضنتها الأم وراحت تضحك .

وكانت امرأة بدينة زاوية الوجه تقول وعلى ركبتيها كيس :
— هل عرقتم ؟ إن كاهن الكنيسة كاد ، هذا الصباح ، وفي القداس الأول ،
ان يقتلع أذن صبي من جوقة التراتيل .
وسئل رجل طاعن في السن يرتدي بزة عسكري متقاعد ، سئل بصوت
مسموع وقال :

— يا لهم من متشردين ، صبية الجوقة هؤلاء ...
وكان هناك رجل قصير أصلع ، قصير القامتين ، طويل الذراعين ناتيء الفك
بذرع أرض الغرفة وهو بادي الانهاك ، ويقول ، بصوت كئيب ، ودون
أن يتوقف :
— إن غلاء المعيشة يزداد أكثر فأكثر ؛ لذلك صار الناس أكثر فساداً من ذي
قبل . إن الليبره من لحم البقر ، الصنف الثاني ، تساوي أربعة عشر « كوبيكا » ؛
ورغيف الخبز يساوي الآن « كوبيكين » ونصفاً .

وكان يدخل الغرفة أحياناً سجناء يرتدون اللباس الأشهب الموحد ، ويغطون
أحذيتهم بكواليش ثقيلة من الجلد ؛ وكانت عيونهم تعشى عندما يدخلون الغرفة
المظلمة قليلاً ، وكانت السلاسل تثقل رجلي واحد منهم .

وكان كل شيء هادئاً هدهوءاً أعجيباً ، وبسيطاً لدرجة تشير القرف ، حتى
ليحسب المرء أن هؤلاء الناس قد ألفوا هذا الجو منذ أمد بعيد . لقد كان بعضهم
يجلس بهدهوء ، والآخرين يتسلقون السلم بفتور ، وآخرون أيضاً يقبلون لزيارة
السجناء متأنقين مستسلمين . وكان قلب الأم يرتعش ضعفاً ، وكانت ترنو قلقلة الى
كل ما يحيط بها فتدهشها تلك البساطة الثقيلة الوطأة .

وكانت تجلس الى جانبها عجوز قصيرة مجمدة الوجه ، إلا أنها ما برحت
شابة النظرة ، وكانت تصغي الى الحديث ، وهي تمد عنقها الهزيل ، وترنو الى
الناس ، وفي نظرتها غرابة التحدي .
وسألتها بيلاجي بلطف .

وكانت أجفانها ترتعش ولسانها يبحث عن الكلمات ؛ وأخيراً قالت برفق :

— صباح الخير ، صباح الخير .

— هدي من روعك يا أماء فليس ما يدعو الى الاضطراب ...

وشد على يدها بقوة .

وقال الحارس متأوها :

— تراجعى الى الورا أيتها الأم ، لا تقتربي منه كثيراً، ولتبقى بينكما فسحة ..

وتشاب بصوت مرتفع .

وسألها بول عن صحتها ، وعن البيت ، وكانت تنتظر أسئلة أخرى ، فراحت

تبحث عنها في عينيه ، ولكنها لم تعثر عليها . لقد كان — كما هو دائماً — هادئاً ،

ولكنه أكثر شحوباً ، وكانت عيناه تبلوان أكبر من ذي قبل .

— ان ساندرين تقرئك السلام .

وارتعشت أجفانه ورقت ملامحه وابتسم ؛ ووخزت قلب الأم مرارة شديدة

فتابعت وهي تشعر بالحنق والمذلة :

— هل سيطلقون سراحك قريباً ؟ لماذا سجنوك مادامت المشورات قد

عادت الى الظهور ؟

ولمعت عينا بول بألق الغبطة .

— عادت من جديد ؟

وأعلن الحارس بلهجة للامبالي :

— الحديث عن هذه الامور ممنوع هنا . تحدثوا فقط عن الشؤون العائلية .

وسأله الأم :

— أليس هذا من الشؤون العائلية ؟

فأجابها باستخفاف : لا أدري ... وكل ما أدريه ان هذا ممنوع .

وتدخل بول :

— حدثيني يا أماء عن العائلة .

واجتاحها شعور ببطولة فتية : لقد حملت ذلك كله الى العمل .

ثم توقفت لحظة وتابعت بإسمة :

— شوريا ، ومجدرة ، وكل ما تطبخه ماريا ... وما كولات اخرى ...

وفهم بول وعض شفته ليخفق رغبته في القهوة ، ورد الى الورا شعره المنثال

ثم قال بصوت مداعب لم تأنسه من قبل :

— جميل ... لقد وجدت إذن عملاً فلا تضجرين أبداً !

وزدت دونما صلف :

— وعندما عادت هذه المناشير الى الظهور ، عادوا أيضاً الى تقشيري .

وصاح الحارس غاضباً .

— عدنا الى الحديث في السياسة ؟ لقد قلت ان هذا ممنوع . يحرم المرء من الحرية

لكيلا يعرف شيئاً . انك لا تصفين الى شيء مما أقول . يجب ان تفهمي ان هذا ممنوع .

وقال بول :

— حسناً .. لا تتكلمي في الموضوع يا أماء ... إن ماثيو إيفانوفيتش رجل

طيب ؛ ويجب ألا تثير غضبه . إننا على أتم التفاهم ، وقد جيء به اليوم الى هنا ،

صدقة ، إذ ان نائب المدير هو الذي يشرف عادة على المقابلات .

واعلن الحارس وهو ينظر الى ساعته :

— لقد انتهت المقابلة .

واحتضنها بول بجرارة وعانقها ؛ وأسمعها هذا التصرف ، واثر فيها فأخذت

تبكي . وصاح ماثيو : هيا افترقا .

وقاد الأم وهو يغمغم :

— لا تبكي . سيطلقون سراحه . إنهم سيطلقون سراحهم جميعاً إذ لم يبق

هنا مكان يتسع لهم .

وعندما عادت الى المنزل أخبرت اندريه بحجاسة وغبطة :

— لقد حدثته بلباقة ... وفهم هو ...

ثم زفرت : لقد فهم ، وإلا لما كان عانقني . انه لم يفعل ذلك في حياته أبداً .

وقال اندريه ضاحكاً :

- آه ... هذا جميل منك . ان كل انسان في هذه الدنيا ينشد شيئاً ما ،
والأم تنشد المداعبة دائماً .

وصاحت بدهشة مفاجئة :

- عجباً كيف تسيطر العادة على اولئك الذين يترددون على السجن . لقد
انتزع اولادهم منهم ، ووضعوا في السجن ، ولم يؤثر ذلك فيهم شيئاً . إنهم يأتون
فيجلسون وينتظرون ويثرون . . أليس كذلك ؟ فإذا كان المثقفون يتعودون
هذا ... فما هو حال الشعب ؟
وأجاب مبتسماً :

- هذا أمر طبيعي ، ومع ذلك فإن القانون بالنسبة لهم أخف وطأة مما هو
بالنسبة لنا ؛ حتى ولو صفعهم هذا القانون ، فإنهم يسخرون منه ، ولكن ليس الى
حد كبير ؛ لأن الضربة تظل أقل إيلاًماً حين يتلقاها المرء من عصاه .

- ٢٠ -

وفي احدى الأمسيات ، بينما كانت الأم جالسة تحميك الجوارب ، واندرية
يقرأ بصوت عالٍ قصة ثورة العبيد الرومان ، طرقت الباب بشدة ، ففتح اندرية ،
ودخل فيسو شيكوف يتأبط صرة وهو منسرح الشعر على رقبتة ، غارق في
الوحد حتى ركبتيه ؛ وقال بصوت غريب ، وهو يأخذ يد بيلاجي بيده
ويهزها بعنف :

- كنت ماراً من هنا فرأيت نورا في النافذة ، فدخلت لأحييكم . اني خارج
تواً من السجن . إن بول بيعت إليكم بتحتيته .

ثم نهالك متردداً على احد المقاعد ، وأجال في الحجره بصره المتشكك القائم .
لم يكن فيسو شيكوف يعجب الأم ، فلقد كان في رأسه الحليق ذي الزوايا ،
وعينيه الصغيرتين ، شيء يثير رعبها ؛ أما الآن ، فإنها تشعر في حضرته بالغبطة ،
لذلك قالت بجرارة وهي تبسم منفعة :

- لشد ما نخلت ... لتعد له الشاي يا اندرية .

وأجاب اندرية الذي كان في المطبخ :

- ها أنذا أعده .

- وكيف حال بول ؟ هل اطلق سراح آخرين سواك ؟

فطأطأ رأسه وقال :

- بول لا يزال في السجن . إنه يتجلد . ولم يطلق سراح أحد سواي .

ثم رفع رأسه ، ونظر الى الأم ، وتابع ببطء وهو يركز على أسنانه :

- لقد قلت لهم : عندكم ما يكفيكم فاطلقوا سراحي ، وإذا لم تفعلوا فإني

اقتل شخصاً ، ثم اقتل نفسي ... وكان ان اطلقوا سراحي .

- نعم .

قالتها بيلاجي وهي تتأى عنه ، وأحفاها ترف بجرارة لا إرادية ، عندما تلقتي

عينها بالعينين الصغيرتين ، عيني الرجل ذي الوجه المجدور .

وصاح اندرية من المطبخ :

- وتيو مازين ... أما زال ينظم الأشعار ؟

- نعم ، ولكني لا أفهم شيئاً من هذا .

ثم أردف وهو يهز رأسه :

- أهو هزار ؟ لقد وضع في القفص فراح يغني . انا لا افهم سوى أمر واحد

هو أنه ليست لي اية رغبة في الذهاب الى المنزل .

وقالت الأم بشرود :

- هذا أكيد ، فإذا ستجد في منزلك ؟ انه خاوٍ لا دفع فيه كل شيء فيه

بارد كالجليد .

وصمت لحظة مسبل الأجهان ، وأخرج من حيبه علبة للسجائر فتناول سيجارة

وراح يدخنها ببطء ؛ ويتتبع بصره سحابة الدخان الرمادي التي تتلاشى أمامه ،

ثم لم يلبث ان انفجر ضاحكاً ، فكانت ضحكته أشبه ما تكون بنباح الكلب .

- أوه بارد ؟ يجب ان يكون كذلك . قد تكون الجمعلان المتجمدة تتساحب

في أرضه ، كما ان الفيران قد تموت فيه من البرد .

وتبدو في وجهه الاغبر بقع حمراء .
- سأنتزع فك إيساي غوربوف ... ستري .
- ولماذا ؟

ورد فيسو شيكوف وهو يرمق اندريه بعين متجهمة شريرة :
- ليستمر في تجسسه ، ليستمر . إنه المسؤول عما آل إليه والذي : فهو
يعتمد عليه في خطواته الاولى كجاسوس .
وصاح به اندريه :

- أتخقت من هذا ؟ ومن الذي جعلك مسؤولاً ؟ يا لهم من اوغاد .
فأجاب مجزم : ان الاوغاد كالأذكياء تماماً . انهم متشابهون ، فأنت مثلاً
فتي ذكي وكذلك بول ، ولكن هل انا في نظرك كثير مازين او ساموالوف ، او
كواحد منكم بالنسبة للآخر ؟ لا تكذب فلن اصدقك . انكم جميعاً تدفعونني
وتتحونني جانباً .

وقال اندريه برقة وعطف وهو يجلس الى جانبه :
- إنك مريض يا عزيزي المسكين .

- مريض ؟ وأنتم ايضاً مرضى . ولكن اوجاعكم تبدو لكم اكثر نبلاً من
اوجاعي . أننا بالنسبة لبعضنا البعض ، قدرون . هذا ما اقوله فباذا تستطيع
ان تجيبني ؟ قل !

وسدد اندريه نظرتة الحادة ، وراح ينتظر الجواب ضاحك السن ، وكان
وجهه المجدور لا يحمل اي تعبير ، وشفتاه السميكتان ترتعشان كالو احرقهما
سائل مغلي .

وقال اندريه والابتسامة الحزينة الحارة في عينيه ، تداعب نظرة
فيسو شيكوف الحقود .

- لن أرد عليك فأنا أعرف جيداً ان الجدل مع امريء دامي القلب ليس
إلا إثارة له . أعرف ذلك يا أخي المعجوز .
فغمغم نيقولا وهو مطرق :

ثم سأل بصوت أصم دون ان يرفع بصره الى الأم :
- اتسمحين لي بأن أقضي الليل عندك ؟ هل تريدن ؟
فقالت بجملة : أجل .

وكانت تشعر بالضيق ، وبأنها في حضرته ليست على ما يرام .
- إننا نعيش في زمن يخجل فيه الابناء من ذويهم .
وسألت الأم وهي ترتعش : ماذا ؟

فرجها بنظرة ، وأغمض عينيه ، وبدأ وجهه المجدور فجأة كوجه اعمى ، ثم
ردد وهو يصعد زفرة :

- لقد قلت ان الابناء بدأوا يخجلون من ذويهم ، وهذا لا ينطبق عليك ،
فإن بول لن يخجل بك ابداً ؛ ولكنني أنا الذي اخجل بأبي ؛ ولن اذهب الى
منزله ابداً . ليس لي أب ولا منزل . وقد وضعت تحت رقابة البوليس ولولا ذلك
لانطلقت الى سيبيريا . هناك سأحزر المنفيين ، وسأهينهم لهم خطة الهرب .
وكانت الأم تدرك بقلها الحساس ان الفتى يتألم ، ولكن ألمه لم يكن يوقظ
فيها الشفقة ، فقالت له كيلا تثقل عليه بصمتها :

- إذا كان الأمر كذلك على وجه الأكيد ، فإنه من الأفضل لك ان تذهب
الى سيبيريا .

وخرج اندريه من المطبخ فقال :

- بماذا تكرزين ؟ قولي ؟

فنهضت الأم : يجب ان اعد شيئاً للأكل .

وركز فيسو شيكوف بصره على اندريه وصاح فجأة :

- اعتقد ان هناك فاساً يجب ان يقتلوا .

- أوه ، أوه ... ولماذا ؟

- كيلا يبقى منهم أحد .

وكان يقف في وسط الغرفة ضخماً جافاً يترنح ويتفحص نيقولا من عل ،
ويدها في جيبه ، وكان فيسو شيكوف يتكلم في مقعده ، تلفه سحابة من دخان ،

— يجب ألا تجادلني ، فأنا لا أعرف الجدل .

وتابع اندريه :

— ارى ان كلا منا قد مشى على نثار الثلج عاري القدمين ، وان كل انسان

قد نفث في ساعاته الباقية ، النار نفسها التي تنفثها انت الآن .

ورد فيسو شيكوف بتؤدة :

— إنك لا تستطيع ان تقول لي شيئاً . إن نفسي تعوي في داخلي كذئب ..

— وانا لا اريد ان اقول شيئاً ، وكل ما اعرفه هو ان هذا سينجلي ، وربما لم

يحصل ذلك بكامله ، ولكنه سينجلي على كل حال .

وأخذ يضحك ، ثم ربت على كتف نيقولا :

— هذا هو ، ايها الأخ العجوز مرض من امراض الطفولة .. إنه شيء

كالخصباء . وسعاني منه جميعاً ؛ الاقوياء اقل قليلاً ، والضعفاء اكثر قليلاً . إنه

يصيب الناس امثالنا عندما يكونون قد وجدوا ما يريدون ، ولكنهم قصروا

عن فهم الحياة ، ولم يهتدوا بعد الى المكان الذي يجب ان يتركزوا فيه . إنهم

يتخيّلون انهم الوحيدون من نوعهم كثمرة طيبة ، كخيار صغيرة يود الناس

جميعاً ان ينهشوها . وبعد زمن ما تكتشف ان افضل ما فيك هو ايضاً عند

آخرين ليسوا اكثر سوءاً . وهذا ما يعريك . وتشعر بقليل من الحجل لانك

تسلت قبة الجرس لتنهز جلتك الصغير لدرجة لا يسمع معها صوته عندما

يقرع الجرس الضخم ، جرس الاعياد . وستكتشف بعد ذلك ان جلتك ليس

سوى جزء من الجوقة الشاملة ، في حين انه لو قرع وحده لشرق في ضجيج

الاجراس الهرمة ، ككتابة في اثناء من زبدة . فهل فهمت ما أود ان اقوله ؟

وهز نيقولا رأسه : ربما فهمته جيداً .

وراح يمشي بخطى صاحبة :

— وانا ايضاً لم اك أو من به ابدأ ، فأغرب من وجهي ايها الحصى .

وقال نيقولا ببسمة مغتصبة ، وهو يرنو الى اندريه :

— أ أنا حطبة ؟ لماذا ؟

— هكذا . إنك تشبهها .

وفجأة خرج فيسو شيكوف وهو يفرغ فمه الواسع ويضحك ضحكة داوية .

وسأله اندريه مشدوها وهو ينتصب في وجهه :

— ماذا دهالك ؟

— كنت اقول في نفسي انه سيكون غيباً لعيننا ذاك الذي يشتمك .

— كيف ولماذا يشتمني ؟

وهز اندريه كتفيه بتهمك . وقال فيسو شيكوف بسداجة وهو يكشر عن

اسنانه :

— لا أدري ... كنت أود ان أقول ان المرء الذي سيوجه إليك الشتيمة

يجب ان يكون فاسد الضمير .

وقال اندريه ضاحكاً :

— آه .. هذا ما كنت تود ان تنتهي إليه . ؟

وصاحب الام من داخل المطبخ :

— يا اندريه .

فخرج ، وبقي فيسو شيكوف وحده . واجال فيسو شيكوف بصره فيما

حواله ، ومد ساقه التي تنتهي بجذاء ثقيل ، فتفحصها ، وتلمس عضلات ساقه

الشخينة ، ثم رفع يده ، وادناها من وجهه ، وتأمل راحتها بدقة ، ثم تأمل ظاهرها ؛

لقد كانت مكتنزة قصيرة الأنامل يغطيها زغب اصفر . وحركها في الهواء ثم نهض .

وعندما اقبل اندريه يحمل الشاي كان هو امام المرأة :

— لم ار شدقي منذ امد طويل .

وابتسم ابتسامة ساخرة ثم أضاف :

— إن لي شدقاً قديراً ...

وقال اندريه وهو يتأمله بفضول :

— واي ضمير في هذا ؟

وأجاب نيقولا ببطء :

— تقول ساندريين ان الوجه مرآة النفس ؛

— ليس هذا صحيحاً . فهي تحمل انفاً اعقف ، ووجنتين كالقصر ، ومع ذلك فهي تحمل روحاً كالنجم .

وحدث به فيسوشيكوف وابتم . ثم جلسا لتناول الشاي . وتناول فيسوشيكوف حبة كبيرة من البطاطا ، وذرة بجرمة عنيفة قليلاً من الملح على قطعة من الخبز ، وراح يمضغ يهدوء وبطء كالثور .

وسأل ، والطعام يلاً فمه :

— وكيف تسير الأعمال هنا ؟

وفيا كان اندريه يروي له بغبطة ، كيف تنمو الدعاوة في المعمل ، تجههم وجه وقال بصوت أصم :

— ذلك أمر يطول ، يطول كثيراً . يجب الانطلاق بسرعة اكثر .

ورمقته الأم وأحست في نظرتة من جديد ظل الضغينة .

وقال اندريه :

— الحياة ليست حصاناً ، ولا يمكن حملها على الجري بالسياط ...

غير ان فيسوشيكوف هز رأسه بعناد :

— ذلك أمر يطول ، ولا جلد عندي على الانتظار في المعمل .

ومد ذراعيه في حركة اعياء ، وتطلع الى اندريه ثم صمت ينتظر جواباً .

وأجاب اندريه مطأطيء الرأس :

— يجب ان تتعلم جميعاً ، وأن نعلم الآخرين . هذا هو واجبنا .

— و الى متى تستمر هذه الفوضى ؟

وابتم اندريه وقال :

سنتلقى الضربات . أولاً ، وإني لاعرف ان هذا سيحدث اكثر من مرة ،

ولكننا لن نكون كذلك عندما يتوجب علينا ان نحوض المعركة . يجب ان

نسلح الرأس أولاً... ثم نسلح الأيدي بعد ذلك . هذه هي وجهة نظري .

وشرع نيقولا يأكل ، وكانت الأم تراقب وجهه العريض خلصة محاولة ان

تجد فيه شيئاً بوطد السلام بينها وبينه ؛ بينها وبين هذا الكيان الضخم الذي تحتها

ازميل ؛ وكانت كلما التقت نظرتها بتلك النظرة النافذة التي تشع من عينيهِ الصغيرتين ، ترتعش اجفانها رهبة ، وكان اندريه متحمساً ، لذلك اخذ يتكلم ويضحك ، ثم توقف فجأة وراح يصغر .

وكانت الأم تعتقد أنها تعرف سبب قلقه ، الا ان نيقولا لبث في مكانه صامتاً ، فاذا ما وجه اندريه إليه سؤالاً ما ، اجاب عليه باقتضاب ، وبنفور ملحوظ .

وشعرت الأم واندريه بضيق ما ، وبأنها ليسا على ما يرام في هذه الغرفة الصغيرة ، فراحا يرمقان ضيفها ، متناولين ، بنظرات مختلصة .

... وأخيراً نهض .

— سأصرف لأنام فلقد طال سجنني ثم اطلق سراحي دفعة واحدة ، فمشيت طويلاً ، لذلك فأنا متعب .

وعندما بلغ المطبخ خفتت حركته ، ثم جرد فجأة كميته ، فقالت الأم التي

كانت تتبعه بسمها ، مالت الى اندريه توشوشه :

— إنه يحمل أفكاراً رهيبية .

فأجاب اندريه ، هازأ رأسه :

— إنه فتى صعب المراس ، ولكنه لن يظل على هذه الحال ، فلقد كنت

مثله . إن الهباب يتكسد في القلب اذا كانت جذوته لا تشتعل بصفاء . انتها

الأم الصغيرة ، اذهبي الآن وتاممي ، اما انا فسأبقى قليلاً لأقرأ .

وتوجهت الى الزاوية حيث كان سريرها الملقع بستارة مطرزة وظل اندريه

وقتاً طويلاً ، يصغي ، وهو امام الطاولة ، الى همسها الدافئ ، همس صلواتها

وزفراتها ؛ وكان ، وهو يقلب صفحات كتابه بسرعة ، يمسح جبهته بجرمة محبومة ،

ويقتل شاربيه بأصابعه الدقيقة ويحرك رجليه . وكان رقاص الساعة ينبض ،

والريخ تعول في النوافذ .

وكان صوت الأم الحفيظ يتناهي اليه :

— يا آلهى . ما اكثر البشر في هذه الدنيا .. ومع ذلك فكلمهم يشكو على

طريقته . فآين هم اذا اولئك الذين يعرفون الغبطة ؟
وردد اندريه كالصدي :

— إنهم موجودون . وعمّا قريب سيتكاثرون ... اجل سيتكاثرون .

— ٢١ —

... وكانت الحياة تمر سراعاً بوجوه ايامها المتقلبة، المشرقة او المتجمدة، وكان كل يوم يحمل معه حديداً ، جديداً لا يقلق الام ابداً ؛ وكان يتوافتد الى منزلها عند المساء ، مجهولون يتزايد عددهم يوماً بعد يوم ؛ فيتحدثون مع اندريه بصوت خفيض والاهتمام بادي في ملاحظهم ، ثم يخرجون في ساعة متأخرة من الليل ، وقد رفقوا قبات معاطفهم ، وتهدلت شعورهم فوق عيونهم ، يخرجون في الظلمات دونما ضجيج كيلا يثيروا انتباه احد ، ان من يراهم يحس ان كلا منهم يكبت حماسه ؛ وانهم يشتهون جميعاً ان يغنوا ويضحكوا ، ولكنهم ، وهم المنهمكون ابداً ، لا يجدون لديهم وقتاً لذلك ؛ فبعضهم ساخرٌ وقور ، وبعضهم مرحٌ يملأه زخم الشباب الفاض ؛ وآخرون غيرهم هادئون كثيرو التأمل ، ولكنهم كانوا جميعاً ، في نظر الأم ، متساوين في عنادهم وثقتهم بأنفسهم ، ورغم ان لكل منهم ملاحظه الخاصة ، فإنهم كانوا ، في نظرها ، يتصهرون في وجه واحد هزيل يشع منه تصميمٌ هادئ ، وجه صاف متهجم العينين ، في نظراته عمق ودعاب وقسوة . وكانت الام تقدم ، واحداً واحداً ، وتتصورهم حشداً يحيط ببول ويتوسطهم فلا تراه أعين اعدائهم .

وفي احدي الامسيات ، جاءت من المدينة قنائة شديدة الحذر ، ومجدولة الشعر ، تحمل الى اندريه رزمة . وفيما كانت تنصرف قالت لبيلاجي وهي ترمقها بنظرة مشرقة مرحة :

— الى اللقاء يا رفيقة .

واجابت الام وهي تكبت بسمتها :

— الى اللقاء :

وبعد ان شيعتها اقتربت من النافذة ضاحكة ، لترقب « رفيقتها » وهي تنطلق في الشوارع رشيقة الخطو ، ورائحة كزهرة الربيع ، خفيفة كالفراشة ؛ وعندما اختفت الزائرة عن عينيها همست :

— رفيقة ؟ آه يا عزيزتي . ليمنحك الله رفيقاً طيباً ، رفيقاً لحياتك كلها . . .
وكانت تلاحظ غالباً ان في اولئك الذين يقبلون من المدينة جميعاً ، شيئاً صيبانياً ، وكانت تبتمس لذلك بتسامح ، ولكن الشيء الذي كان يؤثر في نفسها ، ويبعث فيها دهشة الفرح ، هو إيمانهم ، هذا الايمان الذي كانت تحس عمقه دائماً ، وبكثير من الوضوح . وكانت أحلامهم بانتصار العدالة تحرك مشاعرها ، وتدفيء قلبها ، وكانت وهي تصغي اليهم ، تتأوه بلا وعي ، وتحس انها فريسة حزن غامض ، ولكن ما كانت تحسه اشد الاحساس هو بساطتهم وطيبتهم ونسيانهم لذواتهم ؛ وهو نسيان مقرط السخاء والطيبة .

وكانت تدرك كثيراً من الاشياء من خلال جدلهم حول الحياة ، وتشعر أنهم اكتشفوا الينبوع الحقيقي لشقاء الناس ، وقد تعودت ان توافقهم على آرائهم ، ولكنها كانت في اعماقها ، لا تؤمن بأنهم يستطيعون ان يحيفوا الحياة وفقاً لما يعتقدون ، وبأنهم يملكون من الطاقة ما يكفي لأن يشيع هب نفوسهم في الطبقة الكادحة كلها .

إن كل إنسان يريد ان يشيع اليوم ، وليس هناك من يرضى بأن يرجىء طعامه حتى ولو الى الغد ، إذا كان باستطاعته ان يتناوله الآن . وقليلون هم اولئك الذين يستطيعون سلوك هذا الطريق الشاق الطويل . إن عيونهم لا ترى أنه يفضي الى تلك المملكة الرائعة ، مملكة الأخوة الشاملة ، ومن اجل ذلك ، كان اولئك القوم الطيبون ، يبدون لها أطفالاً رغم لحام ووجوههم التعبى .

وكانت تترثي لهم ، وتهز رأسها هامسة : يا للصغار المساكين .
ولكنهم كانوا جميعاً يحيون حياة طيبة ، جادة ، ذكية . لقد كانوا يتحدثون عن الخير ويرغبون في ان يلقنوا الآخرين ما كانوا يعرفون ، ثم يحققون هذه الرغبة دونما هوادة . وكانت هي تدرك ان وجوداً كهذا يمكن أن يحب رغم

مخاطره، ثم تسترجع ماضيها متأوهة، فيتراءى لها كطريق لا هب ضيق كئيب، وكانت تستشعر، دون ان يساورها الشك، أنها شيء مفيد، في هذا الوجود الجديد. لقد كانت تحس من قبل انها ليست شيئاً مفيداً لأي انسان، أما الآن فهي ترى بوضوح ان الكثيرين يحتاجون اليها؛ ولقد كان هذا الشعور بالنسبة لها شعوراً جديداً خلوأ، يحملها على ان ترفع رأسها باعتزاز.

وكانت تحمل دائماً وبانتظام، النشرات الى المعمل، يحدوها شعور بإداء الواجب، حتى أصبح دخولها الى المعمل امراً معتاداً بالنسبة لرجال البوليس الذين كانوا لا يعيرونها اي اهتمام، ولقد فتشوها في مناسبات عدة إلا أن هذا التفتيش كان يجري في اليوم التالي لظهور النشرات؛ وكانت تعرف كيف تثير الشبهة في نفوس الحراس والجواسيس عندما تكون لا تحمل شيئاً، فيستوقفونها، فتتظاهر بأن كرامتها قد مُست، وتدخل معهم في جدل عنيف حتى اذا اوقعتهم في الارتباك، انطلقت فخورة بمجدقها...

وصارت تجد في هذه اللعبة، لذة كبرى.

وكان المعمل قد رفض إعادة فيسوشيكوف الى المعمل فدخل كستخدم عند احد التجار، وكانت مهمته ان ينقل الى الضاحية كميات من الجسور والألواح وحطب التدفئة، وكانت تراه، وهو يمر، كل يوم تقريبا؛ يسير جواده الاسودان وقد ارتعشت قوائمها وتقوست تحت وطأة حملها الثقيل، سيران عجوزين نافري العظام يترنح رأسهما تعباً وحزناً، ويبدو الانهاك في عيونها الكدء، ويمتد وراءها جسر طويل رطب، يتذبذب على إيقاع الجلبة، او سلوت كدسة من الاخشاب تتساحب اطرافها على الأرض بضوضاء، في حين يسير نيقولا الى جانبيها، وقد أطلق لها الأعنة، رث الثياب، ضلب الملامح، أحرق الخطوة، كجذع ثابت من الارض، يلطخه الوحل، وينتعل حذاء ثقيل، ويمتلق قبعته في عنقه.

وكان رأسه هو أيضاً يترنح، وعينه منغرزة في التراب، وكان جواده يحتاجان، على غير هدى، العربات والمارة الذين كانوا يقبلون من الاتجاه الماكس،

فتطأير حوله الشتائم القاسية كالزناوير وتمزق الفضاء صيحات الغضب، ويظل هو، يدب، دون أن يرفع رأسه او يجيب، وينبعث من بين شفثيه صفيرٌ حادٌ يضم الاسماع، ويفغم بصوت ثقيل مخاطباً جواده :-
- خذا هذا ...

وفي كل مرة كان يجتمع فيها رفاق اندريه في بيتها، ليقرأوا بعض المنشورات، او العدد الاخير من مجلة تطبع في الخارج، كان نيقولا يأتي فيجلس في احدى الزوايا، ويصغي طوال ساعة او ساعتين دون ان ينبس بحرف. وكان الشبان، اذا ما انتهت قراءتهم يتناقشون طويلا، ولكن فيسوشيكوف لم يكن ليشارك في النقاش أبداً، الا أنه كان يمكث طويلا، حتى اذا لم يبق غيره مع اندريه سأله وهو باهت الملامح :

- ومنذا الذي تعتقده اشد اجراماً من الآخرين ؟

ويجيب اندريه مازحاً، وفي عينيه تعبير قلق :

- إنه اول من قال « هذا لي »، وأرأيت ؟ إن هذا الرجل قد انطوى منذ آلاف من السنين، وليس هناك اي جدوى في ان تتور عليه.

- والاعتياء والذين يساندونهم ؟

وكان اندريه ينحني فيأخذ رأسه بين يديه ويمسد شاربه ويتكلم بأسهباب وببساطة عن حياة الناس، وكان كلامه كله يتلخص بأن العالم بأجمعه آثم، إلا ان ذلك لم يكن ليصبح نهم نيقولا.

لقد كان يمز رأسه بالنفي، وهو يطبق شفثيه الغليظتين بقوة، ويعلن بلهجة مرتابة، ان الامر ليس كما شرحه اندريه، ثم يمضي متجهم الوجه محنقاً.

ولقد صرخ مرة :

- لا ... يجب ان يكون هناك مسؤولون. صدقتي : انهم موجودون،

ويجب ان يزقهم الحمرات أنى كانوا ! وبلا رحمة، كما يمزق حقلًا من الثيل.

وقالت الأم : هذا ما قاله يوماً إيساي الثقباب، وهو يتحدث عنك.

فتساءل فيسوشيكوف بعد صمت :

- إيساي ؟

- نعم ، إيساي . الرجل الخبيث . انه يتجسس علينا جميعاً ، ويسأل ، ولقد اخذ يتردد على شارعنا ، ويراقب نوافذ بيتنا .

فردد نيقولا : يراقب ؟

وكانت الام قد اضطجعت فلم تعد ترى وجهه ، ولكنها ادركت انها اظنبت في الحديث عن إيساي لان اندريه اجاب بسرعة ، وبلهجة مهدئة :

- دعيه يسر ويتطلع . ان لديه فيضاً من الوقت يتزده خلاله

فقال نيقولا بصوت أصم : رويداً .. انه هو .. هو المسؤول .

فرد اندريه بجدة : مسؤول عن ماذا ؟ مسؤول عن كونه حيواناً ؟

ولم يجب فيسوشيكوف ، ثم خرج .

وظل البيوروسي يذرع ارض الغرفة ببطء ، منهك الخطى ، يحرق ساقيه الطويلين الجافين كسيقان المنكبوت ، وكان قد خلع حذاءه ، كما تعود ان

يعمل دائماً ، كيلا يحدث اية ضجة فيزعج بيلاجي ، ولكنها لم تكن قد نامت بعد .

وقالت بقلق بعد ان انصرف نيقولا : إني اخاف منه .

فرد عليها ، وهو يطمط كلماته :

- أجل .. انه فتى نزق فلا تحدثه عن إيساي ، فإيساي ، ابنتها الأم الصغيرة ،

جاسوس حقاً .

- لا غرابة في ذلك فزميله دركي .

واجاب اندريه مندوراً :

- قد يعتدي نيقولا عليه أرأيت أية مشاعر يولدها السادة ضباط مجتمعنا ، في نفوس الجنود البسطاء ؟ ماذا سيحدث اذا ما استشعر امثال نيقولا مهانتهم

واقلت زمام الصبر من ايديهم ؟ ان الدم سيتدفق حتى السحاب ، وسيغطي الارض

زيداً احمر كزغوة الصابون .

فقال الام بهدوء : ان هذا الخيف يا اندريه .

واجاب بعد صمت قصير :

- اذا لم يخزهم الذباب فلن يرفسوا ، ومع ذلك ، فكل نقطة تسفك من

دمهم ستفسلها سلفاً سيول الدموع ، دموع الشعب .

ثم اضاف وهو يتسم ابتسامة صغيرة :

- سيكون ذلك عدلاً ، ولكنه لا يحمل العزاء .

- ٢٢ -

كان ذلك يوم احد ، وكانت الأم عائدة من دكان البقال ، وما كادت تفتح الباب وتقف على ائعوبة حتى غمرها فجأة طوفان من الفرح ، كحطرٍ حارٍ في صيف :

لقد سمعت في القرقة صوت بول الجمهوري .

وصاح البيوروسي : هي ذي ... لقد جاءت

ولاحظت السرعة التي استدار بها بول نحوها ، ورأت ان وجهه كان يشرق

بانفعالٍ واعد بألف فرحة وغمغمت وقد افقدتها المباغته وعبها :

- ما انت ذا قد عدت الى المنزل .

ثم جلست .

وانحنى فوقها ، وكانت شاحبة الوجه تلتصق في ماقيها دموع صغيرة متلألئة ،

وكانت شفتاها ترتعشان . وامتولى عليه الصمت هنيئة ، وكانت هي تحديق فيه

صامتة ايضاً .

ومر البيوروسي امامها وهو يصفر ، مطأطئ الرأس ، ثم خرج .

وقال بول بصوت عميق خفيض :

- شكراً لك يا امه ، شكراً لك يا امي العزيزة .

وشد يدها بأصابعه المرتعشة .

ودغدغت رأسه وقد غمرتها بالنشوة نبرات صوته وملامح وجهه الممسير ،

وقالت همساً وهي تهدئ وجيب قلبها :

- ليكن يسوع معك . علام تشكرني ؟

- شكراً لك على العون الذي قدمته لنا في قضيتنا الكبرى . إنها لسعادة نادرة

ان يستطيع امرؤ القول ، وبالعقل ايضاً ، ان امه غالية عليه .
وكانت ، دون ان تنبس بكلمة ، تتلغف كلياته بنهم ، متفتحة القلب ، وتأمله
مشدوه . إنه هناك ؛ امامها ؛ إنه واضح كل الوضوح ، قريب كل القرب .
- لقد كنت يا اماه ارى كثيراً من الامور تبعث في قلبك الغم ، وكان ذلك
شاقاً عليك . وكنت اعتقد انك لن تهاديننا ابداً ، وانك لن تؤمني بأفكارنا ،
ولكنك ستتحليلنها بصمت ، كما كانت دائماً . . . وكان هذا شديد الايلام . . .
- لقد علمني اندريه كثيراً من الاشياء .
وقال ضاحكاً : اجل . . . لقد قصت عليّ ذلك .
- وايغور ايضاً . فنحن من قرية واحدة ؛ اما اندريه فقد كان يود ان يعلمني
حتى القراءة .

- وانت كنت تحبولة بعض الشيء ، فرحت تدرسين على نفسك خفية .
وقالت باضطراب : آه . . . لقد كان يتجسس عليّ .
ثم اقترحت على بول ، والانفعال باد في ملاحظها لفرط الغبطة :
- يجب ان نتاديه فلقد خرج عمداً كيلا يزعبنا . إنه يعيش دون ام .
وضاح بول وهو يفتح باب المدخل :
- يا اندريه . . . ابن انت ؟
- هنا ، اقطع الحطب .
- تعال .

ولم يأت على الفور ، وعندما دخل المطبخ قال بلهجة رب البيت :
- يجب ان اطلب الى نيقولا ليحضر لنا حطباً ، فلم يعد عندها منه الكثير .
أرأيت ايتها الأم الصغيرة كيف هو بول ؟ إن السلطات تسمن المعصاة بدلاً من
ان تعاقبهم .

. . . وأخذت الأم تضحك ، وكانت سكرى بالغبطة ، يلا قلبها اطمشات
حلوة ، ولكن شعوراً من الحذر الشحيح كان يحملها على التمني بأن توي ابنها هادئاً
كما كان من قبل . لقد كانت اوبته بالنسبة لها سعادة غامرة ، وكانت تود ان

تنطوي هذه الفرحة - وهي اولى الفرحات في حياتها واكبرها - في قلبها ابداً ،
وان تظل فيه قوية حية ! وخشية ان تتضاءل هذه السعادة ، كانت تتعجل إخفاءها
ما امكنتها ذلك كصيادٍ اقتنص صدفة طائرأ جميلاً .
واقترحت باهتمام :

- هيا الى المائدة يا بول . انك على التأكيد لم تتناول ابي طعام حتى الآن ؟
- كلا ، فلقد ابلغني الناظر البارحة انهم قرروا اخلاء سبيلي ، ولم اشعر
اليوم بجوع أو عطش .
وتابع :

- لقد كان اول من التقيت به هنا هو سيزوف المعجوز . انه ما كاد يراني حتى
اجتاز للشارع ليسلم عليّ . فقلت له : يجب ان تحذرنى منذ الآن ، فأنا رجل خطر ،
يراقبني البوليس ، فأجابني : لا . . . يهمني ذلك . . . أتدرين ماذا سألني بخصوص
خفيده ؟ قل لي هل سلوكك ثبو في السجن حسن ؟ - ماذا تقصد بحسن السلوك ؟
- اقصد اذا كان لسانه ما يزال يسرف في الاستطالة حين يتحدث عن الرفاق .
وعندما قلت له : ان فيدور فتى شريف وذكي ، داعب لحيته وقال لي بزهوة :
- ليس فينا ، نحن آل سيزوف ، رجال اشرار .
وقال اندريه وهو يهز رأسه :

ليس هذا المعجوز بغي . إننا نثرثر معاً احياناً فيبدو لي انه رجل طيب .
- هل سيطلقون سراح نيو قريباً ؟

- سيطلقون سراحهم جميعاً على ما اعتقد ، فليس لديهم ما يدينهم اللهم إلا
وشايات ايساي ، وأي شيء استطاع هذا ان ينقله لهم ؟
وكانت الأم تروح وتجيء وتتأمل ابنها ، وكان اندريه ، وهو واقف بالقرب
من النافذة ويدها وراء ظهره ، يصفي الى حديث الفتى الذي كان يذرع ارض
الغرفة طولاً وعرضاً . وكانت لحيته قد نبتت ، وكان شعرها يتناثر في وجنتيه ،
حلقات سوداء داغمة ، تحففت من سمرة وجهه المسفوح .
وألحت الأم : هيا الى الطعام .

— لقد اكلت حتى كدت تنشق ، ولكنك لم تمضغ طعامك جيداً ، وما زالت قطعة منه عالقة في زلمومك ، ففرغ لهاثك .

فينض بول : لا تتصنع البله يا اندريه .

— ولكنني جادٌ كأني في جنازة .

وتضحك الام بهدوء ، وتهز رأسها .

— ٢٣ —

كان الربيع يقترب ، والثلج يذوب وينحسر عما كدسه تحت جبته البيضاء من وحلٍ وطمي ، وكان الوحل يزداد كل يوم بروزاً حتى بدت الضاحية كلها كأنها إنما ترتدي كل الاسمال القذرة ، وكان الماء يتساقط من السقوف اثناء النهار ، نقطة نقطة ، والهب يتصاعد من جدران المنازل الدكناء الراشحة التعبى ؛ في حين تبرز ، عند الغروب ، تماثيل الجليد ، منتثرة في كل مكان ، وهي بيضاء كدرء اللون ، وصارت الشمس تظهر أكثر فأكثر ، والسواقي تدندن حيرى في طريقها الى المستنقع .

وكان الناس يستعدون لاستقبال اول ايار .

وكانت النشرات تُلقي في المعمل ، وفي الضاحية ؛ لتشرح معنى هذا العيد ، وحتى الفتيان الذين لم تمسهم العناية بعد ، كانوا يقولون وهم يقرأون هذه النشرات :

— يجب التغلب على المصاعب .

وكان فيسوشيكوف يصرخ دائماً بشراسة :

— لقد آن الاوان ، وكفى تضليلاً وتمويهاً .

وكان ثيومازين فرحاً ؛ كثير النحول ، تذكر كلماته والعصيبة البادية في حركاته بقبرة سجيئة في قفص . وكان يرافقه دائماً جاك سومون وهو فتي صموت يعمل الآن في المدينة ويبدو عليه الجهد اكثر مما يجتمل سنه .

وكان سامووف الذي ازداد لونه شقرة اثناء وجوده في السجن ، وباسيل غوسيف ، وبوكين ، وداغونوف ، كان هؤلاء جميعاً وآخرون غيرهم ينادون

ووقفت هي تشرف بنفسها على المائدة .

واخذ اندريه يتحدث اثناء الطعام عن ريبين ، وعندما انتهى حديثه صاح

بول بأسف :

— لو كنت موجوداً لما تركته يمضي . ماذا يحمل معه ؟ إنه يحمل شعوراً

كبيراً بالتمرد وافكاراً مشوشة ...

واجاب البيوروسي مبتسماً :

— أجل ... ولكن عندما يكون الرجل في الاربعين من عمره ، وعندما

يكون قد قضى وقتاً طويلاً يصارع الدببة فانه لمن الصعب تطويره ..

واستغرقا في جدل كان الكثير من تعابيره يستعصي كالعتاد على فهم الأم ،

وفرغاً من الطعام وكانا ما يزالان يتراشقان بضراوة رشاشاً من الالفاظ الصعبة

العصية ، وكانا احياناً يعبران عن آرائهما بلغة بسيطة سهلة .

واعلن بول بعزم : يجب علينا ان نتابع طريقنا دون ان ننحرف عنه

خطوة واحدة . وان ترتطم ، في هذه الطريق ، بملايين البشر الذين يستقبلوننا

كأعداء ..

... وكانت الأم تصغي وتفهم مما يدور ان بول لا يجب الفلاحين ، في حين

كان اندريه يدافع عنهم ، ويحاول ان يؤكد انه من الضروري ان يلقنواهم

ايضاً الافكار الخيرة ، وكانت تفهم ما يقوله اندريه بوضوح اكثر ، ويبدو لها

انه محقق فيما يقول ، ولكنها كانت في كل مرة يزد بها على بول فتفتح اذنيها جيداً

وتكبت انفاسها ، وتنتظر بفارغ الصبر جواب ابنها ؛ لترى ما اذا كان رد

البيوروسي قد أثاره ، إلا انها كانت تلاحظ انها وان تناقشا بجرأة وحماسة

فان احداً منها لم يكن يستثير حتى الآخر .

وكانت الأم تسأل ابنها بين الفينة والفينة :

— هل الأمر هكذا يا بول ؟

فيجيبها باسماً : أجل ... إنه لكذلك .

ويقول اندريه بحجة وهزه :

ودعك صدره :

- الحقيقة انه كذلك يا امام . لقد امسكت ثور القصة بقرنيه ، ونسيت بعض التزيينات ، وبعض الحواشي ، ولكن ذلك لا يغير في الامر شيئاً . إن هؤلاء الصغار البدينين هم حقاً اعظم الخطاة ، وأسم الحشرات التي تلدغ الشعب . ان الفرنسيين يسمونهم بحق برجوازيين .. فاحفظي هذه الكلمة يا امام : برجوازيين ... انهم يلوكوننا ويمتصون دمنا .
وسألت الأم : الاغنياء ... اليس كذلك ؟

- تماماً . أرايت لو دسنا قليلاً من النحاس كل يوم في طعام طفل ؟ إن ذلك سيعيق نمو عظامه ، فيظل قزماً . وهكذا اذا سمنا رجلاً بالذهب ، فان نفسه تقدو حقيرة جداً ، وغبراء كدرة ، تماماً ككرة من المطاط تساوي خمسة سحائت .

وقال بول مرة وهو يتحدث عن ايفور :

- أتدري يا اندريه ؟ ان اكثر الناس مزاحاً هم اشد هم عذاباً ؟

فصمت البيوروسي فترة ، ثم اجاب :

لو كان هذا صحيحاً ، لماقت روسيا كلها من الضحك .

وظهرت ناتاشا من جديد . لقد دخلت هي ايضاً السجن ، ولكن في مدينة اخرى ؛ ولم يبدل السجن منها شيئاً .

ولاحظت الأم ان البيوروسي يكون في حضرتها اكثر مرحاً ، فلقد كان يمزح ، ويثقل على الناس جميعاً بنجبت لا لؤم فيه ، وذلك لكي يجعلها على الضحك . وعندما تتصرف ، يشرع هو يدندن بكآبة ، أغانيه التي لا تنتهي ، ويلبث وقتاً طويلاً وهو يذرع ارض الغرفة جيئة وذهاباً ، ويجرجر قدميه .

وكانت ساندرين تأتي شكسة الطباع دائماً ، مسرعة ايداً ، وتقدو باستمرار اسرع غضباً واعنف طبعاً .

وفي احدي المرات تبعها بول حتى المدخل ليرافقها ، ونسي ان يقفل الباب وراءه ، فسمعت الأم حديثها الخاطف .

بضرورة التسليح ؛ اما والبيوروسي وسوموف ، وآخرون معهم ، فقد كانوا يخالفونهم في الرأي .

ووصل ايفور منهمكاً لاهناً كالعادة ، ينضح عرقاً ، وقال مازحاً :

- ايها الرفاق . إن تغيير النظام الراهن عمل عظيم ، ولكن ، يجب ان اشترى حذاءً جديداً لكي يتحقق هذا العمل سريعاً .

وأراهم حذاءه الممزق الملبل ، وتابع :

- ولقد اصيبت جزمتي ايضاً بداء عضال لا يرجي البرء منه ، فتعرضت قدماي بسبب ذلك ، للبلل كل يوم . أنا لا اود أن أرحل الى القبر قبل ان يتوب هذا العالم المعجوز توبة علنية واضحة ؛ ولهذا ارفض اقتراح الرفيق سامووف الرامي الى التسليح ، واقترح تسليحي أنا ، بزواج من الاحذية المتينة ؛ لانني مقتنع كل الاقتناع بأن هذا سيكون اكثر جدوى لنصر الاشتراكية من اعظم تحطيم .. للأشداق ..

وراح هذه اللهجة الودود نفسها ، يروي لهم كيف حاول الشعب ، في بلدان مختلفة ، أن يحسن من مستوى حياته . وكانت الأم تحب ان تسمع احاديثه ، اذ تترك في نفسها انطباعاً غريباً ، فأعداء الشعب الأكثر احتيالا ، والذين خدعوه اكثر الاحيان ويقسوة اشد ، كانوا رجالاً ضغاراً ، ضخام الكروش ، حمر الجلود ، طماعين ، مخاتلين ، قساة القلوب لا ضمائر لهم ؛ وعندما حوّلت سلطة القياصرة حياتهم الى جحيم انبروا يجرضون الشعب الصغير ضد هذه السلطة ، وعندما ثار الشعب وانتزع السلطة من الامبراطور ، انتزعها الرجال الصغار بالحيلة ، وراحوا يتكلمون بالشغيلة ، فاذا أراد هؤلاء ان يجاجوهم انقضوا عليهم ففتكوا بالملات منهم والالوف .

وتجرات ، في احد الايام ، فقصت عليه ما كانت تكوته في نفسها من اشياء ، خلال اصغائها اليه ، وبآلته وهي تبسم ابتسامة مرتبكة :

- إذن فالامر كذلك يا ايفور ايفانوفيتش .

فانفجر ضاحكاً يقلب عينيه الصغيرتين ، وبعد قليل استعاد انقاسه ،

هكذا .

وقالت الفتاة : وداعاً .

وادركت الام من وقع خطاها انها انطلقت مسرعة ، حتى لتكاد تعدو عدواً .

وخرج بول في اثرها .

وشد على صدرها رعب خائق ثقيل ، فلقد فاتها ان تلتقط تفاصيل حديثها ، ولكنها كانت تحس ان هنالك حزناً ما ينتظرها .

— ماذا يريد ان يفعل ؟

وعاد بول يصحبه اندريه ، وقال هذا الاخير وهو يهز رأسه :

— ايساي البؤس هذا ... ماذا سنفعل به ؟

فأجاب بول بجدة :

— يجب ان نسدي اليه النصح ليتخلى عن خطئه التجسسية .

وتدخلت الأم وسألت مطرقة :

— ماذا تود ان تفعل يا صغيري بول ؟

— متى ؟ الآن ؟

— في اول ... اول ايار .

فأجاب وهو يخفض من صوته :

— آه . آه . سأحل علمنا واسير به في الطبيعة ؛ ومن المحتمل ان يزوجوني في

السجن مجدداً من اجل ذلك .

واشتعلت عينا الام ، واجتاح فيها جفاف مقيت ، فأخذ بول يدها يداعبها :

— هذا ضروري ... اتفهمين ؟

فقالت وهي ترفع رأسها ببطء :

— لم اقل شيئاً .

وعندما التقت عيناها النظرة النافذة المصمة في عين بول ، طوت عنقها من

جديد . وأفلت هو يدها ، وزفر ، ثم قال بلهجة تقريع :

— يجب ألا تبتئسي ، بل يجب ان تغتبطي ، متى يكون لنا امهات يرسلن

لقد سألته الفتاة بهمس :

— هل ستحمل العلم ؟

— نعم ..

— هل تقرر ذلك ؟

— نعم وهذا حق لي .

— السجن من جديد ؟

ولزم بول الصمت .

— ألا تستطيع . .. ثم توقفت

— ماذا ؟

— ان تتركه لآخر ...

فقال بصوت مرتفع :

— كلا .

— فكرت في الأمر ملياً ، ان تأثيرك كبير ، والجميع يحبونك . انك وتالودا

قائدا الحركة هنا انكما تستطيعان عمل الكثير وانما طليقان فكرا ملياً ؛

فإنكما ستنتفيان ، من اجل ذلك ، الى مكان قصي ، ولأمد طويل .

واعتقدت الأم انها تتميز في صوت الفتاة احاسيس عرقنها هي نفسها جيداً !

احاسيس الغم والخوف ، ووقعت كلمات ساندرين على قلبها كنقاط كبيرة من

الماء الثلج .

وقال بول : كلا ، لقد قررت ولا شيء يثنيني عن قراري .

— حتى ولو توسلت اليك ؟

فأكمل بول على عجل وبصوت فيه قسوة :

— يجب الاتكلمي هكذا ، بماذا تفكرين ؟ يجب الاتكلمي هكذا .

فقالت بصوت خافت : — اني كائن بشري .

فرد بول بهدوء ولكن بلهجة خاصة كأنه لا يستطيع امسك انفاسه :

— نعم كائن بشري ، كائن عزيز عليّ ، ومن اجل ذلك ينبغي الاتكلمي

ابناءهن بغبطة حتى الى الموت ؟

وغمغم اندريه :

- مهلاً ، مهلاً .. هوذا سيد ينطلق على جواده العظيمة .

وتساءلت الام :

- هل قلت شيئاً ؟ انال امثلك ، واذا كنت اشقى عليك ، فهذا من عمل

قلبي كام .

واستدار ، وسمعت بعض الكلمات القاسية الجارحة .

- هناك عواطف تحرم الانسان من ان يعيش ...

وارتعشت ، وخشية ان يتفوه بما يجرحها صرخت بحدة :

- لا تقبل هذا يا بول . فانا اعلم انك لا تستطيع ان تتصرف تصرفاً مغايراً ..

اكراماً للرفاق .

فأجاب : كلا .. أنا افعل ذلك من اجل نفسي .

ووقف اندريه في العتبة ؛ وكانت قامته اشبح من الباب حيث كان ينتصب

كأنه في اطار ، وكان يطوي ركبتيه على نحو غريب ويستند احد كتفيه الى

مصراع الباب ، ويقذف يعنقه وكتفه الآخر الى الامام .

وقال وهو متجهم الوجه ، وعيناه الجاحظتان تتركزان على بول :

- إنكم تحسون صنعا لو توقفت عن الثرثرة يا سيد .

وكان اشبه ما يكون بحرفون في شق صخرة .

وودت الام ان تبكي ، ولكنها أنفت ان يراها ابنا وهي تفعل ذلك

فدندنت :

- آه . يا آلهي لقد نسيت ...

وانطلقت الى الزواق ؛ فأسندت رأسها الى زاوية من زوايا الجدار ، واطلقت

العنان لدموعها . لقد كانت تبكي بهدوء ودونما انتحاب ؛ وكانت خائرة القوى

كأن الدم يتفجر من قلبها ، في الوقت الذي تتفجر فيه الدموع من عينيها ؛ وكانت

تتناهى الى سمعها ، من خلل الباب الذي لم يكن محكم الاغلاق ، وضوضاء نقاش حاد .

كان البيو روسي يقول :

- قل لي .. أيلد لك ان تعذبها ؟

ويصرخ بول : لا يحق لك ان تتكلم مثل هذا الكلام .

- هل اكون رفيقاً صالحاً إذا ما بسكت على حماقاتك البلهاء ؟ لساذا قلت

ذلك ؟ أنتدري لماذا ؟

- يجب ان تقول دائماً بحزم كل ما نبغي قوله سواء كان نقياً أم إيجاباً .

- وحتى لأملك ؟

- لجميع الناس ، فانا لا اريد حباً او صداقة تربطني وتضع القيد في رجلي .

- يا لك من بطل . امسح مخاط أنفك ، واذهب فقل هذا كله لساندريين قلها

ينبغي ان يقال .

- لقد قلته .

- بهذه الطريقة ؟ إنك تكذب . لقد قلته لها بلطف ، قلته لها بحنان . لنا لم

اسمعلك ولكني أعرف ذلك . وأمام أمك تعرض بطولتك . ثق أيها البهيم ان

بطولتك لا تساوي فلساً .

وأخذت بيلاجي تمسح دموعها بسرعة ، فلقد كانت تحشى ان يوجه البيوروسي

الإهانة الى ابنتها ، فسارعت الى فتح الباب ، وقالت وهي تدخل المطبخ مرتعشة

من الحزن والخوف :

- آوه ... ما هذا البرد ... رغم اننا في الربيع !

وفيا كانت تتشاغل بنقل الأواني المطبخية من مكان الى آخر ، دون مبرر ،

أردفت ، وهي ترفع من صوتها ليطنى على صوتيها الخافتين :

- لقد تغير كل شيء ؛ فدب الدفء في الناس ، وبرد الجو مع انه في مثل هذا

الوقت عادة يكون الطقس حاراً والسماء صافية ، والشمس مشرقة .

وخيم السكون على الحجرة ؛ وتوقفت هي في المطبخ كأنها تنتظر شيئاً ما .

وسأل البيو روسي بصوت خفيض :

- أسمعتم ؟ يجب ان تدرك انها اغنى قلباً منك .

وسألته الأم بصوت مضطرب :

— هل تشربان الشاي ؟

ودون ان تنتظر جواباً ، قالت لتخفي اضطرابها :

— ماذا دهاني ؟ اني أشعر ببرد شديد .

واقترب بول منها ببطء ، ونظر إليها بشرود ، والبسمة الخاطئة تحرك

شفتيه ، وقال بصوت خافت :

— ساحبيني يا اماء ... فأنا ما زلت غلاماً غيباً .

وصاحت بأسى وهي تدفن رأسه في صدرها :

— لا تبكتني يا بول ؛ ولا تقل شيئاً . اصنع ما شئت فأنت سيد حياتك ،

ولكن لا توجه اليّ كلاماً خبيثاً . أيمكن لأم ان تتجرد من الشفقة ؟ كلا ... وإني

لأشفق عليكم جميعاً ، فأنتم ادنى الناس اليّ ، وانكم لجديرون بذلك . وإذا لم

أعاملكم انا باشفاق فمنذا الذي يعاملكم ؟ إنك تسير يا صغيري بول ، ووراءك

آخرون تحلوا عن كل شيء وساروا ...

وكانت تشعر بأن هناك فكرة عظيمة ملتبته تملأ قلبها ، وتبها الأجنحة ،

وتلهمها فرحاً يمازجه الغم والعذاب ، ولكنها كانت لا تجد الالفاظ التي تعبرها ،

فراحت في قلق العمي تلوح بيدها ، وترنو الى ابنها ، بعينين تشتعلان بالألم

الفظيع الحاد .

ووشوش بول وهو يطأطأ رأسه :

— هذا صحيح يا اماء .. فساحبيني . إني أفهم ..

ورشقها بنظرة خاطفة وهو يتشم ثم استدار وأضاف بارتباك يمازجه فرح :

— اقسم لك بشرفي اني لن انسى هذا ابداً .

وتركته ، وراحت عينها تبحثان عن اندريه لتقول له بصوت متوسل ودود ،

— لا تؤنبه يا صغيري اندريه ، فأنت بلا شك ولدي البكر ..

ولم يتحرك البيو روسي الذي كان يدير ظهره إليها ، بل زججر بصوت

مثير للضحك :

— هو هو هو ... سأهتق ووراءه ، ولن أتورع عن ضربه بشدة .

فالتجهدت اليه بخطى وثيدة ممدودة اليد :

— يا بني الطيب ، يا ولدي العزيز .

فاستدار اندريه وطأطأ هامته كالثور ، ومر يجانها متجهاً الى المطبخ ويدها

مشبكتان وراء ظهره ومن المطبخ تعالي صوته بسخرية كثيفة :

— أغرب من وجهي يا بول إذا كنت تؤذ ألاً أعض رأسك . لا تصدقيني

أيتها الأم الصغيرة فأنا أمزح .. سأعد الشاي .. نعم .. ما أوسخ الفم الذي

عندنا .. يا للقذارة ..

وصمت . وعندما دخلت الام الى المطبخ كان يجلس على الارض ليشمل الموقد ،

ولم يبصرها وهي تدخل ، بل تابع :

— لا تخافي ، لن أسمه أبداً فأنا وديع ناعم كراس لفت مسروق . وأنت لا

تصفي الى « البطل » فأنا احبه خبياً جداً ، ولكني أكره صدرته .. إنسه يرتدي

صدرية جديدة رأيت ؟ وهو معجب بها كل الاعجاب .. هو ذابيشي ، وقد

سبقه كرشه ، انه يدفع الناس في طريقه : « انظروا الصدرية الجميلة التي ألبس .. »

إنها جميلة حقاً ولكن .. لم يضعض الناس ؟ فهم مكتظون مزدحمون بدون هذا ..

وابتسم بول :

— اترائك ستظل تدمدم هكذا طويلاً ؟ ان شئمة واحدة يجب ان تكفيك .

وكان البيو روسي ما زال جالساً على الارض ، يضع ابريق الشاي بين رجليه

ويتأمله . وكانت الام واقفة يقرب الباب تسمى عينيها الحزبتين الودودتين على

العنق الطويل المستدير ، عتق اندريه المحني .

وقلب رأسه الى الوراء ، واستند يديه الى الخشب ، وحدق في الأم وإبها

وهو يغمز بعينيهِ المحمورتين قليلاً :

— انكم قوم طيبون .. نعم ..

فالتحنى بول وأمسك بقرعاه :

— لا تشد ، فإني سأسقط الى الارض إذا ما فعلت .

وقالت الأم بحزن :

— لم أنتما متضايقان ؟ هيا تعانقا عناقاً حاراً ، حاراً جداً .

فسأل بول : أريد ذلك ؟

واجاب اندريه وهو ينهض : ولم لا ؟

وتعانقا طويلاً ، وظلا بلا حراك فترة ، بدأ فيها كأن روحاً واحدة تملأ

أهايبها ، روحاً تلهبها صداقة حارة حميمة .

وكانت الدموع تهمر على وجنتي الأم ، ولكنها لم تكن دموع المرارة

فسحتها بارتباك قائلة :

— ان النساء يحببن البكاء ، فهن يبكين من الفرح كما يبكين من الحزن .

ودفع البيوروسي بول دفعة صغيرة وقال وهو يمسح أيضاً عينيه :

— هذا يكفي ... عندما تط العجول يُعد منها الشواء. آه يا للفحم اللعين .

لقد نفخت طويلاً لأشعله حتى امتلأت به عيناى .

وجلس بول بالقرب من النافذة مطرقاً ، وقال بهدوء :

— إن دموعاً كهذه لا تبعث الحجل .

وأقبلت الأم فجلست الى جانبه ، يصر قلبها شعوراً بالزهو دافئ عذب ،

وكانت تستشعر شيئاً من الحزن إلا أنها كانت سعيدة هادئة البسال .

وقال اندريه وهو يلج الغرفة :

— سأرتب الأواني ، فظلي مرطحة إيتها الأم الصغيرة ، ارتاحي ، فلقد

عُذبت كثيراً .

وعلا رنين صوته الطروب عندما غاب عن انظارهما :

— جبلٌ جداً أن يشعر المرء أنه يعيش حياة خيرة هكذا ، كما يعيش البشر .

وقال بول وهو يرمق امه بنظرة خاطفة :

— أجل .

فقال : لقد تبدلت الأمور ، فالحزن شيء والبهجة شيء آخر .

وأجاب البيوروسي :

— هذا ما يجب ان يكون ، فكل قلب جديد ينمو ، أيتها الأم الصغيرة

اللطيفة ، إنما ينمو في الحياة ، ثم يأتي انسان فيوقد فيه نار العقل ، ويصرخ وينادي :

« يا هؤلاء .. أيها البشر في كل الأوطان ، اتحدوا في عائلة واحدة ، وبثأير هذا

النداء تتحد القلوب كلها بأفضل ما فيها ، تتحد في قلب واحد كبير قوي ، رنان

كحرسٍ من فضة .

وضغطت الأم على شفتيها بقوة كي لا ترتعش ، وأغضت عينيها لتمسك دمعها

فلا ينسكب .

ورفع بول يده يريد ان يقول شيئاً ، ولكن الأم أنزلت يده هامة :

— دعه يتكلم .

وتابع اندريه وهو واقف في الباب :

— اتعلمون إن هناك كثيراً من الأحران تنتظر البشر ؟ ان دمعهم ما زال

يتمص . ولكن ذلك كله ، لكن حزني كله ودمي ليس إلا فدية تافهة لبعض

ما أحمل في صدري ورأسي . إني غني بالشعاع كنجم ، وسأتحمل كل شيء .

سأتجد ، لأن في داخلي فرحاً لا يقوى انسان ما أو شيء ما على خنقه أبداً .

وفي هذا الفرح تكن القوة .

... وشربوا الشاي ، ولبثوا حول المائدة حتى انتصف الليل ، وهم يثرثرون

ثرثرتهم الحبيبة ، عن الحياة والناس والمستقبل :

وكانت كلما توضحت فكرة في رأس بيلاجي تختيرت من ماضيها ذكرى ،

ذكرى ثقيلة أبدأ خشنة أبدأ ، واتخذتها مرتكزاً لهذه الفكرة .

وكان خوفها يتلاشى ويدوب في سيل حديثهم الحار ، وإنها الآن لتشعر

نفس الشعور الذي خامرها يوم قال لها والدها بقسوة :

— عبثاً تكشرين ... ثمه سخيف يود ان يتزوجك فتزوجيه ؛ لان الزواج

مصير كل فتاة . إن النساء كلهن يضعن الأطفال ، والاطفال شقاء بالنسبة

لدنوبهم .. وأنت .. أأنت .. أأنت كائناً بشرياً ؟

وكانت ترى أمامها عندئذ الطريق الذي لا يمكنها ان تتكبه ، والذي يدور

دوتما افق حول مكان مقفر قاتم ، وكانت الضرورة المحتومة لسلوك هذا الطريق
تلاً قلبها بصدعة مستسلمة عمياء ، وانها تشعر الآن بمثل تلك الدعة ، ولكنها كانت ،
وهي تتوقع شقاءً جديداً ، تقول في نفسها كأنها تحدث شخصاً ما : خذوا ..
وكان هذا يخفف من ألمها الحفي الذي يشد في صدرها راعشاً كوتر مشدود .
وفي أعماق نفسها التي يخضها الترقب والقلق ، كان لهب الأمل يتصاعد ،
خافتاً ، إنه أمل حي ، أمل لا يستطيع أحد أن يسلبه أو ينتزعه كله منها .

— ٢٤ —

وفي الصباح الباكر ، وبعد خروج اندريه وبول بفترة قصيرة جداً ، طرقت
ماريا كورسونوف النافذة برعب ، وصاحت على عجل :

— لقد قُتل إيساي . فيها ينا نر .

وارتمشت الأم ولع اسم القاتل في ذهنها كالبرق ، وسألت بإيجاز وهي تطرح
شألاً على كنفها :

— ومن الذي قتله ؟

فأجابت ماريا : لم يقف لأتبينه .. فلقد ضرب ضربته وولى الأدبار .
وتابعت وهما في الطريق :

— سوف يباشرون البحث والتفتيش عن المجرم ، ومن حسن الحظ ان
رجليك كانا في المنزل هذه الليلة . اني استطيع ان اشهد على ذلك ، فلقد مررت
امام بيتكم بعد منتصف الليل ، وألقيت نظرة خاطفة من خلال النافذة ،
قرأيتكم جميعاً تجلسون حول المائدة .

وصاحت الأم بذعر :

— ماذا تقولين يا ماريا ؟ أيمن ان يتهموها ؟

وأجابت ماريا بيقين :

— ومنذا الذي يقتله ؟ إنهم جماعتك بكل تأكيد ، فالناس جميعاً يعرفون
انه كان يتجسس عليهم .

وتوقفت الأم مبهورة الأنفاس ووضعت يدها على صدرها .
— ما بك ؟ لا تخافي ... لنسرع قبل ان ينقلوه .

وكانت الذكرى الثقيلة ذكرى فيسو شيكوف تتمتع بيلاجي فكثرت
كالخبولة :

— هو ذا ... وقد انتهى الى تنفيذ ما يريد .

وفي مكان غير بعيد عن جدران العمل ، وفوق انقاض منزل التهمته النار
منذ أمد قريب ، كان حشد من الناس يضعون كخلية من زناير ، ويدوسون
بقايا الكس والرماد الذي كان يتطاير . وكان هناك كثير من النسوة ، والاطفال ،
وأصحاب الحوانيت ، وخدام الفندق والشرطة ؛ وكان هناك أيضاً الدركي
« بيتلين » وهو عجوز ضخم الجنة ، قضي اللحية ، يحمل فوق صدره عدداً من
الأوسمة .

وكان إيساي نصف ممدد على الأرض وقد اسند ظهره الى جسر سودته النار .
وكان رأسه الحاسر يتهدل على كتفه الأيمن ، ويده اليمنى في جيب بنطاله ،
في حين كانت اصابع يده اليسرى تتشبث بالأرض الرخوة .

ورنت الأم الى وجهه . لقد كانت عينه الكدء تتركز على القبعة المطروحة
بين ساقيه الممدودتين بإرتحاء واعياء ، وكان فمه مفتوحاً بشكل يعبر عن الدهشة ،
وكانت لحيته الصهباء منقوشة الجانب ، وكان الجسم الضئيل ، برأسه الدقيق
ووجهه العظمي الذي يغطيهِ نثار التخالة ، كان هذا الجسم قد تضائل وضغطته
به الموت .

ورسخت الأم إشارة الصليب وهي تزفر : لقد كان يثير قرفها وهو حي ،
أما الآن فإنه يثير فيها احساساً حقيقياً من الرحمة .

ولا حظ أحد الحضور بصمت خافت :

— ليس هناك دم . لقد ضربه القاتل بقبضته دون شك .

وتعالى صوت كرية :

— لقد أقفل في خائئ .

وتناول الدركي ونحى بيده حشد النساء وسأل بلهجة تهديد :
- من ذا الذي يفكر مثل هذا التفكير ؟
وكان الناس يبتعدون من طريقه ، حتى ان بعضهم ولتى الأدبار .
وسمع الحضور ضحكة تزخر بسوء النية .

وعادت الأم الى منزلها وهمست : لم يحزن عليه احد .
وكان شيخ نيقولا الضخم ينتصب أمامها كالطفل ، وفي عينيه الضيقتين لمعة
باردة قاسية ، ويده اليمنى تتدلى متأرجحة كأنه إنما سحقها بقدميه .
وعندما عاد اندريه وبول للغداء استقبلتها سائلة :

- قولا ... هل اوقف احد سبب إيساي ؟
فأجاب البيوروسي : لم نسمع شيئاً .

ولاحظت انها كانا مرهقين ، فاستفسرت بصوت خفيض :
- الا يقال شيء عن نيقولا ؟

فرمقها ابنها بنظرة قاسية وأجاب وهو يقطع كلماته تقطيعاً :
- ابدأ ... حتى انهم لا يفكرون به ، ثم إنه ليس هنا ، فلقد ذهب يوم
امس عند الظهر ، الى النهر ، ولما يعد . لقد تقصيت اخباره .
وقالت وهي تطلق زفرة عزاء :

- حسناً ، شكر الله ، شكر الله .

ورشقها البيوروسي بنظرة عجلى ثم اطرق .
واستأنفت الأم مضطربة البال :

- إنه ممد ، ووجهه يعبر عن الذهول . إن أحداً ما لم يتحسر عليه ، ولم
يقل عنه كلمة طيبة . إنه متضائل لدرجة هائلة ، يبدو معها كنفاية انفصلت عن
شيء ما وسقطت هناك على الارض .

وأثناء تناول الطعام ألقى بول معلقته فجأة وصاح :

- أنا لا أفهم هذا ..

فسأله اندريه : ماذا ؟

- ان يقتل المرء حيواناً لكي يأكل فقط أمر غير مستحب ، وان يقتل
وحشاً ضارياً أو طيراً جارحاً ، أمر يمكن فهمه ، وأنا نفسي أستطيع ان اقتل
وجلاً تحول الى وحش كاسر بالنسبة للآخرين ... أما قتل مخلوق بائس ، فلا
أدري كيف يستطيع الجاني ان يرفع يده لمثل هذا ؟
وهز اندريه كتفيه وقال :

- إنه لم يكن أقل أذى من وحش مفترس . ثم إننا نقتل البعوضة لإنها
تمتص قليلاً من دمنا .

- نعم ، هذا صحيح ، ولكن ليس هذا ما اريد ان اقول . إنني اتقول ان
عملاً كهذا تتقزز منه نفسي .

وأجاب اندريه وهو يهز كتفيه ثانية :

- وما العمل ؟

وخم صوت طويل .

ثم قطع بول هذا الصمت وسأل بقلق :

- أستطيع ان تقتل مخلوقاً من هذا النوع ؟

فرمقه البيوروسي بعينيه المدورتين ثم ألقى نظرة عجلى على الأم وأجاب بأسمى
يمازجه الحيزم :

- من أجل الرفاق ، من أجل قضيتنا ، أقترف كل شيء ، وأقتل حتى ابني .
وصرخت الأم بفتور :

- أوه يا اندريه .

فابتسم لها : محال ان تتصرف تصرفاً غير هذا ، فالحياة هي التي تفرض ذلك ..
وردد بول ببطء : أجل ، أجل ، إنها الحياة .

وعصف التأثر ببول فجأة ، فنهض مدفوعاً بمامل مخفي وحرك ذراعيه :
- ما العمل ؟ إننا مرغمون على كره الانسان لكي نستعجل اليوم الذي

نستطيع فيه ان نقدره دونما تحفظ . يجب ان ندمر من يعرقل سير الحياة ، من

يبيع الآخرين بالمال ليضمن لنفسه الراحة والابجاد . وإذا ما اعترض طريق
العادلين يوحس يتربص بهم ليخونهم فإني اكون انا نفسي نوحاساً إذا لم ادمره .
أليس ذلك من حقي ؟ .. وأسيادنا اولئك أمن حقهم ان يسخروا الجند والجلادين
والمؤسسات العامة والسجون والمنفى ، وكل ما هو شين وعار ليضمنوا سلامتهم
وسعادتهم ؟ ما العمل إذن إذا كنت مرغماً أحياناً على ان امسك الهراوة بكلتا
يدي ؟ لن ارفض ذلك ، وسأخذها بيدي . إنهم يصرعوننا بالعشرات ، يصرعوننا
بالمئات ، وهذا ما يعطيني الحق بان ارفع يدي وأهوي بها على رأس عدر ، على رأس
أقربهم إليّ وأشدهم إيداءً لجهد حياتي كلها . هكذا صنعت الحياة ، وأنا أناضل
ضدها ؛ ولا اريدها . انا اعلم ان دم الاعداء لا يُبدع شيئاً إنه دم عاقر إن
الحقيقة تنمو عندما يروي الدم الارض كطمر غزير ، في حين ان دمه فاسد يتبخر
دون ان يترك آثاراً ؛ .. ولكني سأتحمل وزر الجريمة ، سأقتل إذا وجدت ذلك
ضرورياً ، وبما انني اتكلم عن نفسي ، فإن الجريمة ستوت معي ، انها لن تلتخ
وجه الغد ولن تدنس احداً سواي .

وكان يروح ويحيى ويده تتحرك امام وجهه كأنه يقطع شيئاً ما ويقذفه
بعيداً عنه . وكانت الأم تراقبه يلاًها الأسي والغم . لقد كانت تشعر بأن جزءاً
منها قد تحطم ، وإنها من أجل ذلك تتألم أشد الألم .

وبارحتها الأفكار السوداء الرعيدة التي تساورها عندما تتذكر القاتل
وكانت تقول في نفسها : « إذا لم يكن فيسو شيكوف هو الجاني ، فإن واحداً من
رفاق بول لا يمكن ان يكونه » . وكان بول يصغي الى البيور رومي مطرقاً فيما
يتابع هذا حديثه بقوة وعناد :

— عندما تسير في الطبيعة يجب ان تقاوم حتى نفسك . يجب ان تعرف كيف
تضحي بكل شيء ، ان تضحي بكل قلبك ، وليس بالأمر العسير ان يكرس
المرء حياته لفضيته ، ان يموت من أجلها . إنذل ما استطعت البذل ، ضح بما هو
اغلى من الحياة ، يتنام بقوة اعز ما فيك ، تتنامى حقيقتك .

وتوقف في وسط الحجر ، وكان وجهه قد غدا أشد شحوباً وعيناه نصف

مغمضتين ثم استأنف كلامه وهو يرفع يده كما لو كان يؤدي قسماً عظيماً .
— أنا أعلم أنه سيأتي زمن يتبادل الناس فيه الاحترام والتقدير ، زمن سيكون
كل امرئ فيه كالنجم في عين الآخرين . سيكون ثمة على الارض رجالٌ أحرار
عظاء مجريتهم ، وسيسير كل انسان مفتوح القلب طاهراً من كل حقد ، وسيعيش
الناس جميعاً دونما خبت ، ولن تكون الحياة عندئذ هي الحياة ، بل عبادة
للانسان ، وستسمو صورته عالياً ، وقذل الذرى السامقة كلها متونها للاحرار .
عند ذاك تعيش في الحقيقة والحرية ، تعيش من أجل الجمال . عند ذاك يعتبر الناس
ان أفضلهم هم الذين يعرفون جيداً كيف يملأون بالوجود قلوبهم ، والذين يحبون
هذا الوجود أعظم الحب ؛ ويصبح اشد الناس تعلقاً بالحرية ، أفضلهم ، فسي
نفوسهم يكن أعظم قدر من الجمال ، وسيكونون من العظماء اولئك الذين
سينعمون بهذه الحياة .

وصمت قليلاً ثم انتصب وقال بصوت كأنه يأتي من أعماق أعماقه :

— ومن أجل هذه الحياة أنا مستعد لكل شيء .

وارتعش وجهه ، وتساقطت من عينيه ، واحدة بعد اخرى ، دموع
كبيرة ثقيلة .

ورفع بول رأسه ونظر إليه . لقد كان هو أيضاً شاحب الوجه ، متمدد
الاحداق ، ونهضت الأم من مقعدها ، وكانت تحس ان الأسي القاتم يقترب منها
ويزداد تموراً :

وسأل بول بصوت خافت :

— ما بك يا اندريه ؟

وعصفت برأس البيورومي وعدة مفاجأة ، وتشنج كوتر مشدود ، وقال
وهو يرنو الى الأم :

— لقد رأيت ... وأعرف ...

فنهضت الأم واقتربت منه بسرعة وأمسكت بكلتا يديه فحاول ان يسحب
بمناه ، ولكنها شدتها بقوة ، وهمت بجرارة :

واقفاً أمامها يشد لحيته بانفعال .

— وقال لي أنهم يعرفوننا جميعاً ، وأن رجال الدرك يراقبونا ، وسيزجوننا في السجن ، في أول أيار . ولم أجبهُ ، بل ضحكت ولكن الغليان كان قد بدأ في داخلي . وقال لي بعد ذلك : اني كنت فقي فطناً وأنه كان يجب عليّ الا أسلك هذا الطريق بل كان يجب عليّ ...

وتوقف عن الكلام . ومسح وجهه والتمعت عيناه ببريق بارد فقال بول : فهمت . — كان يجب عليّ ان أضع نفسي في خدمة القانون .

ومد ذراعه وحرك قبضته المشدودة ، وقال ، وهو يخرج الكلمات من بين أسنانه : — في خدمة القانون ؟ اللعنة لروحه ، فلقد كان يحسن صنعا لو صفع وجهي ؛ لأن ذلك سيكون أقل ايلاماً لي ، وربما له أيضاً ... ولكنه عندما بصق في قلبي بصاقه النتن ، فقدت صبري ..

وسحب يده من يد بول بعنف ، وقال بإشمئزاز وبصوت اكثر هدوءاً : — لقد صفعته ومشيت ، ولكنني سمعت دراغخوف من ورائي يقول بكل هدوء : — هل وقعت في الفخ ؟ ...

لقد كان محتبئاً في زاوية من زوايا الشارع بلا شك . وبعد فترة من الصمت استأنف كلامه :

— ولم أرجع ، ولكنني شعرت بأني سمعت طلقة . ومضيت هادياً النفس كأنني قد ركلت بقدمي ضفدعة . وكنت في المعمل عندما تعال الصراخ : «لقد قبُلت إيساي» . لم اصدق ذلك ، ولكن يدي كانت تؤلني ، ولم أك أستطيع تحريكها لأنها تؤلني فحسب ، بل لأنها كانت كأنها انكشبت وتقاصرت . ورمق يده بنظرة شزراء :

— من المؤكد إنني لن أستطيع ، طوال حياتي ، ان اغسل هذه اللطخة النتنة . وقالت الأم :

— يكفي ان يكون قلبك نقياً يا صغيري . فأكد البيورومي :

— هديء من روعك يا عزيزي .

فقال يهدوء : مهلاً ، سأروي لك كيف حدث ذلك .

فتمتمت وهي تمدق به والعبرات تملأ عينيها .

— لا حاجة لذلك ، لا حاجة لذلك يا اندريه .

واقترب بول ببطء وقد رطبت عينيه الدموع ، وكان صاحب الوجه يتسم :

— لقد خشيت الأم ان تكون أنت

— لست بخائفة . إنني لا اصدق ذلك . وحتى لو رأيتهُ بعيني ، فلن اصدق أبداً .

وقال البيورومي دون ان يلتفت إليها :

— مهلاً .

وكان يهز رأسه ويحاول بلا انقطاع سحب يده :

— لست أنا القاتل ، ولكن كان عليّ ان أحول دون القتل .

وصاح بول : إخرس يا اندريه .

واحتضنت إحدى يديه يد اندريه وألقى بالثانية على كتفه ، كأنه يريد ان يهدئ ارتعاش قامته الفارغة ؛ وحول اندريه وجهه نحو بول ، وتابع بصوت خفيض متقطع :

— كنت لا اريد ذلك أبداً . وانك لتعرف هذا جيداً يا بول ... ولكن

إليك ما حصل :

لقد سبقتني أنت ، ومكبثت أنا في زاوية الشارع مع دراغخوف ، وكان

إيساي قد برز من الشارع الآخر ، وتوقف على مسافة منا ، يدمدم وينظر إلينا ، فقال لي دراغخوف : أرايت ؟ إنه يتجسس عليّ وهذا شأنه في كل ليلة ، سأقضي عليه . وانطلق الى منزله على ما اعتقده ، واقترب إيساي مني .

وأطلق اندريه زفرة ..

— لم يشعرني أحدٌ بالهانة والضعفة كهذا الكلب .

ودون ان تنبس الأم بكلمة ، شدت اندريه من ذراعه ، وجرحته نحو الطاولة ، ونجحت أخيراً في اجلسه على مقعد ، وجلست هي نفسها الى جانبه وظل بول

- انا لا اتظلم ، ولكن هذا يثير في نفسي التقزز ، لأنني لم اك بحاجة الى ذلك .
وقال بول وهو يهز كتفيه :

- إني اسيء فهمك ، لست انت الذي قتلته ... ولكنك لو ...

- ان مجرد العلم بالقتل دون منع وقوعه ...
وقال بول بحزم .

- انا لم افهم شيئاً من هذا كله ...

ثم أضاف بعد فترة قصيرة من التفكير :

- ابي انني استطيع فهمه ... اما ان احسه فلا ...

وعوت صافرة المعمل ، ومال البيوروسي برأسه بصفي الى زئيرها الصلف
الأمر ، ثم قال منتفضاً : لن اذهب اليوم الى المعمل .

وقال بول : وأنا أيضاً لن اذهب .

وأعلن اندريه باسمياً :

- أما أنا فسأذهب لأستحم .

وتهاياً بسرعة دون ان يتلفظ بكلمة ، ثم خرج متثاقلاً ؛ وتبعته الام بنظرة
اشفاق :

- قل ما تشاء يا بول ، فأنا اعلم أن قتل امريء خطيئة ، ومع ذلك فاني لا
اجد في هذه القضية مجزماً . لقد كنت اشفق على ايساي ، فهو صغير جداً كالحشرة ،
وعندما رأيته تذكرت أنه هددك يوماً بالشنق . ولم اك اشعر بالحدق عليه ابدأ
كما ان موته لم يفرحني . لقد اشفتك عليه من قبل لطيفتي ، اما الآن ... فاني لا
احس نحوه حتى بالشفقة .

وصمتت ، وفكرت لحظة ثم اضافت وهي تبسم مندهشة :

- يا يسوع ... هل تسمع يا بول ما اقول ؟

ولم يكن بول يصغي اليها بلا ريب ، بل كان يزرع ارض الغرفة ببطء وهو
مطأطيء الرأس ، متجهج الأساريين :

- هذه هي الحياة .. ارايت كيف ان الناس مهياون ليقف بعضهم في وجه

البعض الاخر ؟ وسواء كان ذلك باختيارهم أو على كره منهم ، فإنهم مجبرون على
ان يضربوا . ومن ؟ رجلاً معتصب الحقوق مثلهم ، وأشد شقاء منهم لانه حيوان .
ان رجال البوليس والدرك والجواسيس هم جميعاً أعداء لنا ، ومع ذلك فهم بشر
مثلنا . إنهم يرهقون لدرجة ينضحون معها دمماً وعرقاً ، ولا يعاملوننا كبشر .
وهكذا يُستعدي الناس بعضهم على بعض وتُسلم اعينهم بالغبابة والخوف ،
وتوثق أيديهم وأرجلهم ، ويُضطهدون ويُستغلون ، ويُسحقون ، ويُضرب
بعضهم بيد البعض الاخر . لقد مُسخوا بنادق ومطارق وبلاطاً . ثم قيل : هذه
هي الدولة !

واقترب من امه :

- إنها لجريمة يا اماه . القتل الفظيع ، قتل الملايين من الكائنات البشرية ، قتل
الأرواح . أتدركين ؟ إنهم يقتلون الروح . أرايت الفرق بيننا وبينهم ؟ عندما
يضرب واحدٌ منا إنساناً يشعر بالحجل . يشعر بالتفريع ، فيتعذب ويشتمز ،
ولكن الاخرين يقتلون الناس بالألوف ، يقتلونهم ببطء ودونما رحمة ، يقتلونهم
دون ان يرتعشوا . إنهم يقتلون بلذة ، يذبحون الآلاف لا لغاية إلا ليختزنوا الذهب
والفضة ووريقات لا قيمة لها ، ليختزنوا كل هذه الثغامات الحقيمة التي تمنحهم
السلطان على الناس . تأملي : إنهم لا يبطشون بالشعب ولا يمثلون به لحماية انفسهم
أو للدفاع عن ذواتهم ، إنهم لا يفعلون ذلك من أجل انفسهم بل من أجل ثرواتهم .
إنهم لا يحمون انفسهم من الداخل ، وإنما يحمونها من الخارج .

وأخذ يدي امه بين يديه وانحنى يشدهما :

- إذا استطعت ان تحسي كل هذا المقت ، وكل ذلك التعفن القدر ، فستدركين
حقيقتنا ، وسترين كم هي عظيمة ورائعة .

ونفضت الأم شديدة التأثر ، تملأها الرغبة في ان تصبر قلبها وقلب ابنها في
لهب واحد ، وممست وهي تلهث :

- رويداً يا بول رويداً . إني أحسن ذلك .

وسُمع في المدخل وقع خطي ، فارتعشا كلاهما وتبادلا النظرات .
وفتح الباب ببطء ودخل ريبين بخطوه المتماثل ، وقال باسم أشامخ الرأس :
- هو ذا انا ، فحياتي ، وليكن لي شرف الجلوس الى مائدتكم .
وكان يرتدي فروة خروف قصيرة ، يلطخها القار ، وينتمل حذاء من التيل
ويتدلى من وسطه عدد من الخطاطيف ، ويعتمر قبعة من الوبر .

- كيف الصحة ؟ هل اطلقوا سراحك يا بول ؟ حسناً ... كيف الحال
يا بيلاجي ؟

وكانت بسمته عريضة تكشف عن اسنانه البيضاء ، وفي صوته جرس شديد
الحلاوة ، وكانت لحيته تشغل قطاعاً واسعاً من وجهه .
ودنت الأم منه وهي سعيدة بلغائه ، وشدت على يده السوداء الضخمة وقالت
وهي تنتشق رائحة القار القوية الطيبة التي كانت تقوح منه :

- أهذا أنت ؟ إني لجد مسرورة .

وتفحص بول ريبين باسم :

- انك تبدو كفلاح وسيم .

ونزع ريبين فروته ببطء :

- أجل . لقد عدت فلاحاً ، اما انتم فإن بعض مظاهر السادة تبدو عليكم ،

... إني أعود الى الورا .. فتأملوا .

ودخل وهو يسوي دراعته المصنوعة من الكتان ، ويلقي على الحجرة

نظرة شاملة .

- الأثاث ، لم يزد عليه شيء على ما أرى .. أما الشيء الذي ازداد فهو عدد

الكتب . الخلاصة .. كيف سير الأعمال ؟

وجلس وهو يباعد بين ساقيه ، ويضع باطن كفه على ركبته ، ويتأمل بول

بنظرة فاحصة من عينيه السوداءين ، وينتظر الجواب باسم وبكثير من السداحة :

وقال بول :

- ليست الاعمال سيئة على كل حال .

وثر ريبين :

- انهم يحرقون ويزرعون دون قباة ، وسيجنون مازرعوا ؛ وسيطبخون
الحنثالة ، ويقطرون ، ويدخرون مبلغاً طيباً . أليس هذا صحيحاً ؟

وسأله بول وهو يجلس قبالة ؟

- وانت كيف حالك يا ميشيل ؟

- لا بأس . فالأمور على ما يرام . لقد توقفت قليلاً في اغيد بيغو ..

أتعرفون اغيد بيغو ؟ انها قرية جميلة يقام فيها معرضان في السنة ، ويزيد تعدادها

على ألفي نسمة من الناس الاشرار ؛ وليس فيها أراضٍ ، وإنما يستأجر أهلها

الاراضي ، لأن تربتها لا تصلح ابداً . لقد عملت فيها عند أحد مصاصي الدماء ،

وهم كثيرون هناك ، كثرة الذباب على جيفة . إنهم يستخرجون الزيت ، ويصنعون

الفحم ، وكنت أقض أقل من الاجر العادي بأربع مرات ، واينذل ضعفي ما

أينذله من جهد هنا . لقد كنا سبعة عمال في خدمة هذا النهم ، وكلهم من شبان

المنطقة ما عداي . جميعهم يعرفون القراءة ، وبينهم فتى يسم بها اسمه « ايفم » :

وسأله بول بحماسة : حسناً .. وهل كنت تتحدث معهم ؟

- كنت لا أصمت ابداً . لقد اصطحبت معي « وريقاتك » . كنت احمل منها

اربعاً وثلاثين ، خير انني كنت افضل استعمال الجيلي ، .. فقيه يجهد المرء كل

ما يريد وهو كتاب ضخيم غير ممنوع . ان الكنيسة هي التي طبعته .. لذلك

يستطيع المرء ان يصدقه .

وتطلع الى بول وغمره ثم ابتسم :

- ولكن ذلك لا يكفي ، فلقد أتيناك باحثين عن « منشورات » ؛ ونحن

هنا اثنان : ايفم وأنا . لقد كنا ننقل كمية من الزيت ، واغتنمنا الفرصة لنراك .

انك ستزدني ، بلا شك ، بمؤونة .. قبل ان يصل ايفم .. فهو ليس بحاجة لأن

يعرف الكثير .

وكانت الام تزو الى ريبين ، وخيل اليها حين نزع سترته انه تعرى من شيء

آخر ؛ لقد فقد شيئاً من وقاره ، وغدت نظراته اكثر خشناً ، وأقل صراحة .
وقال بول :

— احضري لنا قليلاً من الكتب يا أماء . انهم يعرفون ماذا يجب ان يعطوه ،
قولي لهم ان هذه الكمية سترسل الى الريف .
وأجابت الام :

— حسناً ، لكن الشاي يوشك ان يكون جاهزاً ؛ وسأذهب بعد ذلك .
وسأل ريبيّن ضاحكاً :

— وأنت ايضاً يا بيلاجي تهتمين بهذه الامور ؟ إن في قريتنا كثيراً من
عشاق الكتب ، والمعلم نفسه يرغب بها ويتذوقها . يقال انه فتي طيب رغم انه
تربى في مدرسة اكليريكية . وهناك ايضاً معلمة مدرسة على بعد سبعة او ثمانية
كيلو مترات .. ولكنهم جميعاً لا يريدون ان يقرأوا كتباً ممنوعة ؛ فالدولة هي
التي تدفع لهم رواتبهم .. وهم يخافون . يلزمني كتاب واحد من هذه الكتب
الممنوعة ؛ كتاب "لاذع جداً" لأهربه لهم في الخفاء .. وسيعتقد رجال البوليس
أو الكاهن اذا ما رأوا هذا الكتاب ممنوع ان معلمي المدرسة هم الذين يقومون
بالدعاية .. فلا يتاح لهم ان يعرفوني . لاني بعيد عن اللعبة .
وقهقه فخوراً بدهائه وخبثه ، قهقه حتى بدت نواجذه .
وحدثت الام نفسها :

— ارأيت ؟ له مظهر الدب .. ولكنه ثعلب .

وسأل بول : أعتقد انهم يزجون بالمعلمين في السجن اذا ما ارتابوا بأنهم
هم الذين يوزعون الكتب المنوعة ؟

— نعم ... وماذا يعني ذلك ؟

— انكم انتم الذين توزعونها .. وليسوا هم ، فالعدل يقضي بان تزجوا
انتم في السجن .

وصاح ريبيّن ضاحكاً وهو يضرب ركبته بكفه :

— أيها الخبيث اللعين . من سيفكر بأنني انا ، انا الفلاح البسيط اهتم بأمر

كهنه؟ هل سبق لهم ان رأوا من قبل مثل ذلك ؟ .. ان الكتب من عمل
« السادة » وعليهم وحدهم ان يتحملوا المسؤولية .

وشعرت الام ان بول لا يدرك ما يقوله ريبيّن ، وانه مقطب الجبين ، غاضب ،
فتدخلت في الحديث وقالت بصوت عذب مسالم :

— يريد ميشيل ايفانوفيتش ان يهتم بهذه الامور ، على ان ينال الآخرون العقاب
نيابة عنه ...

فوافق ريبيّن على قولها وهو يداعب لحيته :

— بالضبط ... ولكن هذا سيكون بصورة مؤقتة .

وزد بول يحفاف :

— لو قام واحد من بيتنا يا أماء ، اندريه مثلاً ، بعمل ما ، وانتحل اسمي ؛

فزججت في السجن عقاباً على ذلك العمل .. فإذا يكون شعورك ؟

فارتشت الأم ورنّت الى ابنتها بدهشة ، وأجابت وهي تهز رأسها مستنكرة :

— كيف يمكن ان يتصرف امرؤ مثل هذا التصرف بحق رقيق ؟

فقال ريبيّن بصوت متساحب :

— آه ... آه ... لقد أدركت الآن قصدك يا بول .

وعزّز بجث وخاطب بيلاجي :

— ههنا ، أيتها الأم ، عمل لطيف .

ثم استدار نحو بول ، وقال بلهجة الحكيم :

— إنك ما زلت غراً يا فتاتي الصغير . فلا مكان للشرف في الامور الخارجة

على القانون . فكر قليلاً : انهم اولاً ، يزجون في السجن من يعثرون على الكتاب

في حوزته وليس معلمي المدرسة . هذه واحدة . ثانياً : ان الكتب المسموح بها

والتي يوزعها هؤلاء المعلمون تتضمن ما تتضمنه الكتب المنوعة ، ولكن بكلمات

مختلفة ، ونسبة من الحقيقة أقل . هذه ثانية . وهذا يعني انهم يريدون الوصول

الى نفس الغاية التي استهدفها انا ... ولكنهم يسلكون من اجل ذلك طريقاً

ضيقاً ، كثير المنعطفات ، في حين اسلك الطريق المستقيم .. اما جريمتنا في

نظر السلطة فهي واحدة... اليس هذا صحيحا؟ وثالثا: يا بني.. لا شأن لي انا معهم... لأن الرجل لا يكون رقيقا للفارس. ومن المؤكد انه لا يمكن ان أزوج فلاحا في مثل هذا العمل، اما هما فأحدهما ابن كاهن، والثاني، وهو الفتاة، ابنة ملاك كبير. فأية مصلحة اذن لهما في اثاره الشعب؟... لا ادري... أنا فلاح بسيط لا ادرك افكار المثقفين، ولا اعرف ما عمله انا نفسي. اما ما يريدونه هم... فاني لا اريد ان اعرفه.. لقد ظل الكبار يمثلون بدقة دورهم كأسياد طوال الف عام؛ لقد سلخوا جلد الفلاح.. وهام يستعظون فجأة... وها انذا افتح عيون الفلاح الرومي. انا لا اؤمن يا بني بحكايات الجن. ولكن هذا، كما ترى، يشبه تلك الحكايات ان اولئك السادة، من اي صنف كانوا، بعيدون كل البعد عني، فلو كنت اسير في الحقول شتاءً وتحرك امامي كائن حي، فإذا عساه يكون هذا الكائن؟ قد يكون ذئبا او ثعلبا، وقد يكون بكل بساطة كلبا، ولكني، على كل حال، لا استطيع ان أميزه لأنه بعيد عني كل البعد.

...وأقلت الام نظرة عجلي على ابنها فاذا ملاحه تم عن أمه.

وكانت عينا ريبين تلتعمان بيريقي قائم، وكان ينظر الى بول بأدي الرضى، ويمرر، يدعة، اصابعه على لحيته:

— ليس لدي الوقت الكافي لأتظرف. فان الحياة نفسها لا تمزح ابداً؛ والكلب في الوجار الحقيق ليس كالكلب في الحظيرة... ولكل سرب من الكلاب طريقته في النباح.

وقالت الام وهي تفكر في بعض الوجوه التي تعرفها:

— هناك سادة يضحون بأنفسهم من اجل الشعب ويتمدبون طوال حياتهم في السجون.

— هؤلاء يختلف امرهم عن الآخرين، فعندما يثري الفلاح يتحسس بالسيد، وعندما يفتقر السيد يلجأ الى الفلاح، وتظل النفس حتماً طاهرة صافية ما دامت المحفظة خاوية... اتذكر يا بول!

لقد شرحت لي مرة انا تفكر على نسق الحياة التي نجحها؛ فاذا قال العامل «نعم» وجب على السيد ان يقول «لا»؛ واذا قال لا، فان السيد بطبيعته كسيد يصرخ بضراوة: «نعم»، وهكذا فان الفلاح والسيد يختلفان في طبيعتها، فعندما يأكل الأول كفافه لا ينام الثاني ليله من التخمة. مما لا شك فيه ان في كل طبقة فئة سافلة... فأنا شخصياً لا أوافق على الدفاع عن الفلاحين جميعاً.

وانتصب اسود اللون قوياً، وكان وجهه يتجهم ولحيته ترتعش، كأنما تصطبك اسنانه، ثم تابع وهو يخفض من صوته:

— لقد همت على وجهي من معمل الى معمل، طوال سنوات خمس، حتى نسيت الريف. وها انذا اعود اليه. لقد شاهدت ما يحدث هناك فقلت لنفسي: انا لا استطيع ان أعيش هكذا. أتفهمين؟ لا أستطيع. أما أتم الذين تعيشون هنا، فانكم لا تعرفون شيئاً من تلك الحمازي. هناك، في القرية، يلاحق الجوع الانسان كظله؛ ولا أمل مطلقاً في ان تتوفر له الكفاية من الخبز. لقد افترس الجوع النفوس، وصنع مخلوقات ليس لها وجه الانسان. انهم هناك لا يعيشون. انهم يتغفنون في حضن بؤس لا نستطيع ان نتصوره، وتقيم السلطات حولهم نطاقاً من الحراسة البيضة. وتتربص بهم كالفرسان لترى ما اذا كنت تملك كسرة زائدة، فاذا رأت تلك الكسرة انتزعتها منك، ولطمتك، فوق ذلك، على فمك. وأجال ريبين بصره فيما حوله، ومال نحو بول وهو يسند يديه الى الطاولة:

— لقد اجتاحتني الرغبة حتى في التقيؤ عندما شاهدت هذه الحياة عن كذب؛ وكنت أفكر اني لا استطيع تحملها، ولكني، مع ذلك تمالكت نفسي، وقلت في سري: لا، لا تكن غراً، سأبقى هنا. إني لن امنحهم الخبز، ولكنني سأثير المشكلة، اجل يا بني، سأثيرها، إني أحمل الضغينة لأولئك الذين يصنعون الشر للناس، فلقد انغرزت المهانة في قلبي كسكين.. ومن اجل ذلك... يرتعش قلبي.

وكان العرق يغطي جبينه. واقترب من بول ببطء، ووضع على كتفه يداً مضطربة:

العينين ، يرتدي فروة خروف نصفية ، ونظر اليه من اسفل ، وقال بصوت مبحوح :

— تحية .

ثم شد يد بول ، ورد الى الورا شعره العصي ، واجال طرفه في الغرفة ثم اتجه بخطى تائهة وثيدة نحو الرف المثقل بالكتب .

وقال ريبيـن وهو يغمز بول :

— لقد رأها .

واستدار ايفيم ، ونظر الى بول ثم راح يتفحص الكتب قاتلا :

— حسنا إن عندكم ما تقرأونه .. ولكن ، من المؤكد ، انك ليس لديك

متسع من الوقت للقراءة . اما عندنا في الريف فالوقت يتسع لذلك .

وقال بول :

— لكن الرغبة في القراءة أقل .

واجاب الفتى وهو يحك ذقنه :

— لماذا ؟ بالعكس . إن الناس عندنا بدأوا يحركون عقولهم قليلا

وتابع وهو يحدث في احد الكتب :

— علم طبقات الارض ؟ ماذا يعني ذلك ؟

وأخذ بول يشرح له . وقال ايفيم وهو يعيد الكتاب الى مكانه :

— لا حاجة لنا به . إن الفلاح لا يهـم ان يعرف من اين جاءت الارض ، بل

يهـم ان يعرف كيف توزعت . وكيف انتزعها الكيـار من تحت اقدام الشعب ،

وسواء كانت هذه الارض تدور او لا تدور ، فلا اهمية لذلك ، لانك تستطيع

ان تعقلها بحبل ، أما المهم فهو أن تعطي ما يؤكل ، ان تغذي البشر الذين

يعيشون عليها .

وقرأ ايفيم اسم كتاب آخر : « تاريخ الرق » فسأل :

— هل تتحدثون فيه عنا ؟

فقال بول وهو يناوله كتابا آخر :

— ساعدني . أعطني نوعاً من الكتب لا يعرف أي انسان طعم الراحة بعد

ان يقرأها . يجب ان نضع قنفذاً تحت كل جمجمة ؛ قنفذاً يحسن الوخز . وقل

لمجاعتك في المدينة ، أولئك الذين يكتبون لك ، قل لهم ان عليهم ان يكتبوا

أيضاً لناس الريف . ليطبخوا لنا ، على مهل ، مرققة كثيرة الافاوية ؛ وليوزعوها

على القرى ، فان فلاحينا سيقتلون من اجلها حتى الموت .

ورفع ذراعه ، ثم اضاف بصوت هادىء وهو ينثر مقاطع كل كلمة :

— لنداول الموت بالموت . هذا ما نريده . ومعنى ذلك انه يجب ان نموت ليعت

العالم ، ان نموت الألوفا لنعيا الملايين في الأرض كلها . اجل هذا ما نريده ،

وإنه ليسير ان يموت الناس ، اذا كانوا سيبعثون ، اذا كانوا سينتفضون من قبورهم .

وحملت الأم ابريق الشاي وهي ترمق ريبيـن بنظرها الشزراء . لقد كانت كلماته

العنيفة القاسية تزهقها أشد الإرهاق ، وكان فيه شيء ما يذكرها بزوجها : فرجة

فمه ، وحركات يده حين يشمر اكامه . ولقد كان مثله أيضاً ، يتأجج بسعار لا

يعرف الصبر ، ولكنه سمار صامت .

أما ريبيـن فكان لا يزال يتكلم ، ولكنه كان يبدو أقل رهبة من ذي قبل .

وقال بول وهو يهز رأسه .

— اجل ان هذا ضروري . اعطونا وقائع نطبع لكم جريدة .

ونظرت الأم الى ابنها باسمة ، ثم ارتعدت ثيابها دون ان تنبس بكلمة ،

وخرجت .

وصاح ريبيـن :

— افعلوا ذلك وسنقدم لكم كل ما يانم .. ولا تكتبوا أشياء معقدة ،

لكي تستطيع حتى العجول نفسها ان تفهم

وفتح باب الرواق ودخل احدهم .

قال ريبيـن وهو ينطلق نحو المطبخ ليرى من القادم :

— انه ايفيم . تعال الى هنا يا ايفيم .. هذا الفتى هو بول الذي حدثتك عنه

واتتصب امام بول فتى صلب العود ، عريض الوجه ، اصهب الشعر ، ومادي

— هو ذا كتاب يبحث في القنائة .

فأخذه وقلبه بين يديه ، ثم أعاده الى مكانه ، وقال بهدوء :

— هذا يتحدث عن الماضي .

— هل لديكم ارض مأجورة ؟

— نحن ؟ نعم ... لدينا . ونحن ثلاثة اخوة ، تلك اربعة هكتارات من

الأراضي الرملية . إنها صالحة لتنظيف النحاس ولكنها لا تصلح ابدأ لإنبات القمح وهي لا تساوي شيئاً .

وتابع بعد ان صمت قليلاً :

— لقد تحررت من الارض ، فأبي نفع فيها ؟ انها لا تطعم صاحبها بل تغل

يديه . وما قد مرت سنوات اربع وانا اعلم كأجير زراعي . وفي الخريف

سأعدو جندياً . لقد قال لي الاب ميشال : « لا تذهب ، فهم يرسلون الآت

الجنود لقتال الشعب » .

و مع ذلك فسأذهب . إن الجيش يحارب الشعب منسداً « ستيبان وازين »

و « بوجاتشيف » (١) وقد آن الاوان لأن يوضع حد لذلك .

و ركز بصره على بول وسأله :

— ماذا تقول ؟

فأجاب بول وهو يبتسم : اجل لقد آن الاوان ، ولكن الأمر صعب ...

يجب ان نعرف ماذا نقول للجنود ، وكيف نخاطبهم .

فقال ايقيم :

— سنتعلم ، وسنحسن ذلك جيداً .

فرد بول وهو يرمق ايقيم بمضول :

— يمكن ان يعدموك رمياً بالرصاص اذا قبضوا عليك .

وهمم الفتى : انهم لن يمنحونا الغفران .

وعاد الى تفحص الكتب وقال ريبين :

(١) زعيمان من زعماء ثورات الفلاحين في القرنين السابع والثامن عشر لا تزال ذكراهما حية .

— اشرب شايلك يا ايقيم ، فينبغي ان نرحل سريعاً .

— ها انذا آت .

ووقعت عينه على كتاب يحمل اسم « الثورة » فصاح :

— الثورة ؟ هل يعني هذا « التمرد » ؟

وتقدم اندريه مضربح الوجه منفعل ، فشد على يد ايقيم دون ان يتفوه بكلمة

ثم جلس الى جانب ريبين وراح يضحك وهو يتأمله .

وسأله ريبين ، وهو يضربه بيده على فخذه :

— انك لست منسرحاً .

فأجاب البيوروسي : هذا صحيح .

وسأل ايقيم وهو يشير الى اندريه بإيمانه من رأسه :

— هل هو ايضاً عامل ؟

فأجاب اندريه : نعم ... فماذا تقصد ؟

فشرح ريبين : هذه هي المرة الأولى التي يري فيها عامل مصنع ... ان

هؤلاء كما يقول .. يتميزون عن الآخرين .

فسأل بول : بماذا ؟

وتفحص ايقيم اندريه بدقة ثم قال :

— ان عظامك مدققة ، أما الفلاح فعظامه أكثر استدارة .

وأكمل ريبين : ان الفلاح يقف على رجليه بثبات أكثر . انه يشعر أن الارض

تحت قدميه . ورغم انها ليست له . انه يحسها . انها الارض . ولكن عامل

المصنع كالطائر لا وطن له ولا منزل ، انه اليوم هنا ، وغداً هناك . حتى المرأة

لا تستطيع ان تربيته بمكان ، فلا يكاد يتشبب بينها جدال حتى يقول لها : « وداعاً

يا حلوتي » ثم ينطلق ياجتاً عن حياة أفضل ، في مكان آخر . أما الفلاح فيفضل

ان يعمل في بيته دون ان ينتقل ... آه .. هي ذي الأم قد عادت .

ودنا ايقيم من بول وسأله :

— لعلك ستقدم إلي كتاباً ؟

- بكل مرور

وبرقت عينا الفتى بشماغ النهم ، وقال بحرارة :

- سأعيده ، ان قتياننا يتقانون الوقت الي مكان ليس يبعيد ؛ وسأ كلفهم

بإعادته اليك .

وكان ريبين قد ارتدى معطفه وشده حزائمه :

- هيا بنا ... لقد دهمنا الوقت .

وقال ايفيم وهو يريه الكتب ، وترسم على شفتيه بسمة هديضة :

- لقد حصلت على شيء اقربوه .

وعندما انطلقا ، صاح بول مخاطباً اندريه :

- ارأيت الي هؤلاء الشياطين ؟

فرد البيوروسي ببطء : نعم .. انهم كالسحيط ..

وقاطعته الأم : هل تتحدثان عن ريبين ؟ لكانه لم يكن ابدأ في العمل ؟

فلقد غدا فلاحاً مجتاً ، لك هو رهيب .

وقال بول لاندريه الذي كان يجلس قريب النافذة يتأمل قده الشاي وهو

متجهم الأسارى .

- لم تكن هنا ، فيا للخسارة . ولو كنت لاستظمت ان تشهد فورة قلب ،

انت الذي تتحدث دائماً عن القلب . لقد عرض ريبين آراء مثيرة هزتني ..

وكادت تخفني ، ولم استطع حتى الرد عليه . لك هو حذر من الناس ، ولشده ما

يحترقهم . لقد صدقت الأم ، فهذا الرجل يحمل في نفسه قوة وهيبة .

وقال اندريه محتفظاً بتجهمه :

- رأيت ذلك . لقد سمعوا الناس ، وسيحتاج هؤلاء ، عندما يثورون ،

العقبات كلها ، واحدة بعد أخرى . انهم يريدون الأرض خالصة لهم ، وسيحطمون

كل ما يحول بينهم وبين هذه الغاية .

وكان يتكلم بآناة ، ويبدو على ملامحه انه يفكر بأمر آخر . وقالت له الأم

تداريه :

- يجب ان تتحرك يا عزيزي اندريه .

فاجاب بهدوء ورقة :

- انتظري ايها الام الصغيرة .. انتظري

ثم اردف وقد انفعل فجأة ، ضارباً على الطاولة بقبضة يده :

- نعم يا بول . سيأتي الفلاح على كل ما تحمل الارض عندما يفتق من كبوته ،

وكا تحرق آثار الطاعون سيحرق هو كل شيء ، ليدفن في الرماد كل آثار مهاتمه .

وزاد بول بتؤدة :

- وسينتصب بعد ذلك في طريقنا

- ان مهمتنا يا بول تنحصر في ألا نسمح له بذلك . مهمتنا ان نردعه ، فنحن

أقرب الناس اليه ، وسيصدقنا ، ويسير وراءنا .

- اتعرف ان ريبين يقترح علينا اصدار جريدة خاصة للريف ؟

- هذا ما ينبغي عمله .

وقال بول ضاحكاً : يخجلني انني لم أبحث الأمر معه .

ولاحظ اندريه بهدوء :

- ستسمح الفرصة المناسبة لذلك ، ويكفي ان تنفخ مزمارك ليرقص على

صوته اولئك الذين لا تنغرس ارجلهم في الارض لقد صدق ريبين فنحن لا

نحس الارض تحت اقدامنا ، ويجب الانحسها ، لاننا نحن المهبأون لدفعها الي

الحركة ، سنهزها مرة واحدة فينقلع الناس منها ، ثم نهزها ثانية فينقلعون منها ايضاً

وابتسمت الام :

- في نظرك كل شيء بسيط يا اندريه

- نعم ... بسيط كالحياة

وبعد لحظات اردف : سانطلق الي الحقول في جولة ...

فاعترضت الام : بعدان استحمت ان الهوا ينفخ في الخارج وهذا ما يؤذيك

- وهذا بالضبط ما احتاج اليه . . .

وقال بول برقة :

— ألم تعرف من هو الذي قتل ذلك الوغد إيساي ؟

فرد بول بإيجاز : كلا .

— هناك شخص لم يثر ذلك اشمئزازه . وانا الذي كنت أعد نفسي دائماً

لحقته . وهذا ما كان يجدر بي .

وقال له بول بلهجة حميمة :

— لا تقل مثل هذه الأشياء يا نيقولا .

وتدخلت الأم وقالت بود : هذا صحيح . إنك طيب القلب ومع ذلك

لا تفتر عن الزئير ، فعلام ذلك ؟

وكانت ، في هذه اللحظة ، تحس بشيء من الرضى لرؤيته ، حتى ان وجهه

المجدور بدا لها جميلاً . وقال ، وهو يهز كتفيه :

— انا لا أصلح إلا لمثل هذه الأشياء . إني أفكر وأفكر ... أين هو مكاني ؟

فلا أرى لي مكاناً . يجب ان أتحدث الى الناس ولكنني لا أعرف كيف أتحدث .

إني أرى كل شيء ، أرى المآسي التي يصنعونها للناس ، وأحس هذه المآسي

ولكنني لا أستطيع أن أروها ... ان روحي خرساء .

ودنا من بول مطأطئ الرأس يحك الطاولة بأصبعه ، وقال بصوتٍ شاك

كصوت طفلٍ ، بصوت كأنه يصدر عن سواه :

— يا شباب ... كلفوني بعمل شاق ، أي عمل ، فأنا لا أستطيع ان أعيش

هكذا دون ان أعمل شيئاً . إنكم جميعاً في صميم المعركة ، والأمور تسير بالنسبة

لكم سيراً حسناً ، أما انا فأقف بعيداً ... انقل الجسور والأخشاب . إني لا

أستطيع أن أعيش من أجل هذا ، فكلفوني بعمل شاق .

وأخذ بول من يده وجذبه إليه :

— سنكلفك .

ولملم صوت اندريه من وراء الحاجز :

— سأعلمك يا نيقولا أحرف الطباعة ، وستصبح أحد منضدي الأحرف

عندنا فهل توافق ؟

— حذار ، قد يصيبك برد ، ومن الأفضل ان تنام .

— كلا ... أريد أن اخرج .

وارتدى ثيابه ثم مضى دون ان يتفوه بكلمة .

وعلقت الأم وهي تطلق زفرة :

— انه متعب .

فقال لها بول : لقد أحسنت صنفاً إذ خاطبته بعد هذه القصة بصيغة المفرد .

فرشقتة بنظرة اندهاش :

— ولكنني لم انتبه لذلك . فلتقد أمتنى قريباً إليّ جداً و ... لا ادري كيف

أقول لك !

فقال بول بهمس : ما أطيع قلبك يا أماء .

— ليتني أستطيع ان أقدم لك بعض المساعدة ، لكم جميعاً . لو كنت اعرف ...

— لا تخافي فسوف تعرفين .

وشرعت تضحك بهدوء :

— وهذا أيضاً ما لا أعرفه : « ألا أخاف » .

— حسناً يا أماء ، لنذع الكلام في هذا الموضوع ، وتأكدني اني معترف

لك بالجمل كل الاعتراف .

وهرولت الى المطبخ كيلا يرى دموعها .

وعاد اندريه في ساعة متأخرة من المساء منهكاً ، وذهب الى فراشه على التو

وهو يقول :

— أعتقد أنني اجتزت عشرة كيلومترات على الأقل ..

فسأله بول : هل في ذلك فائدة لك ؟

— انا ذاهب لأنام فلا تزعجني .

وصمت ، ثم غفا ، كجذع شجرة .

وبعد قليل أقبل فيسوشيكوف رث الثياب ، قدراً ، ناقماً كعادته ، وسأل

وهو يضرب برجليه :

واقترب فيسوشيكوف من الحاجز وقال :
« اسمع ! إذا علمتني ، فسأقدم لك سكيناً كهديه .
فصاح به اندريه : اذهب إلى الشيطان بسكينك .
ثم انفجر ضاحكاً .

والخ يقول : إنها سكين عظيمة .
وأخذ بول أيضاً يضحك ؛ فتوقف فيسوشيكوف وسأل :

هل تضحكان مني ؟

فأجاب اندريه وهو يثب من سريره :

« نعم ... ولكن اسمع : تمالوا بهم في الحقول فإن ضوء القمر جميل
هل تذهبون ؟

فقال بول : حسناً .

وأعلن يقول : وأنا معك أيضاً ، فإني أحبك أيها البيوروسبي وأنت تضحك .
— وأنا أحبك أيضاً حين تعد بالهدايا !

وحين كان يرتدي ثيابه في المطبخ قالت له الأم بلهجة مؤنبة :

— أسرع في ارتداء ثيابك ... أسرع .

وعندما خرجوا ، وثبت إلى النافذة تلاحظهم ببصرها ، ثم ألقت نظرة على

صورة القديسين ، وقالت بصوت خافت :

— يا آلهي .. كن في عونهم .

— ٢٦ —

كانت الأيام تمر سراعاً ، فلا تدع للأم متسعاً من الوقت للتفكير في أول
أيار ، ولكنها كانت حين تأوي ، في الليل ، إلى فراشها ، تعي من انفعالات
النهار وعمل الصاحب ، تشعر بقلها ينقبض بهدوء .
— عجل بالاطلال يا أول أيار .

وكانت صافرة العمل تعوي عنده الفجر ، فيشرب بول واندريه شايها على

عجل ويتناولان طعاماً خفيفاً ثم يمضيان ، تاركين على عاتق الأم كثيراً من المهام .
وتظل هي ، طوال النهار ، تدور كالسحباب السجين ، تهيء الطعام ، وتحضر
مادة بنفسجية لطبع النداءات ، وصحفاً للإعلانات ، وكان يأتي إليها مجبولون
فيسامونها بطاقات مرسله إلى بول ، ثم ينسحبون بعد ان يقدموا لها احترامهم .
وكانت النداءات التي تدعو العمال إلى التعطيل في أول أيار تلتصق على الجدران
كل ليلة تقريباً ، وكانت هذه النداءات تظهر حتى على ابواب مخفر الدرك ، كما يعض
عليها كل يوم في المعمل .

وفي الصباح كان رجال البوليس يروحون ويحيثون في الضاحية ، فيزعون
ويزقون الأوراق البنفسجية شاتين ، ولكن هذه الأوراق كانت تعود عند
الظهيرة فتتطاير في الشارع في جديد ، وتتساقط تحت أرجل المارة . وجيء من
المدينة بعدد من رجال الأمن المدنيين ، فتمركزوا في منعطفات الشوارع ،
يلاحقون بأبصارهم العمال الذين كانوا ينطلقون إلى الغداء مرحين نشيطين ، أو
الذين كانوا يعودون بعده إلى المعمل وقد أسعدهم جميعاً ان يروا البوليس عاجزاً ،
حتى أن الطاعنين منهم كانوا يتهايمسون ، والبسمة تختال على شفاههم :

— ماذا يفعلون ؟ ها ؟

وكانت الحلقات الصغيرة تنعقد في كل مكان ، فيدور الجدل بجرارة حول
النداءات التي تقض المضاجع ، وكانت الحياة تغلي ، فلقد أثارت ، في فصل الربيع
هذا ، اهتمام الجميع ، وكانت تحمل لكل فرد شيئاً جديداً . تحمل للبعض سبباً
جديداً للحقد على المحرّبين ، وإغراقهم بالشتائم ؛ وللآخرين قلقاً مزعجاً وأملاً ؛
ولآخرين غيرهم — وهم الأقلية — فرحاً غامراً ، وشعوراً بأنهم هم القوة التي
توقظ الناس .

وكان بول واندريه لا ينامان إلا نائماً ، وكانا يصلان ، قبل ان ترسل
الضافرة نداءها ، بقليل ، يصلان متعبين ، شاحبي الوجه ، مبجوح الصوت .
وكانت الأم تعرف انها كانتا ينظران الاجتماعات في الغاب ، وفي المستنقع ، ولم
تكن تجهل ان فضائل من الشرطة كانت تقوم ، خلال الليل ، بدوريات حول

الضاحية ، وكان الجواسيس يطوفون فيفتشون العمال الذين يسرون منفردين ، ويفرقون الجماعات ، ويوقفون بعضهم أحياناً . لقد كانت تدرك ان ابنها واندريه ممرضان للتوقيف ، كل ليلة ، وتكاد تتمنى ذلك ففي التوقيف ، كما كان يبدو لها ، خيرٌ لها .

وأسدل ظلّ غريب من الصمت على مقتل ايساي ؛ وكان البوليس المحلي قد استجوب بعض الناس حول هذا الموضوع ، بضعة عشر رجلاً على الأخص ، ثم اسدل ستار الاهیال على القضية . وروت ماريا كورسونوف للأُم ، في حديث لها معها ، ما قيل للبوليس الذي خاطبته هي ايضاً كالأخرين بعبارات رائعة :
— كيف يمكن العثور على الجاني ؟ فان نحواً من مئة شخص ربما كانوا قد رأوا ايساي هذا الصباح ؛ وتسعين منهم على الأقل ودوا لو يصفعونه . لقد أمعن في مضايقة مواطنيه خلال سبع سنوات .

وكان التغيير يبدو في ملامح البيوروسي ؛ فلقد غارت وجنتاه ، وانسدلت اجفانه المتشاقلة على عينيه الجاحظتين فأطبقتها نصف اطباقة ، والمحدرت مجمدة خفيفة من فتحتي أنفه حتى زوايا شفتيه ، وقل للامه عن الأشياء والأعمال والحوادث اليومية ، ولكنه كان يزداد انفعالاً ويفقد فريسة حماس يستبد بسامعيه ، فيمجد الغد ، ذلك العيد الرائع المشرق ، عيد انقصار العقل والحرية .

وعندما ضاع مقتل ايساي في لجة النسيان ، قال البيوروسي يوماً بلهجة ازدراء وهو يتسم ابتسامة حزينة :

— إن أعداءنا لا يكرهون الشعب فتحسب بل انهم ايضاً لا يحبون أولئك الذين يستخدمونهم كالكلاب للظنار دتنا ؛ وإذا أسفوا عليهم ، فانهم لا بأسفون على « يوزاسهم » المخلص ، وإنما يأسفون على أموالهم .

وقال بول بحزم : كفى يا اندريه .

وأضافت الأم بصوت خافت :

— لقد تعثرنا بجذع حجر ، فتهاوى وتناثر كالغبار .

وأجاب اندريه بصيقل : « هذا صحيح ، ولكنه لا يبعث في النفس العزاء »

وكان يردد في اغلب الاحيان هذه الكلمات التي تكتسب بين شفتيه معنى خاصاً ، يحيط بالاشياء كلها ، معنىً لاذعاً شديد المرارة ..
.. وأقبل اليوم المنتظر ؛ يوم اول ايار .

.. وعوت صافرة العمل كعادتها أمارة قهارة ، وقفزت الأم التي لم تستطع ان تغمض اجفانها طوال الليل ، قفزت من سريرها ، وهيات الشاي المعد منذ العشية ، ثم انطلقت ، كالعادة ، تطرق باب الغرفة التي ينام فيها اندريه وبول ، ولكنها توقفت فجأة ، وانزلت يدها ، وجلست قرب النافذة ، واستندت خدها الى راحتها كما لو كانت تشكو ألماً في أسنانها .

وكان قطيع من الغيوم الخفيفة البيضاء والوردية يهيم على وجهه مسرعاً في السماء الباهتة الزرقاء ، كسرب من الطيور الكبيرة ، تقترها هدير البخار ففرت مذعورة . وكانت الأم تنزل الى هذه الغيوم ، وتصيح بسمعها الى وجيب قلبها . لقد كان رأسها مثقلاً ، وعيناها جافتين يعكسهما احمرار الأرق ، وفي صدرها يحيم هدوء غريب ، وخفقات قلبها تتوالى بانتظام ، وكانت تفكر بأمر عادية :
— لقد اشعلت الموقد قبل الاوان ، ويكاد الماء أن يقبخر ، لأدعها اليوم ينامان وقتاً اطول قليلاً ، فكلاماً مرهق .

وقفز من النافذة خيطٌ طفلٌ من شعاع الشمس ، خيطٌ مرصع لعوبٌ ! فحملت اليه الأم يدها ، حتى اذا ما استقر صافياً فوق أناملها ، راحت يدها الاخرى تداعبه برفق باشة مطرقة .. ثم نهضت وانتزعت انبوب الابريق ، جاهدة الا تحدث اية جلية ؛ وشرعت تصلي فت رسم اشارة الصليب بحرارة ، وتحرك شفتيها بصمت .

وكان وجهها يتألق في حين يرتفع حاجبها ببطء تحت بقايا جرحها ، ثم ينخفض فجأة .

ودوي صوت الصافرة ثانية أقل عنفاً ، وأقل اطمئناناً ، وكان صوتها مرتعشاً ندياً ، فأحست الأم انه اكثر امتداداً من ذي قبل .

وتعالى صوت البيوروسي صافياً :

- اتسمع يا بول؟

وجرجر احدهما قدميه الحافيتين فوق ارض الغرفة ؛ وتثاءب آخر بنشوة ،
فصاحت الأم : الشاي جاهز .

وأجاب بول بمرح : ها نحن نهض .

وقال اندريه : لقد اشرفت الشمس والغيوم تتراكم .. انها كثيرة

اليوم هذه الغيوم .

ودخل المطبخ اشعث الشعر يتعمته النعاس ، ولكنه كان مشرق الأسارير .

- صباح الخير ايها الأم الصغيرة ، كيف قضيت ليلتك؟

فاقتربت منه وقالت بصوت خفيض :

- ستظل الى جانبه يا صغيري اندريه أليس كذلك؟

فغمغم اندريه :

- هذا اكيد . اتنا نعيش معاً ، فاطمئي .

وسأل بول : هل هناك من مؤامرة تحببنا؟

- لا شيء أبداً يا بول .

وأجاب اندريه وهو يخرج من المدخل ليمشط شعره :

- انها تقول لي بأن استحم جيداً ، فستتعلق بنا ابصار الغواني .

ودندن بول : يا معذبي الارض انهضوا .

وصفا النهار شيئاً فشيئاً ، وبددت الريح السحب ، ووضعت الأم المائدة ،
وكانت تهز رأسها وهي تفكر بأن كل شيء كان اليوم شديد الغرابة . لقد كان
الصديقان يتازحان هذا الصباح ويبتسمان ، ولكن من يعلم ماذا ينتظرهما عند
الظهيرة؟

... أما هي فكانت تشعر بالاطمئنان ، بل انها تكاد ان تكون فرحة .

وأطالوا الجلوس الى المائدة محاولين ان يبددوا ضجر الانتظار ، وكان بول
كعادته ، يحرك ببطء وأناة ملعقته ليندب سكر فنجانه ، ويذر الملح بعناية على
قطعة الخبز المحمص المفضلة لديه . وكان البيوروسي يحرك قدميه تحت الطاولة فلا

تستقران للوهلة الأولى ، وكان يقص ، وهو يتسع خيطاً من شعاع الشمس يعدو
في السقف وعلى الجدار :

- عندما كنت غلاماً في العاشرة راودتني رغبة في ان اصطاد شعاع الشمس

في كأس ؛ فاخذت واحدة ، واقتربت من الجدار بخطي الدئب ، ثم صررت

ضربتي فجرحت يدي ، وعوقبت بالضرب . وخرجت بعد ذلك الى الساحة ،

قرأت الشمس في مستنقع ، فصرخت بها : «اغربي من وحيي والا سحقتك

بقدمي» وكان ان غرقت في الوحل ، وعوقبت أيضاً بالضرب ، وإذا بي ، أحياناً

اصرخ في وجهها : «لن يضيرني هذا ايها الشيطان الاشقر ، لن يضيرني» . ثم

امد لها لساني ساخراً .. وهذا ما كان يبعث في نفسي الغراء .

وسأله بول ضاحكاً :

- لم تمثل لك الشمس شعراء؟

- لأنه كان قبالتنا حداد قرمزي الوجه اشقر اللحية ، وكان فلاحاً طيباً

مرحاً ، وكنت أرى ان الشمس تشبهه .

وقالت الأم مقاطعة :

- إنكها تحسنان صنعا لو تحدثتما عما ستفعلانه .

فرد اندريه برقة :

- إن الحديث عن الامور المقررة يؤدي الى اقصادها ؛ صيأتي يقولوا أيتها

الأم الصغيرة ، عندما يجمعوننا ليقول لك ما يجب عمله .

وزفرت الأم : حسناً .

وقال بول وهو مطرق : يجب ان نخرج الى الشارع .

فنصحه اندريه : كلا ، من الافضل ان تبقى في البيت تنتظر ؛ إذ لا

يجدي شيئاً ان تجعل من نفسك هدفاً للبوليس ، فالبوليس يعرفك جيداً .

وأقبل عليهم ثيومازين متألق الوجه متورد الوجنت ، وبدد الانفعال والفرح

اللدان يلائه ، ما كانا يعانيان من ضجر الانتظار .

- لقد بدأت ... ان الجماهير تتحرك . انهم ينزلون الى الشارع واشداقهم

كالفؤوس . ان فيسوشيكوف ، وباريل غوسيف ومامالوف يرابطون عند باب المعمل منذ الصباح يحرضون العمال على العودة الى منازلهم ، وقد عاد عدد كبير منهم . هيا بنا ، فلقد أُرِفَت الساعة ، انها العاشرة .

وقال بول بلهجة حازمة : ها أنذا ذاهب الى هناك .

وأكد ثيو : سترون ، بعد قليل سيتوقف المعمل كله . ثم انطلق راكضاً . وقالت الأم يهدوء : انه يلتهب كشمعة في مهب الريح .

- الى ابن ايتها الام الصغيرة ؟

- اني ذاهبة معكم .

ورنا اندريه الى بول وهو يمسد شاربه ، ورد بول شعره المتهدل الى الوراء بجرعة خاطفة ثم لحق بأمه الى المطبخ :

- لن اقول لك شيئاً يا امه ، وانت كذلك .. مفهوم

فغمضت أمه : اجل ، اجل .. ليكون يسوع معكم .

- ٢٧ -

وعندما خرجت سمعت صخب الاصوات فاعتراها اكتئاب ورعدة ، وما كادت ترى جموع الناس مزدحمة في النوافذ والابواب ، تتبع اندريه وبول بنظرات الفضول ، حتى غامت عينها ببقعة ضبابية تتموج متلونة ، فهي تارة خضراء شفاقة ، وتارة اخرى رمادية كدرء .

وكانت التحايا تهمر على الشايبين ، وفي هذه التحايا شيء من التخصيص ، وكان سمع الام يتلقف شظايا الاحاديث المهمة :

- هاهما القائدان .

- كلا .. لا يعرف احد من هم القادة .

- حسناً .. فانا لم اقل سوءاً .

وتعالى صوت مهتاج : اذا قبض عليها البوليس فانها هالكان لا محالة

- سيزيد ذلك الامور تعقيداً .

- ١٩٦ -

ونددت عن احدى النسوة صرخة حانقة هلوع ، قفزت من النافذة الى الشارع :

انك تفقد اتزانك . هل تحسب انك ما زلت صيباً ؟ كلا ؟

وقيا كانا يعبران امام منزل رجل يدعى «زوسيموف» وهو عامل بترت

ساقه في المعمل ، ويتقاضى من اجل ذلك راتباً تقاعدياً - اطل هذا برأسه من النافذة وصاح :

- هيه يا بول ، ان مشاكلك ستجر عنقك الى النطع . فانظر ايها الجرو .

وارتعدت الأم ثم توقفت . لقد أثارَت فيها هذه الصرخة سُخْطاً شديداً

فرمقت الوجه المنتفخ ، وجه الرجل المقعد الذي انكفاً الى الداخل لاغناً ، ثم

اسرعت لتتضم الى ابنها وسارت في أثره جاهدة الا تظل في مؤخرة الموكب ..

وكان يبدو على بول واندريه كأنهما لا يلاحظان شيئاً مما حولهما ، ولا يسمعان

التهنئات التي تواكبها ، وكانا يسيران على مهل دون ان يغذا الخطي ، فاستوقفها

ميرونوف ، وهو رجل ناضج متواضع ، يحترمه الناس جميعاً لأنه يجيا حياة صابرة

طاهرة ، وبادره بول :

- انك لا تعمل اليوم يا دانيلو ايفانوفيتش ؟

فرد ميرونوف وهو يحدج الرفيقين متفحصاً :

- ان زوجتي توشك ان تضع حملها ، ثم ان الجو مضطرب اليوم ، ويقال

انكم ، اتم الشبان ، تودون خلق المتاعب للادارة ، وتحطم الزجاج ؟

فأجابه بول : او تحسبنا مخورين لنفعل ذلك ؟

وتدخل اندريه : سنسير بكل بساطة مع اعلامنا في الشارع ، وسننشد

الاناشيد فأصغ اليها . انها تعبر عن عقيدتنا .

رأجاب ميرونوف بلهجة المفكر : اني اعرفها ، فلقد قرأت نشراتكم .

والتفت الى الأم وقال لها وبسمة الطيبة تلعب في عينيه الذكيتين :

- وانت ايضاً يا بيلاجي تسيرين مع التمردين ؟

- يجب ان يسير المرء مع الحقيقة حتى ولو كان على حافة قبره .

- أرايت ؟ ان الناس لصادقون اذن حين يقولون بأنك تحملين النشرات

الممنوعة الى العمل . ؟

وسأله بول : من يقول ذلك ؟

هكذا يقولون ... حسناً .. الى اللقاء .. واياكم المحامات .

وراحت الأم تضحك بهدوء فلقد كان يملأها زهواً أن يتحدث عنها الناس هكذا .

وقال لها بول باسمياً :

- ستدخلين السجن يا أماه .

وكانت الشمس ترتفع باستمرار فتبعث حرارتها في الطراوة المنعشة ، طراوة النهار الربيعي ، وكانت السحب تهم بطيئة ، فتغدو ظلها أكثر نحافة وشفافية ، وتساحب هذه الظلال لينة لدنة فوق أرض الشارع ، وعلى سطوح المنازل ، فتلف الناس بفلاطها ، وتبدو كأنها تقوم بتطهير الضاحية فتسمح الوحل والغبار عن السطوح والجدران ، والضجر عن وجوه الناس . وكانت البهجة تنتشر ، والاصوات تغدو اشد رنيناً ، فتلقف الصدى البعيد ، صدى الضجيج المتصاعد من آلات العمل .

ومن جديد ، كانت الاقويل تتطاير وتنتال في سمع الأم ، تتطاير من النوافذ والساحات كئيبه او شريرة ، جازمة او مرحة ، وودت بيلاجي لو تستطيع ان تحيب عليها ، فتشكر او تشرح ، وان تندمج في حياة هذا النهار الغنية بالالوان . وفي زاوية من الشارع الكبير ، وفي زقاق ضيق ، كان نحو من مئة شخص يتجهرون ، وكان صوت فيسوشيكوف يدوي بينهم :

- انهم يعتصرون دمكم كما يعتصر العنب .

وكانت تعابيره التي لا براعة فيها تنهمر فوق رؤوسهم ، فتتعالى ، وفي وقت واحد ، بعض الاصوات :

- هذا صحيح ، هذا صحيح .

ثم تذوب هذه الاصوات في خضم الضجيج .

وقال البيورومي :

- لقد سدده الفتى ضربة ، فلنذهب اليه ، ولنساعده .

وانحنى ، وقبل ان يتمكن بول من الامساك به ، اخترق الجمح كالثقب ، وتعالى صوته الجهور :

- ايها الرفاق . يُقال ان الارض تحمل على ظهرها كل انواع الشعوب ، اليهود والالمان والانكليز والتتار ، ولكني انا لا اصدق ذلك ، فليس على ظهر الارض سوى شعبين ، سوى عرقين لا انسجام بينهما أبداً ، هما : الاغنياء والفقراء . ان ازياء الناس لتختلف ، وكذلك لغاتهم ، ولكننا عندما نرى كيف يعامل الاثرياء الفرنسيون والالمان والانكليز عاملهم ، ندرك انهم جميعاً بالنسبة للعامل طغاة . طعام ، ليت الحسكة تعلق في حناجرهم .

ودوت من بين الجميع ضحكة ، وتابع اندريه :

- وعندما ننظر الى الامر من الناحية الاخرى ، ترى ان العامل الفرنسي ايضاً ، ومثله التتري والتركي يحيون حياة الكلاب ، مثلنا نحن العمال الروس . وكان الحشد يتصخم حوله بلا انقطاع ، ويتسلل الناس يجهدي الى الطريق الضيق ، يتسللون واحداً بعد واحد ، ثم يقتربون بصمت ، فيمدون اعناقهم ويتناولون على رؤوس اقدامهم . ويرفع اندريه صوته :

- لقد أدرك العمال في الخارج هذه الحقيقة البسيطة ، واليوم ، في هذا اليوم المشرق ، يوم اول ايار ..

وصرخ احد الحضور : البوليس ، البوليس .

وكان اربعة من رجال البوليس الفرنسيان يدورون نحو زاوية الزقاق ، ويتوجهون مباشرة نحو الجهور وهم يهزون كرابيجهم صائحين :

- هيا تفرقوا ..

فتكفهر الوجوه ، ويتفرق الناس مرغمين امام الخيول المقتحمة ، ويتسلق بعضهم الاسوار ، ويرتفع صوت جهور يتحدى :

- لقد أركبوا الخنازير ظهور الخيل وهاهي ذي تنددم : ونحن ايضاً لنا قادة كبار .

وظل البيوروسي وحده في وسط الزقاق ، واندفع نحوه جوادان يسترنج
رأسهما ، فابتعد من طريقهما ، في حين أمسكته الأم من ذراعه وجرته مغضمة :
- وعدتني ان تبقى مع بول ، وها انذا اراك تعرض نفسك لألسنة السياط .
فأجابها باسماء المعذرة .

وتملك بيلاجي إعياء يختلط فيه الغم بالخور ، إعياء كانت تحسه يتزايد فيملاً
رأسها بما يشبه الدوار ؛ وكان الحزن والفرح يتعاوران على قلبها بشكل غريب .
وكانت تتغنى لو تسرع صافرة المعمل ، فتعلن حلول الظهيرة .

وبلغوا الساحة قرب الكنيسة حيث احتشد فوق فسحتها - وقوفاً وقعوداً -
نحو خمسة شاب و غلام متحمسين جدلين ، وكان الحشد يتموج ، والمحشدهون
يتلعون اعناقهم ويرنون الى البعيد ، الى كل جهة ، بصبر نافذ ، وكانوا يستشعرون
شيئاً من رهبة القداسة ، ويبدو البعض كأنه أضع اتجاهه ، في حين يبدو البعض
الأخر كمن اصعب بالصرع ، وكانت تسمع أحياناً اصوات ضعيفة مكبوتة ، تند
عن بعض النسوة ، فيستدبرهن الرجال مكرهين ، وأحياناً أخرى تنفجر شتية
بصوت خفيض ، وكان ضجيج أهم من الأحاديث الحاقدة يلف الحشد كله ،
وصوت امرأة يتهدج :

- كن حذراً يا متري .

وكان صوت سيزوف الوقور يُسمع راعداً مقنعاً :

- كلا .. يجب ألا نتخلى عن الشبان ، فلقد اصبحوا أكثر تعقلاً منا وأوفر
جراً من ؛ الذي صنع كل شيء في قصة «فلس المستنقع» ؟ إنهم هم . يجب الا
ننسى ذلك . لقد دخلوا السجن لهذا السبب ، اما العنم فكان لنا جميعاً .
ولقف زئير الصافرة القاتم ضجيج الاحاديث ، ثم سرت في الجمع رعشة ،
فاذا الجالسون ينتصبون ، وفي لحظة يتسمر كل شيء في وقفة انتظار متحفز ،
كثير من الوجوه يكسوها الشحوب .

- ايها الرفاق ..

وكان ذلك هو صوت بول ، صوته الرنان الواثق .. ولفحت عيني الأم غمامة

جافة ، واستشعرت انها قد استردت ، دفعة واحدة ، كل حيويتها ، فاتخذت
مكانها بالقرب من ابنتها ؛ وتلفت الجميع الى بول ، والتفوا حوله كمنار الحديد حين
يحتنق جسم ممغنط ، وكانت الأم ترنو اليه فلا ترى إلا عينيه ، عينيه المزهوتين ،
عينيه الجسورتين المشتعلتين .
- ايها الرفاق :

لقد قررنا ان نعلن بوضوح وصراحة من نحن ؛ فرفعنا اليوم علمنا ، علم «الفكر
والحقيقة والحرية» .

وارتفعت في الفضاء سارية بيضاء طويلة ثم انخفضت ، فشطرت الحشد ، ثم
توارت . وبعد لحظة ، ارتفع العلم العريض ، علم الشعب العامل الكادح ، ارتفع
خفاقاً كطائر قرمزي اللون .

ورفع بول ذراعه ، فرفرف العلم ، وحضنت السارية البيضاء الملساء أيدي
كثيرة كانت احداها يد الام :
وهتف بول : «عاش الشعب الكادح» .

ورددت وراءه مئات الاصوات في هتاف مدوي :

- عاش حزب العمال الاشتراكي الديوقراطي . عاش حزبنا ، عاش رفاقنا ،

عاش ..

وسرى الغليان في الحشد ، وشق الطريق الى العلم اولئك الذين كانوا يدركون
اي معنى يرمز اليه ، وكان مازين وسامو الوف والاخوان غوسيف قد اخذوا
مكانهم الى جانب بول ، اما نيقولا فيسوشيكوف فقد كان يعمل على إقصاء الناس
عنه ، وكان آخرون غيرهم يدفعون الأم التي لا تعرفهم ، يدفعونها في تراجمهم
وهم محموو النظرات .

وصاح بول : عاش العمال في كل وطن .

وبقوة وفرح دائم التنامي ردد الهتاف الف صوت ، وكان صدى هذه
الاصوات يهز كل نفس .

وأمسكت الأم بيد نيقولا ، وأخذت يد شخص آخر ، وكانت الدهموع
تحنقها ولكنها لم تكن تبكي ، وانما كان ساقاها يرتعشان : فتقول متلجلجة :

-- ابنائي .

وتلألأت في وجه نيقولا المجدور بسمه عريضة ، ورنا الى العلم هاتفاً بكلام لا يفهم ، باسطاً ذراعه نحوه ، ثم لم يلبث أن ارخى يده فجأة ، وأمسك بمنق الام واحتضنها ثم راح يقبلها .

وطغى على ضجيج الحشد صوت البيوروسي ، الهاديء العذب :
- ايها الرفاق ؛

باسم إله جديد يسير الآن موكبنا ، باسم إله النور والحقيقة ، إله العقل والخير . إن هدفنا ناء عنا ، ولكن تبجان الشوك قريبة دانية ، فليتمد عنا اولئك الذين لا يثقون بنوايتهم ، والذين يخافون العذاب ، نحن ندعو إلتنا اولئك الذين يؤمنون بانتصارنا ، اما الذين لا يبصرون هدفنا ، فليتمدوا لان الشقاء وحده هو الذي ينتظرهم . ايها الرفاق . رصوا صفوفكم . عاش عيد الأحرار ، عاش اول ايار .

وازداد ازدحام الجمهور ولوح بول بالعلم الذي انتشر وخفق متألقاً تحت الشمس في بسمه عريضة حمراء .

رجلجل صوت ثيومازين راعداً :

- ايها المذبون في الارض هبوا .

ورددت عشرات الاصوات في موجة عذبة عارمة :

- يا ضحايا الجوع هبوا .

وكانت على الشفاه بسمه تحرقها ، وكانت الام تسير وراء مازين ، وترنو الى ابنا ، والعلم الذي يحمل ، وجولها تراقص وجوه مستبشرة ، وعيون من كل لوث .

وكان ابنا واندرية في الصف الاول . إنها تسمع صوتيهما ؛ لقد كان صوت لغديره العذب الخافت ، يمزج ودوداً بصوت بول الممتلىء للاكثر خفوتاً :
وإنها المعركة الفاصلة ...

فلنوح صفوفنا ، لنوحدها فقداً ...

وكان الناس يتراكمون لاستقبال العلم الأحمر صائحين ، فيختلطون بالجمع ، وينطلقون معه ، وكانت الصيحات تذوب في أنغام النشيد ، هذا النشيد الذي كان ينخفض به الصوت في المنزل ، فاذا به ينحدر في الشارع كنهز هائل القوة ، سوي لا التواء فيه ولا عوج . إنه يهدر بصوت البسالة ، فاذا كان هذا الصوت يهب بالقوم ان يسلكوا الطريق الطويل الذي يقضي بهم الى الغد ، فانه ليحدثهم في الوقت نفسه ، وبصراحة ، عن تجارب هذا الطريق .. تجاربه الرهيبه . وفي اللمب الهاديء الكبير ، كانت تذوب رواسب الماضي السوداء ، والكتلة الثقيلة ، كتلة العواطف المعتادة ، ويتحول الخوف اللعين الى رماد .
وكان الى جانب الأم وجه مجهول ، يختلط في ملاحظه الذعر والبشر معاً ، ويترنح على انغام النشيد ، وصوت تهزه الزفرات يرتفع صائحاً :

- متري .. الى اين ؟

وأجابتها الأم دون أن تتوقف :

- دعيه . لا تقلقي عليه . لقد كنت مثلك ايضاً كثيرة الخوف ، ولكن ابني الآن في الطبيعة . إنه ذاك الذي يحمل العلم .

- الجنود هناك .. قلمي أين تذهبون ايها اللصوص .؟

وصرخت السيدة الفارعة النحيلة فجأة ، وتشبنت يدها الهزيلة بذرار بيلاجي :

- إنهم ينشدون .. ومتري ايضاً ينشد معهم .

فغمضت الأم : لا تقلقي ، هذا شيء مقدس ، واذكري ان المسيح ما كان ليكون لولا ان وجدت هناك فئمة تموت من اجله .

لمعت هذه الفكرة فجأة في ذهنها ، فأذهلتها بما فيها من حقيقة بسيطة متألفة ، فرمقت السيدة التي كانت تشد على ذراعها ، ورددت بإبتسامة ذاهلة :

- ما كان المسيح ليكون لولا ان كانت هناك فئمة ماتت من اجله ، من أجل سيدنا ..

وظهر سيزوف يجانباها ورفع قبعته ولوح بها على انغام الاغنية :

- إنهم يسرون بحرية يا امه أليس كذلك ؟ لقد اخترعوا نشيداً ، وبأله

النشيد الذي يبدو كأن نبراته القوية تكسح كل شيء ، وتكنس كل ما تصادفه في طريقها .

وكانت الأم ترى في البعيد ، العلم الاحمر ، ولا ترى ابنها ، بل تتخيل وجهه يجيبه البرونزي ، ونظرته المتأججه بلهب الايمان .

وما هي ذي في الصفوف الاخيرة من الحشد ، بين اولئك الذين كلوا يسرون دونما تراحم ، ويتطلعون الى الامام بلا مبالاة ، يتطلعون بفضول باهت بارد كفضول ذلك المتفرج الذي لم تعد عقدة المسرحية مرآ مغلقة عنده ؛ ويسرون ويتحدثون بصوت منخفض وبكثير من الوثوق :

- يوجد قرب المدرسة فرقة اخرى في العمل .

- لقد وصل الحاكم .

- أصحيح ذلك ؟

- لقد رأيت به بأمر عيني .

وإطلق احدهم بعض الشتائم بمرح ، وقال :

- ومع ذلك فقد بدأوا يخشوننا ، نحن الآخرين . انهم يرسلون بنا الجنند

والحاكم ..

وكانت هذه الكلمات تحقق في صدر الام : إيه يا صفاري الاعزاء .

غير ان اولئك الذين يضطربون حولها كانوا فاقدى الحيوية بارهدي الاعصاب ،

فغذت من خطاها ، لتبتعد عنهم ، عن رفاق الصدفة ، ولم تجرد أي عناء ؛ في

تخطي زحفهم البطيء الكسول .

وفجأة بدت طلعة الموكب كأنها تصطدم بعقبة ما ، فتردد الحشد الطويل

في سيره دون ان يتوقف ، وانتظمه صخب قلقي ، واضطرب النشيد قليلاً ،

ولكنه لم يلبث ان انطلق أقوى من ذي قبل واسرع نفعاً ، ومن جديد ، انخفضت

موجة الاصداء الكثيفة ، وانكفأت الى الوراء ، ثم خرست الاصوات واحداً

بعد آخر ، وتعالقت هتافات من هنا وهناك لتعيد الى الجوقة كمال روعتها ،

ولتدفعها الى الامام :

من نشيد .. أليس كذلك يا اماء ؟

ثم أضاف : إنهم لا يرهبون شيئاً ... ولكن واحسرتاه ... ان ابني

في لحده ..

وأخذ قلب الأم يخفق بعنف ، فتباطأت في المسير ، ثم لفظها التيار جانباً

فإذا بها تجرد نفسها منزوية امام احد الاسوار ، في حين كانت الموجة البشرية

العارمة تندفع أمامها ، فتدرك معها أن الحشد كان هائلاً ، وهذا ما يدخل

السرور الى قلبها :

- ايها المعذبون في الارض ، هبوا .

لكن ان تغيراً ضخماً كان يدوي في الفضاء ، يدوي فيلهب الناس ويوقظ في

البعض الميل للصراع ، ويوقظ في الآخرين فرحاً غامضاً وتطلماً حاراً ، واحساساً

مسبقاً بحدث جديد . إنه يبعث هنا قلق الأمل ، ويطلق هناك سيل الحقد المر ،

الحقد المتراكم عبر السنين .

وكان الناس جميعاً يرتبون بأبصارهم الى الامام ، الى حيث كان العلم الأحمر

يتأيل ويخفق . وزجر صوت متحمس :

- ها هم أولاء قد انطلقوا ، برافو ايها الصغار .

وكان صاحبه يعاني بلا شك إحساساً اكبر من ان تستطيع الكلمات العادية

التعبير عنه ، فراح يشتم بانديفاع ، ولكن الحقد القائم الأعمى ، حقد العبد ، كان

يمعج كالأفمى ، ويتلوى في كلمات مسعورة ، ثم يزيده استعماراً ، ذلك التهور الذي

كان يكشفه للابصار .

وهتف احدهم بصوتٍ عظيم وهو يلوّح من احدى النوافذ ، بقبضته مهدداً

- أيها الهراطقة .

وانطلق عواء مزعج مقذع اخترق سمع الام :

- أصد الامبراطور ؟ أصد جلاله القيصر هذه الثورة ؟

وكانت الوجوه المذعورة تعبر سراعاً بقرها ، إنهم رجال ونساء يقفزون

ويتراكمضون ، وكان الحشد يندفع كسيل بركاني قائم ، يقوده النشيد ، هذا

« أيها المعذبون في الارض هبوا ،

« يا ضحايا الجوع هبوا .. »

ولم يكن في هذا النداء ، ذلك الجرس نفسه المليء باعتداده الرجولة ، بل لقد بدأت تحس فيه ، على كل حال ، ارتعاشة القلق .

وكانت الأم لا ترى شيئاً ولا تعرف ماذا يجري في الظلمة ، لذلك راحت تخترق الجموع ، وتتشق بسرعة لنفسها طريقاً ، وكان الناس ينكفثون عنها ، فتحنى وروس ، وتعبس وجوه ، ويبتسم البعض بارتباك ، ويصفر آخرون ساخرين ، وكانت هي تتفحص الوجوه مغمومة ؛ وفي عينيها سؤال وتوسل ونداء ..

وتعالى صوت بول :

— أيها الرفاق . ان الجنود بشر مثلنا . انهم لن يعتدوا علينا بالضرب . علام يفعلو ذلك ؟ ألأننا نحمل الحقيقة التي يحتاجها كل الناس ؟ والتي يحتاجونها هم أنفسهم ؟ إنهم لم يدركوها حتى الآن ، ولكنه لم يعد بعيداً ذلك اليوم الذي يقفون فيه ، هم ايضاً الى جانبنا ، ويسرون ، لا تحت راية النهب والقتل ، بل تحت رايتنا نحن ، راية الحرية . ولكي يدركوا سريعاً حقيقتنا ، ينبغي ان نكون في الظلمة .. فإلى الأمام يا رفاقنا .. الى الامام دوماً .

وكان صوت بول حازماً ، وكانت كلماته تدوي في الفضاء واضحة جلية ، ولكن الحشد كان يتفرق ويتبدد ذات اليمين وذات الشمال ، وكان افراده يعدون جماعة بعد اخرى ، نحو المنازل ؛ وهم يحتمون بظل الاسوار .

ولم يبق من الموكب الا شكل زاوية كان بول طرفها ، وكان علم الطبقة الكادحة يرف فوق رأسه احمر قانياً ، وكان الحشد كطائر أسود ينشر جناحيه واسمين ويقف متربصاً متأهباً للإرتفاع والتحليق ؛ وكان بول هو منقر ذلك الطائر .

ووقع بصر الام في طرف الشارع ، على جدار يكفكف من طول الساحة ، جدار اغبر من رجال لا وجوه لهم ، رجال موحدي الزي تلمع فوق منكب كل منهم شفاير حربية ماضية الحد . ومن هذا الجدار الصامت الجامد خيل للأم ان ريحاً صرصراً كانت تهب على العمال ، وتجتاح قلبها .

وتغلغل في الصفوف لتنضم الى اولئك الذين كانت تعرفهم : لقد كانوا في المقدمة بالقرب من العلم ، ينصهرون في الجمع الذي تجهل ناسه ، كأنهم إنما يلتصقون في هؤلاء الجمهوريين سنداً لهم ، والقت نفسها امام رجل اورد فارغ القامة ، راحت ترحمه ، وكان صاحبنا اعوراً ، فأدار رأسه بحركة سريعة ليحديق فيها ويسألها :

— ماذا تريدين ؟ ومن أنت ؟

وأجابت : «اني والدة بول فلاسوف» . واحست بساقيها ترتعشان وبشفتها تتدلى بحركة لا ارادية .

وقال الاعور : حسناً .. ولم يزد .

واستأنف بول كلامه : ان الحياة ايها الرفاق ، الحياة كلها أمامك ، وليس لنا من طريق سوى هذا الطريق ..

.. وخيم صمت متربص ، ثم ارتفع العلم ورغرف ، وخفق يهدوء فوق الرؤوس ، ومضى دون تلكؤ نحو الجدار الأعبر ، جدار الجند .

وعرت الأم رجفة فأغمضت عينيها ، واطلقت زفرة ، وكان بول واندرية وسامو الوف ومازين وحدهم ينفصلون عن الحشد .

وتعالى صوت مازين صافياً هادئاً : «لقد كنتم الضحايا» ..

وردد وراءه صوتان خفيضان ، اصمان كزفرتين عميقتين :

«الضحايا لعراك مشؤوم .»

واستأنفت الجموع سيرها وهي تركز الأرض بخطى موزونة ، وارتفع ثانية نشيد جديد حازم النبرات ساحر ، ورنم ثيو بصوته العذب المدوي :

— «ولقد وهبتمونا كل شيء» .

وردد الرفاق وراءه في جوقة : وهبتمونا الحرية .

وصرخ احدهم بجذب : اوه ، اوه ، لقد بدأتم تشدون نشيد الموتى
يا ابناء الكلاب ؟

ودوت صيحة مسعورة : اقتلوه ، اقتلوه .

وشدت الأم ببديها على صدرها ، وتلفتت فيما حولها ، فرأت الحشد الذي
كان يملأ الشارع بكتلته المتراسة ، يستمر في مكانه حائراً ، ويتطلع الى حلة العلم
الذين انفصلوا عنه .

وكانت بضع عشرات من الرجال فقط تسير وراء هؤلاء ، وعند كل خطوة
يخطونها الى الامام ينفصل عنهم واحد ، فيقفز الى الرصيف كما لو كان بلاط
الشارع يتأجج ناراً يحرق لظاها النعال .

وبشر التشديد على شفتي ثيو :

— والطفيان سينهار .

ورددت وراءه جوقة الاصوات القوية الواثقة المتوعدة :

— وسينهض الشعب .

ومن خلال أنغام النشيد ارتفعت كلمات باردة :

— تحت إمركي .

ثم جلجلت صيحة وحشية : شرتعوا الحراب .

ورسبت الحراب في الفضاء خطأ محدودباً ، ثم تكلمت ، وامتدت باتجاه
العلم هازئة متعديّة .

— الى الامام سر .

وقال الرجل الإعور وهو يدس يديه في جيوبه :

— ها هم الأولاد قد زحفوا .

ثم ابتعد بخطى سريعة ، وكانت الأم ترنو جامدة العينين .

وثارت الموجة الغبراء ، موجة الجند قلاً عرض الشارع ، واندفعت الى الامام
بمركبة آلية رتيبة ، وهي تدفع امامها مشطاً تتناثر فيه اسنان الفولاذ اللامعة .

ويخطى سريعة اقتربت الأم من ابنها ، فرأت اندريه يتقدم ليقف امامه
ويحميه بقامته المديدة .

وصاح بول بصوت خشن النبرة :

— عد الى جانبي يا رفيق .

وكان اندريه ينشد شامخ الرأس ، وهو يشبك يديه وراء ظهره ، ولكن
بول دفعه من كتفه وصاح به ثانية :

— عد الى جانبي فلا يجوز ان تتقدمني ، لأن العلم يجب ان يكون في الطليعة .

وبصوت شرس صرخ ضابط صغير تافه ، وهو يهز سيفه المسلول .

— تق... ر... ق... وا .

وكان يشي رافعاً رجليه الى اعلى ، ودون ان يثني ركبتيه ، ويخطو فيمس
الأرض بشكل مستقر . واستلقت بريق جزمته نظر الأم .

والى جانبه كان يدب بثقال ، رجل حليق الوجه ، مديد القامة ، كيف
للساويين اغبرها ، يرتدي معطفاً رمادي اللون ، يبطنه قماش أحمر ، وترزين بظلاله
للوامع الرجلين شرائط صفراء ، وكانت يدها ، كالبيوروسي ، وراء ظهره ،
وحجاباه الكشيفان الاغبران مرتفعين ، وكان يرتو الى بول .

وكان بصري الأم يمتد ، وفي صدرها تتجمد صرخة ، تظل على وشك الانفجار

والانقلات مع كل زفرة ، وكانت هذه الصرخة تخنقها ، ولكنها كانت تسمكها

فتشد صدرها بكلتا يديها : وكانت تترنح وهي تدفع من كل جانب ، فلا تقف

بل تستمر في تقدمها دونما تفكير أو وعي ، وكانت تشعر ان عدد الناس

وراءها يتضاءل بلا انقطاع ، وان الموجة الجليدية تتقدم للقائهم وبمئة صفوفهم .

وكان الشبان حملة العلم الاحمر ، والسلسلة الكشيفة من الرجال الغبر يتدانون

باستمرار ، وكان من الممكن تبيين وجوه الجند بوضوح ، هذه الوجوه التي كانت

كأنها تسع فتسد الشارع كله ، وتنبسط مسوخة على شكل شريط ضيق من

الصفرة القدرة ، ثبتت فيه ، ودونما ترتيب ، عيون مختلفة الالوان ، والتمتعت من

خلاله رؤوس الحراب الدقيقة بألتي وحشي .

وكانت هذه الحراب المسددة الى الصدور تبعثر الحشد قبل ان تمسه وتفتته
واحداً بعد واحد ..

وسمعت الأم وراءها خطى أولئك الذين كانوا يولون الادبار هارين ، وتعالت
اصوات كثيفة مخنوقة :

— ايها الشباب تفرقوا .

— انج بنفسك يا فلاسوف .

— الى الورا يا بول .

وقال فيسوشيكوف متجهماً الاساير :

— ألق اليّ بالعلم يا بول ، اعطنيهِ لأخبئه .

وامسك بالسارية وشد العلم الى الورا ؛ ولكن بول صاح به :

— دعه .

وسحب نيولاً يده كأن جرة لذعتها ، وكان النشيد قد خفت وانطفأ ،
فتوقف الشبان واحاطوا ببول كسلسلة كثيفة ، ولكنه استطاع ان يخرق الحصار .

وفجأة ، خيم الصمت ، كأن سحابة شفاقة لا منظورة هبطت فغطت المتظاهرين .
وتحت العلم كان يقف بصمود نحو من عشرين رجلاً لا اكثر ، وقد ساور

الأم الجزع عليهم واحست برغبة غامضة في ان تقول لهم شيئاً ما .

وارتفع صوت رتيب هو صوت العجوز الفارع القامة :

— يا ملازم . آتني به .. هذا الشيء .

ومد يده يستير الى العلم .

وهرول الضابط الصغير نحو بول ، وأمسك بسارية العلم وصاح بصوت نهّاد :

— اتركه .

واجابه بول بصوت قوي : انزل يدريك .

ورف العلم في الفضاء أحمر قانياً ، وترنح ذات اليمين وذات الشمال ثم لم يلبث
ان انتصب شاخاً من جديد ، وارقد الضابط الصغير الى الورا ، ووقع أرضاً .

ومر فيسوشيكوف أمام الأم بسرعة لم تستطع معها أن تتميزه ، مر ممدود

الساعد ، مشدود القبضة .

وزجر العجوز وهو يرفس الأرض بقدميه :

— أوقفوهم .

واندفع بعض الجنود ، وهز أحدهم عقب بندقيته ، فخفق العلم مرتعشاً ، ثم

نكس ، واختفى في زحمة الحشد الأغر ، حشد الجنود .

وتعالت صيحة أسي وأطلقت الأم صرخةً بل زارة ، ولكن صوت بول

الداوي ارتفع من بين الجند : الى اللقاء يا اماء ، الى اللقاء ايها الأم الغالية .

وملأت هاتان الفكرتان قلبها : إنه ما زال حياً .. إنه يفكر بي .

وتطاولت على رؤوس قدميها ملوحة بيديها ، جاهدة في ان تراهما ، غير انها

لم تم ، فوق رؤوس الجند ، إلا وجه أندريه المستدير ، فأبتسمت له وحيته

وصاحت :

— يا ولديّ الحبيبين ، اندريه ، بول .

— الى اللقاء ايها الرقاق .

وردت عليها اصداً متعددة ممزقة ... كانت تنتهي الى ممعها من النوافذ

وسطوح المنازل .

— ٢٩ —

وارتطم احدهم بصدرها ؛ ومن خلال الضباب الذي كان يغشي عينيها ، رأت

الضابط الصغير ينتصب أمامها محتقن الوجه ، ويصرخ في وجهها :

— تنحّي أيتها الشمطاء .

وانزلق بصرها نحو ، فأبصرت سارية الغلم محطمة ، عند قدميه ، ومزقة من

القماش الاحمر ما تزال معلقة بأحد جزئيه ؛ فأنحنت والتقطتها ، ولكن الضابط

الصغير ، انتزعها من يدها ، ورمى بها جانباً ، وهو يرفس الأرض بقدمه صائحاً :

— قلت لك ، أغربي من وجهي .

ومن بين الجنود تفجّر النشيد ، وهمت نبراته :

— ٢١١ —

— ٢١٠ —

— أيها المذبذبون في الأرض هبوا .
واضطرب كل شيء كأنما لفته رعشة ودوار ، وملاً الفضاء طنين كطين
اسلاك البرق ، فقفر الضابط ونبج بضراوة :

— اسكتهم يا رقيب كرينوف .

واقتربت الأم وهي تترنح ، فالتقطت ثانية ، حطام السارية التي قذفها الضابط :
— أخرجهم يا كرينوف .

وعام اللشيد ، واخذ يتناهى الى الامساح متقطعاً ، ممزقاً ... ثم انطلقاً .

وأمسك احد الجنود بكفتي الأم ، وشدها فاستدارت نصف استدارة ، ثم
دفعها من خلف صائحاً : أغربي ، أغربي .

وصاح الضابط يحنوده : هيا ، نظفوا الشارع .

وأبصرت الأم على بعد خطوات منها ، حشداً يتكثف من جديد ، وسمعت
الناس يزجرون ويهممون ويصفرون ، وكانوا ، وهم ينكفئون ببطء نحو آخر
الشارع ، ينتشرون في الساحات المجاورة .

وصرخ في افئها جندي شاب ذو شاربين ، ودفعها الى الرصيف عندما
حاذاها قائلاً :

— أغربي أيها الشيطان .

وانطلقت مقوسة الساقين تتوكأ على بقايا السارية ، وتستند بيدها الاخرى ،
كيلا تسقط ، الى الجدران والاسوار .

وكان الناس أمامها يتراكمون ، ووراءها وحولها يندفع الجنود صائحين :
— تفرقوا ، تفرقوا .

وتخطاها الجنود ، فتوقفت حدير بصرها فيما حولها :

كان عدد من الجنود يتركون في طرف الشارع على شكل سلسلة متباعدة
الحلقات فيمزلون بذلك قسماً من الساحة كان مقفراً . وفي الأمام ... كانت
الإشباح الرمادية الغبراء تتجه ببطء نحو الجماهير .

وأرادت ان تنكص على عقبها ، ولكنها ، كانت ، دونما وعي منها ، تتقدم

باستمرار حتى اذا بلغت زقافاً ضيقاً ، اقفر من الناس ، اندفعت فيه .
وتوقفت ثانية ، وزفرت بعمق ، ثم اصاحت بسمعها قليلاً ، فتناهدت اليها
اصوات تدندن في زاوية من زوايا الزقاق .

وكانت ما تزال تتوكأ على بقايا السارية ، فعادت الى السير وهي تحرك
حاجبها . وفجأة تندى جبينها ، وارتعشت شفتاها ، وتحركت يدها ، وتفجر
في قلبها لهيب من الكلمات ، تجتمع ، فأجج فيها الرغبة الحارة الطاغية ، في ان تصرخ
بهذه الكلمات عالياً .

وكان الزقاق ينعطف الى اليسار ، حيث ابصرت جماعة تستلفت النظر ،
وكان صوت قوي النبرة يتعالى :

— أيها الفتيان لن نستطيع ان نتحدى الحراب بالطيش !

— رأيتم ؟ لقد مشى الجنود فوقهم ، مشوا فوقهم وهم لا يتحركون . ان
فتياتنا الاغرار هؤلاء لا يعرفون الحشية !

— يا له من فتى ... بول فلا سوف ؟

— والبيوروسي ؟

— يدها وراء ظهره ، والبسمة على ثغره . لقد كان البهيم ..

وصاحت الأم وهي تشق طريقها بينهم ؟

— يا اصدقائي . ايها القوم الطيبون ...

وأفسحوا لها طريقاً ، ولكن واحداً من بينهم اخذ يضحك :

— انظروا ... إنها تحمل العلم . إنه في يدها .

وارتفع صوت فيه قسوة : إخرس .

وفتحت الأم ذراعها واسعين :

— بحق يسوع اصغوا الي . إنكم جميعاً منا ، وكلكم من ذوي القلوب الطيبة ،

افتحوا عيونكم وحدقوا دونما خوف فماذا ترون ؟ إن ابناؤنا ، بل دمنا ، مهبتون
في كل مكان من اجل الحقيقة ، من اجل الجميع . إنهم يسرون في طريق الجلجلة
من اجلكم جميعاً ، من اجل صغاركم . إنهم ينشدون النور ، ويهدفون الى حياة

أخرى في ظلال الحقيقة والعدالة . إنهم يبغون الخير للجميع .

وكان قلبها يتمزق وصدرها يضيق ، وحنجرتها جافة عمومية ؛ وفي أعماق أعماقها كانت تولد كلمات حب شامل ، يسع الأشياء كلها والكائنات كلها ، كلمات تحرق فيها وتزدحم على شفتيها وهي تنامي قوة وسهولة .

وكانت ترى أنهم يصغون إليها جميعاً صامتين ، وتذكر أنهم كانوا يفكرون وهم يتألبون حولها ؛ وكانت تنمو فيها رغبة ، توضحت الآن جيداً في وعيها ، رغبة في أن تدفعهم إلى هناك ، نحو ابنها ، نحو اندريه ، نحو أولئك الذين تركوا في أيد الجند ، وخلقوا وحدهم .

واستأنفت كلامها بهدوء وقوة ، وهي تنقل بصرها فوق الوجوه المتجهمة المتربصة :

لقد انطلق ابنائنا بالعالم نحو الفرحة ، يحدهم الحب للجميع ، الحب للحقيقة ، حقيقة يسوع . إنهم يحاربون كل ما يستخدمه الأشرار فينا والخداعون والشبهون من وسائل ليقنوا سجناء ، ليمثلونا بالأغلال ، ليسحقونا . من أجل الشعب كله يا أصدقائي يثور شبابنا ، بل دمنا . من أجل العالم بأجمعه ، من أجل العمال جميعاً ينطلقون ، فلا تتخلوا عنهم ولا تتنكروا لهم . لا تدعوا أبناءكم يسرون في طريقهم وحدهم . إرأفوا بأنفسكم . ثقوا بقلوب ابنائكم ، فهم يصنعون الحقيقة ، ومن أجلها يموتون . ثقوا بهم .

وخفت صوتها وترنحت خائفة القوي ، وامتدت يدها إلى خصرها تسندها . وصاح واحد من بين الجمع ، مقتنع النبرة منفعل :

ان صوت الله هو الذي يتكلم ، صوت الله أيها القوم ، فأصغوا إليه .

وصاح آخر مشفقاً : لقد صمتت المسكينة .

انها لم تصمت ... ولكنها تصفنا نحن ، فيا لنا من سفلة ... أفهمت ؟

وتهادى فوق الجمع صوت مرتعش حاد النبرة .

أيها المؤمنون .. ماذا فعل ابني متري ... هذه الروح النقية ؟ ... إنه

تبع رفاقه ، رفاقه الاعزاء ...

انها تقول الحق ، فلم نتخلي عن ابنائنا ؟ وأي اذى الحقوه بنا ؟

وقال سيزوف : عودي إلى منزلك يا بيلاجي . اذهبي فأنت مرهقة .

وكانت شاحبة الوجه .

وكان هو أيضاً شاحب الوجه ، ترتعش لحبته المشعثة ، وفجأة ، قطب حاجبيه ، وحج الجميع بنظرة قاسية ، ثم انتصب ، وقال بنبرة واضحة :

لقد سحقت إحدى الآلات في المعمل ولدي ماثيو ، انتم تعلمون ذلك ، ولكنه لو كان على قيد الحياة ، لدفعته بنفسه إلى صفوفهم ، ولأرسلته ليكون معهم ، ولكنك قلت له :

انطلق انت أيضاً يا ماثيو ، إنها قضية عادلة . انطلق وأد واجبك .

وتوقف عن الكلام ، أما مستمعوه فقد كانوا صامتين متجهي الملامح ، يسيطر عليهم إحساس عظيم جديد ، لم يعد يرهبهم . ورفع سيزوف ذراعه ، ولوح به ثم أردف :

إن من يخاطبكم رجل مسن . إنكم تعرفونني ، فأنا أعمل هنا منذ تسع وثلاثين عاماً ، وقد أنسلخ من عمري في هذا العالم الدنيء ثلاث وخمسون . لقد قبضوا اليوم من جديد على حفيدي ، وهو فتى ذكي انيق كان يسير في الطليعة ، بجانب فلاسوف وراء العلم مباشرة .

ولوح بذراعه ثم انحني فأمسك بيد الأم :

هذه السيدة قالت الحقيقة .. إن أبناءنا ينشدون العيش الشريف الذي يرضيه العقل . ولقد تخلينا نحن عنهم ، أجل ... لقد هربنا ... اذهبي يا بيلاجي .

وقالت بيلاجي وهي تترن إلى الجمع بعينها اللغائتين بالدمع :

يا أصدقائي الطيبين . لقد أوجدت الحياة من أجل الأبناء ، والأرض من

أجلهم صنعت .

فقاطعها سيزوف وهو بناولها حطام السارية :

خذني هذه العصا يا بيلاجي ، وهيا .

وكانوا يرمقون الأم بألم يمازجه الاحترام ، وتسير هي وقد أحيطت بجو من

التعاطف ، ورشق لها سيزوف - وهو صامت - طريقاً بينهم ، فيفسحون الطريق دون ان تتدّ عنهم كلمة ، ثم يسرون وراءها على مهل تدفعهم قوة سحرية ، ويتبادلون العبارات القصيرة بهمس .

وعند باب منزلها استدارت نحوهم وهي تنوكتا على جذع السارية ، فحينئذ وقالت لهم ممتنة : شكراً لكم .

وتذكرت الفكرة ، الفكرة الجديدة الحبيسة في صدرها فقالت :

- ما كان سيدها المسيح ليكون لو لم يت الناس في سبيل مجده .

وكان مشيعوها يمدقون بها صامتين ، فانحنت لهم ثانية ، ودخلت منزلها ،

ودخل وراءها سيزوف بحني القامة ، وظلوا في مكائهم يتبادلون الرأي ، ثم لم يلبثوا ان تفرقوا ببطء .

القسم الثاني

وعامت ، بقية نهارها ، في ضباب أرقط من الذكريات ، في خضم من الاعياء الثقيل يرهق الجسد والروح معاً ، وكان الظل الأغبر ، ظل الضابط الصغير ، يتراقص أمام عينيها ، ووجه يول البرونزي يتألق ، وعينا أندريه تبتسمان .
وكانت تذرع الفرقة بخطاها ، ثم تجلس قرب النافذة ترفو الى الشارع ، ثم تعود الى المشي مقطبة الجبين ، وتطرح عينيها ، على ما حولها مضطربة كأنها تبحث ، وهي فارغة الرأس ، عن شيء لا تدري ما هو .

وشريت ... ولكن الماء لم يطفئ غلتها ، فهي لا تستطيع ان تخمد في صدرها تلك الجذوة المتأججة التي تذيبها ، جذوة القلق والشعور بالمهانة .
لقد انشطر نهارها الى شطرين ، كان للأول منها معنى ومحتوى ، اما الثاني فقد جرد من كل معنى ... فالفراغ البائس يتشاءب في وجهها ، والسؤال الذي لا جواب له ينخرها : ماذا ستفعلين الآن ؟

وأقبلت عليها ماري كورسونوف فتحدثت بانفعال ، وصرخت وبكت ، وهاجت ضاربة الأرض بقدمها ، واقترحت ، وعاهدت على ما لا تدري وهددت من لا تدري ، ولكن الأم ظلت ، ورغم ذلك كله ، جامدة . وتعالى صوت ماري صخاباً :

- أرايت ... ؟ لقد أقلقهم هذا ... لقد ثار العمل ... ثار بكامله . وكانت بيلاجي ترد عليها بهدوء وهي تهز رأسها : « أجل ، أجل ، ويصرفها الجامد يستعيد ما استحالك اليه الماضي ، وما انشطر منها ومضى مع يول واندرية . وكانت لا تقوى على البكاء قلبها مهصور لا دمع فيه ، وشقتها أيضاً يا بستان ، وقها جاف من العباب ... وكانت يداها ترتجفان ، وورعشات خفيفة تجمد ظهرها .

وفي المساء جاء الجند ؛ فاستقبلتهم دونما دهشة او خوف ، دخلوا بضوضاء وملاحمهم تنطق بالبهجة والاكتفاء ، وقال لها الضابط الشاحب الوجه مدندناً :
- كيف حالك ؟ هذه هي المرة الثالثة التي نلتقي بها ، أليس كذلك ؟
ولاذت بالصمت وهي تمسح بلسانها الجاف شفتيها .

وثرثر الضابط كثيراً بلهجة اعتداد ، وشعرت انه كان يحبه لذة كبرى في ان يصغي الى ما يقول ، ولم تكن كلماته تبليغ اذنها ، او تثير فيها الاضطراب ، ولكنها جمدت عند الباب حينما قال لها :

- إنك مجرمة ايتها الأم لأنك لم تعلمي ابنك احترام الله ... والقيصر .
- أجل ... ان ابناؤنا هم قضاتنا ، وسيحاكموننا بعدل ، لأننا تخلينا عنهم في هذه الطريق ...

وضرخ الضابط : ماذا تقولين ؟ ارفعي صوتك قليلاً .
فرددت الام وهي تزفر : اقول ان قضاتنا هم ابناؤنا .
وراح الضابط يعظ بصوت سريع حائق ، ولكن إصعاص كلامه لم يكن يلامس سمع الأم .

وكانت ماري كورسونوف قد دُعيت كشاهدة . وكانت تقف الى جانب الأم دون ان تنظر اليها ؛ وكانت اذا ما وجه الضابط اليها سؤالاً انحنت بأفراط واجابت بصوت رتيب :

- لا ادري يا صاحب السعادة . انني امرأة جاهلة اهتم بتجارتي بالقدر الذي يسمح به غيائي . إني لا اعرف شيئاً ابداً .

وينهر الضابط وهو يحرك شاربه :

- حسناً ... اخوسي .

فتتحني وتوشوش في اذن بيلاجي وهي تهز انفها له .
وأمرها بتفتيش الأم فحملت به يعينين زائعتين وقالت بلهجة مذعورة :
- لا اعرف كيف اقتشها يا صاحب السعادة .

فركل الضابط الأرض بقدمه وراح يصرخ ، فأطرقت هي برأسها وقالت

ويشاركه في الانشاد صوت اندريه :

- أيها المعذبون في الارض هبوا .

وكانت تعبر امام الائمة ، وترنو الى ابنها ، ويدها فوق جبهتها . وكان ظل
الفتى يتراءى واضحاً في زرقه السماء الغامقة ، فتعجب من اقتراب منه ، لأنها كانت
حاملاً ، وعلى ذراعيها طفل آخر .

وتابعت طريقها فرأت في الحقول اولاداً يلعبون الكرة . لقد كانوا كثيراً
وكانت كرتهم حمراء ، ومد الطفل الذي كانت تحمله ذراعيه نحوهم ، وراح يبكي
بعنف ، فألقته ثديها ، ونكصت على عقبيها ، فاذا الهضبة تمور بالجند وقد شرعوا
حرايبهم في وجهها ، فاسرعت تعدو نحو كنيسة تقوم في وسط الحقول ، كنيسة
بيضاء خفيفة كأنها إنما صنعت من غمام ، سامقة بلا تساق . وكان هناك مآتم ،
والنعش أسود كبير مسمر الغطاء ، وكان الكاهن وشماسه يطوفان بالكنيسة
وهما يرتديان الملابس البيضاء ويرتلان :

« وُبعث يسوع من بين الاموات »

وهوَم الشماس بالمبخرة وحيها ثم خرج . لقد كان ذا شعر أشقر متألّق ،
ووجهه طلق الحيا كوجه سامو الوف . ومن أعلى القبة كانت أشعة الشمس تنهمر
عريضة كالمناديل ، واطفال على جانبي الجوقة يرتلون بعدوبة :

« وُبعث يسوع من بين الاموات »

وفجأة صاح الكاهن وهو يتوقف في وسط الكنيسة :

- اقبضوا عليهم .

واختفى وجه الكهنوتي ، ونبت في وجهه شاربان رهيبان وخطهما الشيب ،
فولى الجميع الادبار ، حتى الشماس الذي رمى المبخرة في احدى الزوايا واحتضن
رأسه بيديه كما يفعل البيورومي ، وألقت الأم طفلها تحت اقدام المؤمنين ،
ولكنهم كانوا يتحاشون ان يطأوه وهم يتراكضون ، وكانوا يلقون على الجسد
الصغير العاري نظرات مذعورة ، في حين كانت تركع وتتوسل اليهم :

- لا تتركوا الطفل ... خذوه معكم .

للأم بهدوء :

- إذا فكّي ازرارك يا بيلاجي .

وقشقتها ، وتحسست ثيابها ، وتساعد الدم الى وجهها فهمت :

- يا لهم من كلاب .. اليس كذلك ؟!

وصاح الضابط بجدة ، وهو يحدق حيث كانت يدها :

- بماذا تهسين ؟

فصغمت يجزع : إنها قضية نسائية يا صاحب السعادة .

وعندما امر الأم بتوقيع المحضر رسمت بيد غير حاذقة ، وبخط مطبعي

أحرفاً ضخمة واضحة : « بيلاجي فلاسوف ، ارملة عامل . »

فصاح بها ، وعلى فمه ملامح الازدراء :

- ماذا كتبت ؟ ولماذا ؟

ثم غمغم : وحوش .

وانصرف الجند ، فجلست امام النافذة ويدها فوق صدرها ، وعيناها
مسمرتان على اللاشيء ، ولبثت في مكانها هذا زمناً طويلاً وقد شال حاجبها
وانطبقت شفتاها . لقد كانت تشد فكها كما لو كانت تشكو ألماً شديداً في
اسنانها ، ولم يكن في المصباح زيت ، فراح يجبو محسراً ، فنهضت اليه ونفخت
ذباته ، وغرقت في الظلام .

وملأ صدرها ، كالسحابة القائمة ، تلبد مغموم ضيق عليها انفاسها ، وظلت
على هذه الحال ، حتى دب الأعباء في ساقها وعينيها .

وسمعت مارياً تنادها وهي تحت النافذة بصوت نهمور :

- اتنامين يا بيلاجي ؟ نامي يا شهيدتي المسكينة .

وتمددت فوق سريرها دون ان تنضو عنها ثيابها ، وسرعان ما غرقت في سبات
عميق كأنما قد لفها أعصار .

ورأت في المنام هضبة للرمل الصفراء ، على طريق المدينة ، عبر المستنقع ،
وفي اعلى المنحدر الذي يؤدي الى حفائر الرمل كان يقف بول ، وينشد بتؤدة ،

وينشد البيوروسي باسمًا ويداه وراء ظهره :

« وبعث يسوع من بين الاموات »

وتحنى هي فلتلقت الطفل ، وتضعه في عربة من خشب ، ويسير نيقولا الى جانبها ببطء ويقول ضاحكاً :
— لقد كُلفتُ بعمل شاق .

وكان الشارع موحلاً ، والناس يطولون من النوافذ فيصفرون ويصرخون ويؤشرون ، والنهار يبدو صافياً ، وشمس ملتبهية تتأجج في السماء ، ولم يكن هناك اي ظل ... وكان البيوروسي يقول :
— غنيّ أبنتها الأم الصغيرة ، فهذه هي الحياة .

وكان هو يغني فيطغى صوته على كل ضجيج ، وكانت هي تسير في اثره ، فزلت بها القدم ، فجأة ، وهوت إلى حفرة لا قرار لها ؛ وكانت هذه الهوة تعوي كلما اقتربت منها .

وأفاقت من حلمها تزلزلها رجفة ، كأن يداً ثقيلة غليظة قد اطبقت على قلبها فعصرته بتؤدة في لعبة قاسية . وكانت صافرة العمل تزعق باصرار ، فعرفت انها كانت تزعق زعقتها الثانية . وكانت الكتب في غرفتها تثوي متناثرة بشكل فوضوي ؛ وكل شيء مبعثراً مكديساً ، وارض الغرفة متسخة من اقدام الجنود .

ونهدت تعيد الى الغرفة نظامها دون ان تستحم او تؤذي صلاتها ، فوقعت عينها في المطبخ على سارية العلم والمزقة الحمراء من القماش القطني ، فتناولتها بحنق ، وهمت بأن تطرحها تحت الموقد ، ولكنها انتزعت المزقة الباقية من العلم ، وانتزعتها زافرة وطوتها بعناية ، ثم دستها في جيبها ؛ وحطمت بقايا السارية على ركبتها ، والقت نثارها في صندوق الحطب ؛ وغسلت بعد ذلك النافذة وارض الغرفة بماء دافق ، واشعلت النار لاعداد الشاي ، ثم ارتدت ثيابها وجلست في المطبخ امام النافذة ، ومثل امامها من جديد ، سؤال السهرة بالامس :

— والآن ... ماذا افعل ؟

وتذكرت انها لم تصلي بعد ، فلبثت منتصبه امام الايقونات بضع لحظات ثم

جلست وقلبها مليء بالفراغ .

وفي الخارج كان يخيم هدوء غريب كأن الناس الذين اسرفوا عند العشية في الصراخ بالشوارع يحتبثون الآن في منازلهم ، ويفكرون بصمت في نهارهم العجيب . وتذكرت فجأة منظرًا كانت قد شاهدته في أحد أيام طفولتها :

ففي الحديقة القديمة التي يملكها آل زاوو سايلوف كانت تمتد بحيرة تغطيها أزهار النيلوفر . وصدف ان مرت هي من هناك في يوم ربيعي أغبش ، فأبصرت في وسط البحيرة زورقًا . وكانت البحيرة هادئة الصفحة مربدة ؛ تشد الزورق الى مائها الأسود بزينتته الكثيبة من الاوراق المصفرة . وكانت دفقة من أسى عميق يحزن مجبول تتثال منه ، من هذا الزورق الذي لا مجاديف له ولا مجدف ، والذي تسمّر فوق الماء الكثيف بين الاوراق الميتة .

واطالت بيلاجي الوقوف هنا ، وكانت تتساءل عن استطاع ان يقذف الزورق بعيداً عن الضفة ، وعن الغاية من ذلك .

وفي مساء ذلك اليوم شاع بأن زوجة وكيل القصر قد غرقت في البحيرة وهي سيدة صغيرة ذات مشية متمجلة وشعر فاحم دائم التلعث .

... وفركت الأم عينها ؛ وانزلت الى ذهنها ذكرى احداث العشية واجتاحت هذه الاحداث تفكيرها ، فجمدت طويلاً في مقعدها ، وعيناها مثبتتان على قذح الشاي الذي كان قد برد ، وفي داخلها تضطرم الرغبة في ان ترى انساناً ساذجاً وذكياً ، وان تسأله كثيراً من الأمور .

وكان نيقولا ايفانوفيتش الذي جاء بعد الظهر ، إنما جاء ليحقق لها أمنيتها . ولكنها ما كادت تراه حتى تملكها الكتابة بغتة ، ودون ان ترد تحيته قالت له بصوت خفيض :

— لقد اخطأت يا عزيزي بمجيئك الى هنا . إنه تهور منك ، فسيفقتلونك حتماً إذا ما رأوك .

وشد على يدها بقوة ، وركز نظارتيه جيداً ثم قال لها بكلمات قليلة عجلية وهو يدي وجهه من وجهها :

- لقد اتفقنا ، بول واندرية وأنا ، ان آتي في الغد ، إذا ما أوقفنا ، لأهيه
لك الإقامة في المدينة .

وكان يتكلم بصوت وهود مشتت ، ولكنه لم يلبث ان عاد فساءها :
- هل جاؤوا للتفتيش ؟

- اجل ، وبجثوا في كل مكان وقتشوني . هؤلاء القوم لا حياء عندم
ولا ضمير .

وقال نيقولا وهو يهز كتفيه :

- ولماذا يكون عندم حياء او ضمير ؟

ثم اخذ يشرح لها الاسباب التي لمن اجلها يجب ان تنتقل الى المدينة . وكانت
هي تصغي بودة الى صوته المغمم بالتوسل ، وترنو اليه وعلى ثغرها ابتسامة باهتة .
صحيح . إنها لم تكن تفهم جيداً حاجته ، ولكن ما كان يدهشها هو تلك الثقة
التي يوحى بها الى نفسها .

- عندما يريد بول ، واذا لم يكن في ذلك إزعاج لك .

- لا تقلقي لذلك ، فأنا أعيش وحدي ، وليس هناك إلا شقيقي التي لا تأتي
إلا لماماً .

- ولكنني أريد ان اكسب عيشي ؟

- سيها لك عمل إذا شئت .

وكانت فكرة العمل ، مرتبطة بالنسبة لها ، ارتباطاً وثيقاً لا انفصام له بنوع
النشاط الذي يبديه ابنها واندرية ورفاقها ، فاقتربت من نيقولا وسألته وهي
تحدق في عينيه .

- هل سيها لي عمل ؟

- ان مشاغلي المنزلية ضئيلة فهي مشاغل أعزب .

- لست اقص هذا النوع من العمل .

ثم أطلقت زفرة تأثر لأنه لم يفهمها ، أما هو فقد ابتسمت عيناه الحسرتان
وقال حالماً :

- حبذا لو استطعت ان تحصلي من بول ، عندما تقابلينه ، على عنوان اولئك
المزارعين الذين طلبوا جريدة .

وصاحت بفرح :

- إني اعرفهم ، وسأعثر عليهم ، وسأعمل كل ما تكلفوني به . من سيفكر

أني أنقل نشرات ممنوعة ؟ ... الله وحده يعلم كم حملت منها الى العمل .

واشتهت ان تنطلق ، لا تدرى الى أين ، عبر المسالك الواسعة والغابات
والقرى ، وجراها في كتفها ، وعصاها في يمينها ؛ ثم قالت .

- أتوسل إليك أيها الصديق العزيز ان تكلفوني بهذه المهمة ، فسأنتقل أنتي

تشارون ، وسأهتدي الى الطريق في المقاطعات كلها . سأمشي دون ملل صيفاً

وشتاءً الى ان الاقي حتفي كحاج في طريقه الى كعبته . أليس مثل هذا المصير

شيئاً احسد عليه ؟

... ولفتها سحابة من الغم عندما تخيلت نفسها دون منزل ، شريدة تطلب

الصدقة باسم يسوع تحت نوافذ الأكوخ الخشبية .

وتناول نيقولا يدها بلطف وداعبها بأامله الحارة ثم قال وهو يتطلع

الى ساعته :

- سنتحدث عن هذا فيما بعد ،

- يا صديقي الطيب إن أبناءنا الذين يحتلون في قلوبنا المقام الأعلى يضحون

بمخربتهم وحياتهم : إنهم يقضون محبهم دون ان يتحسروا على أنفسهم فهل

أتوانى أنا كأهم ، هل أتوانى عن عمل مها كان ؟

وشحب وجه نيقولا ، وقال همساً وهو يرنو إليها باهتمام وملاطفة :

- هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها كلاماً من هذا النوع .

ورددت وهي تهز رأسها بأسى :

- ماذا أستطيع أن أقول ؟

ثم أرخت ذراعها في حركة إعياء وأردفت :

- ليت لي الألفاظ التي أستطيع ان اعبر بها عما في قلبي كأهم .

ونفضت مدفوعة بقوة كانت تتنامى في صدرها ، وتسكرها بفيض من القول الخائق :

- هناك كثير من الناس سييكون ؛ حتى اللثام ، حتى الكائنات التي لا ضمير لها . ونفض نيقولا بدوره ، ونظر الى ساعته ثانية :
- لقد قضي الأمر ... ستأتين للإقامة معي .
وهزت رأسها بسكون .

- متى ؟ في اقرب وقت ممكن .

ثم أضاف برقة : في الحقيقة ، سأكون قلقاً من اجلك .

ورمقته بدهشة وتساءلت : اية خدمة يطمع في ان تؤديها له ؟ .. وكان هو يقف امامها مطأطء الرأس محدودباً حاسر البصر ، وعلى شفثيه بسمه ارتباك ؛ وكان يرتدي سترة سوداء متواضعة ، ويبدو كل ما يرتديه مستعاراً .
وسألها يجين :

- هل معك دراهم ؟

- كلا .

وأخرج محفظته من جيبيه بسرعة ، وفتحها ثم قدمها إليها :

- خذي ، إذا شئت .

وارتسمت على شفثيتها إبتسامة طاغية وقالت :

- لقد تغير كل شيء ولم يعد للمال قيمة في نظركم . إن الكثيرين يزعمون ارواحهم في سبيله اما انتم فإنه بالنسبة لكم شيء غير ذي بال ، ويقال انكم لا تحتفظون به إلا لتساعدوا الآخرين ...
وضحك نيقولا يهدوء :

- ياله من هنة كثيرة الإزعاج ، مثيرة للاشمئزاز ، احتواؤها بضايق ، وبذلها كذلك .

ثم اخذ يدها وضغطها بقوة وردد :

- ستأتين في اقرب وقت ممكن .. أليس كذلك ؟

ومضى يهدوء كعادته ، وفكرت وهي تشيخه :

- إنه رجل شديد الطيبة ... ولكنه لم يشفق علينا .

ولم تستطع ان تميز ما إذا كان ذلك باعثاً على اشمئزازها ... ام انها لم تحس به إلا لفرط دهمتها ؟

- ٢ -

.. ورحلت في اليوم الرابع بعد زيارة نيقولا ، وعندما خرجت العربية التي كانت تحملها وحقيبتها ، عندما خرجت من الضاحية الى رحابة الريف ، تلفتت ، وأحست فجأة انها كانت تهجر الى الأبد هذه الربوع حيث تصرمت أقم قفرة من حياتها وأحفلها بالألم ، وأن حياة اخرى قد بدأت ، وعهداً مليئاً بأحزان جديدة قد بدأ يلتهم الأيام بسرعة .

وكم تكبوت ضخم غامق الحمرة كان العمل ينشلق على الأرض التي سودها الهباب ، شائخاً بمداخنه نحو السماء ، ومن حوله كانت تزدهم المنازل العمالية الصغيرة ذات الطبقة الواحدة .

لقد كانت هذه المنازل كمداء مستطيلة ، تنتشر متكاثفة على ضفة المستنقع ، ويرثو بعضها الى بعض باشفاق عبر النوافذ الصغيرة الباهتة : وفوقها كانت تنتصب الكنيسة حمراء غامقة اللون كالمعمل تماماً ، إلا ان قبة جرسها كانت دون مداخنه علواً .

وزفرت الأم ، وحلت قبة قميصها التي كانت تضغط على عنقها ، ودندن سائق العربية وهو يلسع بالأعنة ظهر الجواد :

- هيا ... تقدم .

وكان هذا السائق أعوج الساقين نادر الشعر ناصله ، لا يمكن تحديد عمره ، وليس لعينيه أي لون ؛ وكان يسير وهو يلحج الى جانب العربية ، فيخيل لمن يراه ان هدف الرحلة لم يكن ليعنيه في شيء أبداً .

- هيا .

وكان يلفظها بصوت ابيض ، وهو يطم ، بشكل مضحك ، ساقيه المعقوفين
الذين ينتعلان حذاءين ثقيلين تغطيها طبقة من الوحل الجاف . . ألفت الأم نظرة
خاطفة على ما حولها ، فإذا الحقول خاوية كنفسها .

وكان الجواد يحرك رأسه بشكل محزن ، وهو يفرز حوافره بتناقل في الرمل
الكثيف الذي ألهبته الشمس والذي كان يصرخ ، وكانت العربية الخلمة السيدة
التشجيم تصر ، وكانت هذه الضوضاء كلها تثور مع الغبار وراء السيدة المسافرة .
وفي طرف المدينة ، في شارع مقفر بالقرب من سرادق اخضر كان نيقولا
ايضا نوفيتش يقيم في منزل مؤلف من طابقين : منزل كالح عتيق مشرف على
الأنهار . وكانت تنبسط امام هذا المنزل حديقة صغيرة ظليلة ، وكانت اغصان
الليلك والطلح وأوراق الحور الطرية الفضية ، تلقي نظراتها الخنون من نوافذ
الحجرات الثلاث لهذا المسكن .

وكانت الحجرات صامتة نظيفة ، والظلال المسننة تتراقص خرساء على
الأرض ، وعلى الجدران كانت تمتد رفوف مثقلة بالكتب ، تحت صور لشخصيات
قاسية الملامح .

وسأل نيقولا الأم : أيطيب لك المقام هنا ؟

سألها ذلك ، وهو يقودها الى غرفة صغيرة ، تطل إحدى نوافذها على
الحديقة وتطل للثانية على الساحة حيث يتنامى العشب خصباً ، وكانت جدران
هذه الغرفة ايضاً مليئة بالمرايا والرفوف المثقلة بالكتب .

وقالت الأم : يعجبني المطبخ اكثر فهو نظيف ومشرق !

وبدا لها كأن نيقولا يتخوف من شيء ما ، ولكنه عندما حاول ، بارتباك ،
ان يصرف اهتمامها عن المطبخ ونجح في ذلك ، استعاد مرحه فجأة .

وكان يشيع في الحجرات الثلاث جو خاص يشعر المرء معه بأنه يستنشق
هواء خفيفاً عذبا ، ولكن الصوت فيه يتضاءل ويخفت بصورة لا إرادية ، فلا
تراودك الرغبة في ان تتحدث عالياً ، أو ان تعكر صفو التأمل ، تأمل
الشخصيات التي ترمقك من اعلى الجدران وهي منقبضة الملامح .

وقالت الأم بعد أن جسست تراب الأصص في النوافذ :

— يجب ان تسقى هذه الأزهار .

ورد رب المنزل ، وفي ملاحظه سيئه المذنب :

— أجل ، أجل . أنت تعلمين إني احب الأزهار ، ولكن ليس لدي متسع

من الوقت للاهتمام بها .

ولاحظت بيلاجي ان نيقولا كان يسير حتى في منزله الرغيد ، مجذرو وشروء ،
كأنه غريب عن كل ما يحيط به ، وكان وهو يركز نظارتيه بأنامل يده اليمنى
الدقيقة ، يدي وجهه من الأشياء التي يراها ، ويرنو اليها بطرف عينه ، ثم يحمد
بصره ، في استنطاق اخرس ، على ما كان يثير اهتمامه منها .

وكان احياناً يأخذ هذا الشيء بين يديه ويدنيه من وجهه ويتحسسه بعينيه في
عناية ، حتى ليخيل لمن يراه انه يدخل منزله لأول مرة كالألم ؛ وأن كل ما في
الحجرة غريب عنه ؛ وأنه مثلها ، لم يتعوده من قبل ، وكانت هي تسير وراءه
محاولة ان تحدد في ذهنها مكان كل شيء ؛ وتساءله عن اسلوب حياته فيجيبها
بلهجة رجل لن يلتمس الغفران لأنه لم يتصرف كما يجب ان يتصرف ، بل لأنه لا
يعرف ان يتصرف خلاف ذلك .

وسقت الأزاهير وجمعت دفاتر الموسيقى التي كانت مبعثرة على البانوا ،
جمعتها في ترتيب بديع ، ثم تطلعت الى ابريق الشاي وقالت :

— ينبغي ان انظفه .

ومسح بيده المعدن الباهت ، ثم تفحصه بتعال وهو يدينه من انفه ، اما
الأم فقد كانت تبتمس ابتسامة سماح .

وعندما اضطجعت واستعرضت نهارها رفعت رأسها عن الوسادة مدعورة .
لقد كانت تجدد نفسها للمرة الأولى في حياتها تحت سقف أجنبي دون ان
يضايقها ذلك .

وفكرت في نيقولا بكثير من الاهتمام ، وسيطرت عليها رغبة في ان تفعل
كل ما تستطيع لتساعده ، ولتدخل الى حياته قليلاً من دفء العاطفة . وكانت
شديدة التأثر ببساطة مضيفها ، وسوء تديره المضحك ، وبعده عن كل ماهوتنظيم

علمي ، كما كانت شديدة التأثر بعينيه الصافيتين المعبرتين اللتين تترج فيهما الطفولة والأثران معاً ، ثم وثب تفكيرها الى ابنها ، واستعدادت من جديد يوم أول أيار الذي بدا لها ملفعاً بأصداء جديدة ، ومعنى جديد . وكان أسي هذا النهار ، بنوع خاص كالنهار ذاته لا يجني الهام نحو الأرض كالصفعة التي تنهك المصفوح وترميه بالبله ، بل كان يشحن القلب بألف وخزة ، ويشير فيه غضباً هادئاً يقوم الظهر المقوس .

— لقد خرج أبنائنا الى العالم .

هكذا كانت تفكر ، وهي تصغي الى ضوضاء الحياة الليلية في المدينة ، تلك الضوضاء المختلطة التي تنزلق من نافذتها المشرعة ، متلعبة بأوراق الأشجار في الحديقة . لقد كانت تأتي من بعيد منهكة ضعيفة ، لتموت بهدوء في احضان الحجر . وفي الغد نهضت مبكرة فنظفت ابريق الشاي ، وأشعلت النار وربت أواني المطبخ دونما ضجيج ، ثم جلست في المطبخ تنتظر ان يستيقظ نيقولا ؛ وسمعت سعاله ، ثم خرج بعد قليل وهو يحمل نظارتيه بأحدى يديه ، ويقف بالثانية خنجرته . وبعد ان رد على تحية الصباح حملت الشاي الى غرفته ، في حين كان هو يغسل وجهه ، فينظاير رذاذ الماء على الارض ، وتتدحرج صابونته وفرشاة أسنانه وهو يمدم ساحتاً على نفسه .

وخلال الفطور راح نيقولا يقص عليها :

— لقد كنت امارس عملاً حزيناً في المديرية الاقليمية ، فأراقب كيف يسير مزارعوننا الى الدمار .

وابتسم ابتسامة المذنب ثم اردف :

— هؤلاء المساكين الذين انهكهم جوع مزمن ، يصرهم الموت قبل الأوان . إن اطفالهم يولدون ضعاف البنية ، ويموتون كما يموت البعوض في الخريف . لقد كنا نعرف ذلك ، ونعرف أسباب هذه الكارثة ، ولكن كل ما كنا نفعله ، في الحقيقة ، عندما نتفحص جيداً هذه الأسباب ... ان تقبض رواتبنا .

وسألته مقاطعة :

— وما هي مهنتك ؟ هل انت طالب ؟

— كلا .. فأنا معلم مدرسة . ان والدي مدير مصنع في « فيانكا » . اما انا فقد أصبحت مدرساً . لقد أخذت اوزع الكتب على القرويين ، فزججت في السجن وبعد خروجي منه عملت مستخدماً في مكتبة ، ولكنني لم اك حذراً اثناء عملي فيها ، فأوقفت ثانية ، وأرسلت الى « آر كانجل » ، وكانت لي مع الحاكم هناك ايضاً مضايقات ، فأبعدت الى مزرعة على شاطئ البحر الأبيض حيث لبثت خمس سنوات .

وكان صوته يرن هادئاً متزنأ في الغرفة المسرقة التي يفرقها نور الشمس . لطالما سمعت الأم قصصاً من هذا النوع ، ولكنها لم تك تدرك لم كان اصدقاء بول يروونها بكثير من الهدوء كما لو كان الأمر يتعلق باحداث محتومة لا يمكن تجنبها . وقال نيقولا : ستصل لليوم شقيقي .

هل هي متزوجة ؟

— إنها أرملة . لقد تُفني زوجها الى سيبيريا ، ولكنه هرب من منفاه ، ومات في الخارج منذ عامين ، مات مصدوراً .

— اهي اصغر منك سناً ؟

— انها تكبرني بست سنوات ، وأنا مدين لها بالكثير . ستسمعين غداً عزفها ، فهذا البيانو ملك لها كالكثير من الموجودات هنا ، اما الكتب فهي لي ...

— وأين تقيم ؟

— وأجاب باسم : في كل مكان . في كل مكان يحتاج الناس فيه الى مخلوقة جريئة ..

— وهل تهتم هي ايضاً بالقضية ؟

— هذا أمر لا ريب فيه .

وانصرف الى مكتبه في حين راحت الأم تفكر في « تلك القضية » التي يساندها الناس يوماً بعد يوم ، بعنادٍ ووعي ، وتشعر هي امامهم كأنها امام جبل في قلب الليل .

وعند الظهيرة أقبلت سيدة رشيقة مديدة القامة ترتدي ثوباً اسوداً وما كادت

الأم تفتح لها الباب حتى ألقى الزائرة الى الأرض بحقيبتها الصغيرة الصفراء ،
وراحت تحتضن بحرارة يد بيلاجي وهي تسألها :
- إنك والددة بول ... أليس كذلك ؟
وأجابت وقد ادهشتها الأناقة في مظهر السيدة :
- أجل .

وقالت السيدة وهي تنزع قبعتها امام المرأة :
- إنك تماماً كما تخيلتك فلقد كتب الي اخي بأنك ستأتين للإقامة معه . إنني
وبول صديقان منذ امد بعيد ، وكثيراً ما كان يحدثني عنك .
وكان صوتها أصم ، وكانت تتكلم ببطء ، ولكن حرارتها كانت تقيض حيوية
ونشاطاً ، وكانت تلوح في عينيها الواسعتين بسمة قنية صريحة ، وعلى صدغها تنداح
تجاعيد صغيرة ، وفوق اذنيها الدقيقتين تلمع كالفضة خصل من الشعر الأشهب .
وقالت : اني جائعة .. وبودي لو احتسي فنجان قهوة ...
وردت الأم : سأعده لك في الحال .
وفيما كانت تخرج المغلاة من الخزانة سألت بصوت خفيض :
- أضحى ان بول يتحدث عني ؟
- كثيراً ...

وسحبت السيدة علبة من جلد ، فأخذت منها سيجارة اشعلتها ، ثم سألت الأم
وهي تذرع ارض الحجره جيئة وذهاباً :
- أ أنت شديدة القلق عليه ؟
... وكانت الأم تنبسم وهي تتبع ببصرها هب المصباح الكحولي الأزرق
الذي كان يتراقص تحت المغلاة ؛ تنبسم وقد تلاشى قلقها امام هذه السيدة ، وغار
في اعماق نشوتها .

- إذا فابني الشجاع يتحدث عني ؟
ثم أردفت ببطء :

- إن الأمر لعسير بلا شك ، ولكنه كان من قبل اكثر سوءاً . أما الآن ...

فأعلم أنه ليس وحده .

وسألت وهي تركز بصرها في وجه الزائرة :

ت وما هو اسمك ؟

- صوفيا .

وكانت الأم تتأملها بدقة ، فلقد كان فيها شيء من التطرف والجرأة الشديدة
والاندفاع ... وكانت تتكلم برثوق :

- المهم ، ألا يمكثوا في السجن طويلاً .. إنهم سيحالون الى المحاكمة سريعاً ،
وعندما يصبح بول في المنفى فإننا سنمهد له السبيل الى الهرب ، لأننا لا نستطيع
ان نعمل هنا بدونه .

وحدقت الأم بصوفيا وهي لا تصدق ما تسمع ، في حين كانت هذه تبحث
عن مكان تلقي فيه عقب سيجارتها ، فاهتدت أخيراً الى أصيص أزهار ، طمرته
في ترابه .

- واعترضت الأم بصورة عفوية :

- إنك بذلك تؤذين الأزهار ...

فاعتذرت صوفيا : المعنرة . إن نيقولا يقول لي ذلك دائماً ...

ثم التقطت عقب السيجارة ، وقذفته من النافذة .

وشعرت الأم بالحرج ، فحدقت في عينيها وقالت لها بلهجة الخاطيء :

- اعذريني ، فلقد قلت ما قلت دونما تفكير . أ من شأنى أنا ان اوجه

إليك الملاحظات ؟

فأجابت صوفيا وهي تهز كتفها :

- ولم لا ما دمنا انا شديدة الامل ؟ هل القهوة جاهزة ؟ شكراً . ولكن

لم أعددت قديماً واحداً ... ألن تشربني ؟

وأمسكت الأم من كتفها فجأة ، وجذبتها إليها ، وسألتها بدهشة وهي

تحدق بها بإمعان :

- هل تشعرين بالضيق ؟

وأجابت بيلاجي باسمه :

- أوجه إليك الملاحظات ... ثم تسأليني هذا السؤال؟

ويدون ان تخفي دهشتها ، استأنفت ، كأنها إنما تخاطب نفسها :

- لقد حلت البارحة في منزلكم ... ومع ذلك فإني اتصرف كما لو كنت في منزلي . لا أخاف شيئاً ... وأقول ما أريد .

- يجب ان يكون الأمر كذلك .

واستطردت الأم :

- لا أدري أين هو مكان رأسي ، ولا أكاد اعرف نفسي . لقد كان عليّ في

الماضي ان ادور طويلاً حول الناس ، لأقول لهم شيئاً ما دوناً مواربة ... اما

الآن ... فإني اقتح صدري في الحال ، وأبوح دفعة واحدة بأشياء لم افكر بها

من قبل ...

وأشعلت صوفيا لفافة اخرى ، وكانت عينها الرماديتان تلقيان على الأم

نظرة مشرقة حنوناً .

وطرحت الأم هذا السؤال الذي كان يعذبها :

- أقلت أنك ستعدون العدة لفرار بول ؟ ولكن كيف سيعيش بعد ذلك ؟

وأجابتها صوفيا وهي تصب المزيد من القهوة .

- إنها لعبة صيبانية . سيعيش كما يعيش عشرات الفارين . لقد التقيت بواحد

منهم ، وأنا في طريقي الى هنا . إنه رجل نشعر بالحاجة الماسة إليه ، وقد

حكم عليه بالنفي خمس سنوات ، ولكنه لم يقض منها هناك سوى ثلاثة اشهر

ونصف فقط .

وحدقت بها الأم باسمه ، وقالت بصوت خفيض وهي تهز رأسها :

- آه ... أنه ذلك النهار ، اول أيار ، الذي سبب لي الاضطراب ... فأنا

اشعر اني لست على ما يرام ، كما لو كنت اسلك طريقين مختلفين في آن واحد :

ثارة يخيل اليّ اني أدرك كل شيء ، وثارة اجد نفسي فجأة كأني اغرق في الضباب ،

فأنت مثلاً حين انظر إليك الآن ، سيدة تنهكين في العمل من اجل القضية ،

إنك تعرفين بول ، وتقديره ، واني لاشكرك على ذلك ..

وقاطعتها صوفيا ضاحكة :

- إنك أنت التي تستحقين الشكر .

فأجابت الأم وهي تتنهد :

- ولم ... فأنا لم اعلمه كل هذا ...

ووضعت صوفيا لفافتها في طبق الفنجان ، وهزت رأسها ، فانتثر شعرها

الذهبي فوق كتفها في خصل كثيفة ، وخرجت من الغرفة وهي تقول :

- حسناً .. اعتقد انه قد آن لي ان أخلع ثيابي وأن أنضو عني كل هذه الأبهة .

- ٣ -

... وعاد نيقولا في المساء ، وتناولوا العشاء جميعاً ، وقصت صوفيا خلال

ذلك ضاحكة ، قصة الشريد الذي التقته وخبأته . لقد كانت تحشى الجواسيس ،

وتراهم في كل مكان ، وكان الرفيق الهارب مضحكاً حقاً . ولست الأم في لهجة

صوفيا شيئاً يذكرها بتبجح العامل الذي انجز عمله الصعب باتقان ، فبلأه السرور

لذلك .

وكانت صوفيا ساعتهذ ترتدي ثوباً خفيفاً فضفاضاً ، اشبهاً فضي اللون ،

وكانت تبدو به اطول قامه ، كما تبدو عينها اكثر تجهماً وحركاتها اكثر هدوءاً .

وقال نيقولا بعد العشاء :

- سيكون هناك مهمة جديدة تنتظرك يا صوفيا ؛ فأنت تعلمين اننا قررنا

إصدار صحيفة خاصة بالريف ، ولكننا فقدنا بسبب الاعتقالات الأخيرة ،

الصلة المباشرة ، وليس بمقدور أحد سوى بيلاجي ان يعثر لنا على الشخص

الذي سيتولى مهمة التغلغل في الريف . وعليك أنت يا صوفيا ان ترافقيها ؛

وليكن ذلك في اقرب وقت ممكن .

وقالت صوفيا وهي تمج سيجارتها :

- حسناً ، سوف نذهب .. أليس كذلك يا بيلاجي ؟

وفجأة استيقظت من اعماق أمسها المظلم ذكرى مهانة كان النسيان قد عفى
عليها منذ امد طويل ، وانبعثت الآن بوضوحها القاسي ؛ ففي ذات ليلة عاد
زوجها في ساعة متأخرة يتعمته السكر ، فأمسكها من ذراعها وألقى بها تحت
السريير وهو يركلها برجله قائلاً :

- اغربي من وجهي ايتها الجيفة فلقد سئمتك .
ولكي تنقي ضريانه ، انتزعت طفلها بعنف ، وكان في الثانية من عمره ،
وركعت تحتمي بالجسد الضاوي وتجعله مجتهد الوافي . وكان بول يبكي ، وينتفض
جسده العاري الذي ادقاه الرعب ، وكان ميشال يزجر :

- اغربي من وجهي ... اغربي من وجهي .
وتركض نحو المطبخ فتطرح ثوباً على كنفها وتلف الطفل بشالٍ ، ودونما
صراخ او شكوى ، تتطلق في الشارع حافية القدمين .

كان ذلك في ايار ، وجو الليل رطب ، والغبار البارد يلتصق بقدميها
ويتراكم بين اصابعها ، والطفل يبكي وينتفض ، وتكشف هي عن صدرها ،
وتشد ابنها إليه ، وتسير يطاردها الخوف ، وهي تهدده وتدنن ..
- او .. او .. او .. او ..

... ويقبل النهار ويتملكها الرعب والحجل من ان يراها الناس نصف عارية ،
فتنحدر نحو ضفة المستنقع ، وتجلس على الارض تحت اكمة كثيفة من شجيرات
الطور ، وتمكث هناك طويلاً وقد لفها الليل ، وتسمرت عينها المتسعان على
الظلمات ، وتهمد طفلها بجزع كسيرة القلب :

- او .. او .. او .. او ..
وفجأة يتحرك فوقها طائر اسود ، يتحرك بصمت ، ثم يطير نحو البعيد ،
فيطرد الكرى من عينها ، فتنهض ، وتتجه وهي ترتعد برداً ، نحو المنزل ،
ليستقبلها فيه الرعب الذي تعودت ، والضرب وسيل جديد من الشتائم .
وزفر ، للمرة الأخيرة ، نغم "فاتر" بارد ... ثم خمد .

واستدارت صوفيا ، وسألت اخاها بصوت خفيض :

- لم لا ؟

هل المكان بعيد ؟

- انه يبعد نحو اربعة وعشرين كيلو متراً تقريباً .

- هذا حسن . والآن اود ان اعزف قليلاً فهل تتحملين سماع قليل من

الموسيقى يا بيلاجي ؟

وأجابت الأم وهي تجلس في زاوية من المقعد :

- لا تسأليني رأيي ، بل تصرفي كأنني لست موجودة .

وكانت تلاحظ ان الاخ وأخته يحاولان - دون ان يظهر عليها انها يعيرانها

اي اهتمام - يحاولان ان يشركاها دائماً في حديثها .

- اسمع يا نيقولا ، هذه المعزوفة لفرييج ... لقد حملتها معي اليوم ...

اقفل النوافذ .

وفتحت دفتر الموسيقى ، ونقرت أنامل يسراها برقة أصابع العاج ، فتحررت
الأوتار في رنين ناعم كثيف ، وانطلقت في بادىء الأمر زفرة عميقة ثم تلاها نغم
آخر غني الرنة ، وتعالق من تحت أنامل ينها ، في رقة كثيفة ، صرخات
غريبة الشفافية ، ودمت الأنغام الواضحة ، واصطفقت اجنحتها فوق جهامة
الأنغام الخنيفة ، اصطفاق اجنحة العصافير المذعورة .

ولم تحرك هذه الموسيقى الأم ، في بادىء الأمر ، فقد كانت لا ترى في هذا
التتابع النغمي إلا خليطاً من الأصوات المتنافرة ، وكانت اذنها لا تستطيع ان
تحس اللحن المناسب في الذبذبة المعقدة ، ذبذبة ذلك الفيض من الأنغام ، بل
كانت تنو ، وهي نصف نائمة الى نيقولا الذي كان يجلس على الطرف الآخر من
المقعد الواسع ، وقد طوى ساقيه تحته ، وتأمل وجه صوفيا الصارم ورأسها
الذي تغطيه تنف كثيفة من شعرها الأشقر .

لقد كان خيط دافئ من شعاع الشمس يشعل هذا الرأس ، وينحدر الى
كتفها ، ثم يترامى على العاج ، ويرف تحت انامل العازفة ، ويعمرها ، وكانت
الموسيقى تملأ الغرفة شيئاً فشيئاً ، وقلب الأم يستيقظ على اللحن دون ان تشعر .

أخرى فتيّة مذهورة ثم تبددت سريعاً ، وارتفع من جديد صوت هادر مسعور
طغى على ما عداه ، صوت تسمع حين تسمعه ان سوءاً ما قد نزل ، ولكنه سوء
يثير الحقد ، ولا يثير الشكوى . ثم تبعه صوت آخر قوي حنون راح يتغنى
بأغنية بسيطة حلوة ؛ أغنية جذابة معبرة .

وأفعمت قلب الأم رغبة في ان تقول لمضيفها كلمة طيبة ، وكانت تنبسم
منتشية بالموسيقى ، وتحس انها تستطيع ان تكون بالنسبة إليها شيئاً مفيداً .
وأدارت عينها تفتش عما تستطيع ان تقوم به من عمل . ثم انسلت الى
المطبخ لتعد الشاي ؛ ولكن رغبته في ان تكون « شيئاً مفيداً » لم تتلاش .
وكانت وهي منهمكة في اعداد الشاي ، تتكلم وعلى شفيتها ابتسامة غامضة ،
كانها تود ان تعزي قلبها بكلمات يفيض منها الحنان الدافئ ، كلمات كانت
توجهها الى نفسها و الى رفيقها .

— إننا نحن ابناء الشعب ، نحس كل شيء ؛ ولكننا نعاني صعوبة في التعبير
عن احساسنا . إننا نخجل لإننا ندرك ، ولكننا لا نستطيع ان نبوح بذلك ؛
وكثيراً ما نشور بسبب هذا الضيق ، ضد افكارنا . إن الحياة نفسها تصفنا وتثخننا
جراحاً من كل جانب ، ونحن نود ان نتمتع بالراحة ، ولكن افكارنا تحرمنا عليناً ؛
وكان يقولوا يصغي وهو يمسح نظارته ، وكانت صوفيا تنو إليها وعينها
الكبيرتان مشدوهتان ؛ لقد نسيت لفاقها المتطفئة فلم تشعلها ، وكانت هي لا
ترال امام البيانو ، تتجه إليه بنصف كتلتها ، وكانت تمر بين الفينة والفينة ، اصابع
يناها الطوال الناعمة على اصابع العاج ، فيمتزج النغم ، حذراً ، بكلمات الأم
التي كانت تسارع فتكسو مشاعرها كلاماً بسيطاً مخلصاً .

— وما انذا الآن قد بدأت اقوى على الكلام عن نفسي وعن الآخرين مها
كان هذا الكلام نزرأ ؛ لاني بدأت افهم ، ولاني اصبحت قادرة على المقارنة ..
اما قبل الان فلم يكن عندي ما اقرنه . فالناس الذين يعيشون في ظروفنا
يجبون الحياة نفسها ، ولكنني الان ارى كيف يعيش الآخرون فأذكر كيف
كنت اعيش انا نفسي .. وفي هذا قسوة ومرارة .

— هل اعجبتك المقطوعة ؟

فأجاب وهو ينتفض كمن أيقظته المفاجأة :

— جداً ... جداً .

وكان صدى الذكريات يضح في صدر الأم ويرتعش ، وكانت هناك فكرة

تألاً خاطرها :

« هؤلاء قوم يعيشون بهدوء وانسجام رائع ، لا يتشاجرون ولا يملون

ولا يتخاصمون من اجل لا شيء ؛ كما هو حال الطبقة الدنيا من الشعب » .

وكانت صوفيا تدحن بكثرة وبلا انقطاع تقريباً ، وقالت وهي تعب الدخان

بعمق ، وتعزف من جديد لحناً خفيفاً حزيناً :

— لقد كانت المقطوعة التي عزفتها هي المفضلة لدى « كوستيا » المسكين ، لكم

كنت احب ان اعزفها له فهو ناعم ، شديد الحساسية ، منفتح الذهن .

وقالت الأم في سرها : « لا شك انها تفكر بزوجها » . ثم ابتسمت .

وتابعت صوفيا بصوت خفيض والألحان الخفيفة تواكب افكارها :

— اية سعادة منحيتها ، ولكم كان يعرف كيف يعيش !

وقال يقولوا وهو يمسد لحيته :

— اجل .. لقد كانت روحه تغني .

وقذفت صوفيا اللقافة التي كانت قد اشعلتها ، واستدارت نحو الأم تسألها :

— هل يضايك عزفي ؟

وأجابت الأم بشيء من الانفعال الذي لم تستطع إخفاؤه :

— لا تسأليني ، فأنا لا أفقه شيئاً مما تعزفين ، ولست هنا إلا لأسمع ،

ولأحتر الخواطر ...

وردت صوفيا : بلى ... يجب ان تفهمها ... فلا يمكن لأمرأة إلا ان

تفهم الموسيقى لا سيما إذا كانت معذبة .

ونقرت الأصابع العاجية بقوة ، فتعالت صرخة مرنان كصرخة من تلقى نبأ

مريراً اصابه في الصميم ، وانتزع من صدره الأنين الموجه ؛ وتجزت اصوات

وأردفت وهي تخفض من صوتها :

— ربما كنت اقول اشياء ليست كما يجب ان تكون ، وقد لا يكون في ذلك اي ضير لانكما تعرفان كل شيء .

وكانت الدموع تدرس الرعشة في نبرات صوتها ، وكانت تنز إليها وفي عينيها بسمه طيبة .

— ولكنني اود ان اشعر لكما قلبي .. لتريا اني لا اضر لكما إلا الخير .. وأجاب نيقولا برقة : إننا نعرف ذلك .

ولم تك بيلاجي بمستطيعه ان تشبع رغبتها في الحديث ، فحدثتها ايضاً عما كانت تراه جديداً بالنسبة إليها ، وعما كان يبدو لها ذا قيمة لا تقدر ، وراحت تقص عليها قصة حياتها ، حياة المهارة والعذابات المستسلمة ، تقصها بلا حقد ، وبسمه الأشفاق فتوقفت شفقتها ؛ وكانت تستعرض الشريط القائم لأيامها الحزينة وتحصي ما تلقته من ضربات زوجها ، متأثرة من تفاهة الأسباب الدافعة الى هذا الضرب ، دهشة لمجزها عن تفاديه .

وكانا يستمعان إليها بصمت ، يبحثانها تأثر عميق بهذه القصة الساخرة لانسانة عجمت ، زمناً طويلاً كالحيوان ؛ دون ان تنه عنها اية شكوى ، حتى تملكها الإحساس بأنها حقاً كذلك ، وكان يخيل إليها ان آلاف الناس ينطقون في لسانها . لقد كان كل شيء في وجودها تافهاً بسيطاً ، ولكن هذه التفاهة وتلك البساطة كانتا الطابع الذي تتميز به حياة عددٍ لا يحصى من الناس على وجه الأرض ، ولم يكن لقصتها هي إلا قيمة الرمز .

وكان نيقولا جامداً يسند رأسه براحتيه ، ومرفقه الى الطاولة ، ويرنو الى الأم من وراء نظارتيه ، بعينين تلمع فيها اليقظة ، اما صوفيا فكانت تستلقي على متكأ المقعد ، وتجتاحها بين الفينة والفينة رعشة ، وتهز رأسها مستنكرة . وكان وجهها يبدو اكثر نحولاً وأشد اصفراراً ، ولم تكن تدخن .

وقالت صوفيا بصوت خفيض :

— لقد اعتقدت يوماً بأني شقية ، وخيل اليّ ان حياتي ضرب من الحمى ...

وكان ذلك الشعور ينتابني . وانا في المنفى ، في قرية صغيرة بائسة من قري الاقليم حيث لا عمل يشغلي ولا تفكير لي إلا نفسي . وبوحي البطالة رحمت احصي مصائبي كلها واستعرضها :

لقد كان بيني وبين والدي الذي احبه خصاماً ، وكنت قد طردت من المدرسة ؛ وألحقت بي المهانة ، ثم ذقت السجن بعد ذلك والحيانة ، خيانة صديق كان عزيزاً عليّ ، ثم اوقف زوجي ، ثم دخلت السجن من جديد ونفيت ، ثم لم يلبث ان قضى زوجي نحبه ، وكنت أحسب عندئذ ان أشقى مخلوق على وجه الارض هو انا .. غير ان مصائبي كلها ، حتى ولو كانت عشرة اضعافها ، لا توازي شهراً واحداً من حياتك يا بيلاجي ... إذ أني للناس القدرة على تحمل ذلك التعذيب اليومي طوال سنوات مديدة !؟

وتنهدت الأم : انهم يعتادون ذلك .

وقال نيقولا وهو مطرق :

— اعتقد اني خبرت الحياة . لم يحدثني عنها كتاب ، ولا انطباعاتي المتناثرة ، بل اعرفها وجهاً لوجه . انها رهيبه . بتفاصيلها ، بتفاهاتها .. وحتى بتلك اللحظات التي تتكون منها الاعوام .

وكان الحديث يتشعب ويمتد ، ويعنف كاشفاً ملامح هذه الدنيا الجاحدة كلها ، وكانت الأم ، وهي غارقة في الذكريات ، تستخرج من ظلمات امسها ، المخازي اليومية وترسم اللوحة القائمة ، لوحة الهول الصامت حيث كان يفرق شبابها . وثابت اخيراً الى نفسها فقالت :

— أوه .. لقد اثقلت عليكما بثرثري ، وقد آن لكما ان ترحبا ؛ فلن يستطيع المرء في قليل من الوقت ، ان يروي كل شيء .

واستأذناها بصمت ، ولاحظت ان نيقولا قد انحنى امامها اكثر من المعتاد وشد على يدها بجمرة اكثر ، ورافقتها صوفيا الى حجرتها ، وقالت لها برقة وهي على العتية :

— ارحمني ... وتصبحين على خير .

وكان صوتها دافئاً ، ونظرها الدكناء تداعب وجه الأم .
واخذت الأم يد صوفيا في راحتها واجابت وهي تضغط عليها :
- شكراً لك .

- ٤ -

وبعد ايام قليلة رأى نيقولا الأم وصوفيا تظهران وقد ارتدتا اثواباً عتيقة
ورثة ، هندية الزبي ، وفي كتف كل منهما كيس ، وفي يدها عصا ، وكان هذا
الذي يظهر صوفيا أصغر سناً ، ويضفي على وجهها شحوباً وصرامة .

وحين ودع نيقولا شقيقته شد يدها بجسارة ، ورأت الأم مرة اخرى ان
الود القائم بينها تعمس إقامة الدليل عليه ، فلقد كانا لا يفدقان القبيل ، ولا
يتبادلان الالفاظ العاطفية ، ومع ذلك فقد كانا شديدي الوفاء ، يتم احدهما
بالآخر اهتماماً فائقاً ، اما هناك ، حيث كانت تعيش ، فان الناس يتماقتون
كثيراً ، ويقادون غالباً الكلمات الناعمة الرقيقة ، ولكن ذلك لا يمنهم من ان
يتناهشوا كالكلاب الجائعة .

وعبرت السيدتان المدينة بصمت ، وبلغتا الريف ، واندفتا جنباً الى جنب ،
في الطريق الواسع المهد المتد بين صفيين من اشجار الحور العتيقة .

وسألت الأم صوفيا : أما أن لك أن تتمي ؟

- انك تفكرين بأني لم اعتد الشمي ... انا اعرف ذلك .

وراحت صوفيا تحدث الأم بمرح عن نشاطها الثوري كأنها تباهي بنزوات
طفولتها . لقد كان عليها ان تعيش بأسم مستعار ، وان تستخدم هوية مزورة ،
وان تتنكر لتفقت من رقابة الجواسيس ، ولتحمل الى مدن مختلفة عشرات
الكيلو غرامات من الكتب المنوعة ولتنظم فرار الرفاق من المنفى ، ولتؤمن
لهم اجتياز الحدود .. ولقد كان في مسكنها هناك مطبعة سرية ، وعندما كان
الجند الذين يبلغهم النبأ ، يأتون للتفتيش ، كانت تجدد متسعاً من الوقت
لترتدي قبل وصولهم بلحظات ، زي خادمة ، تم تخرج فتلتقي « بصوفيا » عند

مدخل البناية : وتضي في قر الشتاء القاسي تجوب المدينة من اقصاها الى اقصاها ،
يدثرها معطفها ، ويغطي رأسها مندبل حريري صغير ، وفي يدها مصباح يترول .
وفي احدى المرات وصلت الى مدينة مجهولة لتحل في ضيافة اصدقاء لها ،
وكانت تتسلق سلم المنزل عندما لاحظت ان تفتيشاً يجري في منزلهم ، ولم يبق
لديها متسع من الوقت لتتكفيء الى الورا ، فطرفت بشجاعة باب المنزل الذي
تحتة وراحت ، وهي تدخل مع خقيبها بيت جماعة لا تعرفهم ، راحت تشرح لهم
بصراحة ، حقيقة الأمر وتقول بوثوق :

- انكم تستطيعون تسليمي للبوليس إذا شئتم .. ولكنني اعتقد انكم
لن تفعلوا ذلك ابداً .

ولم يم القوم ليلتئذ فقد ملأهم الرعب ، وكانوا يتوقعون في كل لحظة ان
يُطرق بابهم ، ولكنهم لم يقرروا ابداً تسليمها الى الجند ، بل شاركوها السخرية
منهم في صباح اليوم التالي .

وفي مرة اخرى كانت تستقل ، وهي متكررة في ثياب راهبة ، نفس القطار .
بل انها كانت تجلس في نفس المقعد ، الذي يشغله مراقب أوكل اليه امر القبض
عليها ، وكان يباهي بحذقه وهو يتحدث كيف اعد العدة لاصطيادها ، وكان
واقفاً من وجودها في القطار ، وفي مقاصير الدرجة الثانية ، لذلك كان يخرج
عند كل محطة للتفتيش عنها وعندما يعود يقول لها :

- لم ارها ابداً ؛ لا شك انها نائمة . إنهم يتعبون مثلنا ايضاً لأن حياتهم
قاسية كحياتنا ...

كانت الأم تضحك وهي تصغي الى احاديث صوفيا ، وترنو اليها بعينين يفيض
منها الود ، وكانت صوفيا ، وهي مديدة القامة هزيلة ، تسير بخطى ثابتة رشيقة ،
وفي خطوها حين تحطو ، وفي كلماتها ورنه صوتها الخفيض الجريء ، وفي قوامها
الأهيف كله ، عافية معنوية جميلة ، وجراءة طروب . لقد كانت تلقي على كل شيء
تراه نظرة فيها جدة وقتوة ، وتقع انتى تلفتت على تفاصيل تثير فيها مرح الصبا .
- انظري ... ما اجمل شجرة الشربين هذه ؟

واشارت الى احدى الأشجار فتوقفت الام ، ترنو اليها . إنها لم تكن تتميز
عن سواها بملوها ولا بكثافة ظلها ... ومع ذلك فقد وافقت :

- اجل . إنها لشجرة جميلة .

ثم راحت تنظر كيف يعبث الهواء بشعر صوفيا الاشهب المتهدل فوق اذنيها .

- اسمعي .. إنه صوت قبرة .

ولمغ في عيني صوفيا الرماديتين ضياء الحنان ، وبدت كأنها تسبق بكل
كيانها الغناء الصافي ، غناء القبرة الضائعة في السماء المتألقة ؛ وكانت تنحني أحيانا
فتقتطف زهرة من ازهار الحقول ، وتداعب بمحبة اوراقها المرتعشة ، تداعبها
بلمسة خفيفة من اصابعها الناعمة اللطيفة ، وهي تدندن باحدى الاغنيات الحلوة .

لقد كان ذلك كله يجتذب الأم الى هذه المرأة المشرقة العينين ، ويدنيها اليها
فتقترب منها بعفوية ، حتى لتكاه ترحم طريقها ، وهي تحاول ان تنسجم معها حتى
في خطوها . غير ان كلمات صوفيا كانت تنسم أحيانا ، وبصورة مفاجئة بطابع
الحدة والعنف ، فتبدو في نظر الأم هذرا لا طائل تحته ، وتوقظ في ذهنها هذا
الخطر الحزين :

- إنها لن تعجب ميشال !

غير ان صوفيا تعود بعد لحظة الى التحدث ببساطة وصميمية ، فترنو اليها الأم
بجنو وابتسام وتمسح : إنك ما تزالين شابة ...
وتجيبها صوفيا : أوه ولكنني تجاوزت الثانية والثلاثين .
فتبتسم بيلاجي :

- ليس هذا ما عنيت به ، فإن من يراك يقدر انك تجاوزت هذه السن ، ولكنه
عندما ينظر الى عينيك ويصغي اليك ، تأخذه الدهشة إذ تبدين له فتاة صغيرة . إن
حياتك مضطربة ، شاقة ، خطيرة ومع ذلك فقلبك دائم الاقترار .

- انا لا اعتبر حياتي شاقة ؛ ولا استطيع ان اتخيل حياة افضل منها واشد
إمتاعا . سأدعوك منذ الآن بأسم عائلتك فإن اسم بيلاجي لا يلائمك .

وترد الأم مطرقة :

- نادني بما تشائين ، فأنا اراك وأصغي اليك وافكر ، وإنه ليسرني ان اجدك

تعرفين الطريق الى قلوب الناس ، فتفتتح أمامك دونما تردد أو خوف ، وتتبدش

النفس بذاتها وتضي للقاتك . إني افكر بكم جميعا ، واقول في نفسي : انهم

سيدحرون الشر ، سيدحرونه حتما .

وقالت صوفيا بقوة وثقة :

- سيكون النصر لنا لأننا مع الكادحين . لقد قرر الشعب ، وهو حين يقرر

يحمل كل شيء ممكنا ، وعلينا نحن ان نوقظ وجدانه فقط ، هذا الوجدان الذي

ليس له حرية التطور والنمو .

وكانت هذه الكلمات توقظ في الأم شعورا معقدا . لقد كانت صوفيا تشير

شفقتها ، دون ان تدري لماذا ، ولكن هذه الشفقة كانت وليدة الصداقة لذلك

فهي لا تجرح . وكانت تود ان تسمع منها شيئا آخر ، ان تسمع منها كلمات

اكثر بساطة .

وسألتها يهدوء وكآبة :

- من ذا الذي سيكافئكم على جهودكم ؟

فأجابت صوفيا بلهجة تعبت بالزهو :

- لقد كوفئنا . ربنا حياة تحق لنا الاكتفاء ، حياة نستطيع فيها ان نظهر

قوانا الروحية ... فإذا نبغي أكثر من ذلك ؟

ورمقتها الأم بنظرة خاطفة وطأطأت رأسها ثم راحت تفرق في التفكير من جديد :

- انها لن تعجب ميشال .

وكانت لا تسييران مسرعتين ، بل بخطى واثقة وهما تنتشقان الهواء الرطب

بله رثيبتها ؛ وكانت الأم تشعر كأنها في الطريق الى الحج ؛ وكانت تستعيد

ذكرى طفولتها ، والفرحة التي استبدت بها ، يوم غادرت قريتها بمناسبة احد

الاعياد لتحط الرحال في دير بعيد ، عند ايقونة عجائبية .

وكانت صوفيا تغني أحيانا بصوت غير قوي ولكنه عذب ، اغنيات جديدة

تتحدث عن السماء والحب ، أو تشرع في انشاد بعض الأشعار التي تتغنى بحقول

الفولغا وغاباته ، وكانت الأم تبسّم وتصفي ، وتهز رأسها بجرعة لا شعورية
إيقاعية ، تنسجم مع انغام القصائد التي سحرتها موسيقاها .
وكان قلبها يفرق في الدفء والهدوء والحلم ، كمن اكتنفته في إحدى امسيات
الصف ، حديقة صغيرة عتيقة .

- ٥ -

وفي اليوم الثالث بلغنا إحدى القرى ، فسألت الأم فلاحاً كان يعمل في
أحد الحقول ، سألته عن معمل القار أين يقع ؛ وانحدرتا في مروضيق متعرج في
الغاب ، حيث كانت جذور الأشجار بارزة كدرجات السلام ، وافضح بها الطريق
إلى فسحة صغيرة من الأرض جرداء مستديرة ، مملوءة بالفحم ، وشرائح الخشب ،
ويقع القار ، وقالت الأم وهي تتفحص المكان بكآبة :
- ها نحن أولاء قد وصلنا .

وبالقرب من كوخ مبني من القصب واغصان الأشجار ، وحول مائدة
مصنوعة من ثلاثة ألواح خشبية غير مصقولة ، قائمة فوق أوتاد مثبتة في الأرض ،
كان يجلس ريبين وقد لطحه السواد ، وانحسر قميصه عن صدره ، وكان يجلس
معه ايقيم وشابان آخراش ، وكلوا جميعاً يهيمون بتناول غدائهم . وكان ريبين هو
أول من وقع بصره عليها فراح ينتظر وصولها صامتاً ، ويده تحجب نور الشمس
عن عينيه .

وصاحت الأم من بعيد :

- طاب يومك أيها الصديق ميشال !

فنهض وتقدم رويداً لأستقبالها ، وعندما عرف بيلاجي توقف ، وابتسم ،
وراح يداعب لحيته بأصابعه السوداء .

وقالت الأم وهي تدنو :

- إننا في الطريق إلى الحج ، وقد قالت لي تقسي : لنزره في طريقنا . هذه

هي صديقتي ، إنها تدعى « آنا » .

- ٢٤٦ -

ورنت بطرف عينها مزهوة ببراعتها ، رنت إلى صوفيا التي كانت صارمة
الوجه قاسية الملامح .

ورد ريبين وهو يبتسم ابتسامة كدراء :

- طاب يومك ..

وشد يدها ، ثم حيا صوفيا ، واردف :

- إن الكذب هنا لا يفيد ، فنحن لسنا في المدينة ، ولا حاجة لنا بالكاذب

لأن الجميع هنا من جماعتنا .

وكان ايقيم الجالس إلى المائدة يتفحص السيدتين بيقظة ، ثم يوشوش رفاقه .

وعندما اقتربتا نهض وسلم عليها بصمت ، أما رفيقاه الآخراش فلبثا في مكانها

لا يتحركان كأنهما لم ينتبها لوجود السيدتين .

وقال ريبين وهو يرت على كتف الأم :

- إننا نعيش هنا كالرهبان . لا يأتي لرؤيتنا أحد . إن رب العمل غائب عن

القرية ، وزوجته في المستشفى ، وأنا بمثابة الوكيل . فهلاً جلسنا ؟ هل لكما

ببعض القهوة ؟ أتتناولان شيئاً من الطعام ؟ آتانا يا ايقيم بشيء من اللبن .

وانطلق ايقيم نحو الكوخ على مهل ، وانزلت المسافرتان متاعهما ، ونهض أحد

الشابين ، وهو طويل هزيل ، ليساعدهما على ذلك ، أما الآخر ، وكان مربوع

القامة ، رث الثياب ، فقد لبث في مكانه يسند مرفقه إلى المائدة ، وينظر إليها

بسهم ، وهو يهرش رأسه ، ويدندن بأغنية .

وكانت رائحة القار الثقيلة تمتزج بنتن الأوراق المتعفنة ، فتملأ الرأس بما

يشبه الدوار .

وقال ريبين وهو يشير إلى الشاب المديد القامة :

- هذا هو جاك ...

وأشار إلى الآخر قائلاً :

- وذلك هو انياس ... حسناً ... كيف حال ابنك ؟

فزفرت الأم :

- ٢٤٧ -

— إنه في السجن .

وصاح ريبين : مرة أخرى ؟ إن السجن يعجبه على ما اعتقد .

وانقطع انبساط عن الغناء وتناول جاك عكاز الأم وقال :

— استريحلي .

وجه ريبين الكلام لصوفيا : وانت أيضاً تفضلي بالجلوس .

وجلست فوق جذع شجرة دون أن تنبس بكلمة ، وراحت تتأمل

محدثها بجذر .

وسأل ريبين وهو يجلس قبالة الأم :

— ومتى قبض عليه ؟

ثم صاح وهو يهز رأسه :

— إنك غير محظوظة يا بيلاجي .

— لا ضير في ذلك .

— إذن ، هل تعودت ذلك ؟

— كلا ، لم أعوده ، ولكنني لا أجد هناك وسيلة أخرى .

وقال ريبين : إنه لكذلك .. حسناً ، قصي عليّ القصة .

واخضر دعاء من اللبن ، وتناول كأساً عن المائدة ، وغسله ، ثم ملأه ،

ووضعه أمام صوفيا ، وهو يصغي بانتباه شديد لما تروييه الأم . لقد كان يتحرك

ويقوم بعمله دونما ضجيج . وعندما انتهت الأم قصتها ظلوا جميعاً غارقين في

الصمت ، لا يتبادلون حتى النظرات . وكان انبساط يرسم بظفره على خشب

الطاولة ، وايفيم يتكئ على كتف ريبين لأنه كان يقف وراءه ، وكان جاك

الذي يسند ظهره الى جذع شجرة ، كان يشبك يديه فوق صدره ، ويطلق

برأسه الى الارض ، وكانت صوفيا ترتقب القرويين بطرف عيناها .

وقال ريبين بلهجة متساحبة حادة :

— إذن ... فهم يتصرفون هكذا ... على المكشوف .

فرد أيفيم ببسمة متجهمة :

— لو اقننا هنا مثل هذه المظاهرة لضربنا الفلاحون حتى الموت .

وأكد انبساط وهو يهز رأسه :

— أجل ؛ ولذلك فإني سأذهب الى المعمل ، فالحياة هناك افضل ..

وسأل ريبين :

— هل سيحكون على بول ؟ ماذا تعتقدن ؟ .. واذا أدانوه فماذا سيكون

عقابه ؟ هل قيل لك ماذا سيكون عقابه ؟

فأجابت بصوت خفيض :

— السجن .. او النفي الى سيبريا .

وتطلع اليها الشبان الثلاثة ، اما ريبين فقد طأطأ رأسه وتابع :

— وهو ... هل كان يعرف ماذا ينتظره عندما أقدم على ذلك المعمل ؟

وقالت صوفيا بحزم :

— أجل ... لقد كان يعرف .

وصحمت الجميع ، ولبثوا بلا حراك كأن فكرة واحدة سيطرت عليهم

فجمدتهم في امكنتهم .

واستأنف ريبين الكلام بقسوة واتزان :

— أجل ... وانا أيضاً اعتقد انه كان يعرف ، فهو رجل جاد ، ولو لم يقس

عمق الحفرة لما اقدم على القفز : هكذا يكون الفتيان ايها الشبان . إنه قتي كان

يدرك انهم قد يغمدون الحربة في صدره ، وان المنفى ميبأ له .. ومع ذلك فقد

مشى . وقد يمر على جثة امه .. قد يمر على جثتك يا بيلاجي ..

وقالت وهي ترتعد :

— أجل ...

وحدثت في الوجوه حولها ، واطلقت زفرة ، ولكن صوفيا داعبت يدها

بصمت ، ونظرت الى ريبين ، حدثت في/بناض عينيه مقطبة الحاجب ، وقالت

بصوت خفيض :

— هذا رجل ..

وتفرست عينها الكئيبتان بوجوه رفاقه ، فاذا هم جميعاً يلزمون الصمت .
وكانت خيوط الشمس الناعمة تتدلى في الفضاء كشرائط من ذهب ، ومن احدى
الجهات كان غراب يطلق نعيبه اليأس ، وكانت الأم تتلفت حولها ، وتهزها
ذكريات اول ايار ، وحنينها الملتاع لابنها ولأندريه .
وكانت براميل القار الفارغة تجثم في الفسحة الصغيرة الضيقة ، وجذوع الاشجار
تشرئب في جوانبها ، وكانت اشجار الحور والسنديان تكتمظ حولها وتتمحج
اطرافها من كل جانب ، وكانت هذه الاشجار التي يجمع بينها الصمت ؛ تلقي
على الارض ظلالاً متجمعة دافئة .

وابتعد جاك فجأة عن الجذع الذي كان يسند اليه ظهره ، وتنحى قليلاً ، ثم
توقف وسأل بصوت قوي جاف ، وهو يهز رأسه :

— أصد أناس كهؤلاء سيرسوتنا ، اذا ما اجندت انا وايفيم ؟

واجابه ريبيز مقطب الوجه :

.. وضد من تعتقد اذن يا صاح ؟ إنهم يخفقوننا بأيدينا نحن . هذه هي لعبتهم .
وقال ايفيم بعناد :

.. ورغم ذلك فليس هناك ما ينبغي أن اكون جندياً .

وقال له انياس : ومن ذا الذي يمنعك ؟ . اذهب .

ثم حدق في عيني ايفيم وقال ضاحكاً :

.. ولكنك عندما تطلق النار علي ، صوب رصاصك الى رأسي ، لا تتركني
رجلاً ذا عاهة ... بل اجهز علي في الحال .

وصاح ايفيم بخشونة :

— لقد قلت لي ذلك من قبل .

وعاد ريبيز الى الكلام ، فقال ، وهو ينظر الى الفتیان ويرفع ذراعه بحركة
بطيئة :

— مهلاً ايها الفتیان ، وانظروا الى هذه المرأة (و اشار الى الأم) ان ابنها
قد قضي عليه بكل تأكيد ..

وسألته الأم بصوت أسيان خفيض :

— ولم تقول ذلك ؟

— يجب ان اقله ، فلا بد ان يكون شعرك قد ابيض لسبب ما . حسناً
هل قتلوها بما فعلوه بابنها ؟ .. بيلاجي .. هل حملت الينا نشرات ؟

فرمقته الأم بنظرة خاطفة ، واجابت بعد فترة من الصمت :

— اجل ، لقد حملت .

فقال وهو يضرب الطاولة بقبضته :

لقد ادركت ذلك فور ان رأيتك ، إذ لماذا تأتين الى هنا إذا لم يكن
جيبك من اجل ذلك ؟ اترون ؟ لقد انتزعوا الابن من الصفوف فحلت الأم مكانه .

ولوح بقبضته المهدهدة ، وراح يقذف سيلاً من الشتائم .

وداخل الام رعب ، وهي تنظر اليه فترى ان وجهه قد تغير كثيراً . لقد
اصبح اكثر نحولاً ، واتخذت لحيته شكلاً غير سوي ، شكلاً نفرت معه عظام

وجنتيه . وكانت تظهر في ماقي عينه المزرقه أوردة حمراء كأنه لم يذق منذ امد
طويل ، طعم الكرى . وكان أنفه عظيماً أعقف كمنقرا الكاسر وكانت قبة قبيصه

المفتوحة ، هذا القميص الذي لطخه القار ، فأحال لونه الاحمر الى اسود ، كانت
هذه القبة تنفج عن عظام حنجرتة ، وعن شعر صدره الاسود الكثيف ؛ لقد كان

في جماع منظره شيء كثير القموض ، كثير الأسي ، وكان ألقى عينيه المشتعلتين
يؤجج وجهه الكالح بنار النعمة .

وكانت صوفيا ، وقد اشتد شحوبها ، صامته لا تستطيع ان تحول بصرها
عن الفلاحين ، وكان انياس يهز رأسه مقطب الجبين ، في حين كان جاك وأفصا

بالقرب من الكوخ ، ينتزع باظافره مسعوراً قشور الاوتاد . اما ايفيم فقد كان
يتنقل بخطى بطيئة وراء الأم .

وتابع ريبيز :

— بالأمس استدعاني مدير الناحية وسألني : ماذا رويت للكاهن ايها السافل ؟

وقلت له : لم تدعوني بالسافل ، وانا أكسد لأكسب خبزي ، ولم أسيء الى احد .

ولكنه راح يعربد، وصفني بقبضة يده على وجهي، ثم القاني في السجن ثلاثة ايام.
- أهكذا؟ ابمثل هذا الاسلوب تخاطبون الناس؟ لا تنتظر مني سماحاً ايها
الشیطان. فإذا لم أثار انا بنفسی للاهانة التي الحقها بي، فسيثار لها آخر. وإذا
لم تكن انت هدف هذا الثأر، فسيكونه ابناؤك، تذكر هذا جيداً. لقد حررتهم
احشاء الشعب ببرائتكم، برائن الفولاذ، وغرستموها حقداً، فلا تنتظروا الرحمة
يا من حلت عليكم اللعنة.

وكان رييين يغلي انفعالاً، وكانت الثبرات المرتعشة في صوته تثير رعب الأم.
وتابع كلامه بهدوء:

- وماذا قلت للكاهن؟ لقد كان في الشارع يحدث الفلاحين بعد احد
الاجتماعات؟ ويقول لهم: إن الجمهور قطع، وهو بحاجة ابدأ الى راح. وقلت
انا مازحاً: «اذا نصننا الثعلب سيداً للغاية فسيكون هناك ريش لا طيور»
فنظر اليّ شرراً، وأذن لنفسه بالكلام، فقرر ان على الشعب ان يصبر، وان
يستسلم، وان يصلي لله ليمنحه القدرة على الاحتمال.. اما انا فقد اجبت هكذا:
قلت بأن الشعب قد صلى كثيراً، ولكن الامر الذي لا شك فيه هو انه ليس
لدى الله متسع من الوقت ليسمع.

وسألني: أية صلوات اتلو. فأجبت: بأنني لم اتعلم في حياتي سوى صلاة
واحدة، هي صلاة الشعب بأجمعه: يا إلهي علمني ان أجز القرميد الى القصر،
وأن آكل الحجارة، وان ابصق الاخشاب..

ولم يدعني اكمل.

وتوقف رييين فجأة ليسأل صوفيا:
- هل انت من النبلاء؟

فأجابته وقد اعترتها رعشة المفاجأة.

- وما الذي جعلك تعتقد ذلك؟

فرد ضاحكاً.

- لان ذلك هو حظك... لقد ولدت هكذا... اتمتعدين انه يمكن للمرء

ان يغطي خيطية النبل، بمجرد ان يغطي رأسه بوشاح قطني؟ من الممكن يا سيدتي
معرفة الكاهن.. دون ان يكون في قفطانه. لقد وضعت مرفكك على الطاولة
المبللة فانتفضت كالمذعورة، وارتست على وجهك ملامح السخرية.. وفضلاً
عن ذلك، فان ظهرك اكثر استقامة من ظهر اية امرأة.

وخشيت الأم ان يكون في صوته الحشن وسخريته وكلامه ما بين صوفيا
فتدخلت بحدة وقسوة:

- انها صديقتي يا ميشال. انها إنسانة طيبة، لقد شاب شعرها وهي تعمل من
اجل قضيتنا.. فيجب الا..

- هل تلمظت بما بين؟

فمرقته صوفيا وسألته بلهجة جافة: هل تود ان تقول لي شيئاً؟

- أنا؟ أجل، منذ وقت قصير جاء الى هنا فتى آخر، إنه ابن عم لجاك وهو
مريض بالسل. هل نستطيع ان نرسل في طلبه؟
- أجل.. ادعه.

ونظر اليها رييين وهو يطوي اجفانه، ثم قال بصوت خافت:

- اذهب يا ايفيم، وادعه، قل له أن يأتي في السهرة.

واعتمر ايفيم قبعته، وتوارى في الغابة بطيء الخطى، ودوت ان يتبس
بكلمة؛ او ينظر الى احد، وأوماً اليه رييين بحركة من رأسه ثم قال:

- انه يتغذب. سيخند عما قريب هو وجاك. إن جاك يقول: أنا لا استطيع
ان اكون جندياً. والآخر ايضاً لا يستطيع، ولكنه يرغب في ذلك، فهو
يعتقد انه بالامكان احداث حركة بين الجنود... أما انا فأعتقد انه لا يمكن
لأمرىء ان يخرق الجدار بجبهته. إنهم يضعون الحرايب بين ايديهم... فينطلقون.

نعم.. إن ايفيم يتألم وانياس يعيد السكين الى جرحه... فما الجدوى؟

وقال انياس متجههم الملامع ودون ان يلتفت الى رييين:

- إن في ذلك جدوى بلا شك. انهم سيشغلونه في الفرقة، وسيطلق النار
على العمال بمهارة تفوق مهارة الآخرين.

واجاب ريبيـن مطرقاً :

— أنا لا اعتقد ذلك ، ولكن من الأكيد أنه يحسن صنعاً لو تجنبه . إن روسياً واسعة الأرجاء ، فأنتى لهم ان يعثروا فيها على رجل ؟ وما عليه إلا ان يستحصل على بطاقة هوية مزورة ، وان يطوف القرى ...

وقال ايناس وهو يضرب فخذه بقطعة خشبية :

— هذا ما سأفعله أنا ايضاً ؛ ففي الوقت الذي يتقرر فيه خوض المعركة لا يكون هناك مجال للتردد .

واقفل الحديث ، وكانت اسراب النحل والزبابير تحوم منهمكة ، وكانت طينيتها يعلن سيطرة الصمت ، وكانت العصافير تغرد ، واغنية آتية من بعيد ، تهيم على وجهها في الفضاء . وبعد لحظة استأنف ريبيـن :

— حسناً ، علينا ان نعمل . وقد تكونان انما بحاجة الى الراحة وفي الكوخ أسرة ، فأجمع لها يا جاك قليلاً من الاوراق اليابسة ... وانت ايتها الأم هاتي ما تحمليـن من كتب .

وفتحت الأم وصوفيا كيسها ، واكب ريبيـن ينظر الى مافيه ، ثم قال بارتياح :

— حسناً .. إنكما تحملان رزمة كبيرة منها !

والتفت الى صوفيا يسألها :

— أمتد وقت طويل تهتمين بمثل هذا العمل ؟ ما هو اسمك ؟

— ان اسمي منذ اثني عشرة سنة هو آنا ايفانوفنا ... فماذا تريد بعد؟

— لا شيء ... هل كنت في السجن ؟ ربما ؟

— نعم ، كنت في السجن .

وقالت الأم برقة وفي لهجتها شيء من التأنيب :

— أرايت ؟ ... ومع ذلك فقد كنت فظاً في حضرتها ...

وصمت لحظة ، ثم حمل رزمة من الكتب على ذراعه ، وقال وهو يكسرها عن اسنانه :

— تفضيـني مني ، فالفلاح والسيد كالصنع والماء لا يلتئمان ابداً لانها ضدان .

وأجابت صوفيا بابتسامة عذبة :

— ولكنني لست سيدة ... بل كائنات بشرياً .

— هذا ممكن ... يقال ان الكلب كان من قبل ذئباً ... عفواً ... سأذهب

لأخبيـه هذه الكتب .

واقترب ايناس وجاك منه ، وقال ايناس :

— اعطنا بعضاً منها .

وسأل ريبيـن صوفيا : هل هذه الكتب كلها نسخة واحدة ؟

— كلا ... فهناك ايضاً صحيفة .

— آه ؟

واسرع الرجال الثلاثة جميعاً الى الكوخ ؛ وقالت الام بصوت شديد الخفوت

وهي تتتبعم بنظرها السام : ريبيـن هذا الفلاح .. إنه يلتهب ...

وغمغمت صوفيا : اجل .. فأنا لم أر حتى الآن وجهاً كوجهه ... إنه

كوجه الشهيد . هيا بنا نحن ايضاً الى الكوخ ، فأنا اريد ان القي عليهم نظرة خاطفة .

ومست الام : لا تفضيـني منه .. فهو قاس .

وابتسمت صوفيا : ما اطيب قلبك يا نيلوفنا .

وعندما بلغت السيدتان عتبة الكوخ ، رفع ايناس رأسه ثم انكب ثانية على

الصحيفة المنشورة فوق ركبتيه ، وهو يدس يده في شعره المجدول ، اما ريبيـن

فقد وقف بالصحيفة تحت شعاع من اشعة الشمس كان يتسلل الى الكوخ من

شق في السقف ، وكان يحركها ، بين الفينة والفينة ، لينسكب النور على الاسطر

وكان يقرأ فيحرك شفتيه . اما جاك ، فكان يسند صدره ، وهو راكع ، الى

حافة السرير الخشبي ويقرأ .

وجلست الام في زاوية من زوايا الكوخ ، وطوقت صوفيا منكبها

بذراعيها وراحت تراقب الرفاق بصمت .

وقال جاك بصوت خافت ودون ان يتلفت :

— انهم يشتموننا يا عم ميشال ، يشتموننا نحن الفلاحين .

واجاب ريبيـن باسمًا : يشتموننا لانهم يحبوننا .

ونفخ انياس ، ورفع رأسه :

— انهم يقولون : « لم يعد الفلاح انسانًا » وهذا صحيح .. انه لم يعد كذلك .

وانزلق على وجهه الساذج المفتوح ظل المهانة ثم اردف :

— تعال ايها العالم اللعين .. ضع نفسك مكاني ، وتحرك في داخلك ، لتر بعد

ذلك كيف تكون .

وقالت الام لصوفيا هامسة :

— سأستلقي قليلاً فأنا متعبة بعض الشيء ، وهذه الراححة تسبب لي دواراً ..

وانت ، ألن تستلقي ؟

— كلا ..

واضطجعت الام على السرير الخشي ، واستسلمت للكرى بعد قليل ؛ وظلت

صوفيا يجانبها تراقب الرجال الذين كانوا منهمكين في القراءة . وعندما كانت نائمة

تحوم فوق الأم او زنبور تسارع هي الى طرده بالراح ، وكانت الام تلاحظ ذلك

وهي مطبقة العينين نصف إطباق ، فتشعرها هذه العناية بشيء من اللذة والارتياح .

واقترب ريبيـن ووشوش بصوته الخشن :

— هل نامت ؟

— نعم ...

وصمت لحظة ، وحدق في الام ، ثم اطلق زفرة وقال بهدوء :

— لعلها أول امرأة تتدبعت خطي اينها في الطريق ... اول امرأة .

فقالت صوفيا : لندعها نائمة فلا نزعجها ، هيا بنا من هنا .

— أجل .. يجب علينا ان نعود الى العمل . لقد كنت احب ان نتحدث ،

ولكنني افضل إرجاء ذلك الى المساء . هيا بنا يا فتيتان .

ومضى الرجال الثلاثة ، بعد ان تركوا صوفيا بالقرب من الكوخ ، اما

الأم فقد كان يدور في رأسها هذا الخاطر :

— حسناً إن الامور ستسير على ما يرام ... وشكراً لله فقد اتفقوا ...

وعادت الى النوم مطمئنة ، وهي تستنشق الهواء المضمخ براححة الغاب .. والقار .

— ٦ —

وعاد الفحامون جذلين بتصرم نهارهم ، وايقظت اصواتهم الأم فخرجت من

الكوخ متثابة باسمة ؛ وقالت وهي تنرو اليهم بجنان :

— لقد كدحتم أتم ، ونمت انا كسيدة !

فأجابها ريبيـن : إننا نغفر لك ذلك .

وكان كثير الهدوء ، فلقد استنفذ التعب انقباله الشديد . وتلفت الى

انياس قائلاً :

— تحرك يا انياس لإعداد الغداء .

ثم تابع : إننا هنا نقناب الخدمة ، واليوم هو دور انياس في اعداد الطعام .

وأجاب انياس وهو يصيخ بسمعه الى الحديث :

— ليتني أجد من يبادلني نوبتي .

ثم راح يجمع الحشب والأغصان اليابسة لإشعال النار .

وقال ايقيم وهو يجلس الى جانب صوفيا :

— في الزيارات فوائد للجميع .

وقال جاك : سأقوم بمساعدتك في عملك يا انياس .

ومضى الى الكوخ فأسـر قطعة من الخبز فقطعها ثم وضعها على المائدة .

وقال ايقيم بهدوء : اصغ . انه يسعل .

وأصغى ريبيـن : — نعم .. انه قادم .

ثم مال على صوفيا يوضح لها :

— ستريـن شاهداً . أتمنى لو أستطيع أن أعرضه في المدن والساحات ليستمع

اليه الناس . إنه يردد دائماً الكلام نفسه ، ولكن يجب ان يسمعه الناس جميعاً .

وكان الظلام والسكون يزدادان عمقاً ؛ فتزداد الاصوات معها رقة ،
وكانت صوفيا والأم ترهبان القوم : لقد كانوا جميعاً يتحركون ببطء وتثاقل ،
يشربها نوع من الحذر الغريب . وكان هؤلاء بدورهم يرقبون حركات امرأتين .
وبرز من الغاب رجل فارغ الطول محدودب الظهر ، يشي ببطء متوكئاً على
عصاه بقوة ؛ وكان تنفسه الحشن يُسمع من بعيد .

— ها انذا .

قال ذلك ثم راح يسعل .

وكان يرتدي معطفاً خلقاً يغمره حتى كاحليه ، وكان شعره الأشقر المجدول ،
يتقلت من تحت قبعته المستديرة الرثة في خصل هزيلة قاسية ؛ وتعطي وجهه
الشاحب البارز العظام لحية وضاعة . وكان فيه نصف فاغر ، وفي محجريه الغائرين
تلع عيناه محموتين كما لو كانتا تومضان من اعماق الكهوف المظلمة .

وسأل صوفيا عندما قدمه ريبين اليها :

— لقد حملت الينا كتباً على ما يبدو ؟

— نعم .

— شكراً لك بالنيابة عن الشعب . هذا الشعب الذي لم يستطع حتى الآن
ان يدرك الحقيقة بنفسه . أما واني قد ادر كتبها ؛ فاني اشكرك نيابة عنه .
وكان يتنفس بسرعة ويعب الهواء في جرعات نهمة ، وكان صوته متقطعاً
وأصابه الضاوية تنزلت منهكة على صدره محاولاً ان يبكل ازرار معطفه .
وقالت صوفيا :

ان مرورك في الغاب ، وفي ساعة متأخرة يؤدي صحتك ، فالأوراق ؛ في
مثل هذا الوقت ، رطبة ، ورطوبتها تعلق بجنجرتك .
فأجابها وهو يلهث :

— لم يعد هناك شيء صحي بالنسبة لي أبداً . إن الشيء الوحيد الذي يربحي
حقاً هو الموت .

وكان الاصفاء اليه يبعث الألم ، ومظهره يثير الشفقة ، تلك الشفقة التي لا

طائل تحتها ، والتي ترغم على الاعتراف ببعجزه ، وتولد في النفس نوعاً من الخنق
المستسلم .

وجلس فوق برميل ، وطوى ركبتيه بجزر كأنه يخشى على ساقيه ان يتحطأ
ثم مسح جبينه المتصبب عرقاً ، وكان شعره جافاً لا حياة فيه .

وتأججت النار وتراقصت حولها الأشياء وارتعشت ، وترامت الظلال التي
كان يلعبها اللهب ، ترامت نحو الغاب مذعورة ، وظهر فوق النار ، للحظة
قصيرة ، وجه انياس المستدير ، منتفخ الوداج ، ثم خمد الألق ، وفجت رائحة
الدخان وسيطر على الساحة من جديد الصمت والضباب . وكان الجميع يصغون
للكلمات المبسوخة ، كلمات المريض :

— .. ولكنني استطيع ان اكون مفيداً للشعب .. كشاهد على الجريمة .

ها انذا فانظروا إلي . اني في الثامنة والعشرين ، ومع ذلك اني اموت . منذ عشر
سنوات كنت ارفع على منكمي ، وبدونة اي جهد ، ما يقارب المائتي كيلو
غراماً ، وكنت اقول لنفسي : يمثل هذه الهعافية سأتحطى السبعين دون ان اكبو
ولكنني عشت من السبعين عشرأ فقط . ولم أعد استطيع المضي بعيداً . لقد
استنزفتني الاسياد ، سرقوا اربعين عاماً من عمري ، اربعين عاماً .

وهمس ريبين : تلك هي معزوفته .

وتألفت دفقة من اللهب اشد قوة وضراماً من ذي قبل ، وتراكضت الظلال
نحو الغابة من جديد ، في رفات خاطفة ؛ ثم كرت ثانية نحو النار ، وحامت
حول جذوتها في رقص صامت حاد . وكانت الاغصان الرمادية تفرقع في
الجذوة وتئن . وأوراق الاشجار تهبامس وتضج ، وقد اثارها نفحة من الهواء
الحار . وكانت ألسنة النار تملو وتتعانق نشيطة جذلي ، وتتصاعد في الفضاء
حمرأه وصفراء ، لتزرعه شرراً ؛ وفي السهم كانت النجوم تبسم للشر كأنها تدعوه
الى الاعالي .

وقال المريض : انها ليست معزوفتي وحدي . ان آلاف الناس
يرددونها دون ان يدركوا ان حياتهم البائسة هي امثولة خلاص للشعب

وكثيرون هم الذين يموتون جوعاً بعد ان استنفد الكدح قواهم او ورثهم العاهة .
وراح يعمل وهو يرتعش وينطوي على نفسه ، كأنه إنما حطم الى جزئين .
ووضع جاك على المائدة وعاء من «الكفاس» وألقى الى جانبه حزمة من
البصل الابيض وقال للمريض :

— تعالي يا سافولي .. لقد احضرت لك بعض اللين .

فهر رأسه علامة الرفض ، ولكن جاك اخذه ، من ذراعه ، وجره
الى الطاولة .

وقالت صوفيا لريبين بصوت خافت ولهجة عاتية :

— لم ارسلم في طلبه ؟ إنه قد يموت بين لحظة واخرى .

وقال ريبين موافقاً :

— هذا ممكن و بانتظار ذلك ليس لنا إلا ان ندعه يتكلم . لقد دمر صحته
من أجل لا شيء ، ويمكنه أن يتعذب قليلا في سبيل الناس ، فليس هذا
بالأمر الخطير .

وصاحت صوفيا :

— سيقال عنكم انكم تتلذذون بما لا ادري ..

ورثقها ريبين بنظرة خاطفة ، ثم أجاب مقطب الجبين :

— إن «الاسياد» هم الذين يتلذذون برؤية المسيح وهو يئن على صليبه ، أما
نحن ، فإننا نريد من الانسان أمائيل ، ونريدكم انتم ان تحملوا بنرتها .

وقالت له الأم مدعورة :

— يكفيك هذا .

واستأنف المريض ؛ وهو يجلس الى المائدة :

— أسألكم لماذا يدمرون الانسان بالكدح ؟ لماذا ينهبون عمره ؟ إن رب عملنا

— لقد صرفت عمري في مصنع نيفدوف — إن رب عملنا هذا أهدي إحدى

المغنيات حوضاً من الذهب لتستحم به ، كما اهداهم «مقعدة ليلية» من ذهب

ايضاً ؛ ولقد كانت حياتي كلها وقوتي في هذا الذهب ؛ انها هدرت في هذا

السبيل ؛ لقد قتلتني الرجل ، قتلتني كدأً وجهداً ليندخل البهجة الى قلب عشيقتي
وقدم لها من دمي إناء منزلياً من ذهب .

وقال ايفيم مبتسماً :

— لقد خلق الانسان على صورة الله ومثاله فانظروا فيم يستخدم ؟

وصاح ريبين وهو يضرب الطاولة بقبضته :

— يجب أن ترفع صوتك بالشكوى .

وأضاف جاك بصوت خافت : يجب الاتحمل ذلك .

أما انياس فقد افتر ثغره عن ابتسامة .

ولاحظت الام ان الفتيان الثلاثة كانوا يصغون بانتباه ، وبشرة النفوس

الغريبي ، وانهم كانوا يتطلعون الى ريبين ، باهتمام كلما تحدث ، ويراقبونه بدقة .

وأثارت كلمات سافولي بسمة غريبة ارتسمت بنزق على شفاههم ، فلم يعودوا

يستشعرون معها شيئاً من العطف على المريض .

ومالت الأم نحو صوفيا تسألها همساً :

— هل ان ما قاله صحيح ؟

— نعم . إنه صحيح ، فلقد تحدثت الصحف عن هذه الهدية ، وقد حصل

ذلك في موسكو .

وقال ريبين :

— ولم ينل هذا الرجل عقابه ؟ يجب أن يقاخص . ان يجر إلى ساحة عامة

فيقطع إزياً ؛ ويلقى بلحمه النتن الى الكلاب . ان الشعب هو الذي سيوقع

القصاص الاكبر عندما ينهض من كبوته . إنه سيسفك كثيراً من الدم ليغسل

مهاتته ، فهذا الدم هو دمه الذي امتص من عروقه .. لذلك فهو سيده وصاحبه .

وقال المريض : لقد برد الطقس .

وساعده جاك على النهوض ، والاقتراب من النار .

وكانت النار تشتعل متألفة ، وكانت الظلال المشوشة تتراقص حولها وترنو

بدهشة إلى ألسنة اللهب اللعوب . وجلس سافولي على أحد الجذوع ، ومد نحو

الدفء يديه الشفافتين الجافتين . وأشار ريبين اليه بهزة من رأسه وقال لصوفيا :
- إن هذا أبلغ من الكتب بكثير ؛ فعندما تنتزع الآلة ذراع عامل او
تصرعه يقال بأن ذلك كان نتيجة لخطأه هو .. ولكنهم عندما يمتص دم انسان
ثم يطرح بعد ذلك كالخيفة ، لا يجدون لذلك تفسيراً أبداً ، أنا أفهم ان يقع
حادث قتل ، قتل مها كان نوعه ، ولكنني لا أفهم أن يعذب انسان لجرد اللذة فحسب .
علام يقتلون الشعب ؟ علام يعذبوننا نحن الآخرين ؟ إنهم يفعلون ذلك
ليمزحوا ويمجنوا ، ويمتوا انفسهم على هذه الارض ، ليشتروا بدمنا كل شيء ،
ليشتروا مغنية ، وحياداً ، وآنية من فضة ، وصحافاً من ذهب ، ودمي لأطفالهم
غالية الثمن .

ويقول لك رب العمل : إكده أنت ، اكده ما استطعت لأكدس انا الثروة
من جهدك فأقدمها لعشيقتي إناءً من ذهب .

وكانت الأم تصغي وترنو ، فيتوضح لها ، مرة اخرى ، الطريق الذي اختاره
بول ورفاقه جميعاً وتراه يتألق في الظلمات ، ويتلوى في شريط وضاء .

.. وفرغوا من طعامهم ، واقتعدوا جميعهم حول النار التي كانت تشتعل
وتلتهم الحطب اليابس بسرعة ونهم . وكانت وراءهم ترقد الظلمات ، وتغمر السماء
والغاب ، وكان المريض يرنو الى اللهب بعينين جاحظتين ، ويسعل بلا انقطاع ،
فتزهز الرعشات بعنف ، حتى لتحسب ان بقايا الحياة فيه ، تهجر صدره وقدعيل
صبرها ، وتتعجل الرحيل من جسده الذي نخزه الداء ؛ وكانت انعكاسات اللهب
تتراقص فوق وجهه فلا تفلح في اذكاء الحياة في ذلك الجلد الميت ، غير ان عينيه
فقط كانتا تشتعلان بنار لا تخمد ابداً .

ومال اليه جاك يسأله : ربما كنت تود الذهاب الى الكوخ يا سافولي ؟
فأجاب يجهد :

- ولم ؟ إنني اود البقاء هنا فلن يطول مكثي بين الناس .

وتصفحت نظراته بسرعة وجوه الرفاق ، وبعد فترة من الصمت ، تابع
كلامه ، وعلى شفثيه تنطرح بسمة شاحبة :

- إنني أشعر براحة وانا بينكم . اتصفح وجوهكم فأقول في نفسي :
ربما كنتم إنتم الذين ستأرون لكل ما سلب منا ، لكل الناس الذين قتلهم
تمه الآخرين ..

ولم يجبه احد ، وغلبه النعاس فتدلى رأسه على صدره ، ونظر اليه ريبين ثم
قال بصوت خافت :

- إنه يأتي الينا فيجلس ويقص علينا دائماً نفس القصة . دائماً قصته كأنسان
مهان ، فيفرغ فيها كل روحه ، كأن تلك المهزلة القذرة وحدها قد غطت على
عينيه فلا يرى سواها ابداً .
وقالت الأم وهي تطرق :

- ماذا عساه أن يفعل أكثر من ذلك ؟ اذا كان الآلاف من الناس يموتون
إرهاقاً ، ويوماً بعد يوم ، لكي يتاح للسيد ان يبدد المال في موائد ونزوات
كهذه ؟

ماذا عساه أن يفعل أكثر من ذلك ؟

ومس انياس :

- إن الإصغاء اليه شيء مل . إن قصته لا يمكن أن تُنسى حتى ولو سمعت
مرة واحدة .. ولكنه هو لا يتفك يرددها .
وأجابه ريبين بجملة :

- إنها بالنسبة له ، تحتوي كل شيء ، حياته كلها .. يجب ان تفهم ذلك .
لقد استمعت اليه عشرات المرات وهو يروي مصيره ، أما أنت فكم من مرة
خامرتك الشكوك . إن في الحياة لحظات طيبة تود معها الا تؤمن بقذارة الانسان
وجنونه ؛ لحظات ، فأخذك فيها الشفقة على الناس جميعاً ، غنيهم وفقيرهم . إن
الغني أيضاً يضل الطريق ؛ إن أحدهما يعميه الجوع ، والآخر يعميه الذهب .
فيا أيها الناس ، يا أيها الاخوة ، احنوا الرؤوس قليلاً ، وفكروا ، ولا يخيفنكم
ان تفكروا .

.. وانتفض المريض مرتعشاً ، وفتح عينيه ، ثم انطرح على الارض ، فنهض

أجلك بهدوء ، وتوجه الى الكوخ ، فأحضر غطاءً من الفرو ، وغطى به سافولي ثم عاد فجلس الى جانب صوفيا .

وكانت الجذوة ذات الوجه الوردى والبسمة المثيرة ، ما تزال تلقي نورها على الاشباح السوداء التي كانت تحيط بها ، وكانت اصوات الرفاق تختلط بالفرقة الحلوة ووشوشة اللهب .

وراحت صوفيا تتحدث عن معركة الشعوب في العالم كله من اجل حق الحياة ؛ عن المعارك القديمة التي خاضها الفلاحون في المانيا ، عن بؤس الايرلنديين ، وانتصارات العمال الفرنسيين الباهرة في كفاحهم المستمر من أجل الحرية .

وفي الغابة المتدثرة بمعطف الليل المحملي ، وفي الفسحة الصغيرة بين الأشجار ، وتحت سقف السماء القاتمة ، وأمام الجذوة الضاحكة ، في قلب دائرة من الظلال المندھشة الحاقدة .. كانت تمتع من جديد ، الاحداث التي زلزلت عالم المتخمين والطباعين ، وتعرض شعوب الارض وهي دامية الجراح ، تهكها المعارك ، وتتردد اسماء المناضلين من أجل الحرية والحقيقة .

وكان صوت صوفيا الذي تشوبه بحة خفيفة يرن بعذوبة ، لقد كان كأنه أت من الماضي لينعش الآمال ويوقظ الثقة ، وكان المستمعون يصغون بصمت إلى حكاية إخوانهم بالروح ، ويحدقون في الوجه الشاحب الهزيل ، وجه صوفيا .

وكان ضياء ساطع يغير لهم القضية المقدسة ، قضية شعوب الدنيا كلها ، قضية النضال الذي لا ينتهي من أجل الحرية ؛ وكان كل واحد منهم يجد أمانيه وأفكاره في الماضي السحيق ، الملقع بنقاب دام قائم ، يجدها في الماضي السحيق لشعوب اخرى مجهولة ، ويشارك في الكون عقلاً وقلباً ؛ ويلتقي فيه بأصدقاء صموا منذ أمد بعيد ، وبكثير من الحزم وتكران الذات ، على ان يقيموا العدالة في الارض ، أصدقاء عمدوا تصميمهم هذا بالآلام التي لا تحصى ، وسفكوا الانهار من دماهم من اجل انتصار حياة جديدة ، حياة صافية سعيدة . وكان شعور القربى الفكرية التي تربطه بالناس جميعاً ، كان هذا الشعور يشمخ في قلبه ويتنامى ؛ انه قلب جديد هو ذاك النبي كان يولد على الارض ، قلب يملأ التوق

الجار الى ان يفهم كل شيء ، ويتحد بكل شيء .
وقالت صوفيا بصوت واثق :

— سيأتي اليوم الذي يرفع فيه الكادحون في شق أقطاب الارض رؤوسهم ؛ ليقولوا بحزم : كفى .. إننا لا نريد هذه الحياة ابدأ .. عندئذ تنهار تلك القوة الخداعة ، قوة اولئك الذين ليسوا اقوياء إلا بشرهم ؛ وستميد الارض تحت اقدامهم ، فلا يجدون ما يتشبثون به
وقال ريبين وهو يحني رأسه :

— هذا ما سيحدث اننا نستطيع إذا ما إهتمنا بأمر انفسنا ، ان ندلل كل عقبة .
وكانت الأم تصفي مشرئبة الحاجب ، وبسمة الدهشة المرحية تنسر على شفتيها ، وكانت تلاحظ ان كل ما كان يعمل في صدر صوفيا من عنف وحدة ، قد تلاشى الآن على ما يبدو ، وانصهر في السياق الهارم السوي لقصتها . وكان سكون الليل وارتعاش النار ووجه صوفيا ، واصغاء القرويين الشديد .. فوق ذلك كله ، يبعث الارتياح في نفسها .

وليشوا جامدين بلا حراك ، جامدين ألا يعكروا تدفق حديثها الهادي ،
والأ يقطموا ذلك الحيط الوضاء الذي يصلهم بالعالم . وكان واحد من بينهم فقط ، يلقي الى النار ، احياناً ، بقطعة من الحطب ، يلقيها باحتراس ، حتى اذا تعالي الدخان وتطايرت زمر الشرير راح يذبحها عن السيدتين بكفيه .

وبعد قليل نهض جاك وقال :
— انتظروا قليلاً .

ثم راح يعدو الى الكوخ ، فأحضر بعض الملابس التي أخذ انياس يديرها جنوب الضيفتين واكتافهما . واستأنفت صوفيا الكلام ، وكانت تصف يوم النصر وتبعث في الحضور الايمان بقواهم ، وتوقظ فيهم حس الاتصال الوجداني بأولئك الذين يكرسون حياتهم للكفة التناهي العقيم ، في سبيل الترفيه السخيف عن المتخمين . ولم تكن هذه الكلمات لتثير قلق الأم ، ولكن إحساسها بشيء ما عظيم ، أثاره حديث صوفيا وتغلغل في نفس الجميع ، هذا الاحساس كان يملأ نفسها بعرفان

الجميل ، والتقديس لأولئك الذين اجتازوا المخاطر ، اجتازوها الى قوم كبلتهم
سلاسل الكدح ، فحملوا إليهم عطايا عقولهم وإخلاصهم وحبهم للحقيقة .

وكانت تتمم وهي تغمض عينيها

- ساعدهم يارب .

وصمت صوفيا عند الفجر تعبي ، ورنت ناسمة الى الوجوه الساهمة المطلقة التي

كانت تحيط بها .

وقالت الأم : لقد آن لنا ان نرحل ..

وردت صوفيا باعياء : اجل لقد آن ذلك .

وتهد أحد الفتیان بصوت مسموع ، وتعالى صوت ريبيّن في رقة غير معتادة :

- يؤسفنا جداً أن نرحل ، انكما تحسنان الكلام ، وإنه لشيء عظيم أن تعملنا

على إقامة اواصر القربى فيما بين الناس . إن المرء ليشعر ان قلبه أضحى أفضل من

ذي قبل ، عندما يعلم ان الملايين تتوق إلى نفس ما تتوق اليه نحن الآخريّن .

...والطيبة ، قوة عظيمة .

ونغم ايقيم وهو ينهض بحفة :

- إنك حين تحدّثهم عن طيبة القلب ، يردون عليك بالمذرة يجب أن نرحل

السيدتان ، يا عم ميشال ، قبل أن يراها أحد ؛ فستوزع النشرات وستنطلق

السلطات للبحث عن مصدرها ، وقد يكون هناك واحد يتذكر : لقد مرت

امراتان من هنا .

وقاطعه ريبيّن :

- حسناً . وشكراً أيتها الام على ما تحملته من مشقة . إنني عندما أراك

افكر طول الوقت ببول . لقد سلكت طريق الخير .

وارتسمت على شفتيه بسمه طيبة عريضة ، وكان موفور النشاط يرتدي

قميصاً يكشف عن صدره . وتأملت الأم قامته الضخمة ونصحته بؤد :

- يجب أن تضع شيئاً عليك فالطقس يارد .

فأجابها : اني اشتعل دفئاً في الداخل .

وكان الفتیان الثلاثة يتبادلون الحديث بصوت خفيض ، وهم وقوف بالقرب

من النار ، في حين كان المريض يرقد عند اقدامهم وقد دثره رداء من الفرو .

وكانت السماء تشحب ، والظلال تنصهر ، والاوراق ترتعش بانتظار بزوغ الشمس .

وقال ريبيّن وهو يشد يد صوفيا :

- وداعاً إذن .. كيف نهتدي اليك إذا أحببنا أن نراك في المدينة ؟

فأجابت الأم :

- ليس لك إلا أن تعثر عليّ أنا

واقترب الفتیان الثلاثة من صوفيا بتؤدة ، وشدوا يدها واحداً بعد واحد

بارتباك ودود ، ودون ان ينبسوا بكلمة : وكان جلياً ان كلامهم يستشعر

في قرارة نفسه ، شعور العرفان بالجميل ، شعور الصداقة نحوها ، وكان هذا

الشعور يربكهم ، بلا شك ، بما فيه من جدة لم يتعودوها ، وكانوا يرتنون إليها

بصمت ، والبسمة في عيونهم ، هذه العيون التي يشيع فيها شحوب السهاد .

وسأل جلاك :

- هل لكما بقليل من اللبن قبل أن نرحل ؟

فقال ايقيم : ولكن هل بقي عندنا لبن ؟

وأجاب انياس وهو يمد يده على شعره بارتباك :

- كلا .. فلقد عثرت بالاناء فاندلقت .

وغرق الثلاثة في ضحك طويل .

لقد كانوا يتحدّثون عن اللبن . ولكن الأم شعرت بأنهم كانوا يفكرون بأمر

آخر ، كانوا يتمنون لها ولصوفيا الخير كل الخير ، دون ان يفصحوا ، ولقد اثر

ذلك في نفس صوفيا ، وأثار فيها الاضطراب والتواضع الحيي ؛ فلم تقو معها على

التفوه بأكثر من هذه الكلمة الهزيلة :

- شكراً أيها الرفاق .

وتبادلوا النظرات ، وبدا كأن هذه الكلمة قد أمثلتهم فراحوا يترنحون

بهدهو . وتعالى من جديد سعال المريض الحشن ، وكان الفحم يجبو في الموقد ،

والقرويون يرددون : وداعاً .

وتشيع هذه الكلمة الكثيرة السيدتين ، وتواكبها خلال فترة طويلة .

وسارتا على مهل ، في طريق حرجي ، وسط غبش الفجر ، وكانت الأم

تقول وهي تسير وراء صوفيا :

— لقد مر كل شيء كالحلم .. وكانت الامور على ما يرام . انهم يودون معرفة

الحقيقة ، يودون ذلك يا عزيزتي . لقد كان ذلك أشبه بما يجري في الكنيسة قبل

قداس الصباح في يوم عيد عظيم . الكاهن لم يصل بعد ؛ والجو قاتم ، وكل شيء

يسوده الهدوء . ويستولي الخوف عليك ، ثم يقبل الناس ، وتضاء هنا شمعة أمام

الأيقونة ، وتضاء اخرى هناك ، وتطرد الظلمة شيئاً فشيئاً ؛ ويملاً النور بيت الله .

وأجابت صوفيا بمرح :

— هذا صحيح ، ولكن بيت الله هنا هو الارض بأسرها .

ورددت الأم وهي تهز رأسها مفكرة :

— الارض بأسرها .. ذلك جميل جداً ، وان كان يصعب تصديقه ! ولقد

أجدت يا عزيزتي صوفيا في حديثك ، أجدت الاجادة كلها ، وقد كنت أخشى

الأ تعجبهم .

وأجابت صوفيا بعد قليل ، وبصوت خفيض لا بهجة فيه :

— ان المرء ليزداد بساطة حين يكون بينهم .

وتحدثنا طوال الطريق عن ريبين ، والمريض ، والفتيان الذين كانوا يصغون

بكثير من الاهتمام والذين عبروا عن صداقتهم الشاكرة تعبيراً بليغاً بما أحاطواهما

به من لطف العناية ؛ وبلغنا الحقول الواسعة ، كانت الشمس تستيقظ أمامها ،

ولم تك بعد قد برزت من افقها ، بل كانت تنشر في السماء مروحة شفافة من

شعاعها الوردية ، وكانت حبات الطل تتلألأ فوق العشب كومضات متعددة الالوان

من فرحة ربيعية مزهوة ، وكانت العصافير تستفتق ، فتبعث الحيوية في الصباح

بأغاريدها المرحة ، والغربان الكبيرة ترسل نعيها المغموم ؛ وتطير ، وهي تنفض

أجنحتها بثقل ، وكان كناري يطلق من مكان ما لحنه ، في الفضاء ، وكانت

الابعاد تنحسر ، وتخلع عن الذرى ظلال الليل ، لتواجه الشمس .

وقالت الأم حاملة :

— في بعض الاحيان يحدثك احد الناس ، يحدثك فلا تفهمينه ، الى ان يتفوه

بكلمة ما لا تدرين ما هي ، كلمة بسيطة ، ومع ذلك ، لا شيء سوى هذه الكلمة

يوضح لك فجأة كل شيء . ذلك هو حال ذلك المريض . لقد سمعت كثيراً ، وانا

ايضاً اعرف بنفسني كيف يرهق العمال في المصنع ، وفي كل مكان ، ولكن المرء

يتعود ذلك فلا يهزه ولا يحركه . لقد قال شيئاً فيه كثير من المهانة ، وكثير

ما ينجل .

يا إلهي : أيمكن أن يسلك الناس حياتهم كلها في الكدح ؛ ليتيحوا لأرباب

عملهم مثل هذه المهازل ؟ ان ذلك لا يمكن تبريره .

وتوقف تفكير الام عند قصته التي رواها ، والتي اوضحت لها ، بما فيها من

بلاهة وصفاقة ، كثيراً من الغرائب التي وقفت عليها من قبل ، ثم نسيها .

— إنهم يتخمون لدرجة يصابون معها بمرض القلب . لقد كان هناك مسير

ناحية يرغم الفلاحين على تأدية التحية لجواده حين يخرج به لزهة في البلدة ، ومن

لا يفعل ، فالسجن عقابه . ترى ما حاجته الى مثل هذا العمل ؟ ابدأ . لم

يتوصل احد إلى فهم السبب وراحتم صوفيا تغني أغنية نشيطة ، منتصرة كالصباح .

- ٧ -

وكانت حياة الأم تنساب بهدوء عجيب ، وكان هذا الهدوء يشردهشتها أحياناً .

لقد كان ابنها في السجن ، وكانت تعلم ان عقاباً قاسياً ينتظره ، ولكنها كانت كلما

فكرت بذلك يمثل في ذاكرتها ، رغم إرادتها ، وجه اندريه ، وثيو ، وكثيرين

غيرها . وكانت صورة ابنها ، وهي تذكرها بكل اولئك الذين يشاطرونه

مصيره ، تتضخم في عينيها ، وتحملها الى جو من التأمل يحول دون تركز افكارها

على بول ، بل تشتتها في كل اتجاه ؛ وكانت هذه الأفكار تتشعب ، وتتفرع الى

شعاعات دقيقة غير متساوية ، فتلامس كل شيء ، وتحاول ان تلقي النور على كل

شيء ، وأن تجمع كل شيء في لوحة واحدة ، وتحول بينها وبين الشوقف عن
احدى التفاصيل المعينة ، وتلهيها عن حزنها ، وعن ذلك الرعب الذي كان يبعثه
في نفسها مصير ابنها .

وكانت صوفياً قد بكرت في الرحيل ، ولكنها لم تلبث ان عادت الى الظهور
بعد خمسة ايام او ستة : عادت مرحلة موفورة النشاط لتختفي من جديد بعد
ساعات قليلة ثم انها لم تشاهد بعد ذلك الا بعد اسبوعين ؛ حتى لكأنها تنطلق في
الحياة في دوائر واسعة ، فلا تلج منزل أخيها إلا وهي عابرة ، لتملأ هذا المنزل
مرحاً وموسيقى

وكانت الأم قد أخذت تتذوق هذه الموسيقى . لقد كانت تشعر وهي
تصغي إليها ، كأن موجات دافئة تلمم صدرها ، وتكملل إلى قلبها فينتظم
نبضه أكثر من ذي قبل . وكما تبرعم البذور المغروسة في تربة جيدة الحرث .
منتظمة الري ، هكذا كانت تولد في رأسها الافكار الجريئة العنيفة ، وتزهو
التمابير الخفيفة الرشيقة التي توقظها قوة الالجان .

وكانت تجرد عنتاً في الصبر على فوضوية صوفيا التي كانت تبعثر في كل زاوية ،
أشغالها ، وأعقاب سجاجثرها ، ورماد هذه السجاجثر ؛ كما تجد مثل ذلك العنت في
مجاراتها بطريقة كلامها الشديدة الجراءة ، والتي تختلف اختلافاً بيناً عن هدوء
نيقولا وصفاته ، وروعة الفاظه العذبة ، تلك الروعة التي لا يفسدها شيء ابداً .
لقد كانت صوفياً في نظرها مراهقة تتعجل الوصول الى ان تكون شخصية
مرهوقة ، وتعتبر أناس كدمي فضولية . كانت تتحدث كثيراً عن قداسة
المعمل ، ولكنها باهمالها البليد تزيد من مشاغل الأم ؛ وكانت تخطب عن
الحرية ، ولكن الأم ترى انها كانت قضايق الآخرين برعوتها الجارحة ،
ومجادلاتها التي لا تنتهي . وكانت ترى فيها كثيراً من المتناقضات فتعاملها بمحذر
ناعم وانتباه يقظ ، ولا تحس معها ، مثل ذلك الدفء الذي يغمر قلبها ، ويشيره
فيها نيقولا .

وكان هذا ، وهو المنهمك ابداً ، يحيا يوماً بعد يوم ، حياة رتيبة منتظمة .

يتناول طعام الفطور في الثامنة ، ثم يقرأ الصحيفة ، ويفضي بما تحمله من أنباء إلى
الأم ، وكانت وهي تصغي اليه ، تتبين بوضوح مدهش كيف تسحق عجلة الحياة
الثقيلة ، الناس دوناً رحمة ، لتحيلهم الى مال ؛ وكانت تكتشف فيه مزايا يشترك
بها مع اندريه ، فهو مثله يتحدث عن الناس دوناً حقاً ، ويعتبرهم جميعاً مسؤولين
عن التنظيم الاجتماعي السيء ، ولكن ايمانه بحياة جديدة لم يكن أكثر حرارة
ولا إسراقاً . وكان يتكلم دائماً بهدوء ، وبلهجة قاض نزيه صارم ، وكانت البسمة
الوادعة العذبة لا تفارق شفثيه ، حتى ولو كان الحديث يتعلق بأشياء رهيبه ،
ولكن عينيه ، في مثل هذه الحال ، كانتا تلتصقان بالثقي بارد قاس . وعندما كانت
الأم ترى هذه النظرة تدرك ان هذا الرجل لا يمكن أن يغفر شيئاً لأحد ، وأنه
لا يستطيع الغفران ، وكانت تشعر ان هذه القسوة تؤلمه فترثي له ، له هو الذي
كان حبها له يزداد على الدوام .

وفي التاسعة كان يمضي الى مكتبه ، فتصرف هي الى ترتيب المنزل ، وتعد
الطعام وتستحم ، ثم ترتدي ثوباً نظيفاً ، وتجلس في غرفتها تتأمل صور الكتب ،
وكانت قد اصبحت تحسن القراءة ، الا ان القراءة كانت تقتضيها جهداً ، وتتعبها
بسرعة ، فلا تستطيع أن تدرك الترابط بين الكلمات ، اما الصور ، فقد كانت
على العكس ؛ تسليها كطفل ، وتكشف لها عن عالم يكاد يكون ملموساً ، عالم
جديد رائع يمكن فهمه . لقد كانت ترى أمامها مدناً واسعة تفجأها ، وبنائات
رائعة ، وآلات ، وبواخر ، وآثاراً . كانت ترى الثروات التي لا تحصى ، والتي
أبدعها الناس ، وترى بدائع الطبيعة التي تدهش عقلها بتنوعها ، وكانت الحياة
تتسع أمامها حتى اللانهاية ، وتطلع عليها كل يوم بأشياء ضخمة ، لم تسمع بها ،
جنية الملامح ، وكانت بوفرة غناها ولا نهاية جمالاتها ، تشير روحها الغرثى التي
كانت تتفتح ، وكانت تحب بشكل خاص ، تصفح كتاب مصور في علم الحيوان ،
وبالرغم من ان هذا الكتاب كان بلغة اجنبية ، فانه كان يضع بين يديها أوضح
صورة عن جمال الارض ، وثروتها ، واتساعها .
وكانت تقول لنيقولا : ما أكبر الارض .

وكانت الحشرات تستهويها أكثر من كل شيء ، وعلى الأخص ، الفراش ،
فتتأمل صورها بدهشة وقول :

— يا لجمالها . أليس كذلك يا نيقولا ؟ كم يوجد من هذه الأشياء الجميلة الغالية
في كل مكان ، ولكنها جميعها تتخفى فلا تبدو لأعيننا . انها تمر أمامنا بسرعة
عجيبة فلا تراها أبداً . ان الناس يتحركون فلا يعرفون شيئاً ، ولا يستطيعون
ان يروا شيئاً ، وان يعجبوا به ، إذ لا وقت لديهم لذلك ولا رغبة . لكنهم
باستطاعتهم أن يغضوا من مباحج ، لو عرفوا كم هي غنية أرضنا ؛ وكم من أشياء
مدهشة يجدون على ظهرها . ان هذه الأشياء كلها هي للجميع .. وكل واحد هو
لهذه الأشياء جميعاً . أليس كذلك ؟
ويجب نيقولا باسمًا :

— تمامًا

ويقدم اليها كتباً اخرى مصورة .

وفي المساء ، تكون الزيارات غالباً . ومن بين الزائرين الذين يترددون :
الكسي فاسيليف ، وهو رجلٌ وسيم وقوي صوت ، شاحب الوجه ، اسود
اللحية ؛ ورومان بيتروف ، وهو ذو وجه نحاسي ، ورأس شديد الاستدارة ،
تصطك شفتاه دائماً في حركة مشفقة ؛ وجان دانيلوف وهو صغير هزيل ، مدبب
اللحية ، وذو صوت نحيف صحاب مثير ، حاد كأنه الخرز ، وايفور ، الذي يسخر
من نفسه ، ومن رفاقه ، ومن شقائه الذي يتعاطف بلا انقطاع . وآخرون غيرهم
كانوا يقبلون من المدن النائية ، فيعقد نيقولا معهم أحاديث طويلة ، تدور دائماً
حول موضوع واحد : الطبقة العاملة في العالم كله . وكانوا يتجادلون ، ويتحسون ،
ويكثرون من الحركات ، ويشربون كثيراً من الشاي ؛ وفي غمرة النقاش ، يبدع
نيقولا النداءات ، فيتلوها على الرفاق الذين يسارعون الى نسخها اثناء الجلسة ،
في حين تنصرف الام الى جمع تنف المسودات الممزقة وحررقها .

وكانت وهي تقدم الشاي لهم ، تدهش لتلك الحماسة التي تسيطر عليهم وحين
يتحدثون عن حياة العمال ومصيرهم ، وعن افضل الطرق وأسرعها لنشر الحقيقة في

سجونهم ، ورفع روحهم المعنوية ، وكثيراً ما كانت الآراء تتضارب ، فيغضبون
ويتبادلون التهم ، ويظهر الغم في وجوه البعض ، ولكنهم لا يلبثون ان يستأنفوا
نقاشهم من جديد .

وكانت الأم تحس انها تعرف حياة العمال اكثر مما يعرفونها هم ، ويتراءى لها
انها تدرك بوضوح اكثر ، جسامه المهمة التي تصدوا لها ، وهذا ما يحملها على ان
تعالجهم معاملة فيها بعض التنازل الكئيب ، كنتنازل رجل ناضج ، يشارك اطفالاً
يلعبون لعبة الزوج والزوجة ، دون ان يدركوا ما فيها من معنى المأساة .
وكانت ، دون ان تتعمد ذلك ، تحاول ان تقارن بين أقوالهم ، وأقوال ابنها
واندرية ، فتلمس الفارق الذي كان يفوتها في البدء ان تلمسه . وكان يمتلكها ،
بعض الأحيان ، شعوراً بان الأصوات ترفع هنا ، اكثر مما ترفع هناك في الضاحية ؛
فتعمل ذلك بقولها :

— إنهم يعرفون اكثر منهم لذلك فهم يتكلمون بصوت اقوى . ولكنها
كانت تلاحظ في اغلب الأحيان ان هؤلاء القوم إنما يتحسون وفقاً لحظة ، وأن
انفعالهم ليس إلا انفعالاً مصطنعاً ، وان كلا منهم يود ان يثبت لرفاقه ان الحقيقة
هي اعلى عليه ، وأقرب اليه من الاخرين ؛ وهذا ما يجرحهم ، فينهضوا ، لكي
يثبتوا معرفتهم لهذه الحقيقة ، الى استئناف الجدل ، بضراوة وقسوة . لقد كان
كل منهم يود ان يقفز اكثر من الاخر ، وكان الحيزن الكئيب يستولي على الأم
بسبب ذلك ، فتحرك حاجبيها ، وهي تنظر إليهم بعينين متوسلتين ، وتفكر :

— لقد نسوا صغيري بول ورفاقه .

كانت تصغي وهي حاضرة الدهن ، الى مناقشاتهم التي لم تك طبعاً تفهمها .
وكانت تحاول ان تغربل الكلمات لتقف على المشاعر . في الضاحية عندما يتكلمون
عن الخير يتناولونه بمجموعة ككل ، اما هنا فكل شيء يجزأ الى جزئيات
صغيرة دقيقة . إن المشاعر هناك اعتمق وأقوى ، اما هنا فالسيطرة للأفكار التافهة
التي تفتت كل شيء . هنا كانوا يتكلمون عن تهديم النظام القديم ، في حين كانوا
يحلون بالنظام الجديد ، ومن اجل ذلك كانت أحاديث ابنها واندرية أيسر
فهماً بالنسبة لها ، وأقرب تناولاً .

وكانت تلاحظ ان نيقولا يغدو ، حين يأتي احد العمال ، اكثر انطلاقاً وحرية معه ، وأن تعبيراً فيه عدوية يرتسم على ملامحه ، فيتغير أسلوبه في الحديث تغيراً كلياً ، وإذا كان هذا الحديث لا يغدو اكثر خشونة ، فإنه ليغدو على الأقل ، اكثر عفوية !

وكان هذا الحاضر بدور في رأسها :

« انه يجتهد في ان يفهم » .

ولكن ذلك لم يكن ليعزيها ، وكانت ترى ان الزائر يستشعر الضيق ، ويحس بكبت داخلي ، ولا يستطيع ان يتكلم بسهولة وطلاقة إلا معها ، معها هي ، ابنة الشعب .

وفي احد الأيام ، وكان نيقولا قد خرج من المنزل ، سألت احدهم :

— لم تشعر بالضيق ؟ إنك لست صيباً يؤدي امتحاناً .. ؟

وابتسم الفتى ابتسامة عريضة :

— ان السراطين نفسها تجمر خجلاً عندما تحمل على غير عاداتها .. ثم انه ، على كل حال ، ليس هنا .

وكانت ساندرين تأتي احياناً ، ولكنها لا تمكث طويلاً . وكانت تتكلم دائماً بانهاك ولا تضحك ابداً ، وفي كل مرة كانت تسأل الأم قبل انصرافها :

— و بول ؟ كيف حاله ؟ لعله غير مريض ؟

— شكر الله ، ان صحته حسنة ، وهو مقتبط .

وتقول الفتاة : ابلغيه تحياتي .

ثم تتوارى .

وكانت الأم تشكو لها بأن سجن بول قد طال كثيراً دون ان يجد موعد لمحاكمته فيشجعهم وجه ساندرين ، وتضمنت ، في حين تضطرب اصابعها بعصية . وكانت تتأكلها الرغبة في ان تقول لها :

— يا عزيزتي الصغيرة . انا اعلم جيداً انك تحبينه .

ولكنها لم تفعل ، لأن ملامح الفتاة القاسية ، وشفتيها المزمومتين بشدة ،

ولهجتها الجافة المغمومة ، كانت تنبئ بأنها لا تحتمل الدعاب ، فتصعد الأم زفرة وهي تشد صامتة ، اليد التي تمدها الفتاة اليها ، ثم تهمس في سرها :

— إنك لشديدة التماسية يا ابنتي المسكينه .

وفي احد الأيام اقبلت نانا ، ومُرت كثيراً لرؤية الأم . لقد عانقتها وأسرت اليها فجأة بهذا النبا ، في جملة ما حملته اليها من انباء :

— لقد توقفت امي .. توقفت المسكينه .

وأحضت رأسها ، وكفكفت دموعها بحركة سريعة .

— لقد آلتني ذلك أشد الالام ، فهي لم تتجاوز الخمسين من عمرها ، وكان

من الممكن ان تعيش اكثر . ولكنني من جهة اخرى اقول بأن الموت ، كان

بلا ريب ، اخف وطأة عليها من الحياة ، لقد كانت . دوماً وحيدة ، غريبة عن

الناس ، لا يحتاجها احد . وكانت تعيش في خوف دائم من ثورات والدي ..

فهل تراها كانت تعيش حقاً ؟ ان المرء ليعيش الحياة وهو يرجو ان تحمل اليه

الخير .. اما هي فلم تكن لترجو من حياتها شيئاً ؛ لم تكن تنتظر منها الا المهانة .

وقالت الأم بعد لحظة تفكير :

— هذا صحيح يا نانا ان المرء ليعيش الحياة عندما يرجو شيئاً فيها خيراً ،

اما اذا تلاشى هذا الرجاء ، فأني معنى يبقى للحياة بعد ؟

ثم اردفت وهي تتحسس يد الفتاة بخنات :

— والان .. هل انت وحيدة ؟

وأجابت نانا برفق : نعم

وصحمت الأم ثم قالت وهي تبسم :

— لا بأس فالطيب لا يعيش وحيداً ابداً ، وهناك كثيرون تشدهم إليك

واصر ...

— ٨ —

وعُينت نانا مدرسة في مقاطع قريبة من مصنع للنسيج ، وأخذت بيلاجي

— ٢٧٥ —

— ٢٧٤ —

تزودها بالكتب المنوعة ، والنداءات والصحف ، حتى اضحى هذا شغلها الشاغل
وكانت تجوب المقاطعة ، عدة مرات في الشهر ، وهي تتنكر بثياب راهبة ، او
بائعة دانتيل او خرزوات ، او بثياب بورجوازية ثرية ، او زي حاجة ، تجوبها
سيراً على الأقدام ، او في القطار ، او في عربة . وفي يدها حقيبة ، وفوق
منكبها كيس .

وكانت تتصرف بهدوء اعصاب وبساطة سواء كانت في القاطرة او على ظهر
الزورق ، او في الفنادق ، وتتحدث مع اشخاص لا تعرفهم ، وتبادلهم هي بالحديث ،
وكانت تستلفت الانتباه ، دونما خوف ، بما تدير من احاديث ودية واجتماعية ،
وبوثوقها بنفسها كما رأت الكثير ، واستوعبت الكثير .

وكانت تحب للتحدث الى الناس والأصغاء اليهم وهم يسردون حياتهم
وشكاياتهم ، وهمومهم ؛ وكان قلبها يفيض بالغبطة كلما انست من محدثها تلك
النعمة العنيفة التي تفتش بالحاح ، رغم انها منصبة على ضربات الحظ ، عن اجوبة
لأسئلة يعج بها رأسه ؛ وكانت تنبسط امامها دوماً لوحة الحياة وهي اكثر اتساعاً
وتلوناً ، وتقر عليها حياة الناس ومشاعلهم كلها ومتاعبهم من اجل الرغيف ؛
وكانت تلمس أنتى اتجهت ، الجشع بعريه الوقح ، الجشع الذي يعمل على خداع
الناس وسلبهم ، على ابتزازهم وامتصاص دماهم .

وكانت ترى الخيرات موفورة على الأرض ، وقرى الشعب مع ذلك يعيش في
العوز والجرمان . انه نصف جائع الى جانب ثروات هائلة لا يمكن حصرها .
وفي المدن تقوم معابد تعج بالذهب والفضة ، ويجار الله ماذا يفعل بهذه الكنوز ،
في حين يحتشد البؤساء في ساحات هذه المعابد وهم يرتجفون ، وينتظرون ان
تدس في اكفهم المدودة سحابت الاحسان .

وكانت قد رأت من قبل هذا المشهد ، رأت الكنائس وحلل الكهنة المشاة
بالذهب ، وأكواخ المدمين ، وأسماهم الخزية ، ولكن ذلك كان يبدو لها امراً
طبيعياً . اما الآن فإنها تجد هذا الوضع شيئاً مهيناً لا يطاق ، ولا يرتضيه الفقراء
الذين يحبون الكنيسة ، على ما تعلم ، اكثر مما يحبها الأغنياء ، ويرونها ضرورية لهم

أكثر من اولئك .

وكانت تعرف من الصور التي رأتها للمسيح ، والقصص التي سمعتها عنه ، انه
كان صديقاً للفقراء . لقد كان يلبس ببساطة . . . ولكنها تراه في الكنائس التي
يقبل عليها الفقراء ليلتمسوا العزاء ، تراه راسفاً في سلاسل من ذهب بطر ، اسير
حزير يهتف بازدراء حين يبصر البائسين . وكانت كلمات ريبين تقفز الى ذاكرتها :
- لقد استخدموا حتى الله لكي يخذلونا !

ودون ان يخامرها شك بذلك اخذت تقلل من صلواتها ، وتكثر من التفكير
بالمسيح ، وبأولئك الذين كانوا يعيشون ، كما يبدو لها ، وفق تعاليمه ، وإن تواوا
عن ذكر اسمه ، او تظاهروا بعدم معرفته ، اولئك الذين كانوا مثله يعتبرون
الأرض مملكة للفقراء ، ويبغون ان توزع بين الناس بالعدل ، ثروات العالم كلها .
وكانت تفكر في هذا كثيراً ، فتنمو هذه الخاطرة في نفسها ، وكانت هي بدورها
تعمقها ، وتقيم نوعاً من الترابط بينها وبين كل ما تقع عينها عليه . وكانت هذه
الأفكار تنمو ، وتتخذ شكلاً وضاءً لصلاة تسمع نورها على العالم العبوس ، على
الحياة كلها ؛ والمخاوف كلها . وكان يخيل للأم ان يسوع ، الذي احبته من قبل
حبا غامضاً ، وبعاطفة معقدة يختلط فيها بالأمل بالرهبة ، والحنان بالأسى ، كان
يخيل اليها ان يسوع هذا هو الآن اقرب اليها من ذي قبل ، وأنه قد تغير فأمسى
اكثر سمواً ووضوحاً ، حتى لكأنه قد بعث حقاً بعد ان غسله ، وملاه حياة ، ذلك
الدم الحار الذي يسفحه بسخاء من اجله ، من اجل هذا الصديق البائس للناس ،
اولئك الذين يمنعم الحقر من التلطف باسمه .

وكانت الأم تعود من رحلاتها هذه سعيدة متأثرة بما رأت وسمعت خلال
الطريق ، ويبعث فيها الشجاعة وحسن الرضى ، شعورها بانها قد قامت بعملها على
خير وجه . وفي المساء كانت تقول لنيقولا :

- جميل ان يسافر المرء الى كل مكان ، وأن يرى كثيراً من الأشياء . إنه
بذلك يدرك كنه الحياة . لقد عزل الشعب ونحبي جانباً ، فألقى مهاناً ، ولكنه
لم يتقبل ذلك مختاراً ، فهو يسائل نفسه ، لم يراد لي ان اظل معزولاً ؟ لم اجوع

وفي احد الأيام رجع نيقولا ، وهو المعروف بدقة مواعيده ، رجع من مكتبته متأخراً على غير عادته ، وقبل ان يخلع معطفه ، قال بعنف وهو يفرك يديه بانفعال :

هل عرفت ؟ لقد هرب احد رفاقنا اليوم من السجن . ولكن من هو هذا الذي هرب ؟ هذا ما لم اوفق الى معرفته .
فترنحت الأم ، وقد سيطر عليها الأنفعال ، ثم جلست وسألت مغفمة :
- أيكن ان يكون الهارب بول ؟؟
وهز نيقولا كتفيه قائلاً :

- هذا ممكن .. ولكن كيف يمكن ان نساعد على الاختفاء ؟ وأين نستطيع العثور عليه ؟ لقد جبت الشوارع عليّ ألتقي به ... فكان ذلك بلاهة مني ، ولكننا على كل حال يجب ان نفعل شيئاً ... وما أنذا اخرج ثانية .
وصاحت الأم : وأنا ايضاً .
واقترح نيقولا : اذهبي إذن الى ايفور ، وتسقطي لنا الأخبار ...
ثم توارى سريعاً .

وألقت على رأسها غطاءً ، ثم خرجت في اسره يحدوها الأمل وتسير مضطربة ، وقلبي يخفق بسرعة وعنف ، حتى لتكاد تنطلق عدواً . لقد كانت تسير لتواجه المحتمل مطأطئة الرأس لا ترى شيئاً مما حولها ؛ وكان هذا الأمل الوامض يدفعها الى الأمام :

- سوف أصل ، وأجده هناك .

وكان الجو حاراً ، وكانت هي تلهث من التعب . وعندما وصلت الى اسفل السلم المؤدي الى منزل ايفور توقفت وقد خانتها قواها فلم تعد تستطيع التقدم ؛ وارتدت الى الوراء ، وندت عنها صرخة دهشة مكتوبة ، ثم اغمضت عينيها لحظة فخيّل اليها انها ترى نيقولا فيسويشكوف قرب الباب ، ويداه في جيبه ؛ ولكنها عندما فتحتها لم ترى احداً ، فقالت في نفسها :

والخير دافق ؟ لم انا بهم جاهل ؟ في حين تنتشر المعرفة في كل مكان ؟ ابن هو الله الرحيم الذي لا فقراء ، في عرفه ، ولا اغنياء ، بل الناس جميعاً بالنسبة له ، ابناء اعزاء ؟ لقد بدأ الشعب يثور شيئاً فشيئاً على الحياة التي يحياها ؛ انه يشعر ان الجور سيخفقه إذا لم يأخذ هو بنفسه قضيته بين يديه .
وكانت تستشعر رغبه طاغية متنامية في ان تتحدث الى الناس بلغتها ، ان تحدثهم عن مظالم الحياة ، وكان من العسير عليها احياناً ان تلجم هذه الرغبة .
وكان نيقولا يفاجئها وهي تتملى الصور ، فيبتسم ، ويقص عليها قصصاً كانت ترميها دائماً بالذهول .
وكانت تسأله وقد جبهتها قسوة المشاكل التي يطرحها الناس ، تسأله بلهجة متشككة :

- ولكن هل هذا ممكن ؟

وكان يصور لها بصير ، وایمان لا يتزعزع بصدق نبوءته ، يصور لها الغد كحكاية من حكايا الجن وعيناه الطيبتان ترنوان اليها من خلال نظارتيه .
- إن رغبات الانسان لا حدود لها ، وقوته لا تنفد ابداً ، ولكن العالم لا يفتني بالفكر إلا ببطء شديد ، فكل انسان مجرب لكي يتحرر ، ان يكس المال ، بدلاً من المعرفة ، ولكن عندما يقضي الناس على شرمهم ، عندما يتحررون من عبودية العمل الأجنبي ...

وقلما كانت يبلاغي تفهم معنى اقواله هذه ، إلا ان حس الايمان الصافي الذي يلهب هذه الأقوال ، كان يقربها دوماً من فهمها . لقد كان يقول :

- ان الأحرار على هذه الأرض قلة ضئيلة جداً ، وهذا هو سر شقاها .

وكانت تفهم هذا ، فهي تعرف كثيرين تحرروا من الجشع والحيث ، وتعتقد انه لو زاد عدد هؤلاء الناس ، فإن وجه الحياة الرهيب العبوس سيندو اجمل وأكثر بشاشة وإشراقاً وبساطة .

وكان نيقولا يجيب بأسى :

- إنما يرغم الإنسان على القسوة .

وتهز هي رأسها موافقة . وتذكر كلمات البيورومي .

— لقد كان ذلك مجرد رؤيا !

وصعدت السلم وهي تصيح بسمعها ، وفي الساحة تحتها تعالي وقع "اخرس
لخطى بطيئة فتوقفت ، وانحنت تنظر ، فإذا بها تبصر من جديد ، الوجه المجدور
يسم لها ، فصاحت ، وهي تنحدر للقائه ، في حين كان قلبها يتقبض خيبة :

— نيقولا ... نيقولا .

وقال لها بصوته خفيض وهو يشير بيده :

— كلا ... اصعدي ... اصعدي .

وتسلفت السلم بسرعة ، ودخلت على ايغور ، فرأته ممتدداً على مقعد ،

فغمغمت وهي تلهث :

— لقد هرب نيقولا من السجن .

وسأل ايغور بصوته الصافر ، وهو يرفع رأسه عن الوسادة :

— ايها ... فهناك اثنان يميلان هذا الأمم .

— فيسوشيكوف . لقد جاء الى هنا .

— عظيم .

وكان فيسوشيكوف قد دخل ، وأقفل مزلاج الباب ، ونزع قبعته ، وراح

يضحك بهدوء ، ويمسد شعره ؛ فاتكأ ايغور على مرفقيه ، وسعل وهو يهز رأسه :

— مرحباً بك .

وتقدم فيسوشيكوف من الأم ، وعلى شفقيه ابتسامة عريضة ثم اخذ يدها :

— لو لم اراك لكان عليّ ان اعود الى السجن ، فأنا لا اعرف احداً في المدينة

ولو عدت الى الضاحية لقبض عليّ حالاً . لقد قلت لنفسي وأنا اهم على وجهي :

أيها الخبيث .. لم أقدمت على الهرب ؟ وفجأة لحت بيلاجي تسير مسرعة ...

فلحقت بك .

وسألته الأم :

— كيف استطعت الهرب ؟

فجلس بلا مبالاة على حافة المقعد ، وقال وهو يشغل كفيه "محرّجاً" :

— لقد كانت مناسبة ... كنت اتشى في باحة السجن ، فإذا بالسجناء ينهالون

على الحارس ضرباً . إنه دركي قديم طرد من وظيفته من اجل سرقة ارتكبها .

وكان يتجسس ، ويحيل حيوات الناس الى جحيم ... لقد طرحوه ارضاً وجلسوا

فوقه ... ياله من خليط عجيب ، وخاف الحراس فترا كضوا وهم يصفرون ،

ورأيت انا الباب الحديدي مشرعاً ، وورائه الساحة والمدينة ، فخرجت على مهل .

كأني في حلم ... وعندما ابتعدت قليلاً اخذت اسائل نفسي : اين اذهب ؟

وتلفت نحو السجن ، فإذا ابوابه قد اقفلت .

ومهم ايغور :

— هم هم ... حسناً يا سيد . لقد كان عليك ان تعود فتطرق الباب بأدب

وتتوسل إليهم ليسمحوا لك بالدخول ، وتقول لهم : المعذرة ... لقد كنت شارداً

الفكر قليلاً ...

وابتسم فيسوشيكوف وأردف :

— نعم ... إنها لمحاكاة ، خصوصاً وقد اسأت التصرف مع الرفاق ، اذ كان عليّ

ان اقول لهم شيئاً قبل خروجي ... وعلى كل حال .. فلقد ابصرت في

الطريق جنازة لطفل ، فسرت وراء النعش مع المشيعين ، وطأطأت رأسي ، ولم

اتلفت حولي ابداً ؛ ولبثت بعض الوقت في المقبرة ، فأناح لي مكثي القصير هناك

ان اتنشق الهواء ... ثم جاءتني فكرة ...

وقال ايغور : فكرة واحدة فقط ؟

ثم أضاف باسم : أعتقد ان هذه الفكرة لم تكن في حرج ...

ولم يفضب فيسوشيكوف بل راح يضحك :

— اوه ... إن رأسي لم يكن فارغاً كما كان من قبل ... وأنت يا ايغور

اتظل مريضاً ابداً ؟

وأجاب ايغور وهو يسعل سعالاً لزجاً :

— كلّ يعمل ما في طاقته ان يعمل . اكمل .

- وبعد ذلك ... ذهبت الى المتحف؛ وطففت فيه على غير هدى، وتفرجت، وكنت افكر طوال الوقت : اين سأذهب الآن؟ ونفقت على نفسي، وكنت اعاني اشد الجوع فخرجت، وسرت وأنا اشعر بالأنفعال ههزي. ولاحظت ان رجال الشرطة كانوا يراقبون الناس جميعاً، فقلقت في نفسي: اني بمثل هذه السحنة اسهل لهم التعرف عليّ وسأقع سريعاً بين «قوائم» القضاة؛ وفجأة ابصرت بيلاجي وهي ترقى السلم، فابتعدت قليلاً ثم لحقت بها وهذا هو كل شيء.

وقالت الأم وعلي وجهها سياه الخاطيء:

- وأنا التي لم انتبه لك؟

وكانت تتفحص فيسوشيكوف، فيخيل اليها انه امسى اقل غفلة من ذي قبل.

وقال نيقولا وهو يهرش رأسه:

- حقاً ... إن الرفاق لن يطمئن لهم بال.

وسأله ايغور:

- والجند؟ الا تترقي لهم؟ إنهم بلاريب سينزعجون!

وقفر فاه وراح يحرك شفتيه كأنه يمضغ الهواء، وتابع:

- يكفي مرأحاً، وعلينا الآن ان نجبتك... إنها مهمة لذيذة ولكنها

ليست باليسيرة. ليتني استطيع النهوض.

وأخذته نوبة ضيق في التنفس، فرقع يديه الى صدره، وراح يدلكه بعناء.

وقال نيقولا ان مريضك لشديد يا ايغور...

ثم طأطأ رأسه.

وزفرت الأم وأجالت بصرها الكئيب في جوانب الغرفة الضيقة، ورد

ايغور: ذلك من شأني انا... إسألني، يا أمه عن بول ولا تتغابي.

وابتسم فيسوشيكوف ابتسامة عريضة حتى اذنيه:

- اما من ناحية بول فهو يتمتع بصحة جيدة. إنه رئيسنا الى حد ما،

وهو الذي يناقش الإدارة، وبصورة عامة هو الذي يصدر الأوامر؛ ويحظى

باحترام الجميع.

وكانت الأم تلتهم كلمات الشاب، وتحدق بشرود في وجه ايغور المنتفخ المزرق، وتبدو جامدة كالقناع، كأن وجهها قد تجرد من كل تعبير؛ وكانت عيناهما وحدهما، تومضان بألق النشاط والغطية.

وصاح نيقولا فجأة:

- ليتكما تعطيانني شيئاً آكله، فأنا جد جائع.

- امه، يوجد على الرف خبز، وبعد ذلك... سيروي في المشى واقرعي

الباب الثاني الذي تجدينه على يسارك، وستفتح لك امرأة، فاطلي إليها ان تأتي

الى هنا، وأن تحمل معها كل ما لديها من طعام.

واعترض نيقولا:

- ولم تحمل كل ما لديها؟

- لا تهيج كبدك... فإن ما عندها ليس بالشيء الكثير.

وخرجت الأم وقرعت الباب المعين، وأصاحت بسمها وهي تفكر حزينة:

- إنه يموت...

وارتفع صوت من الداخل:

- من الطارق؟

وأجابت الأم بصوت خفيض:

- إني آتية من قبل ايغور.. وهو يرجوك ان تذهبي اليه.

وجاء الجواب دون ان يفتح الباب:

- سأتي حالاً.

وانتظرت لحظة، ثم طرقت الباب ثانية، فانفتح الباب حالاً، وظهرت على

العتبة امرأة فارعة تلبس نظارتين وسألت بلهجة جافة وهي تسوي بعنف

كها المجدد:

- ماذا تريدن؟

- إني آتية من قبل ايغور.

- آه.. آه... هيا بنا. لقد عرفتك فرحياً.. إن الظلام هنا كثيف..

الرجاجة ، وامنيه عن الكلام .

ثم خرجت وهي تأخذ بيد فيسوشيكوف .

وقال ايغور وهو يصعد زفرة :

- إنها امرأة مندهشة .. وانسانة رائعة ، وكان من الواجب ان تقيمي عندها
يا أماه .. فبي تجهد كثيراً .

وقالت الأم برقة :

- لا تتكلم .. وخذ ، اشرب .

وجرع الدواء ، واستأنف الكلام وهو يغمض إحدى عينيه :

- كان من الأفضل ألا أتكلم ، ولكني ميت على كل حال ..

ورنا بعينه الأخرى اليها ، وافترت شفثاه ببطء عن ابتسامه ، فأطرقت

الأم برأسها ، وأهاج الاشفاق الدمع في عينيهما :

- هذا لا يجدي فتيلاً ... إنه امر طبيعي ، فالشبع من الحياة يجر وراءه

ضرورة الموت .

ووضعت الأم يدها على رأسه وهمت ثانية :

- لا تتكلم ...

وأغض عينيه كأنه يصغي الى الحشرات في صدره ، ثم عاد الى الكلام بعناد .

- من البلاهة ان اصمت ... وماذا يجديني الصمت ؟ بضع ثوان اخرى من

النزع .. ثم افقد بعد ذلك لذة الثرثرة مع امرأة طيبة . وأنا اعتقد انه ليس في

العالم الآخر قوم طيبون كناس هذا العالم .

- لقد اوشكت السيدة ان تعود ، وسوف تقر عني لانني سمحت لك بالكلام .

- انها ليست سيدة ، بل ثائرة . انها رفيقة . انها روح مثير للاعجاب .. واما

انها ستقرعك فذلك مما لا شك فيه ، فهي تقرع الجميع دائماً ...

وراح ايغور وهو يحرك شفثية باجهد وببطء راح يقص عليها حياة جاراته ،

وكانت عيناه تبتسمان ، وكانت الأم تلاحظ انه يتعمد مضايقتها ، فقرنوا الى

ورمقتها بيلاجي ، وتذكرت انها كانت تراها احياناً في منزل نيولا ، فغمغمت ؛
- دائماً من جماعتنا .

وطلبت الى بيلاجي ان تسيّر امامها ، ثم سألتها :

- هل حالته سيئة ؟

- نعم ... إنه في سريره ، وهو يرجوك ان تحبلي معك شيئاً من الطعام .

- اوه ... لافائدة من ذلك .

وعندما دخلتا منزل ايغور ، قال هذا والحشرات تخنق صوته :

- إني منطلق للقاء اجدادي يا صديقي العزيزة لوميللا ، وهذا الفتى خرج من

السجن - يا للوقاحة - دون اذن من السلطات .. فاعطه باديء ذي بدء ما

يأكله ، وخبثيه بعد ذلك في مكان ما .

وهزت لوميللا رأسها ؛ وقالت بقسوة وهي تنفرس وجه المريض :

- كان عليك يا ايغور ان ترسل في ظلي حال وصولهما ... فماذا يعني هذا

الأهمال ؟ تعال معي يا رفيق وسنعود حالاً لنقل ايغور الى المستشفى .

وسأل ايغور :

- هل انت مصرة على نقلي ؟

- اجل وسأذهب معك .

- الى هناك ايضاً ؟ آه يارب .

- لا تتباله .

وسوت الشابة ، وهي تتكلم ، الغطاء على صدر ايغور ، ونظرت بامعان الى

وجه نيولا ، وقاست بعينها كمية الدواء المتبقية في الزجاجه ، وكانت تتكلم

بصوت مترن خافت ، وكانت حركاتها لطيفة ، وفي وجهها الشاحب يكاد

حاجباها الأسودان يلتقيان عند اعلى انفها .

ولم يعجب الأم شكلها ، فقد حكمت عليها من خلاله ، بأنها شديدة الصلف ،

ولم تك عينها تومضان ببسمة او ألق ؛ وكانت تتكلم بلهجة الأمر :

- هيا بنا ، وسأعود بعد قليل ... جرعي ايغور ملقعة من هذه

وجهه الذي يخضله ظل ازرق اللون ، وتفكر بضيق :
- إنه يموت .

وعادت لوميلا وأصدت الباب وراءها برفق ، ثم خاطبت بيلاجي :
- على صديقك ان يستبدل ثيابه ، وأن يترك هذا المكان بأسرع ما يمكن .
وعليك الآن ان تدبري له هذه الثياب حالاً ، وأن تأتي بها الى هنا . من سوء
الحظ الا تكون صوفيا هنا ... فاخفاء الناس يدخل في اختصاصها .
وقالت الأم وهي تطرح شالها على كتفها :
- انها ستصل غداً .

وكانت الأم كلما كلفت بمهمة تحس برغبة طاغية في ان تؤديها بسرعة واتقان ،
وكانت لا تستطيع ان تتحول بتفكيرها الى شيء آخر غير واجبها ، لذلك سألت ،
وهي مقطبة الجبين ، مغمومة الملامح ، بادية الاهتمام :
- ماذا ترتأين ان البسه ؟

- لا اهمية لذلك ، فسيخرج من المدينة ليلاً .
- ذلك اسوأ مما لو خرج في النهار إذ يقل مرور الناس في الشوارع ويسهل
تتبعهم ... ثم إنه ليس بارعاً ...

وضحك ايغور ضحكة مبسوطة ، فسأله الأم :
- هل تسمح لي بزيارتك في المستشفى ؟

فهز رأسه وهو يسعل ، ورننت لوميلا الى الأم بعينها السوداوين واقترحت :
- ما رأيك في ان نسهر على راحته بالتناوب ؟ اتوافقين ؟ حسناً اما الان ..
فأسرعني لتنفيذ مهمتك .

وأمسكت الأم من ذراعها بحركة ودودة ، ولكنها آمرة ، وسارت بها نحو
الباب وهمست في اذنها وهما وراءه :

- لا يغضبك اخراجي لك ، فالكلام يضره كثيراً ، وأنا ما زال لدي
بعض امل ...

وضغطت على يديها وفرقت اصابعها في حين كانت احفانها المنهكة تنسدل

على عينيها بهيأة .

وأزعج هذا التدبير الأم فغمغمت :

- ماذا تقولين ؟

وأوصتها ، بصوت خافت :

- احذري الجواسيس ...

ثم راحت تفرك صدغها بأناملها ، وكانت شفتاها ترتعشان ، وملاحظتها ترق .
وأجابت الأم بشيء من الزهو .
- اعرف ذلك .

وعندما اجتازت مدخل البناية توقفت قليلاً فسوت نقابها ، وأجالت فيما حولها
نظرة خاطفة مختلطة ، ولكنها حذرة ، فلقد كانت على مثل اليقين بأنها تستطيع
ان تميز اي جاسوس من بين الناس ، فهي تعرف الخطو اللامبالي ، وسهولة
الحركات المفتعلة ، وأثار التعب والضيق المرتسم في الملامح ، وانسدال الجفون
الوجل المرتبك ... فوق عيون نفاذة مغمومة .

ولم تلحظ هذه المرة ، ذلك الشبح الذي تعرف ، فاندفعت في الشارع
على مهل ، ثم استقلت عربة ، وأمرت سائقها ان يتوجه بها الى السوق . واشترت
ثياباً لنيقولا ، وساومت بأسراف ، وهي تفرق زوجها السكرير بسيل من
الشتائم ، هذا الزوج الذي يجب ان يستبدل ثيابه كلها ، باخرى جديدة ؛ وفي
كل شهر تقريباً . ولكن هذه « الأسطورة » التي اخترعتها لم تحرك حس الباعة
مطلقاً ، بل شعرت هي معها بنشوة عارمة ؛ وكانت تحدث نفسها ، وهي في
الطريق ، بأن رجال البوليس يعرفون - بلا شك - ان نيقولا سينتكر ، وأنهم ،
قد اوفدوا عيونهم الى السوق ، ليراقبوا .

وبعد ان اتخذت احتياطاتها الساذجة عادت الى منزل ايغور ؛ وكان عليها ان
ترافق نيقولا حتى طرف المدينة ، وأن يسير كل منهما على رصيف ، وكانت بيلاجي
تضحك ، ويهجه ان ترى نيقولا وهو يسير بتناقل مطأطء الرأس ، يتعثر
بأذيال معطفه الرمادي ، ويرفع قبعته التي لا تنفك تنحدر على انفه . وفي احد

الشوارع المقفرة جاءت ساندرين للقائها ، ثم قفلت الأم راجعة الى المنزل . بعد ان
حيث فيسوشيكوف بإشارة من رأسها .
وكانت تحدث نفسها :
- وبول مازال هناك ... وكذلك اندريه .

- ١٠ -

واستقبلها نيقولا ايفانوفيتش باضطراب :
- إن حالة ايغور في غاية السوء . لقد نُقل الى المستشفى وجاءت لوميلاهي
ترجوك للحاق بها .
- الى المستشفى ؟
وركز نظارتيه بحركة عصبية . وساعد بيلاجي على ارتداء معطفها . ثم قال
لها بصوت متهدج وهو يشد على يدها بأصابعه الخشنة الحارة :
- خذي هذه الرزمة معك ... هل ذُبر أمر فيسوشيكوف ؟
- نعم ... فكل شيء على ما يرام .
- سوف اذهب انا ايضاً لرؤية ايغور .
وكانت الأم منهمكة ، لدرجة ان رأسها كان يدور . ثم جاءت لهجة نيقولا
الكثيية فأشعرتها بدنو الفاجعة :
« إنه سيموت » .

وكانت هذه الفكرة القائمة تطرق رأسها بعنف . ولكنها عندما ولجت الغرفة
الصغيرة المشرقة النظيفة ، في المستشفى ، ورأت ايغور جالساً في كومة بيضاء من
الوسائد . وبسمته الخشنة تطوف على شفتيه ؛ هداً روعها في الحال . وتوقفت
عند العتبة باسمه . فسمعت المريض يقول لطيبه :
- الدواء ضرب من الإصلاح ..
ويصبح به الطيب بصوت نحيل قلق :
- لا تتصنع الدجل يا ايغور .

- ٢٨٨ -

- وانا ثوري أمقت الاصلاحات .
واخذ الطيب يد ايغور بحذر (ووضعها على ركبته ثم نهض وهو يمسد لحيته
سالم الملامح ، وحس بأصبعه التورمات في وجه المريض .
وكانت الام تعرف الطيب جيداً ، فهو من اخلص اصدقاء نيقولا ، ويدعى
ايفان دانيلوفيتش . ودنت من ايغور الذي مد لها لسانه ، اما الطيب فالتفت
اليها قائلاً :

- اوه نيلوفنا ... صباح الخير . ماذا تحملين في يدك ؟
- كتباً بلا ريب .
وقال الطيب الصغير :
- يجب الا يقرأ ابداً .

واحتج ايغور : إنه يريد أن يجعل مني إنساناً غيباً .
وندت من صدره زفرات بسيطة أليمة ، رافقتها حشرجة بلغمية خشنة ،
وكان وجهه يكتسي بقطرات صغيرة من العرق ؛ ويداه ترتفعان ببطء ثقيلتين
عصيتين ، ليمسح بهما جبهته . وكان الجمود الغريب الذي يرين على وجنتيه
المتورمتين يشوه وجهه العريض الوسيم ، فلقد توارت ملاحه كلها تحت قناع
ميت ، وظلت عيناه الغارقتان في الورم ، تبتسمان بسماح ، وتنبعث منها
إرثاء وضاءة .
وسأل طبيبه :

- هيه يا رجل العلم .. إني تعب فهل أستطيع ان اتدد ؟
واجاب الطيب بإيجاز :
- كلا ...

- حسناً ، سأتمدد عندما تذهب .
- لا تسمح لي بذلك . إرفعي له الوسائد ، وارجو الا اتحدني معه ،
فالكلام يؤديه .

وهزت الأم رأسها بالإيجاب ، ومضى الطيب بخطى سريعة قصيرة ، وألقى

ايغور رأسه الى الوراء ، واغمض عينيه ، وظل بلا حراك ، وكانت أمامه وحدها
ترتمش برفق .

وكانت جدران الغرفة الصغيرة البيضاء تبعث في الجو نسمات من البرودة
الجافة والحزن الكئيب ، واغصان الزيزفون السامقة الظليلة تحدد في الداخل ،
من النافذة الواسعة ، وعلى الأوراق القائمة المغبرة ، تلتمع بقع صفراء وضاءة
هي البواكين الباردة للخريف الوليد .

وغغمم ايغور دون ان يتحرك او يفتح عينيه :

— إن الموت يقترب مني ببطء وهو آسف . ويبدو انه يشفق عليّ بعض
الاشفاق ، فلقد كنت فتىً اجتماعياً .

وتوسلت اليه الأم وهي تداعب يده بلطف :

— يجب ألا تتكلم يا ايغور .

— مهلاً ، فعلاً قليل سأصمت .

وتابع ، وهو يلهث ، ويلفظ الكلمات يجهد ، ويخرجها مقاطع مقاطع :

— انه لجميل ان تكوفي معنا ، وحسن ان نرى وجهك . لقد ساءلت نفسي

حين رأيتك : تُتري ماذا سيكون مصيرها ؟ وانه لمحزن ان أفكر ... بأن

السجن وشتى ضرور العنت هي التي تنتظرك ، تنتظرك أنت كما تنتظر الجميع .

ألا ترهبين السجن ؟

واجابت ببساطة :

— كلا .

— هذا اكيد ، ومع ذلك فالسجن شيء رهيب ، إنه هو الذي هدّ كياني .

واذا اردت الصراحة ، فانا لا اود ان أموت .

واجبت ان تقول له : « قد لا تموت » ولكن نظرة خاطفة الى وجهه

أجأتها الى الصمت .

— لقد كان باستطاعتي ايضاً ان اعمل . ولكن اذا لم يك ذلك مستطاعاً فليم

العيش ؟ إن هذا المنتهى الغباء .

ولمعت في ذاكرتها ، بلا وعي ، عبارات اندرية ؛ فزفرت بألم :

« هذا صحيح ... ولكنه ليس عزاء . »

وكانت قد سلخت نهاراً منهاكماً ، وعُضها الجوع ، وكانت حشيرة المريض
الرثية البلغمية ، تملأ الحجرة ، وتزلق بجهد على الجدران الملساء ؛ وكانت ذرى
اغصان الزيزفون تلوح وراء النافذة ، كفيوم المنحدت نحو الأرض ، وحومت
منخفضة ، وراحت تفجأ العين بلونها الحزين القاتم ؛ وكان كل شيء يسيطر عليه
الجمود المظلم بشكل غريب ، بانتظار الليل .

وقال ايغور : لكم أشعر بسوء حالي !

واغمض عينيه ، وصمت .

ونصحته الأم : نم ، فلعل ذلك يحمل اليك بعض الراحة .

ثم راحت تصفي الى انفاسه ، وتتلقت حوالها ، وظلت على هذه الحال ،

بضع دقائق دون ان تتحرك ، يتأكلها حزن كالح ، الى ان استولى عليها النعاس ؛

ولكن جلبة مكبوتة عند الباب أجفلتها ، فتطلعت ، فاذا ايغور ما زال
مفتوح العينين .

وقالت له همساً :

— لقد استولى علي النعاس فسأحي .

واجابها برقة : وأنت ايضاً سأحييني .

وعند النافذة كان المساء يهبط ، وقلق بارد يعصر الأعين فيبهت كل شيء

بشكل غريب ، ويتجهّم وجه المريض .

وسمع حفيف ، ثم تبعه صوت لوميلا :

— انها يجلسان في الظلام ويتوششان ؛ فأين مفتاح النور ؟

وفجأة غمر الحجرة نور أبيض كزهر ، واذا بلوميلا امامها فارعة منتصبه ،

يجلها السواد .

وسرت الرعدة في كيان ايغور كله ، ورفع يده الى صدره ، وصاحت لوميلا ،

وهي تعدو نحوه :

— ماذا أصابه؟

وكان يرنو الى الأم بعينين جامدتين تبدوان واسعتين متألفتين ، ورفع رأسه وهو فاغر الفم ، ومد يده الى الامام ؛ فأخذتها الأم برقة ، وحدقت به ، وهو يسلاً انفاسه ، وبجركة تشنجية ، ألقى برأسه الى الورا ، وقال بصوت مرتفع :

— لا أستطيع لقد قضي الأمر ...

وتشنج جسده قليلاً : وتدل رأسه برفق على كتفه ، وانعكس الضوء البارد ، ضوء المصباح المعلق فوق السرير ، في عينيه المفتوحتين على اتساعها ، وانبعث منها بريقاً ميتاً .

وغغمت الأم :

— ايغور ، يا صغيري ..

وابتعدت لوميلا عن السرير ببطء ، ووقفت بالقرب من النافذة ، وقد ضاع بصرها في المجهول ؛ وصرخت بصوت قوي هائل لم تألفه بيلاجي من قبل :

— لقد مات ..

وانحنت فأسندت مرفقيها الى النافذة ، ثم هوت راكعة الى الارض وقد هدها الإعياء ، كأن ضربة شديدة نزلت على رأسها ، وغمرت وجهها بكفيها ، وراحت تنتحب بصمت ..

وشبكت الأم ذراعي ايغور المتناقلتين فوق صدره ، وورفعت الى الرسادة رأسه الشديد الثقل . ثم دنت من لوميلا وهي تكفكف دموعها ، وانكبت عليها تمسح شعرها الكثيف بلطف ، فأدارت المرأة الشابة نحو الأم ببطء ، عينيهما الحابتين المتسعيتين المآقي ، ثم نهضت وتمتمت بين شفيتها المرتعشتين :

— لقد كنا معاً في المنفى ، وعشنا فيه معاً . وضمتنا معاً نفس السجون وكان ذلك سجعاً ، فوق الإحتمال أحياناً ، وكان الكثيرون يفقدون شجاعتهم

وشدت الغصة الجافة حنجرتها ، ولكنها تمالكت نفسها يجهد ، وأدنت من الأم وجهها الوديع الهادئ ، وقد ارتسمت على ملامحه مسحة حنان وألم ؛ واستأنقت بغمغمة عجلى ، وزفرات لا توأكبها الدموع :

— وكان هو دائم المرح لا يعتور مرحه وناء . وكان يمزح ويضحك فيخفي بذلك آلامه . وكان يجهد نفسه ليرد على الضعفاء شجاعتهم ، وكان كثير الطيبة شديد الحساسية .

وهناك في سيبريا ، كانت البطالة تفسد الناس ، وتبعث فيهم غالباً الاحاسيس المنحطة ... أما هو فكان يعرف كيف يحارب هذه الاحاسيس . لو عرفته ، لعرفت اي رفيق كان . لقد كانت حياته الخاصة شقية أليمة ، ولكن احداً لم يسمعه ابداً يضح بالشكوى . لم يسمعه احد ابداً . لقد كنت صديقه حميمة له ، وإني لمدينة له بالشيء الكثير . فلقد وهبني من عقله كل ما استطاع ان يهب . وكان وحيداً متعباً ، ولكنه لم يطلب اليّ يوماً مقابل ما اعطى ، لم يطلب اليّ ابداً أن أبادله اهتماماً بأهتام ، وعاطفة بعاطفة .

واقتربت من ايغور ، وانحنت تقبل يده ، وتقول بصوت خافت حزين :

— يا رفيق ، يا رفيقي الغالي الحبيب . شكراً لك . شكراً لك من كل قلبي ، ووداعاً .. سأعمل كما علمت أنت ، دونما كلل ، وبأيمان لا يتزعزع ... سأعمل طوال حياتي ... فوداعاً .

وهدها الزفرات وخنقتها ، فألقت برأسها على السرير عند اقدام ايغور وكانت الأم تسفح دموعها الغزيرة بصمت ، وتحاول ان تكفكفها لسبب لا تدريه ؛ وودت ان تسبغ على لوميلا من حنانها ، وان تبرهن لها عن عاطفة خاصة عميقة ؛ وان تحدثها عن ايغور بعبارات تفيض محبة وأسى ؛ وكانت ترونو من خلال عبراتها الى وجه الميت المتورم ، الى عينيه اللتين تبدوان كأنها تغفوان تحت اهدابه المسيلة ، الى شفقيه القاتمتين اللتين تجمدت فوقها بسمة خفيفة . وكان كل شيء يلفه الصمت ، تحت نور المصباح ، هذا النور الذي يشيع الضجر والسأم ..

... ودخل الطبيب بخطواته العجلى كعادته ، ولكنه توقف فجأة في وسط الحجر ، وبجركة سريعة دس يديه في جيوبه وسأل بصوت نزق صارخ :

— أمنت وقت طويل ؟

ولم يتلق جواباً ، فترنح قليلاً ، ودنا من ايغور وهو يسبح جبهته ، ثم اخذ

يده ، فضغط عليها وارقد الى الوراء .

- ليس ذلك بمستغرب .. فلقد كان قلبه تعباً ، وكان هذا المصير منتظراً منذ ستة اشهر على الأقل .

وفجأة خفت صوته الحاد ، المضطرب الرنة ، وراح ، وقد اسند ظهره الى الجدار ، يمسد بجليته بأصابعه المضطربة ، ويرنو الى السيدتين الجائمتين قرب السرير واجفانه ترتعش باستمرار . وقال بهدوء :

- وهذا رفيق آخر فقدته!

ونفضت لوميلا ، ودنت من النافذة فشرعتها ، وبعد لحظة كان الثلاثة قد اكتظوا امامها يحدقون في وجه الليل الحريفي المظلم ، وكانت النجوم تتلألأ فوق ذري الاشجار السوداء ثم تغيب في اللانهاية ، في المدى البعيد للسماوات .

وأمسكت لوميلا بخصر الأم ، واستندت الى كتفها دون ان تتفوه بكلمة ، وكان الطيب يمسح نظارتيه بمنديله وهو مطرق ، وكان ضجيج المدينة الليلي يتهدد ، والنسيم البارد يتنفس في وجهه ، ويداعب شعره . واعترت لوميلا الرعشات ، وانسابت على خدها دمعة ، وفي ردهة المستشفى كانت تهم اصوات مشوشة وجلة ، ويسمع وقع خطى مسرعة ، ونخب ووشوشة حزينة . وكان الرفاق الثلاثة جامدين امام النافذة ، يحدقون في الظلمات صامتين .

وشعرت الأم بان وجودها غير ضروري فسحبت ذراعها بلطف من يد لوميلا ، وتوجهت نحو الباب ، وانحنت امام ايغور .

وسألها الطيب بصوت خافت ، دون ان يلتفت اليها :

- أنت ذاهبة ؟

- نعم .

وفكرت وهي في الشارع بلوميلا وذكرت دموعها الشحيحة :

- إنها لا تعرف ... حتى كيف تبكي .

واطلقت الكلمات الأخيرة التي لفظها ايغور العنان لزيارتها ، وتحملت وهي تسير بخطى بطيئة ، عينيه المشتعلتين ، واستمادت في ذاكرتها مزاحه واحاديثه .

- ان حياة الرجل الطيب أليمة ، وموته يسير ... فكيف ستراني أموت ؟ ثم تحملت لوميلا والطيب منتصبين بالقرب من النافذة ، في الحجرة البيضاء التي يغمرها الضياء وعينا ايغور الخامدتان وراءهما ، فأجتاحتها إشفاق مرهق ، أطلق من صدرها زفرة عميقة ، ثم انطلقت مسرعة ، يدفعها إحساس قائم لا تعرف كنهه .

وتمتت وهي تستكين لقوة داخلية يمتزج فيها الأسى باليأس :

- يجب أن أعد نفسي .

- ١١ -

وقضت الأم يومها التالي منهكة باعداد الترتيبات اللازمة لتشييع ايغور ، وفي المساء ، بينما كانت تتناول الشاي مع نيقولا وصوفيا ، أقبلت ساندرين نشيطة صحابة بشكل مثير للدهشة ، وكانت ملتبهة الوجنتين يبرق النشاط في عينيها ؛ وبدت للأم كأن هناك رجاءً فرحاً يفعمها ، ولم يلبث مزاجها اللطيف ان شن هجوماً ضارياً ضاحكاً على جو الأسى الذي تملأه ذكرى الراحل ؛ فأربكته ساندرين ، ولم تنغمس فيه ؛ وطرفته كالشعلة حين تتلألأ فجأة في قلب الظلمات .

وقال نيقولا وهو ينقر على الطاولة ساهماً :

- لست اليوم كعادتك يا ساندرين .

واجابت : صحيح ؟ ربما .

ثم أطلقت ضحكة فرحة .

ونظرت اليها الأم نظرة توبيخ صامت ، ونبهتها صوفيا بنبرة ذات مغزى :

- كنا نتحدث عن ايغور ...

واندفعت ساندرين :

- ياله من رجل مدهش ... أليس كذلك ؟ ان لم أره مطلقاً إلا والبسمة على شفثيه او المزحة . ويا لله كم كان يعمل . لقد كان فنان الثورة ، يعي النظرية

تمنحني الفرح ، وتسكرني بتعقدها المدهش ، وتنوع ظواهرها ، وتقدم الافكار
الغالية على قلبي . ربما كنا جميعاً شديدي الحرص على مشاعرنا ، نخفيها ونعيش
بالفكر ونسرف ، وهذا ما افسدنا بعض الشيء ، إذ إننا نفكر بدلاً من
ان نحس .

وسألته صوفيا باسمه :

— هل وقع لك حادث سعيد ؟

وضحكت ساندرين ، واجابت بهزة من رأسها :

— نعم ... حادث سعيد جداً ؛ كما اعتقد . لقد تحدثت طوال الليل مع
فيوسيكوف وكنت من قبل ، لا احبه ، إذ كنت أحسبه بدأئياً فظاً ، ولقد
كان كذلك بالفعل . لقد كان يحقد على الدنيا حقداً قاتماً ، لا يتزعزع ، ويضع
نفسه دائماً في نقطة المركز من كل قضية ، وبطريقة مؤلمة مثيرة للسخط . وكان
يتبجح : أنا ، أنا ، أنا ، أنا ...

وما هذا إلا إحساس برجوازي حقير مثير للكراهية .

وابتسمت ثم أجالت فيما حولها نظرة مشعة :

— اما الآن فهو يتحدث عن « رفاقه » . وحبذا لو تسمعونه كيف يلفظ
هذه الكلمة بانفعال ورقة وودود ، لا يمكن أن يعبر عنها بالكلمات . لقد اضحى
بسيطاً كل البساطة ، مخلصاً ، تقمه الرغبة في ان يتقن عمله . لقد وجد نفسه ،
وتبين قوته وعرف ماذا ينقصه . ويكفي ان يكون شعور الزمالة ، على الأخص ،
قد ولد فيه .

وكانت بيلاجي تصغي الى ساندرين ، ويسعدنا ان ترى الفتاة القاسية رقيقة
فرحة ، ولكن فكرة غيوراً كانت في الوقت نفسه تولد في اعماق نفسها :

— وبول ؟ أين هو من كل هذا ؟

واستأنفت ساندرين كلامها :

— ان هم الوحيد الآن ينحصر في رفاقه . افتدرون بماذا اقميني ؟ لقد اقميني

الثورية كمعلم عظيم . وبأية بساطة وقوة كان يرسم لوحة الكذب والكبت والجور .
وكانت تتكلم بصوت خافت ، وفي عينها بسمه حاملة لم تطفئ في نظرتها
لهب البهجة ... هذه البهجة التي كان الجميع يقرأونها ، دون ان يفهمها احد منهم .
وكان الحزن يسيطر عليهم ، فلم يستسلموا للبهجة التي حملتها ساندرين ، وكانوا
بصورة لا واعية ، يدافعون عن حقهم المرير في التغذي من المهيم ، ويحاولون
لا شعورياً ان يجرؤا الفتاة لتشاركهم مزاجهم الحزين .
وقالت صوفيا وهي تتطلع الى ساندرين بيقظة :

— وما هو ذا قد مات .

فأجالت ساندرين في وجوه الرفاق نظرة متسائلة ، وقطبت حاجبيها وطأطأت
رأسها بصمت ، ثم ردت شعرها المتهدل الى الوراء بحركة بطيئة ، ورددت بصوت
مرتفع ، بعد لحظة صمت :

— لقد مات .

ومن جديد راح بصرها المستغفر يطوف بالحاضرين :

— وماذا يعني ذلك ؟ لقد مات . وما الذي مات ؟ هل مات تقديري لاينغور ؟
هل مات شعوري نحوه ؟ نحو الرقيق ؟ هل ماتت ذكرى صنيع افكاره ؟ هل
مات هذا الصنيع نفسه ؟ هل انطفأت تلك المشاعر التي ايقظها في ؟ هل اتحت
تلك الصورة التي رسمتها له في ذهني ؟ صورة الانسان الباسل الشريف ؟ هل مات
هذا كله .. ؟ كلا ان ذلك ، في نظري ، لا يموت أبداً . اعرف ذلك ، ويبدو
لي اننا نتسرع كثيراً حين نقول عن انسان ما ، انه مات . لقد ماتت شفتاه ،
ولكن كلماته ما برحت حية ، وستظل الى الأبد ، حية في قلوب الاحياء .

وعادت فجلست ، وقد سيطر عليها الانفعال الشديد ، واستندت مرفقها الى
الطاولة ، ثم تابعت مبتسمة ، وهي اكثر هدوءاً وسهوماً ، تابعت ، وهي تلقي على
رفاقها نظرة غائمة :

— ربما كان ما قلته مجرد حماقات ؛ ولكنني أوؤمن أنها الرفاق بخلود الشرفاء ،
بخلود اولئك الذين وهبوني السعادة في ان احيا حياتي الرائعة ، هذه الحياة التي

بأن انظم حركة فرارهم ... نعم ... وقال ان ذلك بسيط جداً وسهل .

ورفعت صوفيا رأسها ، وقالت بلهجة قوية :

— وانت ماذا تقولين في ذلك يا ساندرين ؟ انه أمر يستازم التفكير .

وراح قذح القهوة يرتعش في يد الأم ، واكتد وجه ساندرين وحاولت ان تخفي انفعالها ، وبعد ان صمت لحظة ، تابعت بلهجة مغيظة وهي مرتبكة ، إلا ان بسمة الاغتباط كانت رغم ذلك ، تلوح على شفتيها :

— اجل ... كل شيء هو كما قال في الواقع . ويجب ان نحاول . هذا

هو واجبنا .

وتضرج وجهها ثم سكتت .

وغنمتم الأم باسمه : يا عزيزتي ، يا عزيزتي .

وابتسمت صوفيا بدورها ، واطلقت نيقولا ضحكة خفيفة ، وراح يتأمل

الفتاة برقة ، اما هي فقد رفعت رأسها ، ورننت اليهم بقسوة ، وقالت بصوت

غاضب ، وهي شاحبة اللون متألفة العينين :

— انكم تضحكون ، وانا افهمكم .. انكم تعتقدون ان هناك دافعا

شخصياً يدفعني !

ونهدت صوفيا ، ودنت منها ، وسألتهما بنجث :

— ولم يا ساندرين ؟

— ورأت الأم في السؤال تحدياً لساندرين واهانة لها ، فزفرت ، وتطلعت الى

صوفيا ، وفي ملاحظتها تقريع .

وصاحت ساندرين :

— إني ارفض ، ارفض النقاش في هذا الموضوع إذا شئت بحته .

وقال نيقولا بهدوء :

— كفى يا ساندرين .

ودنت الأم منها وراحت تداعب شعرها برقة ، فامسكت ساندرين يدها ،

ورنت اليها بارتباك ، وهي ترفع نحوها وجهها المتضرج . وابتسمت بيلاجي لها ،

ثم قنهدت بأبى بعدما أعياما أن تجيب ما تقوله ؛ وجلست صوفيا الى جانب

ساندرين وطوقت عنقها بذراعها ، وقالت لها وهي تمدق بها ، وتبتسم بفضول :

— لكم انت غريبة .

— أجل ... فأنا اعتقد اني تفوهت بمحاكات كثيرة ..

وتابعت صوفيا :

— كيف استطعت ان تفكري ...

ولكن نيقولا قاطعها قائلاً بلهجة فيها وقار واهتمام :

— إذا كان الفرار ممكناً فيجب أن ننظمه ، ولا مجال للتردد . ولكن علينا

قبل كل شيء ان نعرف ما إذا كان الرفاق السجناء يوافقون على ذلك .

واطرقت ساندرين ، وتطلعت صوفيا التي كانت تشعل لفافتها ، الى اخيها ثم

قذفت بعود الثقب الى زاوية من زوايا الحجر .

وزفرت الأم :

— ولم لا يوافقون ؟ أما انا فلا اعتقد ان الفرار ممكن .

وصمتوا جميعاً ، وكانت بيلاجي ترجوا أن تسمع صوتاً واحداً يؤكد لها

إمكانية الفرار .

وقالت صوفيا : يجب أن اقابل فيدوشيكوف .

وردت ساندرين : سأخبرك غداً متى وأين تستطيعين مقابلته .

وسألت صوفيا وهي تذرع أرض الغرفة :

— ماذا يود أن يفعل ؟

— لقد تقرر الاحتفاظ به كعامل لصف الاحرف في المطبعة الجديدة ؛ وسيقيم

بانتظار ذلك ، في منزل أحد حراس الغابات .

وتجهم وجه ساندرين ، واستعادت ملامح هذا الوجه قسوتها ، واسترد

صوتها جفافه ، واقترب نيقولا من الأم التي كانت تفعل الأتداح وقال لها :

— سنذهب الى السجن بعد غد ، فمن الضروري أن توصلي لبول قضاة من

الورق .. أفهمت ؟ يجب معرفة ..

تخشى قوماً لا سلاح لهم إلا الكلام . وكانت سماء خريفية زرقاء شاحبة تسكب ضوءها على الشارع الذي تبلطه أحجارٌ داكنة مستديرة ، تتناثر فوقها أوراق ميتة ، كان الهواء يتلاعب بها ، ويطرحها تحت الأقدام .
وكانت الأم في وسط الحشد تفكر بأسى وهي تطلع الوجه التي ألفتها :
« إنكم قلة ، ويكاد ألا يكون بينكم عمال . »

وشرعت الأبواب ؛ وظهر في الشارع غطاء النعش تزينه الأكاليل ذات الشرائط المحر ، وبجركة واحدة ، نزل الرجال جميعاً قبعاتهم فبدت فوق رؤوسهم كسرب من الطيور السوداء ، واخترق الجمع ، بقوة ، ضابط شرطي ؛ مديت القامة ، كثيف الشاربين متورد الوجه ؛ ومشى رجاله وراءه يدفعون الناس بفظاظة ؛ ويركون ارض الشارع بأحذيتهم الثقيلة .
وقال الضابط بصوت فظ ولهجة أمره :
— ارجوكم ان تنزعوا الشرائط .

واحاطوا به رجالاً ونساءً ، في حلقة متراسة ؛ وراحوا يخاطبونه كلهم في وقت واحد ، غاضبين ملوحين بأيديهم ، يريدون ان يبروا واحداً بعد آخر . وتراقصت أمام عيني الأم الغائمتين وجوهٌ شاحبةٌ مُستفزة ، مرتعشه الشفاه ، وكريجت على وجنتي امرأة دموع المذلة .
وتعالى صوتٌ فيّ ، ضاع وحيداً في ضجيج الجدل .
— ليسقط العنف .

وشمرت الإم ايضاً بالمرارة في قلبها ، فخاطبت جارها بجنق ، وكان شاباً رث الثياب :

— هذا فظيع . انهم لا يسمعون حتى بدفن رجل ... كما يريد رفاقه !
وتنامى الحقد ، وتهادى غطاء النعش فوق الرؤوس ، وكان الهواء يداعب الشرائط ويغلف الوجوه ، وكان خفيف الحرير يُسمع جافاً متوتراً .
وخشيت الأم أن ينشب المراك ، فقالت بصوت سريع خافت لمن كان حولها :

واجابت الأم بجحاسة :
— لقد فهمت ... لقد فهمت ... وساوصلها اليه .
واعلنت ساندرين :
— إني منصرفة الآن .

وخرجت منتصبه القامة ، مقطبة ، وسارت بخطى ثابتة بعد ان صافحتهم جميعاً واحداً بعد واحد .
ووضعت صوفيا يدها على كتف الأم وسألتها باسمه :
— هل تحبين أن يكون لك فتاة مثلها ؟
فهمت الأم وهي تكاد تبكي :
— يا السهي ... ليتني استطيع ان أراها معاً ... ولو ليوم واحد .
وعلق نيقولا :

— نعم ... ان القليل من السعادة كافٍ لكل إنسان ، ولكن ليس هناك من يتمنى هذا القليل . واذا كانت السعادة كبيرة ، فأنها تصبح رخيصة ..
وجلست صوفيا الى البيانوا ، وراحت تعزف لناً كثيراً .

وفي صباح اليوم التالي كان بضع عشرات من الرجال والنساء يقفون عند باب المستشفى ينتظرون أن يخرج جثمان رفيقهم ، وكان عددٌ من رجال الأمن يدورون حولهم بمحذر وقد ارتدوا الثياب المدنية ، ونشروا آذانهم لتلقف كل نأمة ، واطلقوا عيونهم تتفحص الوجوه وتحصي الحركات ، في حين كانت ترابط ، في الناحية الثانية من الشارع ، ثلة من رجال الشرطة ، مسلحة بالمسدسات .
وكانت وقاحة الجواسيس والبسات الساخرة على شفاه رجال البوليس المستعدين لمرض قوتهم ، كان ذلك كله يثير حتى الجمهور فيلجأ بعضهم الى المزاح ، يخفون به غضبهم ، ويُطرق البعض الآخر ؛ مقطين ، كيلا تقع اعينهم على ذلك المشهد المهين ؛ ويطلق آخرون غيرهم العنان لثورتهم ، فيهزأون بالسلطات التي

— إذا كان الأمر كذلك ، فليس لهم إلا ان يطيعوا ، وان ينزعوا الشرائط ؛
فماذا ترون ؟

وهدر صوت جهوري قاس ، فطغى على الجلبة :

— إننا نطلب ان نُترك بسلام لنشيع الى المثوى الاخير رفيقاً ستموه

العذاب ...

وصاح احدهم بصوت نحيف حاد :

« سندخل المعتك » .

— أرجوكم ان تنزعوا الشرائط . اقطعها يا جا كوفليف .

وسمع صليل حسام يُسل من غمده ، واغمضت الأم عينها تتوقع صرخة ،
ولكن الضجيج هدأ وتعالت دمدمة الناس ، وكشروا عن اسنانهم كالذئاب
الجانعة ، ثم ساروا بصمت ، مطرقي الرؤوس ، يملأون الشارع بصدى خطاهم .

وكان غطاء النعش المعري ، يتموج في الطليعة مع حطام الاكاليل ، وكان
رجال البوليس يسرون وراءه وهم يترنحون على وقع سنابك خيولهم ، وكانت
الأم تمشي على الرصيف ، ولا تستطيع رؤية النعش لكثرة المزدحمين حوله ، وكان
الحشد يتعاطم ، ويتعاطم رويداً رويداً فيملأ عرض الشارع كله .

وراء الحشد كانت قنصب الاشباح الرمادية ، أشباح فرسان البوليس ،
ويكتنف الجمهور من كل جانب ، المشاة منهم ، ويسرون وايديهم على قبضات
سيوفهم ، وفي كل مكان كانت تتراقص عيون نفاذة لجواسيس تعرفهم الأم ،
عيون تتفحص ملامح الناس بدقة وحذر .

وارتفع صوتان عذبان ينشدان بأسى :

— وداعاً ، رفيقنا ، وداعاً .

وصاح واحد من بين الجميع :

— يجب ألا نشد ، ولنصمت يا سادة .

وتميزت هذه الصرخة بشيء فيه قسوة واتزان ، فأقطع الانشاد الكئيب ،
وخفت ضجة الاصوات ، وظل وقع الخطى الحازم وحده يملأ الشارع بضجيج

اخرس رتيب ، ثم يرتفع فوق الرؤوس ، ويخلق في السماء الشفافة ، فيزلزل الفضاء
كرجع الزجاجة الاولى لعاصفة ما تزال بعيدة . وكانت الريح الباردة الحاقدة
ترداد عنفاً : تقذف وجوه الناس بالغبار والقذى ، وتعصف بثيابهم وشعورهم ،
وتطرف أعينهم ، وتصدق صدورهم ، وتزويج بين ارجلهم .

وكان هذا المأتم الضامث الذي لا كهنة فيه ولا تراويل مؤثرة ، وهذه الوجوه
المنقبضة الياسرة ، تشير في الأم إحساساً حزيناً ، فيدور تفكيرها ببطء ، ويسدل
على انطباعاتها قناعاً من الأفكار الكثيرة .

إنكم لقلّة ... انتم الذين تناضلون من اجل الحقيقة .

وكانت تتقدم مطأطئة الرأس ، ويخيل إليها انه ليس هو ايغور الذي يُحتفل
بدفنه ، وانما شيء آخر يختلف عنه ، شيء كانت قد ألفتة وكان قريباً منها ،
ضرورياً بالنسبة إليها ، وكانت من اجبل ذلك حزينه ، تعبى ، ينعم قلبها
شعور عنيف ، يقض مضجعها : فهي ليست منسجمة في التفكير مع هؤلاء الذين
يشيعون ايغور ، لقد كانت تفكر :

— لا شك ان ايغور لم يكن يؤمن بالله ، وان هؤلاء جميعاً لا يؤمنون به
كذلك .

ولكنها كانت لا تود الاسترسال في التفكير بهذا الموضوع ، فتأوّه ، لتطرح
ذلك الحمل الذي يبهظ روحها :

— يا إلهي ... يا يسوع ... أيمن ان اكون انا ايضاً كذلك

وبلغوا المقبرة ، وداروا دوراتٍ طويلة في معابر ضيقة بين القبور حتى انتهوا
الى مكانٍ خاوٍ غرست فيه بعمق صلبان بيضاء ؛ فتجمعوا حول حفرة هناك ،
ثم ساد الصمت . وكان هذا الصمت العبوس الذي ران على الاحياء بين القبور ،
ينبىء بشيء رهيب ارتعش له قلب الأم وجد يتوقه . وكانت الريح تتفخ بين
الصلبان وتعوي ، والازهار المتناثرة ترتعش ، اسبانه ، فوق النعش .

وكان رجال البوليس على استعداد تام ، يسمرون ابصارهم على قائدهم .
وانتصب فوق القبر شابٌ فارح ، شاحب الوجه حاسر الرأس ، طويل الشعر ،

ود الحاجين .

وفي اللحظة نفسها ، ارتفع صوت خشن ، صوت ضابط البوليس :

- ايها السادة .

وصاح الشاب بصوت جهور :

- ايها الرفاق .

وصرخ الضابط : انتبهوا ، إني لا استطيع السماح بالقاء الخطب .

وقال الشاب يهدوء :

- لن اقول إلا بضع كلمات فقط . ايها الرفاق : لنقسم على ضريح معلنا
ورفيقتنا الانسى تعاليمه ابدأ ، لنقسم على ان كلا منا سيعمل طوال حياته ،
دونما كلل ، للقضاء على ينبوع آلام وطننا كلها ، وعلى ان نحفر قبر للقوة الشريرة
التي تضطهد هذا الوطن ، قبر الاوتوقراطية .

وصاح الضابط :

- اقبضوا عليه .

ولكن صوته ضاع في دوي الصيحات العاتية التي ارتفعت :

- لتسقط الاوتوقراطية .

واندفع رجال البوليس نحو الخطيب وهم يشقون طريقهم اليه بين الجمع ،
ولكنه ، وقد اجأط به الناس من كل جانب ، كان يصيح وهو يلوح بيده :
- عاشت الحرية .

وألقي بالألم جانباً ، فأستندت في غمرة رعبها الى احد الصليبان ، ثم اطبقت
عينها كأنها تتوقع ضربة ما ، واصمت أذنيها عاصفة صاحبة من الاصوات المتنافرة ،
ومادت الأرض تحت قدميها ومنعها الخوف والريح من ان تتنفس ، وكانت
صفارات البوليس تمزق الفضاء ، وصوت فظ أمر يلعلع ، ونساء يطلقن صرخاتهن
المستيرية ، وكان خشب الاسوار يطقطق ، وخطو الناس الثقيل على الأرض
الصلبة ، يرسل صداه الاخرس . واستمر ذلك وقتاً طويلاً ولم تستطع الام ان
تظل مطبقة العينين ، وكان رعبها قد ربا ، حتى اصبح لا يحتمل .

وفتحت عينيها ، وأطلقت صرخة ، ثم اندفعت الى الامام وهي باسطة
ذراعيها ، وبالقرب منها ، وفي أحد المسالك الضيقة بين القبور ، كان رجال
البوليس ، قد أحاطوا بالشاب ذي الشعر الطويل ، وراحوا يردون عنهم الجمهور
الذي كان يهاجم من كل صوب ؛ وكانت السيوف المشرعة تبرق في الفضاء بألق
ناصع بارد ، وترتفع فوق الرؤوس ثم تنهاوى بسرعة . وكانت العصي وشظايا
الأسوار تتطاير . انها عاصفة ، انها رقصة من الأصوات مجنونة ؛ وفوق الحشد الثائر
كان وجه الشاب الشاحب ينتصب ، وصوته القوي يهدر فوق العاصفة ، عاصفة
الأحقاد المتفلتة من أغلالها .

- ايها الرفاق . يجب ألا نبدد قوانا .

وأطاعوه ، فأخذوا يلقون عصيهم واحداً بعد آخر ، ويتعدون بسرعة عن
ساحة المعركة وكانت الأم تشق طريقها ابدأ الى الامام مدفوعة بقوة غير منظورة ،
وكانت ترى نيقولا يدفع المتظاهرين الذين أثلهم الحقد ، وقبعته معلقة في عنقه ،
وتسمع صوته مشحوناً بالتأنيب :

- يالكم من مجانين . الهدوء . الهدوء .

وبدا لها أن احدى يديه كانت مضرجة بالدم ، فصاحت وهي تندفع نحوه :

- نيقولا ... انصرف من هنا .

- الى أين تذهبين ؟ إنك تتعرضين للضرب .

وأمسكت بكتفها يد ، واذا هي صوفيا . وكانت حاسرة الرأس منفوشة
الشعر ، تسند فتى يكاد يكون طفلاً ، وكان الفتى يمسح بيده وجهه المتورم المدمى ،
وشفتاه المرتعشتان تغمغان :

- دعوني .. فالجرح بسيط ليس بذى بال .

وقالت صوفيا بسرعة وهي تضع يد الفتى في يد الأم :

- اهتمي بأمره ، وخذي به الى منزلنا وهذا منديل فاعصي به وجهه .

ثم ولت الأدبار وهي تقول :

- إذهبا بأسرع ما يمكن ... انهم يمتقلون ...

وكان الناس يتفرقون في كل اتجاه ، ورجال البوليس يسرون بثناقل بين القبور ، ويتمشون بأذيال معاطفهم ، ويشتمون ريلوحون بسيوفهم ، وكان الفتى الصغير يتتبعهم بنظرة ذئبية .

وصاحت به الأم بتفور وهي تمسح وجهه :

— هيا بنا بسرعة .

فغمغم وهو يصق دماً :

— لا تقلقي . فليس بي من أذى . لقد ضربني بقبضة سيفه ، ولكنني سددت

له بدوري ضربة من هذه العصا ... فراح يعوي .

ثم طوى قبضته المضرجة وقال بصوت متقطع :

— انتظري . لم ينته الأمر بعد . وسنحرقهم دوماً صبيح ، عندما نثور ،

نحن العمال .

واستعجلته الأم :

— هيا بنا .

ثم التفت مسرعة نحو باب صغير في سور المقبرة ، وكان يخيل اليها ان رجال

البوليس قد كمنوا وراء السور ، في أحد الحقول ، ينتظرونها ، وانهم ، سيقبضون

عليها عند خروجها فيقتلونها ؛ ولكنها فتحت الباب الصغير بجزر ، وألقت نظرة

خاطفة على الحقول التي ارتدت حلة رمادية من غبش الخريف ، فهدأ من روعها ،

فجأة ، ما كان يخيم على هذه الحقول من وحدة وصمت .

وقالت للفتى :

— مهلاً ... دعني أعصب جرحك .

— لا حاجة لذلك فهو لا يجلني . لقد أصبت بجرح وأصيب هو بمثله فتساوينا .

وخذت الأم الجرح على عجل ، فملاها منظر الدم شفقة ، وعندما أحست أناملها

رطوبته الفاترة اعترتها رعشة رعب ، فقادت الجريح بسرعة عبر الحقول وهي

تجره من ذراعه ، صامتة ، ولكن الفتى أزاح الضمادة عن فمه ، وقال ، وفي صوته ضحكة

صغيرة :

— الى أين تفوديني يا رفيقة ! إني استطيع السير وحدي .

ولكنها كانت تحس انه يترنح ، وان خطواته لم تكن ثابتة ، وان ذراعه

يرتمش ، وكان يتكلم بصوت متهافت ، ويسألها دون ان ينتظر جواباً :

— إني أدعى جان ، ومهنتي سمكري .. وأنت ؟ ... لقد كنا في حفلة ايفور

ثلاثة ، ثلاثة سمكريين . وكان مجموع الحلقة أحد عشر عضواً . وكنا نحب كثيراً ،

رحمة الله عليه ... وإن كنت لا أومن بالله .

وعندما بلغوا أحد الشوارع استأجرت الأم عربة ، فأجلست جان فيها

ووشوشته :

— الآن .. عليك ان تلزم الصمت .

ثم عصبت بالمنديل فمه ثانية ، فرفع يده ليزيحه ، وعندما أعياء ان يحزر شفتيه ،

هوت يده بأعياء ، واستقرت فوق ركبتيه ؛ رغم ذلك فقد ظل يغمغم من

خلال العصابة :

— هذه الضربات سأقيدها لكم على الحساب ، يا أعزائي الطيبين ... وقبل ايفور

كان ثمة تيتوفيتش ... وهو طالب كان يعلمنا الاقتصاد السياسي .. ثم أوقفوه .

وأحاطت الأم جان بذراعها ، وأسندت رأسه الى صدرها ، وإذا به يتقل

فجأة ويصمت . وراحت وقد جمدها الرعب ، تطلت نظراتها الوجلي في كل ناحية ،

ويخيل اليها أن رجال البوليس سيثوابون من كل زاوية من زوايا الشارع عندما

يرون رأس جان المعصوب ؛ يتواثبون ليقبضوا عليه ويقتلوه .

وتلفت الحوذني من على مقعده وسأل بابتسامة لطيفة :

— لعله شرب ؟

فزفرت الأم :

— اجل .. ولقد اسرف كثيراً ، وهذا ما ينهك .

— هل هو ابنك ؟

— نعم ... وهو اسكافي ... أما انا فطاهية .

— مهنة شاقة ... نعم ...

وأهلب ظهر جواده بلسعة من سوطه ثم تلفت ثانية وتابع بصوت أشد خفوتاً:
— يظهر انه كان هناك بعض الضوضاء في المقبرة ، لأنهم كانوا يدفنون واحداً
من أولئك الذين يشتغلون بالسياسة ، والذين هم ضد السلطات . اما الذين
كانوا يقومون بدفنه فهم رفاق له بلا ريب ، وكانوا يهتفون : لتسقط السلطات
فبي التي تجلب الخراب للشعب . وهاجمهم رجال البوليس بالسيوف ، واسكتوهم
ويقال ان هناك قتلى ؛ وانه قد وقع بين رجال البوليس أيضاً بعض الاصابات .
وصمت ، وهز رأسه بأسى ثم استطرد يقول بصوت غريب :
— يضايقون الموتى ، (يوقظون الراحلين) ...

وكانت العربية تقفز بضجيج فوق بلاط الشارع ، ورأس جان يتأيل على صدر
الأم والحوزي يستدير نحوها نصف استدارة ويفغم مطرقاً :
— الشعب في هياج ، والفوضى تنبع من الارض . نعم ... ففي هذه الليلة
اقتحم الدرك بيت الجيران ، ولا ادري ماذا « فبركوا » طوال الليل ... ثم
انهم قبضوا على حداد وساقوه معهم ، ويشاع انهم سيقنادهونه ، في احدي الليالي ،
الى ضفاف النهر ويفرقونه سراً ، رغم ان هذا الحداد كان نموذجاً للرجل الطيب .
وسألته الأم :

— وماذا يدعى ؟

— من ؟ الحداد ؟ انه يدعى « سافيل » وانه ما زال صغير السن ، ولكنه
يدرك اموراً كثيرة ... اما ما كان يدركه فهو محرّم على ما يبدو . لقد كان
يأتينا دائماً فيسأل: أية حياة تحيونها انتم الحوزيين؟ فنقول له ان حياتنا، في الواقع ،
أسوأ من حياة الكلاب .

وقالت الأم فجأة :

— قف هنا .

وايقظ التوقف المفاجيء جان ، فراح يئن باعياء .
وعلق الحوزي :

— لقد صدم الفتى ... مسكين ... شارب الفودكا .

وكان جان يحتاز الساحة مترخاً لا يكاد يستوي على رجله ، ويقول :
— انه أمر غير ذي بال ... اني استطيع ان امشي ...

- ١٣ -

وكانت صوفيا قد عادت منهمكة منفعلة ، فاستقبلت الام ، وسيجارتها في فيها
ثم مدت الجريح على اريكة ، وراحت ، وهي توزع اوامرها ، تفكك بهارة
الضادة التي تعصب رأسه ، وكان دخان سيجارتها المتصاعد يحملها على اغماض
احدى عينيها .

— لقد وصلا يا دكتور . أأنت متعبة يا نيلوفنا ؟ لقد استولى عليك الخوف
اليس كذلك ؟ حسناً ... استريح . اعطها كأساً من الشراب يا نيقولا .
وكانت الأم وقد أذهلتها التجارب التي مرت بها ، تتنفس بصعوبة ، وتحس
بالأم في جنبها ؛ وقغمغم :

— لا تزعجوا أنفسكم من أجلي .

ولكن كيائها كله ، كيائها المتوتر كان يستدعي الاهتمام والعطف والمواسي .
وخرج نيقولا من الغرفة المجاورة معصوب اليأس ، وتبعه الطبيب الذي كان
شعره منفوشاً كشمع القنفذ ، واقترب هذا من جان بالسرعة ، وانحنى فوقه :

— آتوني بماء ، بكثير من الماء ، وبعض الحرق النظيفه والقطن . وتوجهت
الام نحو المطبخ ، ولكن نيقولا امسكها من ذراعها ، وقال لها بود وهو يجرها
الى غرفة الطعام :

— انه لا يطلب ذلك منك بل من صوفيا . لقد تحملت كثيراً من الانفعالات
ايتها الصديقة العزيزة .. اليس كذلك ؟

والتقت نظراتها ينظراته اليقظة الحادية ، ولم تستطع ان تكبت زفرتها
فاندفعت :

— لقد كان ذلك رهيباً يا نيقولا . لقد كانوا يحصدون الناس بسيوفهم ..
وقال نيقولا وهو يهز رأسه ، ويصب لها كأساً من النبيذ :

— لقد رأيت ذلك. كلاهما خرج عن أطواره بعض الشيء؛ ولكن هدي من روعك، فلقد كانوا يضربون بعرض سيوفهم، ولم يصب يجراح خطيرة إلا شخص واحد، رأيت يتلقى الضربات فسارعت الى سحبه من ساحة العراك.

وكانت ملامح نيقولا وصوته، والدفء الذي يشيع في الغرفة، والنور الذي يغمرها، كان ذلك كله يهدىء من اعصاب بيلاجي، فرمقته بنظرة شاكرة وسألته: — وأنت، هل أصبت أيضاً بضرباتهم؟

— لقد حملت الجريح وحدي، وجرحت يدي على غير انتباه، وانكشط جلدها. خذي اشربي هذا القدر من الشاي، فالجو بارد، وثيابك خفيفة.

ومدت يدها الى القدر فأبصرت الدم المتجمد يصنع اناملها؛ وبجركة لا إرادية تهاوت يدها الى ركبته، وكان ثوبها مبللاً. وكانت تنظر الى اصابعها، وعيناها جاحظتان، وحاجبها مرتفع، وكان رأسها يدور، وخاطرة تطرق رأسها: — قد يعاملون بول هكذا... وانهم لقادرون.

ودخل الطبيب وقد خلع سترته وشمر عن ساعديه؛ وأجاب بصوته النحيل على سؤال نيقولا الصامت:

— إن جرح الوجه سطحي، إلا ان هناك كسراً في الجمجمة؛ وهو ليس بخطير لأن بنية الفكي قوية، ومع ذلك فقد نزف منه كثير من الدم، وستقوم بإرساله الى المستشفى.

ورد نيقولا:

— لماذا؟ ليق هنا.

— هذا يمكن اليوم وغداً ايضاً... أما بعد غد فلا... اذ لا يبقى لدي متسع من الوقت لزيارته. هل ستضع بياناً عن حادث المقبرة؟ — طبعاً.

ونهضت الام بسكون، واتجهت نحو المطبخ، فسألها نيقولا بكآبة وهو يستوقفها:

— الى أين يا نيلوفنا؟ ستقوم صوفيا بالعمل وحدها.

ورنت اليه، وأجابته مرتعشة وعلى شفتيها ابتسامة غريبة:

— اني ملطخة بالدم.

وابدلت ملابسها في غرفتها وراحت تفكر مرة أخرى بهدوء، تفكر بهؤلاء القوم، وبموجهتهم في التغلب السريع على الهول في أي موقف. وأعادها هذا التفكير الى نفسها، فطردت الوجع من قلبها، وعندما رجعت الى الحجرة حيث كان الجريح وجدت صوفيا تقول له، وهي تنحني فوقه:

— انك تتفوه بالحماقات يارفيق.

فأجابها بصوت نازل ضعيف:

— ولكنني سأسبب لكم الازعاج.

— اسكت إذن... فذلك أفضل.

ووقفت الأم وراء صوفيا، ووضعت يدها على كتفها، وحدقت باسمه في وجه المريض الشاحب، وراحت تقص الأشياء التي هذى بها وهو في العربة، وتصف الرعب الذي استحوذ عليها من جراء كلامه المتهور، وكان يصغي وعيناها تلمعان من الحمى، وأسنانه تصطك ولسانه يردد بارتباك:

— أوه... لكم اناغني.

وقالت صوفيا بعد ان سوّت غطاءه:

— حسناً، سترك الآن، فاسترح.

وانتقلت السيدتان الى غرفة الطعام حيث تحدثتا طويلاً، مع نيقولا والطبيب عن احداث النهار. لقد كانوا يبحثون المأساة كأنها شيء من الماضي السحيق، وينظرون الى المستقبل بصفاء، ويتناقشون في عمل الغد؛ واذا كانت ملاحظتهم عن الانهك فإن افكارهم كانت تملأها العافية؛ وعندما كان أحدهم يتحدث عما يشغله كان يعلن عدم رضاه عن نفسه. وكان الطبيب يتملئ في مقعده بعصبية، ويقول مجتهداً في أن يسبغ على صوته النحيل الحاد وقاراً أكثر.

— الدعاوة، الدعاوة... إنها ليست كافية الآن. إن الشيبية الكادحة محقة، ويجب أن تتحرك وفق مخطط أوسع.. العمال محقون... هذا ما أقوله لكم..

وأجاب نيقولا بلهجة قائمة :

— إن الشكوى تتعالى لعدم توفر الكتب، ومع ذلك فلا تتوفر لنا دائماً مطبعة جيدة . إن لوميلا منهكة ، وستقع فريسة المرض إذا لم توفر لها مساعدين .

وسألت صوفيا :

— وفيسوشيكوف ؟

— إنه لا يستطيع الإقامة في المدينة . ولن يباشر العمل إلا في المطبعة الجديدة ، ولكننا من أجل ذلك بحاجة أيضاً إلى شخص آخر .

وقالت الأم بهدوء :

— ألا أصلح أنا لذلك ؟

وهتفت صوفيا : أنها فكرة طيبة .

ورد نيقولا يحفاف :

— كلا ، فالعمل مرهق بالنسبة إليك يا بيلاجي .. ثم انه يقتضيك العيش خارج

المدينة حيث لا تتاح لك رؤية بول .

وقاطمته وهي تتنهد :

— ليس في ذلك بالنسبة لبول حرمان كبير ، أما بالنسبة إلي ، فهذه الزيارات

تهصر قلبي . اننا لا نستطيع ان نقول شيئاً . اني ابيع كالحيون امام ابني ،

ويركزون هم ابصارهم على فك ، ليروا ما اذا كنت ستدأى في الحديث ..

لقد استنفدت أحداث الأيام الاخيرة قواها ، والان ، ها هي الفرصة تسنح

لها لتعيش بعيداً عن مآسي المدينة ، وانها لترغب في ذلك أشد الرغبة .

وغتير نيقولا مجرى الحديث فسأل الطبيب :

— بماذا تفكر ؟

فرفع هذا رأسه وأجاب متجهاً :

— إننا قلنا ؛ هذا ما أفكر فيه . وعلينا ان نعمل بحبوية أكثر ، وان نقنع

اندرية وبول بضرورة الفرار ، فكلاهما اثن من ان يظل عاطلاً عن العمل .

وزوئي نيقولا ما بين عينيه وهز رأسه مراتباً ، وهو يلقي على الأم نظرة خاطفة ،

أودركت هي انهم لا يستطيعون التحدث بحرية عن ابنها بحضورها فانسحبت الى غرفتها ، وفي قلبها بعض الحقد عليهم ، عليهم هم الذين لم يعيروا رغبتها الا القليل من اهتمامهم .

وتددت في سريرها وهي مفتوحة العينين ، يهددها همس اصواتهم ، ثم لم تلبث ان استسلمت لهومها ، وكان النهار الذي ولتى ، يبدو لعينيها متجهاً مستعصياً على الفهم ، طافحاً بالرؤى الحزينة ، وكان يؤلمها ان تفكر فيه ، لذلك راحت وهي تطرد من ذهنها انطباعاته الكثيرة ، تركز تفكيرها ببول .

لقد كانت تود ان تراه حراً ، وفي الوقت نفسه كانت هذه الرغبة تخيفها ، فهي تحس حولها توتراً ، واصطداماتٍ فلسية وشبكة الوقوع ! لقد تلاشى استسلام الناس الصامت ، وحل مكانه التيقظ ، وقنامت النعمة بشكل محسوس ، وراحت المناقشات الحادة تدوي ، وفي كل مكان تنفخ ريح هياج جديد .

وكان كل منشورٍ يثير الجدل العنيف في السوق والحوانيت ، بين الخدم والحرفيين ، وكل اعتقال يترك صدىً خائفاً قلقاً ، ويولد ، في بعض الأحيان ، وبصورة لا شعورية ، شعوراً من التعاطف مع تلك التعليقات التي كان الثوريون يقدمونها للكشف عن دوافع هذا كله . وكانت بيلاجي غالباً ما تسمع من أفواه الناس البسطاء كلمات كانت من قبل تبعث رعبها : تمرد ، اشتراكيون ، سياسة . وكانوا يرددون هذه الكلمات بسخرية ، إلا ان هذه السخرية كانت لا تقلح في إخفاء نهمهم الى المعرفة ، وكانوا يرددونها بتفكير ، ولكن هذا التفكير كانت تشوبه ملامح من الرجاء والوثيد .

وأخذ الاضطراب ينتشر ببطء ، ولكن في دوائر واسعة ، تنتظم الحياة الراكدة الكالحة ؛ وكان الفكر الحذر يستفيق ، والاستسلام الهادىء المألوف الذي واجه به الناس أحداث يومهم ، يفقد سلطانه .

لقد كانت بيلاجي تميز ذلك بوضوح اكثر من رفاقها ، لأنها كانت تعرف وجه الحياة الحزين اكثر مما يعرفونه ؛ هذا الوجه الذي ترى الآن فيه ، تقضتات التفكير والسخط ، فتستشعر الغبطة والخوف في آن واحد . أما الغبطة فلأنها

كانت تعتبر أن ذلك من صنع ابنها، وأما الخوف، فلأنها كانت تعلم أنه سينطلق إذا ما خرج من السجن، على رأس رفاقه جميعاً، سينطلق بهم إلى النقطة الأشد خطراً، وسيهلك .

وكانت صورة ابنها، تأخذ في عينها، أحياناً، تقاطيع بطل من أبطال الأسطورة، بطل يتحد في شخصه كل ما سمعته من قول حق، جريء، وكل ما أحببت من كائنات، وكل ما كانت تعرف من بسالة وفضاء، وكانت تجد هذا البطل بحماسة وزهو وحنان، وتقول في نفسها، والآمال تنمورها :
- سيسير كل شيء على ما يرام ... كل شيء .

وكان حبها، حبها كأم، يزداد ضراماً . ويهصر قلبها حتى ليكاد يحملها على الصراخ، وكان، من ثم، يحول دون نمو حبها للإنسانية، بل يستغرق هذا الحب كله، فلا يظل مكان هذا الشعور العظيم، إلا فكرة حزينة تنبض بوجل في الرماد الداكن، رماد القلق :
- سيلقى حتفه ... سيهلك .

- ١٤ -

وعند الظهيرة كانت أمام حاجز السجن، تجلس تجاه بول، وتتفرس في وجهه الملتهجي، بعينين غائمتين، وتترقب اللحظة التي تتمكن فيها من تسليمه القصاصة التي كانت تشد عليها بين أصابعها
وقال لها بول بصوت خافت :

- ان صحتي جيدة، وكذلك رفاقي، فكيف حالك أنت ؟
وأجابته بألية :

- لا بأس ... ولكن ايفور قد مات .
ورذ عليها :

- آه ... نعم ؟

ثم أطرق برأسه إلى الأرض .
وتأبعت هي ببساطة :

- وعند الدفن، حصلت مشادة مع رجال الشرطة، وأوقف احد الاشخاص وسقسق معاون مدير السجن منفعلًا ودمدم وهو يقفز من مقعده :

- هذا ممنوع . يجب ان تفها ذلك بالحسنى . فلا يجوز التحدث هنا في السياسة .
ووقفت الأم وقالت محتجة :

- انا لا اتحدث في السياسة، بل عن الخلاف الذي حصل، والواقع انهم اشتبكوا في عراقك، حتى ان أحدهم أصيب بشح في رأسه .
- هذا سواء عندي . لذلك ارجوك ان تكفي . يعني أنك لا تستطيعين الكلام إلا فيما يتعلق بك، بك شخصياً وبعائلتك، وببيتك .

وعندما شعر انه سيقع في الارتباك، جلس إلى طاولته، وأضاف بلهجة خافتة كثيفة، وهو يرتب أوراقه :

- إني مسؤول ... نعم ...

وحدثه الأم بنظرة، ثم دست القصاصة في يد بول وتأوهت بارتياح :

- إننا لا ندرى ما الذي يريد ان نتحدث عنه .

وابتنم بول :

- وأنا كذلك لا أدري .

وأضاف المعاون بانفعال :

- إذ لا داعي للزيارات . لا شيء لديكم تقولونه ... ثم تأتون مع ذلك لازعاج الناس جميعاً .

وسألت الأم بعد فترة من الصمت :

- هل سيكون موعد المحاكمة قريباً ؟

- لقد جاء النائب العام إلى هنا مؤخراً، وقال ان الموعد سيكون قريباً .
وتبادلا أحاديث لا معنى لها، أحاديث لا فائدة فيها لكليهما، وكانت الأم تلاحظ أن بصر بول يستقر عليها بعدوبة وحنو .

إنه لم يتغير، إنه ما زال هادئ الطبع متزناً، غير ان لحيته الخصبية النمو، كانت تجعله يبدو طاعناً في السن، وكانت يداه أشد بضاضة من ذي قبل وساورتها رغبة في ان تدخل النشوة إلى قلبه، ان تحدته عن فيسوشيكوف بنفس

— هذا صحيح . لقد نسيت . لنتنظر اسبوعاً آخر ... اسبوعاً آخر . هل
تعتقدن انه سوافق ؟

وتجهم وجهها ولم يبارح بصرها عيني الأم التي أجابت وهي تفكر :
— لا أدري ... ولكن لم لا يوافق إذا لم يكن في الأمر مخاطرة ؟
وهزت ساندرين رأسها ، وخففت من اهتمامها وسألتها ببرود :
— الا تعرفين ماذا يجب ان نطعم المريض ؟ إنه يطلب طعاماً .
— نستطيع ان نطعمه كل شيء ، كل شيء ... سأذهب الى ...
ودخلت المطبخ فتبعتها ساندرين بثناقل :
— هل لي ان اساعدك ؟
— شكراً . لا ضرورة لذلك .

وكانت الأم تنحني فوق الموقد ، تتناول طنجرة ، عندما دنت الفتاة منها
وقالت لها بصوت خفيض :
— مهلاً .

وشحب لونها ، وكانت عيناها المفتوحتان على اتساعها تقطران كآبة ،
وشفتاها المرتعشتان تتمتان يجهد ، ولكن بغير حرارة :
— وددت ان اسألك ... ولكني اعلم انه لن يوافق . فاقنعيه ، قولي له بأننا
نحتاج اليه من أجل قضيتنا ؛ وبأننا لا نستطيع الاستغناء عنه ، وبأنني أخشى
عليه من المرض ... ألا ترين ؟ إن موعد المحاكمة لم يحدد بعد .
ولقد كان واضحاً انها تجد في الكلام عنناً ، وكان الجهد يوتر اعصابها ،
وصوتها ينساب منقطعاً ، وكانت وهي تسبل أجفانها التعبى ، تقضم شفتيها ،
وتضغط على أناملها بشدة .

وهزت هذه الثورة العاطفية الأم هزاً عنيفاً ، ولكنها أدركت دوافعها ،
فاحتضنت الفتاة وقد ملأها الاضطراب والأسى ، وأجابتها بصوت خافت :
— إنه لا يستمع لأحد ، يا صغيرتي الغالية ... لا لأحد إلا لنفسه .
وظلتا كلتاها صامتتين ، وهما تتمتان بجمرة ، ثم هطلت ساندرين بلطف ،

الصوت وبنفس اللهجة ، التي تتحدث بها عن أشياء لا جدوى فيها ، فقالت :
— لقد رأيت ابنك بالعماد ... (فليونك)
فرمقها بول بنظرة متسائلة ، ولكي تذكره بوجه فيسوشيكوف المجدور ،
راحت تنقر على وجهها بأصبعها وتقول :
— إنه على ما يرام . وهو فتى قوي فئثار ، وسيلتحق عما قريب بعمل .
وفهم بول ؟ ورد عليها بإشارة من رأسه حيثة ، وبسمة في عينيها مرحة :
— هذا جميل .

— حسناً ... هذا ما عندي .
وكانت راضية عن نفسها كل الرضى ، متأثرة بالبهجة البادية في ملامح ابنها ،
وعندما ودعته ، شديداً بجمرة :
— شكراً يا امه .

وكنشوة الخمور تصاعد الاحساس بالفرحة الى رأسها ، فرحة الاحساس بان
قلب ابنها قريب كل القرب من قلبها ، ولم تقو على ان ترد عليه بالكلمات ،
فردت فقط بضغطة صامته على يده .

ولدى عودتها وجدت ساندرين عندها ، فلقد تعودت الفتاة ان تأتي في الأيام
التي تذهب فيها الأم الى السجن ، كما تعودت الاتسألها ابداً عن بول ، فإذا
اعتصمت الأم بالصمت ، ولم تتحدث عنه من لقاء ذاتها ، اكتفت ساندرين بان
تقرأ في عينيها ما تريد ان تعلم . ولكنها ، هذه المرة ، استقبلتها بسؤال قلبي :
— حسناً ، ماذا يفعل ؟

— إنه بخير .
— هل سلمته القصاصة ؟
— بكل تأكيد ، ولقد فعلت ذلك بمهارة فائقة لدرجة ...
— وهل قرأها ؟
— اين يستطيع ان يفعل ؟
— واستدركت الفتاة فقالت ببطء :

... وهزت الأم رأسها ، وأصاحت بسمها فأضاف الفتى بزهو لاقى وقمه الحسن في نفسها :

- لقد كان هو اول من رفع علم حزينا عاليا . ولم أك أنا موجوداً . وكنا نفكر بأن نقيم هنا احتفالاً خاصاً بنا ، ولكننا لم نتجح . لقد كان عددنا قليلاً في ذلك الحين ، أما هذه السنة ، فسيكون ذلك ممكناً بلا ريب ... سترين .
وأخذ التأثر منه كل ما أخذ وهو يتذوق مسبقاً أحداث المستقبل ، ثم تابع ، وهو يحرك ملعقته :

- وإذن ... فإن ام فلاسوف التي حدثتك عنها ، قد انخرطت هي أيضاً في الحزب ... انخرطت فيما بعد ... ويقال إنها امرأة مدهشة .
وابتسمت الأم ابتسامة عريضة ، فلقد كان يلذ لها ان تسمع ثناء الفتى الحار ، وكادت تقول له : « اني انا ... أم فلاسوف » ولكنها احجمت ، وقالت في نفسها يحزن يازجه بعض السخرية :

- آه ... يا لي من عجوز حمقاء .
والتفتت اليه فجأة ، وقالت بتأثر وهي تميل نحوه :
- هيا ... كُتْلُ أكثر ... واستعد صحتك بسرعة من أجل قضيتنا الخيرة .
وُفتح الباب ، وسبقت صوفيا نفحة من برودة الحريف الرطبة ، ودخلت هذه بادية المرح ، متوردة الحديدين :

- أقسم بشرفي أن الجواسيس يلاحقونني كما يلاحق العرسان وارثة ثرية ...
يجب أن أرحل من هنا .
وكانت وهي تشعل لفاقتها ، تطرح الأسئلة دون ان تنتظر الجواب عليها :
- وجان كيف حاله؟ هل هو بخير ؟ وأخبار بول يانيوفنا؟ هل ساندريين هنا؟
وكانت عيناها الرماديتان تلفان الأم والشاب بنظرة ناعمة لطيفة ، وكانت الأم تتأملها ، وتبتسم فيما بينها وبين نفسها ، وتفكر :

- ها أنذا قد اصبحت أيضاً شخصاً ذا قيمة .

- ومالت من جديد نحو جان لتقول له :

وقالت وهي ترتعش :

- نعم ... إنك على حق ، وما قفوهتُ به مجرد حماقات ... إن أعصابي ...

... ولكنها استعادت هدوءها فجأة فتأملت ببساطة :

- لنحمل الى الجريح إذن ما يأكله .

وجلست عند رأس جان ، وسألته بكثير من الاهتمام والمطف :

- أيؤملك رأسك كثيراً ؟

وأجاب جان وهو يشد الغطاء بارتباك ، ويرفعه حتى ذقنه :

- كلا ... ولكنني أشعر بدوار ، وبأني خائر القوى .

وكانت أجفانه ترتعش بلا انقطاع كأن النور يطرفها ، ولاحظت ساندريين انه

لن يتناول طعامه بحضورها ، فنهضت وخرجت .

وجلست جان في سريره ، وتلبعها ببصره ، وقال وهو يفمزم بعينيه :

- فتاة رائعة .

وكانت عيناها الصافيتين جدلتين ، وأسنانها صغيرة متراسة ، وصوته لاترن

فيه نبرات الرجولة .

وسألته الأم مطرقة :

- كم عمرك ؟

- سبعة عشر عاماً .

- أين هم أهلك ؟

- إنهم في الريف . أما أنا فاني هنا منذ سبع سنوات .. أي منذ انهيت

دراستي . وأنت ... ما اسمك يا رفيقة ؟

وكان يبهج الأم ويعجزها دائماً ان يتوجه اليها أحد بالحديث ، لذلك أجابته باسمه :

- لم تريد ان تعرف اسمي ؟

وأوضح الفتى بارتباك ، وبعد لحظة من الصمت :

- لأنه كان في حلقنا طالب ... أقصد ... طالب كان يدرس معنا ، وقد

حدثنا عن والده بول فلاسوف العامل ... أتعلمين انه في احتفال أول أيار ... ؟

- هيا ، إشف سريعاً يا صغيري .

وتوجهت نحو غرفة الطعام حيث كانت صوفيا تحدث ساندرين :

- لقد أعدت حتى الآن ثلاثية نسخة ، وهي تكاد تقتل نفسها في هذا العمل . إنها لبطولة حقاً . افتدريين يا ساندرين انه لمن السعادة الكبرى ان يعيش المرء بين قوم كهؤلاء ؛ وأن يكون رفيقاً لهم ، وأن يعمل معهم . ؟

وأجابت الفتاة بصوت خفيض :

- نعم .

وفي المساء قالت صوفيا للأم :

- ينبغي ان تذهبي ثانية الى الريف يا نيلوفنا .

- حسناً . اني موافقة ... متى يكون ذلك ؟

- خلال يومين او ثلاثة ... هل هذا ممكن ؟

- أجل .

ونصحها نيقولا :

- لا تذهبي مشياً على الأقدام بل استأجري جياذ بريد ، واسلكي طريقاً

آخر عبر مقاطعة « نيكولسكواي » .

وصحت ، وتجهم وجهه ، ووظفت على ملامحه الهدائة ابدأ ، مسحة من القرابة

والدمامة .

وردت الأم :

- إنه طريق طويل ، ثم ان الجياذ تكلف غالباً .

وتابع نيقولا :

- اسمعي ... اني في الواقع لا اوافق على هذه الرحلة لأن الاضطراب يشمل

تلك الناحية ، وقد أعتقل عدد من الناس ، بينهم على التدقيق ، معلم مدرسة .

يجب ان نكون اكثر حذراً ، ومن الأفضل ان ننتظر قليلاً ...

وعلقت صوفيا على هذا الكلام وهي تنقر على الطاولة باصبعها :

- المهم ان يستمر توزيع النشرات بلا انقطاع .

ثم وجهت الكلام فجأة الى الأم :

- الاتخشين الذهاب الى تلك المنطقة يا نيلوفنا ؟

وآلم ذلك الام فقالت :

- ومتى كنت اخاف ؟ إنني في المرة الاولى نفسها لم أشعر بأي خوف ، والآن .

وطأطأت رأسها دون ان تكلل جملتها ، ففي كل مرة كانوا يسألونها عما اذا

كانت تخاف وعما اذا كان هذا الامر يرافقها ، وعما اذا كانت تستطيع أن تفعل

هذا الشيء أو ذلك ، وكانت ترى في هذه الاسئلة توسلاً ، ويخيل اليها انهم يعزلونها ،

ويعاملونها بشكل مغاير لما يعاملون به بعضهم بعضاً .

وعادت الى الكلام متنهدة :

- عبتاً تسألونني عما اذا كنت اخاف . أنكم لا تطرحون هذا السؤال على

بعضكم بعضاً .

ونزع نيقولا نظارته بجدة ، ثم اعادها ، وحدهج اخته . وهز السكون الحائر

الذي جاء في اعقاب ذلك ، هز بيلاجي ، فنهضت ، منزعجة الملامح ، وبودها أن

تقول شيئاً ، ولكن صوفيا لمست يدها برفق ، وقالت لها بصوت خافت كل

الحقوق :

- ساعيني ، لن اعود لمثل ذلك ابدأ .

واضحك هذا القول الأم ، وبعد لحظات قليلة انهمك الثلاثة ، بكثير من

الاهتمام ، في حديث ودي عن تفاصيل الرحلة الى الريف .

- ١٥ -

وعند الفجر كانت الام تتمدد في العربة التي تطفر فوق الطريق المبلل بمطر

الحريف ، وكان الهواء الرطب يهب عليها ، والوحل يتطاير حولها ، في حين كان

الحدودي يستدير نحوها ، وهو في مقعده ، نصف استدارة ، ويشكو اليها بصوت

ناحب أنحن :

- وقلت له ... اعني لأخي ، حسناً ، لننقسم ، وبدأنا إجراء القسمة .

ولسع بسوطه فجأة ، الجواد الأيسر ، وصرخ بصوت خانق :

— ديه ... هيا ، اسرع يا ابن الساحرة .

وكان غربان الخريف الفارحة تسير مغمومة فوق اثلام الحقول ، والهواء البارد يعصف بها نافخاً ، فتدير جنوبها لهباته التي تعبت بريشها وتفقدتها توازنها ، فلا ترى بدأ من الرضوخ للقوة ، إذ لا تلبث ان تحرك اجنحتها الكسلى . وتنطلق لترتاح في مكان آخر .

وتابع الخوذي :

— ثم غلبني ... فرأيت انه قد أسقط في يدي ...

وكانت الام تتلطف كلماته كأنها في حلم ، وكانت ذاكرتها تستعرض امامها سلسلة الأحداث الطويلة التي عاشتها في سنواتها الاخيرة . لقد كانت الحياة ، من قبل ، تبدو لها خارجية نائية ، لا يدري احدٌ من صنعها ، ولماذا صنعها ؟ اما الآن فإن كثيراً من الأشياء تتكون تحت سمعها وبصرها ، وبموازرتها ؛ وكان هذا يوقظ فيها إحساساً مشوشاً يمتزج فيه الشك بشعور الرضى عن الذات ، والحيرة بالحزن الهادىء .

وكان كل شيء حولها يتذبذب في تحرك بطيء ، وفي السماء تهم الغيوم الرمادية وهي تتطارد بتثاقل ، وعلى جانبي الطريق تتراكم الأشجار البليدة وتهتز ذراها العارية ؛ وكانت الحقول تنأى في حركة دائرية ، وترتفع هضاب ثم لا تلبث ان تغيب .

وكان صوت الخوذي الاخن ، ورنين الجلاجل ، ونفح الريح الرطبة وضجيجها ، كان ذلك كله ينضهر في جدولٍ متئن ، نابض ، يتدقق فوق الحقول بقوةٍ رتيبة لا تتغير .

واكل الخوذي وهو يجرجر كلماته ويترنح فوق مقعده :

— وحتى في الجنة نفسها يعيس الثري في ضيق... هكذا... ثم أخذ يعتمرني فلقد كان على صلة طيبة بالسلطات .

وعندما وصلا الى محطة البريد اوقف جواده وقال للأم بصوت لا أمل فيه :

— ليتك تعطينني قطعة نقدية صغيرة لأشرب كأساً ؟

واعطته خمسة « كوبيكات » فخشخش بها في يده واعلن باللهجة نفسها :

— ثلاثة للفودكا ... واثنان للخيزر .

وبعد الظهر بلغت بيلاجي قرية كبيرة تدعى « Nikolshié » وهي منهكة القوى ترتعش من البرد ؛ فدخلت فندق الحطة ، وطلبت قدحاً من الشاي ، وجلست قرب النافذة بعد ان وضعت حقيبتها الثقيلة تحت المقعد ؛ كانت النافذة تطل على ساحة صغيرة يغطيها بساطٌ من العشب المصفر ، وعلى مبنى مديرية المقاطعة وهو ذو لون رمادي غامق ، وسقف كثير التثني ، وكان ثمة على سلم المبنى ، قروي اصلع طويل اللحية ، يرتدي قميصاً فقط ، ويدخن غليونه . وكان هناك خنزير يسير فوق العشب ، ويحفر الأرض بخرطومه ، محرّكاً رأسه واذنيه ، وملاحه تم عن عدم الرضا .

وكانت الغيوم تتراكم في كتل متجمعة ، ويتداخل بعضها ببعض ، وكان الجو قائماً هادئاً حزيناً ، يخيل للمرء معه ان الحياة قد توارت ، وامسكت انفاسها . وفجأة ، وصل جاويش قوزاقي مسرعاً ، فأوقف جواده الأشقر امام سلم المديرية وصرخ ببعض الكلمات في وجه القروي وهو يهز كرابجه ، وكانت صيحاته ترتطم بزجاج النافذة ، ولكن الأم لم تكن تسمع ما يقول . ووقف القروي ومد ذراعه يشير نحو الافق ، فترجل الجاويش ، ودار على عقبيه كالخائر ، ثم التقى الرجل بأعنة جواده ، وامسك بحاجز السلم وراح يرتقي درجاته بتثاقل الى ان اختفى في البناء .

وخيم الهدوء من جديد ، وضرب الجواد الارض الرخوة بجوافره ضربتين ، ودخلت الى الغرفة التي كانت بيلاجي فيها ، فتاة صغيرة تنسدل على عنقها صغيرة قصيرة صفراء ، وتلمع في وجهها المستدير عينان ملاحظتان . وكانت تحمل فوق ذراعها المدودين وهي تمض شفيتها ، طبقاً متآكل الحوافي ، مثقلاً بالأواني المطبخية . وحيث الأم بهزات متتابعة من رأسها ؛ فقالت لها الأم بود :

— صباح الخير ايتها الصغيرة الشاطرة .

- صباح الخير .

ووضعت الصغيرة الاكواب والاطباق على الطاولة وفجأة اعلنت بجوية :

- لقد ألقوا القبض على لص ، وسيأتون به الى هنا .

- من هو هذا اللص ؟

- لا ادري .

- وماذا فعل ؟

- لا ادري . لقد سمعت فقط انهم قبضوا عليه ، وان حارس المديرية قد

اسرع لإحضار مفوض الشرطة .

ومدت الأم بصرها من النافذة ، فرأت رهطاً من الفلاحين يقتربون ؛ بعضهم

يسرون ببطء وثقال ، وبعضهم الآخر يتقدمون ، وهم يزررون على عجل ،

معاطفهم المصنوعة من الفرو... وتوقفوا عند سلم البناية، وتوجهت ابصارهم نحو

الجهة الشمالية .

وألقت الفتاة الصغيرة ايضاً نظرة عجلى على الشارع ثم خرجت بسرعة

وصفقت الباب وراءها . وارتعشت الأم ، ودفعت حقيبتها الى الوراء تحت المقعد ،

ما وسعها ذلك ، ثم توجهت مسرعة نحو الباب وهي تطرح نقابها على رأسها ،

وتغالب رغبة مفاجئة معقدة ، رغبة في أن تسرع الخطى ، في ان تركض .

وعندما اصبحت على سلم الفندق ، واجهتها نفحة باردة لسمت صدرها وعينيها

فشعرت بالخدر في ساقها ، وبأنها تكاد تختنق . وفي وسط الساحة ابصرت زيبين

يسير ويداه مكبلتان وراء ظهره ، ويحف به حارسان يضربان الأرض بعصاهما

ضربات موزونة ، وكان يقرب سلم المديرية حشد من الناس ينتظر بصمت .

وتولاها الدهول فلم تحول بصرها عن زيبين ؛ وكان زيبين يتكلم وكانت هي

تسمع صوته ، ولكن كلماته كانت تحلق بلاصدي في فراغ قلبها المظلم المرتعد .

وعادت الى نفسها ، واستردت انفسها وكان هناك فلاح وضاء اللحية عريضا

يقف قرب السلم ويحدها بعينيها الزرقاوين . وسعلت ، وأمرت على خنجرتها

يديها اللتين اوهنتها الرعب ، وسألت بأعياء :

- ماذا حدث ؟

- وأجابها الفلاح :

- ها كي .. انظري .

ثم تحول عنها ، واقترب منها فلاح آخر ووقف إلى جانبها .

وتوقف الحارسان أمام الجمع الذي كان يتضخم بلا انقطاع وهو محتفظ بصنمه

وارتفع فجأة صوت ريبيّن الممتلىء :

- ايها المسيحيون . سمعتم بتلك الاوراق التي رويت فيها الحقيقة عن حياتنا

كفلاحين ؟ انهم من أجل هذه الاوراق يضطهدونني لأنني انا الذي وزعتها

على الشعب .

وضيق الناس حلقهم حول ريبيّن ، وكان صوته يهدر يهدوء واتزان ، فيهدىء

من اضطراب الأم .

وبصوت خفيض سأل احد الفلاحين الرجل ذي العينين الزرقاوين ، وهو

يلكزه بمرفقه :

- أسمع ؟

ورفع هذا رأسه دون أن يجيب ، وراح ينو الى الأم من جديد ؛ فحذا

الفلاح الآخر حذوه وكان اصغر منه سناً ، اسود اللحية خفيفها ، نحيل الوجه

تتناثر في وجهه هذا بقع من الشمس ، ثم لم يلبث ان ابعدا كلامهما عن السلم ، فقالت

الأم لنفسها :

- لقد غلكتها الخوف .

وتضاعف اهتمامها ، وكانت ترى من اعلى السلم ، بوضوح ، وجه ريبيّن الأسود

المنتفخ ونظرته الملتببة ؛ وتوقد لو يراها هو ايضاً ، فتقف ، من اجل ذلك ، على

رؤوس أصابعها متطاولة ، مادة عنقها نحوه .

وكان الناس يحدقون اليه مرتابين ، متجهمي الوجه ، لا ينبسون بكلمة ،

وفي الصفوف الاخيرة من الحشد فقط كان يُسمع صوت صدى مخنوق .

وقال ريبيّن بصوت ممتلىء حازم :

- أيها الفلاحون : تقروا بما تقولوه هذه الأوراق ، فقد يقتلونني بسببها . لقد ضربوني وعذبوني ، وأرادوا ان يرغموني على البوح بمصدرها ، سيضربونني مرة اخرى وسأتحمل كل شيء لأن الحقيقة قد سُطرت في هذه الأوراق ، والحقيقة يجب ان تكون أعلى بالنسبة لنا من الخبز هذه هي القضية .

وقال أحد الفلاحين بصوت خفيض :

- ولم يقول هذا القول ؟

ورد عليه ذو العينين الزرقاوين ببطء :

- لا أهمية لذلك الآن ، فالمرء لا يموت مرتين ، ولكنه على كل حال ، يجب أن يتذوق الموت مرة .

وكان الناس ما يزالون هناك صامتين يتسارقون النظر وهم كاسفو الوجوه ، ويبدو عليهم جميعاً أنهم ينوؤون تحت عبء غير منظور ، ولكنه شديد الوطأة . وظهر الجاويش على السلم ، وعوى بصوت مخمور ، مترخفاً :

- من الذي يتكلم ؟

وتدحرج فجأة على درجات السلم ، فأخذ ريبين من شعره ، وشد رأسه إلى الأمام ، ثم دفعه صائحاً :

- بهذا أنت الذي يتكلم يا ابن الكلبة .. أهدأ أنت ؟

وماج الحشد وتلاطم ، وأطرقت الأم وقد عصفت بها غم عاجز ، ودوى صوت ريبين من جديد :

انظروا أيها الناس الطيبون ..

- إخرس .

ولطمه الجاويش لكمة على اذنه ، فترنح وشغل كنفه :

- إنهم يوثقون يدي المرء .. ويعذبونه كما يشتهون ...

- أيها الحرس ، خذوه .. وانتم الآخرين .. هيا تفرقوا

وكان الجاويش يضرب ريبين بقبضته ، يضربه في وجهه وصدرة وبطنه ، وينط أمامه كالكلب مربوط أمام قطعة من اللحم .

وصاح واحدٌ من بين الجمع :

- لا تضربه .

وسانده صوت آخر :

وعلام تضربه ؟

وأشار الفلاح ذو العينين الزرقاوين بإيماء من رأسه ، وقال لرفاقه :

- هيا بنا .

وتقدما على مهل نحو مسرح الحوادث ، وكانت الأم تتبعهما بنظرة عطف ومحبة ، وتتنفس الصعداء ، وعاد الجاويش فتسلق السلم بتثاقل ، وزجر يجنون وهو يهدد بقبضته :

- اقول لكم جرورة الى هنا !

وأجاب صوت قوي من بين الجميع :

- لن نسمح بذلك . لا تدعوهم يفعلون ايها الفتيان . إنهم اذا ما اقتادوه إلى هناك فيضربونه حتى الموت ، وسيقولون بعد ذلك اننا نحن الذين قتلناه . فلا تسمحوا لهم بأن يفعلوا .

وعرفت الأم ان هذا الصوت لم يكن سوى صوت الفلاح ذي العينين الزرقاوين .

وصاح ريبين :

- أيها الفلاحون : الا ترون كيف تمشون ؟ ألا تعرفون انهم يسرقونكم ويخدعونكم ويمتصون دماءكم ؟ إن كل شيء يتوقف عليكم ؟ فأنتم القوة الرئيسية على الارض ، ومع ذلك ما هي الحقوق التي تملكونها ؟ إن حكم الوحيد للذي تملكونه هو أن تنفلقوا من الجوع !

وفجأة علا صراخ الفلاحين واختلطت اصواتهم :

- إنه يقول حقاً .

- نادوا المفوض ، أين هو المفوض ؟

- لقد ذهب الجاويش لإحضاره .

— ولكنه مثل .

— ليس من شأننا نحن أن نستدعي السلطات .

وكان الضجيج يزداد باستمرار ، ويتعالى أكثر فأكثر :

— تكلم فلن ندعمهم يضربونك .

— فكتموا وثاق يديه .

— حذار أن يضاب بمكروه .

وقال ريبيـن وهو يسيطر على الضجيج بصوته الجهور المترن :

— ان يديّ تؤلماني ، ولن أهرب أبداً أيها الفتيان . ليس لي أن أختبئ من

وجه حقيقي ، فحقيقي تعيش فيّ .

وانفصل بعض الأشخاص عن الحشد ببطء ، وابتعدوا وهم يتحدثون بصوت

منخفض ويهزون رؤوسهم ، ولكن جماعات أخرى مهتاجة كانت تتراكم وقد

ارتدت ثيابها الرثة على عجل ، لتنضم إلى الجمع ، وكانوا يغالون حول ريبيـن كالزبد

القائم في حين كان هو يشبك ذراعيه فوق رأسه ككنيسة في الغابة ويصيح :

— شكراً لكم أيها القوم الطيبون شكراً لكم . ان واجبتنا أن نتعاون هكذا

لنحرر أيدينا من الاغلال ، والا فمَن الذي سيساعدنا إذا لم نفعل نحن ؟

ومسح لحيته ثم رفع من جديد يده المزرجة بالدم :

— انظروا إلى دمي .. انه يسيل من أجل الحقيقة .

وهبطت الأم عن السلم ، ولكنها ، وهي على الأرض ، لم تعد ترى ريبيـن

الذي يزمع الناس ، فمادت تتسلق درحات السلم ، تلهب صدرها الحرارة ، وتحس

في قلبها خفقة الفرح .

— أيها الفلاحون . فتشوا عن تلك الاوراق واقروها . لا تصدقوا السلطات

والكهنة حين يقولون لكم ان اولئك الذين يحملون لنا الحقيقة ليسوا سوى كفر

عصاة ، إن الحقيقة تتسرب إلى العالم كله خفية ، وتبحث عن أعشاش لها في ضمير

الشعب . انها بالنسبة للسلطات كالسكين ، كالنار ، إنهم لا يتقبلونها لأنها ستدبجهم

وتحرقهم . إن الحقيقة بالنسبة لكم خير صديق ، ولكنها بالنسبة لهم عدوٌ أشر .

وهي من أجل ذلك تتخفي .

وعادت صيحات الاستحسان تتعالى من جديد بين الحشد :

— اصغوا إليّ أيها المسيحيون .

— هيه أيها الأخ إنك تهلك نفسك .

— من الذي خانك . فسلمك اليهم ؟

وقال احد الحراس :

— إنه الكاهن ..

وأطلق الفلاحان بضراوة سيلاً من الشتائم .

ودوى صوت محذّر :

— انتبهوا أيها الفتيان .

- ١٦ -

وأقبل مفوض الشرطة الريفية ، وكان رجلاً فارح القامة ، قوي البنية ،

مستدير الوجه ، تتكوى قبعته على أذنه ، ويشرب احد شاربيه إلى أعلى ، ويتدلى

الآخر نحو الأرض ، فيبدو وجهه معوجاً ، تشوّهه بسمة ميتة بلهائه . وكان

يمتشق سيفه بيسراه ، ويلوح في الفضاء بيمناه ، وكانت خطاه ثقيلة واثقة .

وانكفاً الحشد أمامه ، وارتم على الوجوه تعبير كالحج منك ، وهذا

الضجيج ، وخفت ، كأنه إنما غار في الأرض . وشغرت الأم يجلد جبهتها يرتعش

وبحرارة تشتعل في عينيها ، وعادتها الرغبة في ان تختلط بالحشد من جديد ،

ولكنها انحنت إلى الامام ، وجدت في ترقب مغموم .

وسأل المفوض وهو يقف أمام ريبيـن ويقيسه بنظراته :

— ما هذا ؟ لم لم تؤثّق يداه ؟ اربطوه يا حراس .

وكان صوته جهوراً مرتفعاً ، ولكنه لا لون له .

وأجاب أحد الحراس :

— لقد كانتا موثقتين ولكن الشعب فك وثاقها .

ماذا؟ الشعب؟ وأي شعب؟

وتطلع المفوض الى الحشد الذي كان يحيط به على شكل نصف دائرة، وتابع بنفس الصوت الابيض، الرتيب الجرس، ودون ان يرفع من هذا الصوت أو يخفض:

— ومن هو الشعب؟

وسدد ضربة من قبضة حسامه الى صدر الفلاح ذي العينين الزرقاوين:

— أنت هو الشعب يا تشوماكوف! ومن أيضاً؟ أنت يا ميشين؟

وشد بيمناه لحية فلاح آخر وصاح:

— هيا تفرقوا! أيها الاوباش، وإلا فسأريكم من أنا!

ولم يكن في صوته وملامحه اشارة غضب أو تهديد، فلقد كان يتكلم بهدوء، ويضرب الناس بجرعات متساوية، كما لو كانت يدها الطويلتان القويتان قد تعودتا ذلك. وكان الحضور يتراجعون الى الوراء إذا ما اقترب منهم، ويطأطئون

وؤوسهم ويشيحون بوجوههم:

وتلفت الى الحرس وقال لهم:

— حسناً... وماذا تنتظرون؟ هيا اوثقوه.

وبعد أن أطلق سرباً من الشتائم، تلفت الى ريبيّن وصاح به:

— وأنت... ضع يديك وراء ظهرك.

وقال ريبيّن:

— أنا لا اريد أن يوثقوني. إني لن أهرب، ولن اقاوم، فعلام إذن يشدون وثاقي؟

وسأله المفوض وهو يدنو منه خطوة:

— ماذا؟

وتابع ريبيّن وهو يرفع من صوته:

— لقد عذبتم الشعب بما فيه الكفاية أيها الوحوش الشقر، وعمّا قريب سيأتي

اليوم الأحمر، يومكم أيضاً.

وكان المفوض يحدث به جامداً وشارباًه يتراقصان، ثم انكفأ الى الوراء

خطوة، وقال بصوت تسيطر عليه الدهشة:

— آه. آه. آه. يا ابن الكلب. ما هذا؟ ماذا تعني بهذه الكلمات؟

وفجأه بصفعة قوية خاطفة على وجهه.

وصاح ريبيّن وهو يتقدم نحوه:

— إنك لن تقضي على الحزبة بضربات قبضتك؛ ثم انه ليس من حقك ان

تضربني أيها الكلب القذر.

ومر المفوض وهو يساحب كلماته:

— أنا.. لا اجرؤ؟ أنا؟

ورفع ذراعه ثانية ليهوي بها على رأس ريبيّن، ولكن هذا انخني قليلاً فلم

تصبه الضربة؛ وكاد المفوض وقد عصف به الغضب، أن يهوي إلى الأرض،

وقهقه احدهم من بين الجميع، بصخب، وراح صوت ريبيّن الرهيب يدوي

من جديد:

— لا اسمح لك بضربي أيها الشيطان.

وتلفت المفوض حواله فإذا الفلاحون قد اقتربوا صامتين كالحي الوجوه،

وضربوا حوله حلقة كثيفة قائمة؛ فهتف وعيناه تبحثان عن احدهم:

— نيكيئا.. هيه، يا نيكيئا.

وبرز من الحشد فلاح صغير مربوع القامة، يرتدى سترة قصيرة من فرو الغنم

ويحدث في الارض مطأطأ رأسه الضخم الأشعث الشعر

وقال المفوض بتؤدة وهو يمسد شاربيه:

— إصفعه يا نيكيئا صفعة قوية على اذنه.

وتقدم الفلاح خطوة، ثم وقف أمام ريبيّن ورفع رأسه، ولكن ريبيّن

صعقه بهذه الكلمات المثقلة بالحقيقة:

— انظروا ايها الناس الطيبون، كيف يخنقكم هؤلاء الأشرار بأيديكم

انظروا وتبصروا!

ورفع الفلاح ذراعه ببطء، وضرب ريبيّن على راسه ضربة خفيفة، ولكن

المفوض صاح به غاضباً:

— ليس هكذا الضرب أيها الوغد .

وارتفع صوت من بين الجمع :

— هه يا نيكيتا .. اتق الله .

وصرخ المفوض وهو يدفعه آخذاً بجناحه :

— اضرب .. أنا أقول لك اضرب .

ولكن الفلاح طأطأ رأسه وتحنى وهو يقول بلهجة كثيبة :

— لن أفعل ذلك أبداً .

— ماذا ؟

وانقبضت ملامح المفوض ، ولبط الأرض بقدميه من الغيظ ، ثم هجم على ريبين شامناً . وزن صدى صفعة خرساء ، ترنح لها ريبين ، ولوح بذراعه في الفضاء . وفي الهجوم التالي طرحه المفوض أرضاً وقفز فوقه ، وراح وهو يزمجر ، يوسعه ركلا برجليه ، على رأسه وصدره وأضلاعه .

وتعالى الصخب الحاقداً من الجمع المتموج ، الذي اندفع نحو المفوض ، ولكن هذا احتاط للأمر فقفز جانباً ، واستل سيفه من غمده ، وتهدج صوته ، واعتزته بجة ، فبدأ كالحطم :

— آه ، أهكذا ؟ إنكم تتمردون اليس كذلك ؟ أجل ..

وخازت قواه ، كما تلاشى صوته من قبل ، وغار رأسه بين كتفيه ، واحددب ظهره ، فانكفاً الى الورا وهو يدير عينيه الحساويتين في كل اتجاه ، ويتحسس الأرض بقدميه حذراً ، ثم صرخ ، وهو ينسحب ، بصوت كئيب أبح :

— حسناً ؛ خذوه . ها أنذا ذاهب . ها ؟ ألا تعلمون أيها الاندال الملعونون انه مجرم سياسي يعمل ضد قيصرنا ، ويحرض على الشعب ؟ أتعرفون ذلك ثم تدافعون عنه ؟ آه .. آه .. انكم إذن لمتردون .

وكانت الأم جامدة ، لا يظرف لها جفن ، وترزح تحت وطأة الرعب والاشفاق ، خائفة القوى ، خامدة الفكر كأنها تعاني عذاب كابوس ثقيل . وكانت أصوات الاستنكار الحانقة الكالحة المنذرة بالشر ، تضج في رأسها كطنين

النحل ، وكان صوت المفوض يتهدج ، والهمس يتعالى :

— إذا كان مذنباً فليس لهم إلا أن يحاكموه .

— إصفح عنه .

— حقاً إنك تتصرف كما لو لم يكن هناك قانون

— أهذا ممكن ؟ إلى م يؤدي هذا إذا أخذوا يضربون الناس هكذا ؟

وكان الفلاحون قد انشطروا الى فريقين ، أحاط بعضهم بالمفوض وراحوا يحادلون ويضحون أما الآخرون وهم أقل عدداً ، فانهم ظلوا حول الجريش ، يتعالى صخبهم الأصم . وانفض بعضهم ، واران الحرس أن يوثقوا يديه من جديد ولكن صوتاً هدر يقول :

— إصبروا إذن أيها الشياطين ..

ومسح ميشال الدم والوحل عن وجهه ، وتلفت حوالبه بصمت فوقعت عينه على الأم ، وارتعشت هذه ، وتطاوت نحوه ، وهزت يدها حركة غزيرية ، فأشاح ميشال بوجهه عنها ، غير ان عينيه عادتا بعد لحظات لتستقر عليها ، وخيل لبيلاجي انه ينتصب ويرفع رأسه ، وان وجنتيه الداميتين ترتعدان :

— لقد عرفني .. أهذا ممكن ؟

وأومات له برأسها ، وقد هزتها غبطة تقعمها الكآبة الموحجة ، ولكنها سرعان ما لاحظت ان الفلاح الأزرق العينين الذي يقف الى جانبه ، كان يتحدث بها أيضاً ؛ مما أثار في نفسها الإحساس بخاطر ما .

— ماذا افعل ؟ لسوف يقضون علي أيضاً بلا ريب .

... وصب الفلاح بضع كلمات في اذن ريبين فهز هذا رأسه وراح يتحدث بصوت محطم ولكنه واضح جريء :

— لا بأس في ذلك ، فلست وحدي على الأرض . إنهم لن يسجنوا الحقيقة كلها ، وسيذكرني الناس في كل مكان مررت به . لقد تهدم العش ولم يعد الاصدقاء والرفاق فيه .

ودار في خاطر الأم : إنه بوجه هذا الكلام الي ..

- ولكن سيأتي اليوم الذي تخلق فيه النسور بحرية ، اليوم الذي يتحرر فيه الشعب .

وحملت إحدى النسوة سطلا من الماء وراحت تغسل وجه ريبين وهي تعول وتنتحب ساخطة ، وكان صوتها النحيل الشاكي يختلط بكلمات ميشال فلا يتيح للأم أن تفهمها وتقدم رهنًا من الفلاحين ، على رأسهم المفوض ، وصاح واحدًا من بينهم :

- آتونا بعربة تحمل السجن من منكم يقوم بهذه المهمة ؟

ثم دوى صوت المفوض الشديد التغيير كالحنق :

- أنا أستطيع أن أضربك أيها النذل ، أما أنت فلا ، لأن ذلك ليس من حقلك .
وصاح ريبين :

- نعم . وأنت .. من أنت ؟ أنت إله الناس ؟

وظفى على صوته دويّ مخنوق لا انسجام فيه ، دويّ صراخات :

- لا تجادله يا صديق ، إنه يمثل السلطة .

- لا تحنق فهو لا يعي نفسه .

- إخرس أيها الفتى المضحك .

- إنهم سيأخذونك توأ إلى المدينة .

- إنهم هناك يحترمون القانون أكثر .

وكانت أصوات القوم تتعالى ، وفيها استعطاف ونصح ، وتختلط في ضوضاء شاكية مرتبكة ، لا تند منها نفحة أمل . وأمسك الجرس ريبين من إبطه ، وتسلقوا به السلم ، ودخلوا معه المنزل فاخفقوا عن الأنظار ..

وأخذ الفلاحون يتفرون ببطء ، ورأت الأم الرجل الأزرق العينين يتجه نحوها ، وينظر إليها خلسة ، فأخذت ركبناها تصطكان ، وشد على قلبها بالوهن ، ورغبة بالثقب ، وقالت في نفسها :

- يجب ألا انصرف .. يجب ألا انصرف .

ولبثت عند أسفل السلم تنتظر .

وكان المفوض على سلم المديرية يتكلم ويكثر من اشارات يديه ، وكانت الشتائم تنصر في صوته الذي غدا أبيض لا حياة فيه :

- يا لكم من حمقى يا أبناء الكلاب ! إنكم لا تفهمون شيئاً . إنكم تدسون انوفكم في هذه القضية ... في قضية تتعلق بالدولة . وعليكم أيها البهائم اللعينة ان تنحنوا أمامي حتى الاذقان ، وان تتوجهوا اليّ بالشكر ، جزاء طيبي ، لأنني لو شئت ، لكنتم في السجن جميعاً .

وكانوا نحواً من عشرين فلاحاً يصغون اليه حاسري الرؤوس ، وكان المساء يهبط بظلامه ، والغيوم تهيم على وجهها وتنخفض حتى تكاد تلامس الارض . واقترب الفلاح الأزرق العينين من الأم وقال لها متأوها :

- هذا ما يجري عندنا ..

وقالت الأم بهدوء :

- أجل .

فحدق بها وهو صريح الملامح وسألها :

- ماذا تفعلين هنا ؟

- اشترى المطرقات من الفلاحات .. والنسيج أيضاً .

فسد لحيته ببطء ، ثم رنا الى البناء المقابل ، وقد بدا عليه الضيق .

- ولكن ذلك لا تجديته هنا .

وتأملت الأم وراحت تنتظر الفرصة السانحة لتعود الى الفندق ، وكان هو ساهم النظرات وسيماً ، كئيب العينين ، عريض المنكبين ، يرتدي صدرية كثيرة الرقع ، وقميصاً نظيفاً من الكتان الهندي ، وبنطالاً أصهب من الجوخ الريفي ، وينتمل حذاءين باليين دون ان يكون في قدميه جوارب .

وتنفست الأم الصعداء دون ان تدري سبباً لذلك ، ثم استسلمت فجأة لحدس كان يسبق تفكيرها المضطرب ، وراحت تطرح على الفلاح سؤالاً فوجئت به هي نفسها :

- هل تستطيع ان اقضي هذه الليلة في ضياقتك ؟

وتقلصت بشدة عضلاتها ، وعظامها ، وكيانها كله ، ثم أنتصبت ، وسمرت
بصرها على الفلاح ، وراحت الحواطر المزعجة تتراقص في رأسها :
« ... سأكون سبباً في هلاك نيقولا .. لن ارى بول أبداً .. خلال وقت
طويل .. انهم سيفتكون بي .. »
وأجابها الفلاح بتؤدة ، وهو يرنو الى الأرض ، ويشد صدريته ليغطي
بها صدره :

— تقضين الليل عندي ؟ هذا ممكن .. ولم لا ؟ .. ولكن منزلي ليس
فخماً ..

وردت عليه لا واعية :

— ولكنني لست ابنة نعمة مدللة .

وأجابها وهو يقديسها بنظرة متحفصة :

— هذا ممكن .

وكان الظلام قد ختم ، وكانت عينا الفلاح تلتصقان بالثق بارد ، ووجهه يبدو
شديد الشحوب . وقالت بيلاجي بصوت خفيض وقد خالجه شعور كشعور من
يتدحرج من الهاوية :

— حسناً ؛ سأتي معك حالاً ، وستحمل لي حقيقتي .

— حسناً .

وهزت كتفها ارتعاشة ، وشد الفلاح ثانية صدريته ، وقال بصوت خافت :

— هي ذي العربية ..

وظهر ريبين على سلم المديرية ، موثوق اليدين من جديد ، تعصب رأسه ووجهه
هنة رمادية اللون ، وتعالى صوته في الغسق البارد :

— وداعاً ايها الطيبون ، فتنشوا عن الحقيقة ، واحرصوا عليها ، وثقوا بمن

يحمل اليكم الكلم الطيب ، ولا تضنوا بقواكم من اجل الدفاع عن الحقيقة .

وصاح المفوض :

— اخرس ايها الكلب . وانت ايها الحارس النذل ، أطلق الجياد .

لا شيء يمكن ان تأسفوا عليه ... يا لها من حياة ؛ حياتكم ؟

وتحركت العربية ، وتابع ريبين وهو يجلس بين الحارسين :

— لم تدعون انفسكم تموتون جوعاً ؟ اعملوا من اجل الحرية ، فستهيبكم

الحرية الخبز والحقيقة . وداعاً ايها الطيبون .

وطغى صخب العجلات ، ووقع الحواقر وضوت المفوض ، طفت جميعها على

صوته ، وتضافت فخنقت هذا الصوت .

وقال القروي وهو يهز رأسه :

— لقد انتهى كل شيء .

ثم استدار نحو بيلاجي واستأنف :

— ابق هنا قليلاً فسأعود حالاً .

... وعادت الى فندقها ، فجلست الى المائدة قرب الموقد ، وتناولت قطعة

من الخبز ، فحدقت بها ، ثم وضعتها يهدوء في الصحن . إنها لم تكن جائعة ،

ولكنها كانت تحس من جديد اضطراباً في اعماق معدتها ، وحرارة أليمة تنهكها

وتوقف حرارة دمها ؛ وتسبب لها الدوار . وكان الفلاح ذو العينين الزرقاوين

ينتصب امامها بوجه الغريب الذي لا يوحي الثقة والذي يبدو كأنه ناقص

الخلق ؛ وكانت لا تود ان تقول لنفسها بصراحة : « سيخونني » .

ولكن هذه الفكرة كانت قد ولدت في رأسها ؛ وجثمت ثقيلة على قلبها ...

— لقد راقبني ... راقبني واستنتج أن ...

ولم يذهب تفكيرها إلى أبعد من ذلك ، بلى غرق في وهن أليم ، واحساس

لزج بالعثيان .

واعقب الضجيج صمت جبان ، كان ينبسط وراء النافذة ، ويشيع في القرية

ضرباً من الخوف والعياء ، ويزيد شعور الأم بالوحدة ، ويملاً نفسها بظلمات

كدراء ، رخوة كالرماد .

ودخلت عليها فتاة الفندق ، وتوقفت عند الباب تسألها :

— هل آتيك بطبق من العجة ؟

— كلا ، لا رغبة لي في ذلك ... لقد اربعبتني هذه الاصوات ...

واقتربت الصغيرة وراحت تقص ، بجرارة ، ولكن بصوت خفيض :

— لكم صفعه المفوض ... لقد كنت جسد قريية ، وشاهدت كل شيء . لقد حطم له اسنانه كلها ، فبصق دماً كثيفاً ، كثيفاً ، اسود اللون ، وحتى عيناه كان الدم يسيل منها . إنه يعمل في القار ... والجاريش عندنا ، انه ثمل لا يستطيع ان ينهض ومع ذلك فإنه يطلب دائماً المزيد من الخمر . ويقول إنهم كانوا عصابة كاملة ، وان الملتحي ذاك هو رئيسهم . لقد قبض على ثلاثة منهم ... وهناك واحد استطاع النجاة ، كما القي القبض ايضاً على معلم مدرسة كان معهم . إنهم لا يؤمنون بالله ، وهم يوصون الناس بأن سلب الكنائس واجب ... فتأبلي أي قوم م . هناك بعض الفلاحين داخلتهم الشفقة على ذاك ... وآخرون كانوا يقولون : يجب الاجهاز عليه . آوه ... لكم بين فلاحينا من اشرار ...

وكانت الأم تعير حديث الفتاة المتقطع السريع أذنًا صاغية ، وتجدد نفسها للتغلب على قلقها ، وتبديد غم الانتظار ؛ وكانت الضيبة ، وقد اسعدها بلا شك أن تجد من يصغي إليها ، كانت تثرثر بلا انقطاع وبكثير من الاندفاع ، وتتابع وهي تتبلع كلماتها وتخفض من صوتها :

— يقول والدي ان سبب ذلك هو قحط الموسم . فهذه هي السنة الثانية التي تجذب فيها الارض ، والناس لا يستطيعون ان يفعلوا إزاء ذلك شيئاً . ولهذا السبب يوجد الآن فلاحون هكذا يعانون بؤساً حقيقياً ... إنهم يتصايحون في الاجتماعات ، ويتعاركون . وبالأمس عندما بيعت موجودات فاسيوكوف بسبب الضرائب المتراكمة عليه والتي لم يدفعها ، سدد ضريبة من قبضته الى وجه المختار قائلاً : خذ هذه هي المتأخرات علي من ديوني ...

ورن صدى خطي ثقيلة وراء الباب فأتكأت الأم الى المائدة ، لتنهض . ودخل الفلاح ذو العينين الزرقاوين ، وسأل دون ان ينزع قبعته :

— أين هي اميتك ؟

ورفع الحقيبة في يده دون عناء ، ثم هزها قائلاً :

— إنها فارغة . يا ماريون رافقي المسافرة الى المنزل .

ثم خرج دون ان يلتفت الى احد .

وسألت فتاة الفندق الام :

— هل ستقضي الليلة في القرية ؟

— نعم فأنا أبحث عن مطررات لأشترتها .

واوضحت الفتاة : إنهم لا يشتغلون منها عندنا ... انهم يشتغلونها في

« تانكوف » و « دارينو » وليس هنا .

— سأذهب الى هناك غداً .

ودفعت ثمن الشاي ، ونفخت الصغيرة ثلاثة « كوبيكات » بهرتها ...

... وفي الشارع ، اقترحت هذه وهي تجرر قدميها الحافيتين على الارض

الرطبة :

— هل تريدن أن « اخطف رجلي » الى دارينو ، فاطلب الى نساءنا ان

يحملن إليك ما عندهن من مطررات ؟ فلا تضطرين للذهاب الى هناك . ومع

ذلك يوجد اثنا عشر كيلومتراً ...

وردت عليها الأم وهي تسير الى جانبها :

— لا جدوى في ذلك يا عزيزتي .

وانعشها الهواء البارد وكان هناك حل يتكون ببطء في رأسها ، حل ما

زال قلقاً ، ولكنه حل واعد يتنامى في داخلها . وكانت ، ولكي تستعجل

تفتحه ، تسأل نفسها بالحاح :

— ما العمل ؟ هل اتصرف بصراحة ؟ هل اتصرف كما يوحي الضمير ؟

وكان الليل قد هبط بارداً رطباً ، والنوافذ تتلألأ بضوء أحمر جامد ، أكد

وفي قلب الصمت كانت الماشية تحور بلا مبالاة ، وتعالى بعض الصيحات الحافظة

ثم تلف القرية كآبة ساحقة .

وقالت الصبية :

— من هنا الطريق . لقد اخترت منزلاً سيئاً ... فهذا الفلاح شديد الاملاق .

وتلمست الباب ففتحته ، ثم نادى منبهة :

- آيتها الام تاتيانا .

ثم ولت الادبار ، وجاء صوتها من قلب الظلمات .. خفيفاً :

- وداعاً .

- ١٧ -

ووقفت الام في العتبة ، وراحت تتفحص المنزل وهي تظل عينيها بيدها ، وكان اول ما لاحظته انه ضيق ، ولكنه نظيف . واطلت امرأة شابة برأسها من وراء المدفأة ، وحيث بصمت ، ثم توارت . وكان هناك في احدى الزوايا مصباح يشتعل على طاولة :

وكان رب البيت يجلس في الداخل ، واصابعه تنقر طرف الطاولة ، وبصره يتسمر على الام . وبعد هنيهة قال :

- ادخلي ... اذهبي يا تاتيانا ونادى « بيير » ... هيا !

وخرجت المرأة بسرعة دون ان تلقي نظرة على الزائرة ، وجلست هذه على المقعد المواجه للفلاح ، تبحث ببصرها عن حقيبتها التي لم تكن تراها ، وران على الكوخ صمت ثقيل ، وكان لهب المصباح وحده يزفر زفرات خفيفة ، ووجه الفلاح المكفهر المغموم يتذبذب بغموض ، في عينيها ، فيسحن نظراتها باليأس . وفجأة سألت بيلاجي بصوت قوي فاجأها هي نفسها :

- اين هي حقيبي ؟

وهز الفلاح كتفيه واجاب ساهماً :

- إنها ليست ضائعة .

واكمل بصوت اكثر خفوتاً ، وهو متجهج الملامح :

- عندما قلت امام الصغيرة في الفندق انها فارغة ، قلت ذلك عمداً ، في حين

انها ليست كذلك ... بل انها ثقيلة الوزن .

- ثقيلة جداً ؟ ومعنى ذلك ؟

ونفض ، واقترب منها ، ثم انحنى وسألها بصوت منخفض :

- وذلك الرجل ... هل تعرفينه ؟

وارتعشت الام ، ولكنها اجابت بحزم :

- نعم .

ويبدو ان الكلمة الموجزة قد فجرت الضياء فيها ، وغمرت بالنور كل شيء حولها ، فندت عنها زفرة عزاء ، ثم تقدمت ، فجلست على المقعد .

وارتسمت على شفتي الفلاح ابتسامة عريضة :

- لقد رأيتهما تتبادلان الاشارات فهمست في اذنه : ربما كنت تعرفنا

جيداً ... تلك التي تقف هناك على السلم !؟

وسألته الأم بجرارة :

- وماذا قال ؟

- هو ؟ لقد قال : « إنهم كثيرون .. نعم .. كثيرون » هذا ما قاله ...

ورشقا الرجل بنظرة متسائلة وتابع وهو يتسهم ثانية :

- هذا الرجل ... قوة هائلة ... إنه جريء ، يقول لهم دونما مواربة : « انا »

ويضربونه هم ... ولكنه لا يرضخ .

وكان صوته الواهي المشكك ، ووجهه الصارم ، وعيناه الصافيتان الصريحتان ،

كان ذلك كله يبعث الطمأنينة في قلب الأم شيئاً فشيئاً ، وكان القلق والاعياء

يتقلصان من نفسها ، ليحل محلها الاشفاق على ريبين .. وهو اشفاق حاد أكال .

وتلكها غضب مفاجيء مرير لم تستطع له كتباً ، فصاحت بأعياء :

- يا لهم من لصوص ... يا لهم من غيلان .

واطلقت العنان لزفرتها .

ونأى الفلاح عنها ، وهو يهز رأسه ، حزين الملامح :

- ان السلطات تكتسب اصدقاء صغاراً طيبين ... نعم ...

ثم عاد ، فأقرب منها فجأة ، وقال لها بصوت خفيض :

- حسناً . اني اتكهن بأن حقيبتك تحتوي على الصحيفة .. اليس ذلك صحيحاً .

- ٣٤٠ -

- ٣٤١ -

واجابت الأم ببساطة وهي تمسح دموعها :

- نعم ... لقد حملتها له .

وقطب حاجبيه ، وجمع لحيته في قبضته ، ثم لاذ بالصمت وهو ضائع النظرة .

- لقد جاء الى هنا ومعه أيضاً كتبٌ صغيرة . اننا نعرف هذا الرجل

وكنا نراه احياناً ...

وتوقف عن الكلام وفكر قليلاً ثم سأل :

- والان ماذا ستفعلين بهذه ؟ اعني الحقيقية ؟

فرت اليه الأم وقالت بأندفاع المتحدي :

- سأتركها لكم .

ولم يُفاجأ بذلك ، ولم يعترض بل ردد .

- لنا نحن ...

وهز رأسه موافقاً ، وارتخت قبضته التي كانت تمسك لحيته ، ومشط هذه

اللحية بأصابعه ثم جلس .

وكان مشهد تعذيب ريبين يعود بألحاح حاقد مزعج ، فيترامى لعيني الام

وكان ما تستشعره من اجل هذا الرجل ، من عذاب ومهانة ، يعفني على كل

مشاعرها الاخرى ، فلا تستطيع التفكير في الحقيقة ، ولا في شيء آخر سواها ،

وكانت دموعها تنهمر بلا انقطاع ، ولكن وجهها كان متجهماً ، والعرشة لا تعترى

صوتها وهي تقول :

- لتحل اللعنة عليهم ، انهم يسرقون الناس ، ويسحقونهم ، ويرغونهم

في الوحل .

وأجاب الفلاح بهدوء :

- إنهم اقوياء ... اقوياء بضراوة .

وتساءلت الأم بحقد :

- ومن اين استمدوا قوتهم ؟ إنهم يستمدون كل هذا منا نحن .. من الشعب

وكان هذا الفلاح يثيرها ، يثيرها بوجهه الصريح ... الذي لا يمكن مع ذلك

حل لغزه .

وقال بصوت متساحب :

- نعم ... سم ... صوت عجلة ...

واصاح بسمعه وهو يميل برأسه نحو الباب ، ثم قال بصوتٍ كالمس :

- لقد اقبلوا .

- من ؟

- جماعتنا على ما اعتقد .

ودخلت زوجته ، وتبعها فلاح ما كاد يخطو الخطوة الاولى في الكوخ حتى

قذف بقبعته الى احدى الزوايا ، واقترب بسرعة من رب البيت يسأله :

- واخيراً ؟

فأوماً الآخر برأسه إيحاء التأكيد .

وقالت المرأة وهي تقف بالقرب من المدفأة :

- ايتيين ... ربما كانت ضيفتنا تريد ان تأكل

واجابت الام :

- كلا ... اشكرك .. إنك لطيفة جداً .

ودنا القادم الجديد منها ، وراح يحدثها بصوت مبحوح :

- أسمحين في ان تتعارف ؟ إنني ادعى « بير رابينين » وألقب بـ « آلين » ؛

واعرف القليل من اعمالك . إنني اعرف القراءة والكتابة ، ولست غيباً إذا

استظمتنا القول ...

واخذ يد بيلاجي التي مدتها اليه فهزها ثم استدار نحو ايتيين :

- اتري يا ايتيين ؟ إن زوجة « معلنا » سيدة طيبة ... لا شك في ذلك ،

وهي تقول بأن هذا كله ليس إلا حماقات واحلاماً ... وبأن اولئك الذين

يمكرون بالمحاقة صفو العالم ليسوا سوى صبيان ازقة ... وانواع شتى من الطلبة .

... ومع ذلك ... فلقد شاهدنا كلانا ، انهم قد اوقفوا منذ قليل ، فلاحاً جاداً ،

كايجب ، والان ... هي ذي ، كما ترى ، سيدة ليست من الرعاع ، ولا يبدو

عليها انها زوجة سيد ! ... لا تفضي ... الى اية عائلة تلتين ؟

وكان يتكلم بسرعة ووضوح ، ودونما توقف ، وكانت لحيته الصغيرة المديبة تهتز بعصبية ، وعيناه المتفتشتان تتفحصان ، على عجل ، وجه بيلاجي ومظهرها . وكان رث الثياب اشعث الشعر ، يخيل اليك انه آت لتوه من عراق ، وانه قد انتصر على قرنه ، وان حماس النصر الطروب يملأ اياه . وأعجب الام مَرَحُهُ النشيط واستلامه منذ البدء مبادرة الحديث ببساطة ودونما مواردية واجابت على سؤاله وهي ترمقه بنظرة ودود ، فهز يدها ثانية بقوة ، وراح يضحك بهدوء ، وكانت ضحكته قصيرة جافة متقطعة .

— أ رأيت يا ايتيين ؟ انه عمل شريف وقضية رائعة . لقد قلت لك إن الشعب بدأ يتحرك من تلقاء ذاته ؛ وامرأة «معلمنا» لن تقول لك الحقيقة ، لانها ستخطيء إن تفعل . انا احترمها ، ليس في ذلك جدال ، فهي انسان طيب يعني لنا الخير ؛ بل لنقل ، قليلا جداً من الخير ، بشكل لا تخسر معه شيئاً . ولكن الشعب نفسه يريد أن يسير بعزم ، انه يخشى الخسران ، ولا يعرف أيتان يتجه . إنه لا يسمع شيئاً حوله ، لا يسمع شيئاً سوى كلمة « قف » يرشق بها من كل جانب .

وقال ايتيين وهو يهز رأسه :

— إني أرى ...

ثم أضاف على الفور :

— انها ليست مطمئنة بسبب متاعها .

وغمز بيلاجي بنجبت ، ثم استأنف كلامه ، وهو يشير اليها بيده ليطمئنها :

— لا تقلقي ، فكل شيء قد نُظِم . ان حقيبتك الصغيرة في منزلي ، لأنه

عندما حدثني عنك ، واخبرني بأنك تعملين حتماً في سبيل القضية ، وبأنك تعرفين

« الرجل » قلت له : حذار يا ايتيين ، حذار ان تفتح فمك بكلمة ، فالأمر شديد

الخطورة ، حسناً ... ولقد لاحظنا ، يا امه ، عندما كنا نقف بالقرب منك ،

انك انت أيضاً تملكين حاسة شم جيدة ، وهذا ما يميز انوف الناس الشرفاء ،

لأن هذه الانوف ، في الحقيقة ، لا تهم في الشوارع طويلا وعلى غير هدى ، اطمئي ... ان حقيبتك في منزلي .

وجلس الى جانبها وتابع وفي نظرتة ضراعة :

— اذا شئت إفراغ محتواها ، فاننا نقدم لك المعونة بكل سرور ، فنحن بحاجة ماسة الى الكتب .

وعلق ايتيين :

— انها تريد ان تترك لنا هذه الكتب كلها .

— هذا رائع ... وسنعرف نحن كيف نتدبر الامر .

وقفز واقفاً على قدميه ، وانخرط في الضحك ، ثم قال مغتبطاً ، وهو يندرع الارض بخطى واسعة :

— يمكن القول انها قصة مدهشة ، وانها مع ذلك ، في منتهى البساطة .

ان الامر يسوء في ناحية ، ويصلح في ناحية اخرى . وليس هذا بسيء . ان

الصحيفة مفيدة جداً ، ولها اثرها . انها تفتح العيون ، وهذا ما لا يروق للاسياد .

اني اشتغل على بعد سبعة او ثمانية كيلومترات . في معمل للنجارة تملكه سيدة ،

يجب الاعتراف بانها فاضلة . انها تقدم لك كتباً من كل نوع ، وغالباً ما نقرأ

هذه الكتب ، فتعطينا كثيراً من الافكار . وعلى هذا فنحن مدينون لها ؛

ولكنني اطلعتها يوماً على عدد من هذه الصحيفة ، فأغضبها ذلك قليلا . وقالت :

لي : « اطرحها يا بيبير . ان الذين يصدرونها صبيان ازقة لا عقل لهم . انها لا

تملك الا ان تزيد عذابكم ، ولن تحمل لكم الا السجن وسيبيريا .

وصمت فجأة يفكر ثم سأل :

— اخبريني ... هل هذا الرجل قريب لك ؟

فأجابت الام :

— كلا ... فنحن غريبان .

وراح بيبير يضحك بصمت دون ان يدري احد سر اغتباطه ؛ وهز رأسه ،

فأحست بيلاجي ان كلمة « غريب » لم تكن تليق بريين ، وبأنها بالنسبة لها ،

لفظة مهينة فاستدركت :

— انه ليس من عائلتي ولكنني اعرفه منذ امدٍ بعيد ، واحترمه كأخي الحقيقي ، كأخي الاكبر .

وكانت لا تجد اللفظة الضرورية للتعبير . فساءها ذلك ، ولم تقو على كبت زفرة صغيرة ندت عنها ، وran على الكوخ صمت انتظار كئيب : وكان بيير يبدو وهو منتصبٌ ورأسه يميل نحو كتفه ، كأنه انما يصفي الى شيء ما . اما زوجته فأسندت ظهرها الى المدفأة في الظل ، وكانت الام تشعر بأن نظرها يستقر عليها فلا يريم . وكانت هي بدورها تحدد بين الفينة والفينة ، في وجهها الاسمر ذي الانف الاقنى ، والذقن الذي يشكل زاوية حادة . وكانت عينها الخضراوان تلتمعان بألق الحذر واليقظة .

وقال بيير بهدوء :

— هو اذن صديق لك . انه خلوق ... نعم ؛ وشديد الزهو بنفسه ، كما يجب ان يكون . انه رجل ... أليس كذلك يا تاتيانا ؟ انك تقولين ...

وقاطعته تاتيانا وهي تزم بقوة شفيتها الرقيقتين :

— هل هو متزوج ؟

وأجابت الام بأسى :

انه ارمل .

وقالت تاتيانا بصوت عميق يخرج من اعماق صدرها :

— هذا هو سبب شجاعته ، فالرجل المتزوج لا يقدم على عمل كهذا ..

إنه يخاف ..

وصاح بيير :

— انا متزوج ومع هذا ...

فاجابته وهي تقلب شفيتها ، ودون ان تنظر اليه :

— حسناً يا صاح .. ماذا دهاك ؟ انك لا تفعل شيئاً سوى الكلام . وفي

بعض الاحيان تقرأ كتاباً صغيراً .. ان ذلك لا يفيد كثيراً اولئك الذين تتهماس

انت وايتيين عنهم في الزوايا .

ورد الفلاح محنقاً :

— هناك كثيرون يسمعونني ، فأنا هنا كالحميرة ... لقد احسنت القول ..

ونظر ايتيين الى زوجته دون ان يتفوه بكلمة ثم طأطأ رأسه من جديد .

وسألت تاتيانا :

— وعلام يتزوج الفلاحون؟ يقولون انهم بحاجة الى نساءٍ تعمل ... تعمل بماذا؟

ورد ايتيين بهدوء :

— اليس لديك من العمل ما يكفيك ؟

— واي جدوى في هذا العمل ؟ اننا في كل الاحوال ، لا نأكل حين نجوع ،

كما ان اولادنا يأتون الى الدنيا فلا نجد لدينا وقتاً للعناية بهم بسبب العمل الذي

لا يعطينا حتى الخبز .

ودنت من الام وجلست الى جانبها وتابعت باصرار . دون ان يبدو عليها

الحزن او التشكي :

— لقد كان لي طفلان .. احدهما احترق في الماء المغلي وهو في الثانية من عمره ،

اما الآخر فقد ولد ميتاً ، وكان ذلك بسبب هذا العمل اللعين . فهل في ذلك بهجة

لي ؟ انا اقول ان الفلاحين يفقدون عذابهم بالزواج . انهم يكتبون به ايديهم ..

وهذا كل شيء . اما اذا كانوا احراراً فإنهم سيعملون للحصول على كل مايلزمنا ،

وسيسرون جهاراً ، الى الحقيقة .. كهذا الرجل . اليس هذا صحيحاً ؟

وقالت الام :

— بلى ... إنه صحيح يا عزيزتي تاتيانا ، واذا لم يكن الامر كذلك ، فانتنا

لن نكون اسياذ حياتنا .

— ألك زوج ؟

— لقد توفي ... ولي ابن واحد .

— واين هو ؟ هل يعيش معك ؟

— انه في السجن .

واحست بأن زهواً هادئاً ، يترج في قلبها ، بحزنها المعهود الذي تعودت هذه الكلمات دائماً دون ان تثيره .

- إنها المرة الثانية التي يُسجن فيها ، لا لشيء إلا لانه ادرك حقيقة الله وبشرها جهاراً . انه شاب وسيم ، ذكي ، وهو الذي تخيل فكرة الصحيفة ، وهو الذي دفع ميشال ريبيين في طريق الحقيقة ، رغم ان ميشال هذا يكبره بصعف سنه . والآن يهيمون بحكمة ابني من اجل ذلك ، وسيدنيوننه ، وسيهرب من سيديريا ليعود من جديد الى العمل .

وكانت تتكلم وشعور الزهو الذي يملكها يتنامى دائماً ، ويشد حنجرتها ، ويحملها على ان تتخير الكلمات لترسم صورةً لبطل : وكانت تستشعر حاجة طاغية ، لأن ترفع لوحة من العقل والضياء ، مقابل المشهد القائم الذي كانت وهي تتقاد بلا وعي لحكم سليقتها السليمة ، تبوتق كل ما رأته من صافيٍ ونير ، في شعلة واحدة تطرف عينها باللقها الصافي .

- لقد ولد كثير من اولئك الناس ، ويولد الكثير منهم ابناً ، ولسوف يناضلون جميعاً حتى الموت ، من اجل الحرية ، من اجل الحقيقة .

وراحت ، وقد نسيت كل حذر ، تتحدث ، دون ان تتعرض لذكر الاسماء عما تعرفه عن العمل السري الذي يتم لتحرير الشعب من اغلال الشر ، وكانت وهي ترسم الصور الغالية على قلبها ، تصب في كلماتها كل قوتها ، وكل الحب الذي ايقظته فيها ، بعد فوات الأوان ، هوم الحياة وصدماها ؛ وكانت هي نفسها تتحمس ، وبغبطة ، لأولئك الذين تستحضرهم في ذاكرتها ، وقد جملتهم ، وأضفى النور عليهم ذلك الأحساس الذي كان يملكها .

- إنه عملٌ تشترك فيه الارض كلها ، والمدائن كلها ، فالناس الطيبون قوة لم تُقدّر ، ولم يحسب لها حساب بعد ، وهي تنمو بأطراد ، وستظل تنمو الى ان تجيء ساعة انتصارنا .

وكان صوتها ينساب متزناً ، وكانت تجد سهولة في التعبير ، وتنضد كلماتها

كلاّء باوروية متعددة الألوان ، تنضدها بيسر ، في خيط الرغبة المتين ، رغبتها في ان تطهر قلبها من دم نهارها وحواله . وكانت تحس كأنما قد امتدت للفلاحين جذورٌ هناك ، في المكان الذي نقلهم اليه حديثها ، وانهم كانوا يرون السها ولا يبدون حراً كما . وكانت تسمع الانفاس المتقطعة ، انفاس المرأة الجالسة الى جانبها ، فيقوي ذلك كله من إيمانها بما تقول ، وبما تعد به ..

- على كل اولئك الذين يحيون حياة أليمة ، والذين سحقهم البؤس وجردوا من كل حق ، وأذلوا للأغنياء واجرائهم ؛ على هؤلاء جميعاً ، على ابناء الشعب كلهم ان يسيروا للقاء اولئك الذين يهلكون في السجون من اجلهم ؛ ويواجهون الموت والتعذيب .. إنهم يدلون الناس أن هي طريق السعادة ، سعادة الجميع ، دون ان يكون لهم في ذلك نفع شخصي ؛ ويعترفون بأخلاص انها طريق شاقة ؛ ولا يحرون احداً اليهم بالقوة ، ولكن إذا ما انتظم المرء في صفوفهم ، فإنه لن يخرج منها ابداً ؛ لأنه سيقنع بأنهم على حق ، وبأن طريقهم هذا هو الطريق الخير ، ولا طريق آخر سواه .

وكان يُسرُّ الأم ان تحقق رغبتها في النهاية : أن تحدث الناس عن الحقيقة بنفسها .

- يستطيع الشعب ان يسير مع اصدقاء كهؤلاء ؛ اصدقاء لا يلقون السلاح مكنتين بمكاسب ضئيلة ، ولا يتوقفون عن الكفاح قبل ان يدحروا الحدادين ، والاشرار ، والطماعين جميعاً ؛ ولا تتشابك ايديهم اذا لم يكن الشعب بأسره روحاً واحدة ، واذا لم يصح بصوت واحد : إني انا السيد ، وسأضع بنفسي الشرائع العادلة للجميع .

وصحنت متعبة ، ورنت الى رفاقها ، وهي على يقين مطمئن بأن كلماتها لم تتلاش دون ان تترك آثاراً لها . وكان الفلاحون يسمرون ابصارهم عليها ، وفي ملاحظهم انهم ينتظرون منها المزيد . وكان بيير يشبك ذراعيه ، وكانت عيناه ترфан وعلى وجنتيه اللتين تقطيهما بقع الكلف ، ترتعش بسمه . وكان ايتيين ينحني مائلاً بكل ثقله الى الامام ، وهو يسند مرفقه الى الطاولة ، متطامن العنق كأنه ما زال يصغي .

وكان هناك ظلٌ ينعكس على وجهه ، فيضفي على ملامحه الكمال ، وكانت تاتيانا جالسة الى جانب الأم تسند مرفقيها الى ركبتيها، وتحديق في قدميها .

وغغم بيير :

- هذا هو الحال .

ثم جلس يهدوء على المقعد ؛ وهو يهز رأسه .

ونفض ايتيين ببطء ، وورنا الى زوجته ، وفتح ذراعيه كأنه يود ان يعانق شيئاً ما . ثم قال بصوت خفيض متأمل :

- الحق انه إذا ما اردنا ان نتخرط في هذا العمل ، فعلينا ان نتفرغ له بكل قلوبنا .

وقاطعه بيير باستيحاء :

- اجل ، ودونما تلفت الى الورا .

وتابع ايتيين :

إنه مشروع ضخم .

وأفل بيير : للأرض كلها .

- ١٨ -

وكانت الأم تصغي اليهم وهي تسند ظهرها الى الجدار وتلقي برأسها الى الورا . ونهضت تاتيانا ، وتطلعت حولها ، ثم عادت الى الجلوس ، وكانت عينها الخضراوان تلتزمان بألقٍ جاف ، وتصبان على الرجلين نظرات يختلط فيها الازدراء بعدم الارتياح .

وقالت للأم فجأة :

- يظهر انك قد قاسيت كثيراً من الأسي ؟

- نعم ... لقد قاسيت .

- إنك تحسنين الكلام ، واحاديثك تجذب السامع حتى ليقول في نفسه :

يا الهي ... ليتني استطيع الا ارى إلا من خلال ناس كهؤلاء ، وحياة كهذه .

- ٣٥٠ -

كيف ترانا نعيش ؟ إننا نعيش كالخراف ... فأنا مثلاً اعرف القراءة والكتابة ، اطالع الكتب وافكر كثيراً ، وتحظر لي احياناً ، خلال الليل ، افكارٌ تمتع عني الكرى . واية فائدة في ذلك ؟ اذا لم افكر سببت لنفسي القلق بلا جدوى ، واذا فكرت ففي سبيل اللاشيء ايضاً .

وكان في نظرتها سخرية ، وكانت تتوقف بين الفينة والفينة ، فتقطع بذلك مجرى حديثها ، على حين غرة ، كما تقطع خيطاً بين اسنانها . وكان الفلاحان صامتين ، والهواء يداعب زجاج النوافذ ، ويعبث بقش السقف ؛ ويزجر في المدخنة بصوت منخفض . وكان هناك كلبٌ يهر ، وبعض قطرات من المطر ، تنقر البلاط ، على كره منها . وارتمش لهب المصباح وشحب لونه ، ولكنه عاد على الفور الى التألق بنشاط وثبات .

- لقد كنت أصغي الى ما تقولون : « هو ذا السبب الذي يحيا من اجله الناس » وبدا لي غريباً انني كنت اعرف كل هذا من قبل ، ولكنني لم أك اسمع به قبل ان اعرفكم ؛ ولم تراودني ابدأ افكارٌ من هذا النوع .

وقال ايتيين بصوت بطيء كئيب :

- يجب ان نتناول العشاء يا تاتيانا ، وان تطفيء المصباح ، فقد يلاحظ الناس ان النور ، في منزل آل تشوماكوف ، قد ظل مضاءً الى وقت متأخر . إن ذلك لا اهمية له بالنسبة لنا نحن ، ولكنه قد يكون بالنسبة لضيفتنا غير مناسب . ونهضت تاتيانا ، وربضت بالقرب من الفرن .

وقال بيير بصوت خفيض وهو يبتسم :

- نعم ... يا صاح ، يجب ان نكون على اتم الاستعداد ، وعندما تظهر

الصحيفة ...

- انا لا اقول ذلك لمصلحتي ... لأنه لو ادّى الأمر الى اغتقالي ، فلن يكون

في ذلك كارثة كبرى .

واقتربت زوجته من المائدة وقالت :

- تنح قليلاً .

- ٣٥١ -

— لا حاجة لذلك . لانه اذا حدث شيء ما فانهم سيسألونك: هل قضت الليل عندك؟ — نعم ... — والى اين توجهت؟ — لقد رافقتها .. اوه ، اوه لقد رافقتها؟ تفضل اذن الى السجن .. مفهوم؟ فهل انت مستعجل للذهاب الى السجن؟ ولم المعجزة؟ فكل شيء أوان ، وسيحين الوقت ، كما يقال ، ويموت القيصر . على انك اذا قلت ببساطة : — لقد نامت هنا ، ثم استأجرت عربية وذهبت .. فلن يؤذوك لان قريتنا معبر ، وهناك دائماً من يقضي ليله عند بيير او بول .

وسألته تاتيانا بسخرية :

— اين تعلمت الخوف يا بيير؟

فصاح وهو يربت على ركبته :

— يجب ان يعرف المرء كل شيء يا عزيزتي . أن يعرف كيف يخاف ، وان يعرف كيف يكون شجاعاً . الا تتذكرين كيف اساء رئيس المقاطعة معاملة فاغانوف بسبب هذه الصحيفة؟ والآن ... انك لن تستطيعي ان تحملي صاحبنا فاغانوف على ان يمسك بيده كتاباً؟ مهما اغريته بالمال . انك تستطيعون ان تصدقوني ، فانا امرؤ عجيب استطيع ان احسن الحيلة ، والناس جميعاً يعرفون ذلك جيداً . سأبذر لكم الكراريس ، والورقيات الصغيرة ، كما يجب ، وبالكميات التي تشاؤون ، صحيح ان جماعاتنا ليسوا متعلمين ، وانهم قوم رعاعيد ، ولكن زمننا هذا ، يحطم مع ذلك اضلاعهم لدرجة لا يستطيع احدهم معها الا ان يحملق بيئته ، وان يتساءل ماذا يعني هذا؟ عندئذ يجيبه الكراس الصغير ببساطة : خذ ، هذا ما يعنيه ، فكر ، وع . وهناك حالات يفهم فيها الأمي اكثر من المتعلم ، لا سيما إذا كان هذا المتعلم يأكل جيداً .. اني اعرف البلاد معرفة جيدة ، وارى كثيراً من الأشياء ، فلا يكفي القول باننا نستطيع ان نعيش ، ولكننا بحاجة الى دماغ ... والى كثير من البراعة ، لكيلا نقع مريعاً في الفخ ؛ فالسلطات ، تشم هي ايضاً ما هنالك من جديد ، والفلاح يضربها ببرود ، ويبتسم قليلاً ، دون ان يكون في بسمة أية عذوبة .

فنهض وابتعد ، ولكنه قال ، وهو يراها تضع غطاء المائدة :

— خمسة دراهم ثمن الحزمة ... هذا هو سعرنا ، وهيات ان يصل الى هذه القيمة . وعندما تضم الحزمة مئة منا ... وداخل الأم فجأة إشفاق عليه ، ثم اخذت تراح اليه شيئاً فشيئاً وقد شرعت بعد أن اصغت الى كلماته ، انها قد تحففت من حمل النهار الثقيل القدر ، وكانت راضية عن نفسها ، تود ان تكون طيبة بالنسبة للجميع . وقالت :

— ليس صحيحاً ما تقوله يا « معلم » . إن المرء غير ملازم بأن يرتضي الثمن الذي يحدده له اولئك الذين لا يبتغون منه شيئاً إلا دمه . وعليك ان تعرف ، انت نفسك قيمتك لا بالنسبة الى اعدائك ، بل بالنسبة الى اصدقائك . وصاح الفلاح :

— أي اصدقاء لنا؟ انهم يظنون اصدقاء .. حتى تلوح لهم عظمة يتنازعونها .

— بلى ... فللشعب اصدقاؤه .

ورد ايتينين ساهماً :

— حسناً ... يجب ان نوجد من هؤلاء الاصدقاء هنا .

واطرق ايتينين :

— اجل ... هذا ما يجب ان تفعله .

ودعتهم تاتيانا :

— تفضلوا الى الطعام .

وراح بيير خلال العشاء يتحدث بحموية وقد بدا عليه ان كلمات الأم قد

اثرت فيه وادهشته :

— عليك ان ترحلي من هنا في الصباح الباكر لكيلا تستثيري الانتباه ،

استأجري عربية من المحطة التالية ، ولا تتوجهي الى المدينة .

وقال ايتينين :

لماذا؟ سأوصلها بنفسني .

وبالاختصار .. إنه يريد ان يستغني عن السلطات ..

بالامس جاؤوا الى « سموليا كوفو » وهي مزرعة ليست بعيدة عنا ، جاؤوا لتحصيل ضرائبهم ، ولكن الفلاحين تمردوا ، وامتشقوا المذاري في وجوههم ، فخطبهم المفوض مجزم : آه يا ابناء العاهرات .. إنكم اذا تمردون على القيصر ؟ وكان هناك فلاح اسمه « سيكافين » تصدى لهم قائلاً : الجحيم لك ولقيصرك . فما هو هذا القيصر الذي يسلبنا آخر قبيص على اجسادنا ؟ .. هذا ما وصلت اليه الحال ايها الام .. ومن الاكيد ان سيكافين قد اودع السجن ، ولكن كلمته يرددها حتى الصغار ، إنها تدوي ، إنها دائماً حية .

وكان لا يأكل ، بل يتكلم ، ويتكلم بوشوشة متلاحقة سريعة ، وكانت عيناه السوداوان الماكرتان تبرقان بحبوية ، وكان يفرغ امام الام بسخاء ، ملاحظاته التي لا تحصى عن الحياة في الريف ، كأنه إنما يفرغ امامها كيساً من القطع النقدية الصغيرة . ويقاطعه ايتين مرتين قائلاً له :

كُلْ إذن ..

فيتناول لقمةً ويحسو ملعقة من الطعام ، ثم يعود من جديد فيتدفق في الحديث كحسون صغير مستغرق في التغريد . واخيراً انتهى العشاء ، ووثب هو واقفاً على قدميه ثم اعلن :

حسناً .. لقد آن لي ان اعود .

ووقف امام الام يهز يدها :

وداعاً ؛ فقد لا نلتقي ثانية ابدأ ، وعلي ان اقول لك بأن هذا كله جيد جداً ، وانه جميل ان ألتقي بك ، وان استمع اليك . ترى هل في حقيبتك شيء آخر غير الكتب والصحف ؟ شال من صوف ؟ تماماً ... شال من صوف ، تذكر ذلك يا ايتين . سيأتيك بحقيبتك في الحال . هيا بنا يا ايتين ... وداعاً ... وعوفيتم .

وعندما خرجا ، سمع صراخ الصراير ، وعبث الريح في السقف ، وغطيها في المدفأة ، ونقرات المطر الخفيف الرتيبة على النافذة . وأعدت تاتيانا فراشاً

للأم من بعض الملابس التي فرشتها على المقعد .

وقالت بيلاجي :

— إنه فتى لبق .

— بل جرس صغير يرن ، ويرن ، ولكنه لا يُسمع من بعيد .

— وزوحك ؟

— رجل طيب لا يشرب ابدأ ، ونحن منسجبان اشد الانسجام ... إلا انه ضعيف الشكيمة .

وانتصبت ثم تابعت بعد صمت قصير :

— ماذا يجب ان تفعل الآن ؟ نثير الشعب ؟ هذا أكيد ، إن الناس جميعاً يفكرون بذلك .. ولكن .. كل في زاويته الصغيرة ؛ ويقضي ان نجهر به عالياً ، وان يكون هناك واحد يوطد عزمه اولاً ..

وجلس على المقعد ثم سألت فجأة :

— لقد قلت ان هناك ايضاً فتيات صغيرات يهتمن بالامر ، ويقمن بتعليم

القراءة للعمال . أفلا يبعث ذلك ضجرهن وخوفهن ؟

وبعد ان استمعت بانتباه الى جواب الام ، اطلقت زفرة عميقة ، ثم استأنفت الكلام وهي مطرقة :

— لقد قرأت مرة في احد الكتب هذه الكلمات : « ان الحياة لا معنى لها » ، وقد فهمت ذلك سريعاً ، لأنني كنت قد عرفت تلك الحياة . إننا نملك انكاراً ، ولكنها غير مترابطة . إنها تهم كالنجاج بدون راع ؛ وليس هناك ما يجمعها ولا من يجمعها . هذه هي الحياة التي لا معنى لها ، فليتنى استطيع الهرب بعيداً عنها ، دون ان اثلقت حتى الى الوراء . ألا ما اشد حزن المرء حين يكون على هذا المستوى من الفهم .

وكانت الام تقرأ هذا الحزن في الألق الجاف الذي يتعكس من عينيها الخضراوين ، وفي وجهها الناحل ، وتسمعه في صوتها . فأرادت ان تسري عنها ، وان تلاطفها :

— ولكنك يا عزيزتي تدرين ما يجب عمله .. !
واقطعها تاتيانا يهدوء :

— يجب ان نعرف .. إن مريك جاهز .. فيها الى الرقاد .

ومضت نحو المدفأة، ولبثت هناك صامتة منتصبه، قاسية الملامح منقبضة الصدر .
ونامت الأم دون ان تخلع ثيابها ، واستشعرت تعباً أليماً في عظامها . فأنتت
يهدوء . واطفأت تاتيانا المصباح ، وعندما غمرت الظلمة الكثيفة الكوخ ، رنَّ
صوتها الخفيض الريب ، رن من جديد كأنه إنما يمسح شيئاً عن الوجه العريض ،
وجه الظلمات الخائفة :

— أرى انك لا تصلين .. وانا ايضاً لا اعتقد بوجود الله ولا بالمعجزات .
وتقلبت الأم في مضجعتها بقلق ، وكان الظلام الذي لا غور له ، يحدق اليها من
النافذة ، وحفيف خفيف ، وضجيج لا يكاد يُسمع ، يزحفان في الصمت بعناد ،
وقالت برعب كأنها إنما تهمس همساً :

— فيما يتعلق بالله لا اعرف شيئاً ، ولكنني أوئن بالمسيح وكلماته : واجب
جارك كما تحب نفسك ، ... اجل .. إني أوئن بهذا .

وصمت تاتيانا ، وكانت الأم ترى في العتمة الخطوط الغامضة لشبحها المنتصب
الذي يبدو أهدم اللون فوق سواد المدفأة ، وظلت المرأة الشابة واقفة امامها
جامدة . اما الام ، فقد اغمضت عينيها مغمومة .

وفجأة ارتفع صوت جليدي يقول :

— انا لا استطيع ان اغفر لله والناس موت ابنائي ... لا استطيع ذلك ابداً .
وتهضت الام متأثرة ، وكانت تدرک عمق الألم الذي أهم هذه الكلمات ،
فقالت لتاتيانا بحنان :

— انك ما زلت شابة وسيكون لك اولاد آخرون .

— كلا ... اني بائسة ... فلقد قال لي الطبيب اني لن ارزق اطفالاً ابداً .

وركضت فوق ارض الغرفة فأرة ، ومنزقت جمود الصمت ، كبرقٍ غير
مرئي ، اصوات قرص جاف جهور ، وسمع من جديد ، وبوضوح ، حفيف المطر

وصخبه ، وهو ينهمر على قش السقف الذي يبدو كأنما بعثرته اصابع دقيقة
جبانة . وعلى الارض كانت قطرات الماء تتساقط كثيفة ، فتنغمم الانسياب
البطيء لهذه الليلة من ليالي الخريف .

وسمعت الأم ، في سهدها الثقيل ، وقع خطي في الشارع ثقيلة ثم فتح الباب
بجذر ؛ وهتف صوت مخنوق :

— تاتيانا ، هل نمت ؟

— كلا .

— وهي ... هل نامت ؟

— بلا شك .

واندلح لهب ارتعش قليلاً ثم غرق في الظلمة . واقترب الفلاح من سرير الأم ،
فسوى القراء الذي كان يلف ساقيها . واثرت هذه العناية في نفس بيلاجي ،
فابتسمت وهي تطبق عينيها . ونضا ايتيين ثيابه بصمت ، ثم صعد الى «التخينة»
وهدأت به ذلك كل حركة .

ولبثت الأم جامدة لا تتحرك ، تصنخ بسمعها الى اللذبات الكسول ،
ذبذبات الصمت المسهد ، ويرتسم امامها في الظلمات وجه ريبن المضرج بالدم .

وتناهى اليها من «التخينة» همس :

— أخرى ؟ .. انظر الى القوم الذين انخرطوا في العمل .. إنهم طعنوا في السن ،

وركبتهم آلاف الاحزان ، وجهدوا طويلاً ، وقد آن لهم ان يرتاحوا ...

وانت يا ايتيين .. انت الشاب السليم المنطق .. هه ؟

وزد صوت الفلاح الحشن :

— لا يمكن التورط في امر كهذا ، قبل التفكير ..

— لقد سمعت هذا منك قبل الآن .

وخمدت الاصوات ، ثم عادت من جديد ، وغنم ايتيين :

— يجب التصرف هكذا . التحدث معهم اولاً على حدة . خذي مثلاً الكسي

ماكوف . إنه فتى ذكي متعلم يحتاجه السلطات ، وكورين ايضاً رجل راجح

والعقل ، و« نيازير » فاضل وشجاع . وبعد ذلك سئري . يجب ان اقابل اولئك الذين كانت تتحدث عنهم ، وسأخذ فأسي ، وأنط الى المدينة متظاهراً بأني أسمى لريح بعض الدرهمات من تقطيع الحطب . يجب ان نكون حذرين . انها على حق حين تقول : ان قيمة الرجل هي عمله الشخصي ارأيت الى ذلك الفلاح الذي يدعى ريبين ؟ انه لن يخضع حتى لله ؛ لقد صمد للضربة ورجلاه ثابتتان في الارض . ونيكيتا ؟ لقد سيطر عليه الخجل . هذا فظيح .

– يضيرون رجلاً امامكم ، وتظنون انتم مطبقي الافواه ؟
– مهلاً .. واشكركم الله ، لأنهم لم يرغبوا نحن على ضربه .
وشوس طويلاً ؛ تارة بصوت منخفض جداً لدرجة كانت الام معها لا تكاد تسمع كلماته ، وتارة اخرى كان يرفع من صوته فجأة ، فتضطرب زوجته ان تنهز :
– على رسلك ... إنك توشك ان توقظها .
وغرقت الام في نوم عميق ، كأن غمامة ظليلة قد هبطت عليها فلفتها وحملتها . وايقظت تاتيانا عندما كان الفجر الاغبش الذي ما زال اعشى ، يُطل من نوافذ الكوخ ، والانعام النحاسية ، انقسام جرس الكنيسة ، تحوم وسني فوق القرية ، ثم تموت في الصمت البارد .
لقد هيات الشاي ... فأشربني ، وإلا فإنك ستبرد في العربة ...
وسأل ايتيين الأم وهو يمشط لحيته الشعثاء ، سأله بلهجة عادية عن عنوانها في المدينة ، فضيل اليها ان يحلحله قد نضجت ، وانه اقرب الى القلب منه في السهرة .
وفيا كانوا يتناولون الشاي قال ايتيين ضاحكاً :
– ما اغرب الشيء الذي حدث .
وسألته تاتيانا :
– ماذا ؟
– تعارفنا . لقد كان بمنتهى البساطة .
وقالت الأم وهي سامة الملامح ، ولكنها مقتنعة :
– في هذه الأمور بساطة مدهشة في كل شيء .

واستأذناها ، ولم يفرط في الكلام بل كانا نجولين ، ولكنها اغدقا عليها آلاف التوصيات والتنبيهات فيما يتعلق برحلتها .
وعندما جلست بيلاجي في العربة ، راحت تفكر في هذا الفلاح : لقد كان يقوم بواجبه بجد ، ودوننا ضجيج او هواة تماماً كالخلد . إن صوت زوجته الناغم سيرن ابدأ في اذنها ، وستظل عيناه الخضراوان تلتصمان بالأثني المشتعل ، ومهما عاشت ، فسيظل يعيش فيها ذلك الأم الحاقدة ، أم الذئبة ، أم الأم التي تبكي اولادها الراحلين .
وتذكرت ريبين . تذكرت دمه ووجهه وعينيه الملتهبين ، وكلماته ، وعصر قلبها ذلك الاحساس المرتسم على وجهه ، الاحساس المر ببعظه امام النوحوش . وطوال الطريق ، وعلى اللوحة الباهتة ، لوحة النهار الاكمد ، كان شيخ ميشال القوي ينتصب امام عينها ، ينتصب بلحيته السوداء ، وقبضه الممزق ، ويديه الموثقتين وراء ظهره ، ورأسه المشعث ، ووجهه الذي يصيبه الغضب والايمان بالحقيقة . وكانت تفكر في القرى التي لا تحصى والتي تفتقرش الأرض خائفة ، وفي الناس الذين كانوا ينتظرون مقدم العدالة ، وفي آلاف الكائنات التي كانت تعمل صامته ، بلا هدف ، طوال حياتها ، ودون ان تقتظر شيئاً .
وكانت الحياة تبدو لها كسهل وعر ، ينتظر الفلاحين بصمت وترقب ؛ كأنه يعد الايدي الحرة الشريفة قائلاً :
– اخصيني ببذور العقل والحقيقة ، اعددها اليك مئة ضعف .
وتذكرت النجاح الذي حالف رحلتها ، فأحست في اعماق قلبها بنبضة فرح حلوة ، ما لبثت ان كتبتها بخفر .

- ١٩ -

وقتح نيقولا لها الباب ، وهو متفوش الشعر ، وفي يده كتاب ، وصاح بفرح غامر :
– لقد عدت بسرعة !

العقل ، و« نيازير » فاضل وشجاع . وبعد ذلك سئري . يجب ان اقابل اولئك الذين كانت تتحدث عنهم ، وسأخذ فأسي ، وأنط الى المدينة متظاهراً بأني أسمى لريح بعض الدرهمات من تقطيع الحطب . يجب ان نكون حذرين . انها على حق حين تقول : ان قيمة الرجل هي عمله الشخصي ارأيت الى ذلك الفلاح الذي يدعى ريبين ؟ انه لن يخضع حتى لله ؛ لقد صمد للضربة ورجلاه ثابتتان في الارض . ونيكيتا ؟ لقد سيطر عليه الخجل . هذا فظيح .

– يضيرون رجلاً امامكم ، وتظنون انتم مطبقي الافواه ؟
– مهلاً .. واشكركم الله ، لأنهم لم يرغبوا نحن على ضربه .
وشوس طويلاً ؛ تارة بصوت منخفض جداً لدرجة كانت الام معها لا تكاد تسمع كلماته ، وتارة اخرى كان يرفع من صوته فجأة ، فتضطرب زوجته ان تنهز :
– على رسلك ... إنك توشك ان توقظها .
وغرقت الام في نوم عميق ، كأن غمامة ظليلة قد هبطت عليها فلفتها وحملتها . وايقظت تاتيانا عندما كان الفجر الاغبش الذي ما زال اعشى ، يُطل من نوافذ الكوخ ، والانعام النحاسية ، انقسام جرس الكنيسة ، تحوم وسني فوق القرية ، ثم تموت في الصمت البارد .
لقد هيات الشاي ... فأشربني ، وإلا فإنك ستبرد في العربة ...
وسأل ايتيين الأم وهو يمشط لحيته الشعثاء ، سأله بلهجة عادية عن عنوانها في المدينة ، فضيل اليها ان يحلحله قد نضجت ، وانه اقرب الى القلب منه في السهرة .
وفيا كانوا يتناولون الشاي قال ايتيين ضاحكاً :
– ما اغرب الشيء الذي حدث .
وسألته تاتيانا :
– ماذا ؟
– تعارفنا . لقد كان بمنتهى البساطة .
وقالت الأم وهي سامة الملامح ، ولكنها مقتنعة :
– في هذه الأمور بساطة مدهشة في كل شيء .

واستأذناها ، ولم يفرط في الكلام بل كانا نجولين ، ولكنها اغدقا عليها آلاف التوصيات والتنبيهات فيما يتعلق برحلتها .
وعندما جلست بيلاجي في العربة ، راحت تفكر في هذا الفلاح : لقد كان يقوم بواجبه بجد ، ودوننا ضجيج او هواة تماماً كالخلد . إن صوت زوجته الناغم سيرن ابدأ في اذنها ، وستظل عيناه الخضراوان تلتصمان بالأثني المشتعل ، ومهما عاشت ، فسيظل يعيش فيها ذلك الأم الحاقدة ، أم الذئبة ، أم الأم التي تبكي اولادها الراحلين .
وتذكرت ريبين . تذكرت دمه ووجهه وعينيه الملتهبين ، وكلماته ، وعصر قلبها ذلك الاحساس المرتسم على وجهه ، الاحساس المر ببعظه امام النوحوش . وطوال الطريق ، وعلى اللوحة الباهتة ، لوحة النهار الاكمد ، كان شيخ ميشال القوي ينتصب امام عينها ، ينتصب بلحيته السوداء ، وقبضه الممزق ، ويديه الموثقتين وراء ظهره ، ورأسه المشعث ، ووجهه الذي يصيبه الغضب والايمان بالحقيقة . وكانت تفكر في القرى التي لا تحصى والتي تفتقرش الأرض خائفة ، وفي الناس الذين كانوا ينتظرون مقدم العدالة ، وفي آلاف الكائنات التي كانت تعمل صامته ، بلا هدف ، طوال حياتها ، ودون ان تقتظر شيئاً .
وكانت الحياة تبدو لها كسهل وعر ، ينتظر الفلاحين بصمت وترقب ؛ كأنه يعد الايدي الحرة الشريفة قائلاً :
– اخصيني ببذور العقل والحقيقة ، اعددها اليك مئة ضعف .
وتذكرت النجاح الذي حالف رحلتها ، فأحست في اعماق قلبها بنبضة فرح حلوة ، ما لبثت ان كتبتها بخفر .

وقتح نيقولا لها الباب ، وهو متفوش الشعر ، وفي يده كتاب ، وصاح بفرح غامر :
– لقد عدت بسرعة !

وكانت عيناه اليقظتان تبرقان بود تحت نظارتيه . وساعدها على خلع معطفها وقال لها ، وهو ينظر اليها بابتسامة حميمة :

— هل عرفت ؟ لقد جاؤوا فقتلوا ، هذه الليلة ... هنا ... فساءلت نفسي عن السبب وخشيت ان يكون قد حدث لك شيء ما .. إلا انهم لم يوقفوني .. ولكن من المؤكد انك لو كنت هنا لما اطلقوا سراحي ابدأ .

وأدخلها الى غرفة الطعام وهو يتابع باندفاع :
— ومع ذلك فقد اطلقوني .. ان ذلك لا يجوزني ... ولكني سئمت احصاء الفلاحين الذين لا يملكون جياداً .

وكانت الغرفة تبدو كأن مارداً قد طرقت من الخارج جدران المنزل ، طرقها في ثوبه من نزاح بليد فزلزها لدرجة انقلب معها ما في الداخل ، فاذا عاليه ساقله ، وكانت اللوحات ملقاة على الأرض وطنافس الجدران مزروعة ، تتدلى خرقاً ، وركيزة النافذة مبتورة ، والرماد منتشراً بالقرب من المدفأة .

وهزت الأم رأسها عندما رأت المسكن الماكوف لديها ، وتسمر بصرها على نيقولا الذي كانت تحس في منزله ، بشيء من الجدة .

وعلى الطاولة ، بالقرب من الموقد الخامد كانت بعض الاواني المطبخية الوسخة ، وقليل من المقائق والجبن ، على ورقة بدلاً من صحن ، وقتات خبز مبعثرة وكتب ، وجرات في الموقد منطفئة . وابتسمت الأم ، وابتسم نيقولا كذلك بسمة مرتبكة :

— اني انا الذي اكملت لوحة التخريب هذه .. ولكن لا بأس في ذلك ، يا نيلوفنا لا بأس ؛ فأنهم كما اعتقد ، سيعودون ، ولهذا تركت كل شيء على حاله .. حسناً .. وكيف كانت رحلتك ؟

وصعقها هذا السؤال ، وانتصبت امامها من جديد صورة ريبين ؛ وشعرت انها اخطأت لأنها لم تبدأ الحديث عنه في الحال ، ودنت من نيقولا ، واخذت تقص عليه ما حدث ، وهي تجهد نفسها للاحتفاظ بهدوئها ، خشية ان تنسى شيئاً من التفاصيل :

— لقد قبضوا عليه ...

وارتمش نيقولا : وكيف ذلك ؟

وأوقفت الأم سؤاله بأشارة من يدها ، وأتمت حديثها كأنها انما تمثل العدالة متجسدة وقد جاءت تشكو اليها التعذيب الذي لقيه إنسان ما ... واستلقى نيقولا على متكأ مقعده ، وراح يصفي وهو شاحب الوجه ، ثم نزع ببطء نظارتيه ، ووضعها على الطاولة ، ومسح وجهه بيديه ، كأنه انما يمسح عنه خيوط عنكبوت غير مرئي ، وتصرمت ملامحه ، ونفرت وجناته بشكل غريب وارتعشت فتحنا انفه ، وكانت هذه هي المرة الاولى التي تراه يبلجج فيها بمثل هذه الحال ، فداخلها من ذلك بعض الرعب .

وعندما انتهت حديثها نهض ، وخطا ، صامتاً بضع خطوات وقبضته في اعماق جيوبه ، ثم لآك بين اسنانه هذه الكلمات :

— انه رجل قادر ، وسيفاسي كثيراً في السجن ، لأن امثاله من الرجال يستشعرون الضيق في غيابه .

وأوغلت قبضته في جيوبه اكثر من السابق ، محاولاً اخفاء انفعال كانت الأم ، رغم ذلك ، تحسه ، وتشعر أنه ينتقل اليها ، وتقلصت عيناه حتى غداها كرامس سكين ، وقال بغضب وهو يستأنف سيره :

— يا للفظاعة . حفنة من الأغنياء ، يضربون ويخنقون ويسحقون ليحموا

سلطانهم المشؤوم على الشعب . ان الوحشية تزداد ، والقسوة تغدو شريعة الوجود فتأملي . ان بعضهم يضرب ، وينطلق من قيده كالوحوش مطمئناً الى فيجوره . انهم مصابون بظمأ الى التعذيب شهواني ، مصابون بذلك الداء الكريه ، داء العبيد الذين يُباح لهم أن يظهرُوا . غرازمه المنحطة ، وعاداتهم البهيمية ؛ بكل ما فيهم من قوة . أما الآخرون فشهوة النار تسممهم ، انهم يصبحون ، وقد أخبلتهم الضربات ، بكأ وعمياناً ، لقد أفسد الشعب ، الشعب بكامله .

وتوقفت قليلاً ، وصمت وهو يركز أسنانه ثم استأنف هدهده :

— ان المرء ليغدو ، رغماً عنه ، ضارياً ... في هذه الحياة الضارية .

وسيطر على انفعاله ، واستعاد بعض هدوئه ، ولامت عيناه ببريق حازم ، ثم
رنا الى الأم والدموع الصامتة تتدرج على مقلتيه :

— ليس لدينا وقت لنضعه يا نيلوفنا، فلنالك انفسنا أيتها الرفيقة الغالية ..
واقتراب منها، وعلى شفثيه ابتسامة حزينة ، ثم اخذ يدها وسألها :
— اين هي حقيبتك ؟
— انها في المطبخ .

— ان المنزل محاط بالعيون ، ولن نتجح في اخراج شيء من الاوراق دون
ان نرى ... لا ادري اين نخبئ هذه المنشورات ، فأنا اعتقد انهم سيعودون
الليلة ، ليفتشوا ... لنحرق إذن كل هذا ، لنحرقه معها كلفنا الأمر .
وسألته الأم :

— نحرق ماذا ؟

كل ما في الحقيبة .

وأدرت ماذا يقصد ، ورغم ان حزنها كان عظيماً ، فإن الزهو الذي
استشعرته لكونها قد نجحت ، هذا الزهو طرح على شفثيها بسمة فقالت :

— لا يوجد شيء في الحقيبة ... حتى ولا قصاصة واحدة من الورق ...

وراحت وهي تزداد حيوية شيئاً فشيئاً ، راحت تتحدث عن اجتماعها
وأصغى نيقولا اليها بادية الأمر ، وهو كئيب ، مقطب الحاجبين ، ولكنه ما
لبث ان صاح دهشاً ، وقاطعها :

— آه ... هذا رائع ... ان حظك مدهش .

وشد على يدها ، ثم قال بهدوء :

— ان ايمانك بالشعب أثر في لدرجة ... في الحقيقة ، اني احبك كأمي نفسها .
وكانت هي تتبعه ببصرها باسمه ، يدفعا الفضول ، فتحاول ان تدرك من
ان فاض عليه هذا الألق ، وتلك الحيوية .

وقال وهو يفرك يديه ويضحك ضحكة صغيرة لطيفة :

— انه حقاً رائع اتعلمين؟ لقد قضيت هذه الايام الأخيرة بطريقة مدهشة ...

كنت طوال الوقت مع العمال ، اقرأ لهم ، وأحدثهم ، وانظر اليهم ... فتزودت
بشيء من الصفاء والطهارة . يا لهم من قوم طيبين يا نيلوفنا ... اعني العمال
الشان ... انهم اشداء ، حساسون ، يملأهم التعطش لفهم كل شيء . ان من
يراهم لا يستطيع الا ان يقول في نفسه: ان روسيا ستكون اعظم بلاد ديموقراطي
على وجه الأرض .

ورفع ذراعه في حركة تأكيدية كأنه انما يؤدي قسماً ، ثم تابع بعد فترة من
الصمت :

لقد كنت اعيش كالسجين ، واكتب و ... ، والى حد ما يمكن القول اني
تخثرت ، وتعفنت على الأوراق التافهة والأرقام . ان عاماً من حياة كهذه هو نوع
من المسخ .. لقد تعودت الحياة بين الكادحين ، لذلك فقد شعرت بشيء من عدم
الارتياح عندما انتزعت نفسي من صميم تلك الحياة . والآن ... استطع ان اعيش
من جديد بحرية ، استطع ان اراهم .. ان اشغل وقتي معهم ، فأظل بذلك قريباً
من مهد الافكار الناشئة ، قريباً من الثورة ، من الطاقة الخلاقة . ان هذا البسيط
بشكل مدهش ، وجميل ومثير بشكل رهيب ؛ إذ يغدو المرء فتياً صلب العود ،
يحيا حياة ثراء ...

وأخذ يضحك بمرح يشوبه بعض الارتباك ، وكانت غبطته تنتقل الى الأم
التي كانت تدرك سبب هذه الغبطة ... ثم اردف .

— ثم ... انك امرأة خارقة . ما ابرعك في وصف الناس بطريقة مؤثرة ...
وما أشد فهمك لهم .

وجلس الى جانبها وهو يشيح بوجهه المعتبط ، ويمسد شعره ، ليخفي بذلك
ارتبাকে ، ولكنه ما لبث ان التفت اليها ، وراح يصغي بنهم الى بقية حديثها ،
الذي كان ينساب ببساطة ووضوح .
وصاح فجأة :

— يا لطالعك المدهش . لقد كان حظك بالاعتقال يعادل نسبة تسعة على عشرة ..
ثم تغير الوضع فجأة ... نعم ... اتنا نشعر ان الفلاح قد بدأ يتحرك ، وهذا

امر طبيعي ... هذه المرأة اراها جيداً ... اننا بحاجة الى ناس يهتمون ، على وجه الخصوص ، بالريف ، ناس ... ان هؤلاء يتقصوننا ... والحياة تتطلب مئات السواعد .

وهمست الأم :

- ليت ولدي بول يسترد حريته هو واندره !

ورمقها بنظرة ثم اطرق :

- اسمعي يا نيلوفنا . ان ما سأقوله سيؤلمك كثيراً ، ولكني مع ذلك سأقوله :

انا اعرف بول جيداً . انه لن يفر من السجن . انه يرغب في ان يحاكم ...

ان يبدو في اوج قوته ، ولن يتخلى عن ذلك ابداً . ويجب الا يفعل ... انه سيهرب من سيبيريا .

وزفرت الأم واجابت بهدوء :

- سيان عندي ... انه يعرف ما هو الافضل ...

وهمهم نيقولا ، بعد لحظة ، وهو يحدق بها من خلال نظارتيه :

- هم . ليت «صاحبك» الفلاح يتعجل المجيء لزيارتنا أرايت؟ انه لضروري

جداً ان نكتب منشوراً عن ريبين ، ونخصصه للريف . فلن يضيره ذلك اذا ما تصرف بشجاعة . وسأكتب المنشور اليوم ، وستطبعه ليوميلا بسرعة ، ولكن كيف نستطيع اصاله الى هناك ؟ هنا المشكلة .

- سأحمله انا .

واجاب نيقولا بمجدة :

- كلا ... شكراً ... ولكني افكر في الأمر واري ان فيسوشيكوف

جدير بهذه المهمة ... اليس كذلك ؟

- هل يجب ان نفتحها بها ؟

- جربي ... وافهميه كيف يقوم بها .

- وانا ماذا افعل ؟

- طمني بالك .

وجلس ، ثم راح يكتب ، وكانت الام تنظر اليه وهي تنظف المائدة ، فترى قلمه الذي يرتعش في يده ، ويغطي الورقة بكثير من الكلمات ، وكان عنقه يمتلج احياناً ، فيرفع رأسه ، ويفمض عينيه ، وتهتز ذقنه ، فيؤثر ذلك في نفس بيلاجي .

قال وهو ينهض :

- هوذا المنشور جاهز . خبي هذه الورقة في ثيابك ، ولا تنسي انه اذا ما

جاء الدرك فانهم سيفتشونك انت ايضاً .

وقالت بهدوء :

- ليحملهم الشيطان .

وعند المساء جاء الطبيب ، وقال وهو يمشي في الحجره بخطى محومة :

- ما الذي اثار قلق السلطات فجأة ؟ لقد قاموا خلال هذه الليلة بسبع

حملات تفتيشية ! .. ابن هو مريضنا ؟

واجاب نيقولا :

- لقد رحل البارحة ... وهذا النهار هو نهار السبت ... الا تعلم انه لا

يستطيع ان يتخلف عن جلسة القراءة ؟ ..

- انه لمن الحق ان يفعل ذلك ورأسه منطلق !

- هذا ما اردت ان اقنعه به فلم اوفق .

وعلقت الام :

- لقد تملكته الرغبة في ان يتباهي قليلاً امام الرفاق ، ان يقول : انظروا

الي ؛ فلقد سفحت دمي ...

وقذفها الطبيب بنظرة عجلى ، وبدت في ملامحه الضراوة ، ثم قال وهو يكثر

اسنانه :

- أوه ، أوه . انكم دمويون .

- حسناً ، يا عجوزي ، ليس لك ما تفعله هنا ، ونحن ننتظر ضيوفاً ، فانصرف .

اعطه الورقة يا نيلوفنا ! ..

الذين فروا منه ، واستأنفوا عملهم تحت أسماء مستعارة . وكانت جدران الحجرة العارية تعكس رنة صوته المخنوقة كأنها دهشة مرتابة لسماع هذه القصص ، قصص الابطال المتواضعين ، المتجردين عن كل نفع ، والذين يكرسون قواهم كلها للعمل العظيم ، لإصلاح العالم .

وكانت ظلال ناعمة ودودة تكتنف الأم ، فتملاً قلبها عطفاً حاراً على هؤلاء الجمهوريين الذين كان خيالها يخالجهم جميعاً في كائن واحد عملاق ، لا تنفذ قدرته ولا تغض شجاعته . وكان هذا الكائن يرود الأرض ببطء ، ولكن بهمة لا تعرف الكلل ، فينتزع منها ، بيديه الممتلئين حباً لعمله ، ينتزع عن الدجل الذي راكمته العصور ، ويكشف لأعين الناس الحقيقة البسيطة المتألقة ، حقيقة الحياة . وكانت هذه الحقيقة الكبرى المتجددة ، تدعو إليها الكائنات جميعاً ، تدعوها بحجة ودونما تمييز ، وتعددها كذلك بأن تحررها من الحسد والحقد والدجل ، من هذه الغيلان الثلاثة التي تسترق الأرض بقوتها الماجنة ، وتبعث فيها الرعب .

وكانت هذه الصورة تبعث في نفس الأم شعوراً كذلك الذي كانت تستشعره وهي راكعة امام الأيقونات ، لتنتهي ، بصلاة سعيدة شاكرة ، يوماً كان يبدو لها اقل عذاباً من أيامها الأخر . اما الآن فقد نسيت تلك الأيام ، وتنامى الشعور الذي كانت توحيه ، فقدا أكثر وضوحاً ومرحاً ، وصارت له فيها جذور بعيدة الغور فراح يعيش ابدأ ويزداد اشتعالاً أكثر فأكثر .

واعلن نيقولا وهو يقطع حديثه فجأة :

— لن يأتي الدرك .

ف نظرت اليه الأم وقالت بحنق :

— حسناً ... فليذهبوا الى الشيطان .

— صحيح ... ولكنه قد آن لك ان ترقدي يا نيلوفنا ، فقد تكونين منهكة

اشد الانهالك ... ويجب الاعتراف انك شديدة الجلد لدرجة مدهشة ؛ إذ ما اكثر ما تتعرضين له من انفعالات ، وهموم ، ولكنك تتحملين ذلك كله بسهولة ولم يشب فيك سريعاً سوى شعرك . هيا اخذي قسطاً من الراحة ، هيا !

— ورقة ايضاً ؟

— خذها واوصلها الى المطبعة .

— حسناً ، سأوصلها ... اهذا كل شيء ؟

— نعم .. هناك جاسوس عند الباب .

— لقد رأيته ... وعند بابي ايضاً جاسوس . والآن الى اللقضاء انتها المرأة الضارية ، اما انتم يا اصدقائي فاعلموا ان النزاع في المقبرة شيء حسن قطعاً ، والمدينة كلها تتحدث عنه . واما انت فمقالك كان جيداً ، وقد وصل في الوقت الملائم . لقد كنت اقول دائماً ان خصاماً طيباً خيراً من سلم ودي .

— إننا نوافق على ذلك .. فانصرف .

— إنك في الواقع لا تحب .. هاتي يدك يا نيلوفنا ، لقد تصرفت الفتى بحمق ..

فهل تعرفين أين يقم ؟

واعطاه نيقولا العنوان .

— يجب ان امر غداً لأراه . إنه فتى طيب . أليس كذلك ؟

— ينتهي الطيبة .

ورد الطبيب وهو ينصرف :

— يجب العناية به ، فهو ليس غيباً . هؤلاء الفتيان هم بالضبط الذين يؤلفون

البروليتاريا الحقيقية ... المثقفة . إنهم هم الذين سيخلفوننا حين ننطلق الى حيث

لا يوجد ، بلا شك ، صراع طبقات ...

— لقد غدوت ثرثاراً جداً ...

— ذلك لأنني فرح ... إذن فأنت تنتظر السجن ؟ اتفق لك ان تجد

الراحة فيه :

— شكراً ... فأنا لست تعباً .

وكانت الأم تصفي اليها ، سعيدة بأن تراهما شديدي الاهتمام بالعمل الفتى .

وانصرف الطبيب وجلس نيقولا والأم الى المائدة بانتظار ضيوفها الليليين .

وتحدث نيقولا طويلاً عن رفاقه الذين كانوا يعيشون في المنفى ، وعن اولئك

واسية نظمت الأم على باب المطبخ يُطرق طرقات عنيقة ، ويترعرع بلا انقطاع
وبعناد صابر ، وكان الظلام والسكون ما زالاً يجمان ، وهذا الاطّاع في السير
يثير القلق . وارتدت الأم ثيابها على عجل ، وهرعت الى المطبخ ، وسألت من
وراء الباب :

- من الطارق ؟

واجاب صوت مجهول :

- انا .

- من أنت ؟

ورد الصوت منخفضاً متوسلاً :

- افتحي .

وشدت الأم المزلاج ، ودفعت الباب بقدمها ، ودخل انياس ، وقال بفرح :

- آه ... لم اخطئ اذن ؟

وكان الوحل يغطيه حتى وسطه ، وكان وجهه أكمد اللون وعيناه تحيط بهما

هالة سوداء ، وشعره المظفور يتلفت من تحت قبعته ليتناثر في كل اتجاه

وغغم بعد ان أغلق الباب :

- لقد حاق بنا شر ...

- أعرف ذلك .

وبدت الدهشة في ملامحه :

- من اين عرفت ؟

وقصت عليه بسرعة وإيجاز قصة لقاءها .

- والآخران ... أعني رفيقك ، هل قبض عليها ؟

- لم يكونا موجودين ، بل كانا قد ذهبا الى مجلس التجنيد ، ولكنهم

اعتقلوا خمسة بما فيهم الأب ميشال ...

ونشق انياس ثم قال بإسماً :

- وبقيت أنا .. وهم بلا شك يبحثون عني .

- ولكن كيف استطعت الافلات ؟

وفتح باب الحجره يهدوء .

وصاح انياس وهو يجلس على احد المقاعد ويتطلع حواليه :

- أنا ؟ قبل وصول رجال الدرك بديقة ، أقبل حارس الغابات راكضاً ،

وقرع النافذة وقال : حذار ايها الفتيان .. لقد جاؤوا للقبض عليكم .

وأخذ يضحك يتؤدة ، ثم مسح وجهه بكم ردايه وتابع :

- ولم ييأس الأب ميشال بسهولة ، بل قال لي على الفور : انطلق الى المدينة

يا انياس . تحرك . ألا تتذكر المرأة الهرمة ؟ وفي الوقت نفسه كتب عجالة

وقال : «خذها» وانطلقت بأسرع ما يمكن وراء العليق . وسمعتهم ينخدرون .

وكان : يا للأبالسة .. كانوا يتحركون من كل صوب ، فاذا هم كالشبكة حول

ورشتنا . وانطرحت ارضاً ، ومروا يجاني ثم نهضت ، بعد ذلك ، ورحت

أمشي وامشي ، ولبثت ليلتين ونهاراً طويلاً على هذا المتوال دون ان ارتاح .

وكان يبدو عليه انه راض عن نفسه ، وكانت البسمة تضيء عينيه السمراوين

وشفتاه الضخمتان المرأوان تحتلجان .

وقالت الأم وهي تقترب من موقد الشاي :

- ساعد لك بعض الشاي حالاً .

- العجالة .. سأعطيك إياها .

ورفع ساقه بعناء شامئاً مجدفاً ، ووضع رجله على المقعد .

وظهر نيقولا على عتبة الباب وقال وهو يغمز بعينه :

- صباح الخير يا رفيق . أسمح لي بمساعدتك ؟

وانحنى يفك بسرعة المصائب الموحلة التي تلف ساق انياس .

وقال الفتى يهدوء وهو يسند فخذه بيده :

- حسناً .

وراح ينظر الى الأم بدهشة ، ولكن هذه قالت دون أن تلاحظ ذلك :

- يجب أن تفرك قدميه بالكحول ..

وأجاب نيقولا : هذا أكيد .

ونشق أنياس بارتياك .

وعثر نيقولا على العجالة فمهد لها بيده ، وقرأ وهو يُدني القصاصة الرمادية

الرثة من عينيه :

«لا تتخلي عن المهمة أيتها الأم ، وقولي إذا أردت لتلك السيدة الكبيرة الا

تنسى الكتابة عما اكثر ؟ عنا نحن الآخرين . وداعاً . »

الامضاء : ريبين

وارخى نيقولا ببطء يده التي تمسك القصاصة وقال بصوتٍ واهٍ :

- رائع !

وكان أنياس ينظر اليهما وهو يحرك بلين الأضابع القذرة ، أصابع قدمه الحافية .

ودنت الأم منه وهي تخفي وجهها المبلل بالدموع ، وتحمل اليه وعاء من الماء ،

وجلست على الارض ومدت يدها الى ساقه ولكنه أبعدها بسرعة ، وخبأ رجله

مذعوراً تحت المقعد :

- ماذا تريدن ؟

- هات قدمك حالاً .

وقال نيقولا :

- سأحضر قليلاً من الكحول ..

ولكن الفتى دفع رجله تحت المقعد اكثر من ذي قبل ، وغغم :

- لم ذلك ؟ إننا لسنا في مستشفى .. ومع هذا ..

وأخذت الأم تفلح ضمادات رجله الاخرى .

ونشق أنياس بصوت مسموع ، ولوى عنقه ، ثم انحدرت عيناه نحو الأم

وهو يطم شفتيه في حركة ساخرة .

واستأنفت هي الكلام وفي صوتها رجفة :

- هل تعلم ؟ لقد ضربوا ميشال ريبين .

وأجاب بوجل : لا ؟

- بلى .. لقد اشبعوه ضرباً عندما اقتادوه الى «نيكولسكواي» وهناك

استأنف الشاويش والمفوض ضربه على وجهه ، وركله بأرجلها .. وكان

مُضرباً بالدم !

وسرت في منكبته رعشة فقال ، وهو يقطب حاجبيه :

- انهم يحسنون هذا العمل ؛ واني لأخافهم كما اخاف الشياطين . ترى ماذا

كان موقف الفلاحين . اما ضربوه ؟

- لم يضربه منهم سوى واحد فقط بأمر من المفوض . ولكن الآخرين لم

يفعلوا شيئاً .. بل انهم تدخلوا صائحين : «يجب ألا تضربوه» .

- أجل .. لقد بدأ الفلاحون يدركون انهم الذين يدافعون عنهم ،

ولماذا يدافعون ؟

- ثم ان بينهم من يفكر تفكيراً سليماً .

- وأي مكان لا يوجد فيه امثال هؤلاء ؟ انهم في كل مكان ، ولكن من

الصعب العثور عليهم .

واحضر نيقولا زجاجة كحول ، ووضع قليلاً من الفحم في المدفأة ، ثم خرج .

وتتبمه أنياس بنظرة فضولية ، وسأل الأم بصوت خفيض جداً :

- هل «المعلم» الذي هناك .. طيب ؟

- لا معلم في هذه القضية ، بل كنا رفاق .

وقال وهو يبتسم ابتسامة حائرة متشككة :

- إنه لأمر محير .

- ماذا إذن ؟

- جميل .. هكذا . في ناحية يطحنون عظامك ، وفي ناحية اخرى يغسلون

قدميك .. فماذا يكون الحال في الوسط ؟

وفتح باب الغرفة وظهر نيقولا على العتبة

- بين هذا وذاك قوم يلحسون ايدي اولئك الذين يطحنون عظام ضحاياهم

وَيَمْتَصُونَ دَمَاءَهَا .

ورنا انياس اليه باحترام وقال بعد قليل من الصمت :

- هذه هي الحقيقة .

ونهض وهو يميل بثقله على قدمه اليمنى تارة ، وعلى اليسرى تارة اخرى

ثم اردف :

- لقد اصبحنا الآن جديدين ، فشكراً جزيلاً .

ومضوا الى غرفة الطعام لتناول الشاي ، وهناك راح انياس يروي لهم

بصوت جاد :

- لقد كنت موزع الجريدة لأني جلود على المشي ..

وقاطعه نيقولا :

- هل يقرأها كثير من الناس ؟

- كل الذين يعرفون القراءة حتى الاغنياء منهم ، وهؤلاء لا يأخذونها بالطبع

من أجلنا ، فهم يفهمون الامور على هذا الشكل : سيقسل الفلاحون بدمهم

ارض التبلأ والاثرياء ، وهذا يعني انهم سيقسمونها هم ، وسيكون الاقتسام بلا

شك بطريقة لا يظلم فيها ارباب عمل ولا شغيلة ، وإذا لم يكن الامر كذلك

فعلام الخصام إذن ؟

وكان يبدو عليه الانفعال ، وينظر الى نيقولا نظرة فيها ريبية وتساؤل .

وكان هذا يتسم بصمت :

- واذا تخاصموا اليوم في العالم كله ، فإن الامر سيعود سيرقه الاولى غداً

عندما ينتصرون : سيكون الواحد منهم ثرياً ، والآخر فقيراً ، وشكراً لكم .

المعروف ان الثروة كالرمل لا تبقى جامدة ابداً في مكانها . انها ستسيل من جديد ،

وستوزع في كل اتجاه ، فما الفائدة إذن من ذلك ؟

وقاطعته الأم مازحة :

- لا تحنق .

وقال نيقولا وهو سامم :

- ما العمل لإيصال المنشور ، عن توقيف ريبيين ، بأسرع ما يمكن من الوقت ؟
ومد انياس اذنه :

- نعم

واقترح انياس وهو يفرك يديه :

- اعطني اياه لأوصله .

وضحكت الأم بهدوء دون ان تنظر اليه :

- ولكنك منك وخائف ، وقد قلت ذلك أنت نفسك !

فأمر يده العريضة على شعره المظفور ، وأجاب بلهجة جادة هادئة :

- الخوف شيء ، ومهاتنا شيء آخر .. ان مهاتنا هي مهاتنا .. لماذا

تسخرين مني ؟ انك حقاً لغريبة .

وصاحت به بغير ارادة منها :

- يا طفلي ..

- اسمعوا .. انا الآن طفل !

وقاطعه نيقولا الذي كان يتفحصه بعينين عطوفتين رفانتين :

- لن نذهب الى هناك ..

وسأله انياس بقلق :

- الى اين سأذهب إذن ؟

- سيذهب آخر سواك وستشرح له انت بتفصيل كيف يتصرف . هل

يعجبك هذا الحل ؟

فأجاب ، مرغماً ، وبعد لحظة من التردد :

- حسناً .

- سنحصل لك على بطاقة هوية ، وسنعتبرك كأمور احراش ..

فرفع رأسه فجأة وقد امتلاً غماً :

- وماذا أفعل اذا جاء الفلاحون ليخطبوا أو لأمر غير ذلك ، هل انكل

بهم ؟ ان ذلك لا يليق بي .

وأخذت الأم تضحك وكذلك نيقولا ، مما جعل الفتى يضطرب من جديد
وبيئس .

وطمأنه نيقولا :

— لا تكن سيء المزاج . انك لن تنكل بالفلاحين .. فاطمئن .

وعغم انياس :

— لقد اختلف الأمر الآن .

ثم ابتسم باغتباط وطمأنينة وقال :

— اود أن أذهب الى العمل ، فهناك كما يقال ، قوم ذوو عقول رشيدة .

ونفضت الأم عن المائدة ورنت من القاذورة وقالت وهي ساهمة :

— هذه هي الحياة . نضحك في النهار خمس مرات ونبكي مثلها .. والآن هل

انتهيت يا انياس ؟ هيا الى النوم .

— ولكنني لا اريد .

— اذهب ، اذهب .

— انك قاسية . حسناً ، سأذهب . وشكراً لك على الشاي اللذي قدمته

والعناية البسيطة ..

وفيما كان يتمدد على سرير الأم ، كان يغمغم وهو يهرش رأسه :

— ان هذا سينشر رائحة القار في منزلك . هه ؟ لم ذلك كله ؟ أنا لست

نعساناً ..

وغفا فجأة وتعالى شخيره ، وظل حاجباه مشقولين ، وفمه مفتوحاً نصف

افتتاحاً .

٢١

وفي المساء نفسه كان انياس يجلس وجهاً لوجه امام فيسوشيكوف ، في

حجرة صغير : "بن تحت الارض . ويقول له وهو يخفض من صوته ويقطب

حاجبيه :

— اربع مرات على النافذة الوسطى .

ويردد فيسوشيكوف باهتمام :

— اربع مرات ؟

— ثلاث مرات اولاً هكذا .

وينقر الطاولة باصبعه المطوي وهو يعد :

— واحد ، اثنان ، ثلاثة .. وثم نقرة اخرى ايضاً .

— حسناً .

— وسيفتح لك رجل اصعب الوجه ويسألك : هل أتيت من أجل القابلة ؟

فتجيبه : نعم .. من قبل المعلم .. وهذا وحده يكفي ، لأنه سيفهم .

وكان احدهما يميل برأسه نحو الآخر ، وكلاهما صلب قوي البنية ؛

ويتحدثان ، وهما يسكان صوتيهما ، والأم تنو اليهما وهي واقفة بالقرب من

الطاولة مشبكة الذراعين ، وكانت تلك النقرات الغامضة ، والأسئلة والأجوبة

المتفق عليها ، تحملها على الابتسام فيما بينها وبين نفسها ، كما تحملها على التفكير :

— انهم سزالوا أطفالاً .

وكان هناك في الجدار مصباح يشتعل ، نائراً ضوءه على بقع الرطوبة القاتمة ؛

وعلى صور مقتطفة من المجلات . وفي الارض دلاء منبعدة ، وصفائح متساقطة

من السقف ، وجو الحجرة يعبق برائحة الصدا والعفن والدهان .

وكان انياس يرتدي معطفاً سميكاً من جوخ وبري يبدو انه معجب به كثيراً ،

وكانت الأم تراه وهو يداعب كفه بحب ، ويمد عنقه الضخم يجهد ليتفحص مظهره ،

فيفعم قلبها حنان حار وتمس :

— يا اولادي الاعزاء ..

وقال انياس وهو ينهض :

— والآن تذكر جيداً .. إسأل اولاً عن الجد في منزل آل موراتوف .

وأجاب فيسوشيكوف :

— لن انسى ذلك .

ولكن انياس لم يك ليصدقه على ما يبدو، اذ كرر له مرة اخرى كل الاشارات وكلمات المرور؛ ثم مديده اليه أخيراً وهو يقول:

— ابلغهم تحياتي، انهم قوم طيبون، ستري...

ونظر الى نفسه نظرة اعجاب، وتحسس بيده معطفه، وسأل الأم:

— هل اذهب؟

— هل تعرف الطريق؟

— بالتأكيد... الى اللقاء يا رفاق.

ومضى شامخ المنكين، منتفخ الصدر، تتكئ قبعته الجديدة على احدى

اذنيه، وتفوص يدها في اعماق جيوبه، وترتمش على صدغه، بمرح، خصل وضاءة.

وقال فيسوشيكوف وهو يدنو بتؤدة من الأم..

— حسناً.. هوذا انا في العمل ثانية. لقد انتابني الضجر من قبل.. وكنت

أتساءل: لماذا هربت من السجن؟. لا لشيء إلا لأختيء. لقد تعلمت في السجن

بعض الاشياء، وكان بول يدخل في رؤوسنا ان السجن متعة... والآن ماذا

تقرر بشأن الفرار؟

وأجابت الأم بزفرة لا شعورية:

— لا أدري.

وألقى يده على كتفها؛ وأدنى وجهه من وجهها وقال:

— اشرحي لهم فيستمعون اليك. ان الفرار يسير جداً، وبإستطاعتك انت

نفسك ان تتحقي من ذلك. اسمعي: للسجن جدار، وإلى جانب هذا الجدار

مصباح عاكس للنور، وقبالتة ارض موات. والى اليسار تقوم المقبرة، والى

اليمين الشارع، اي المدينة. يأتي المولج بإيقاد المصباح لتنظيفه في وضح النهار

فيستند سلمه الى الجدار ويتسلق، ثم يثبت في اعلى الجدار خطاطيف سلم من جبال

ويدليه الى باحة السجن، ومن الامام.. وفي هذا الوقت يكون الرفاق على علم

بأية ساعة من النهار يجري ذلك، فيوعزون الى السجناء باقتعال حادثة شغب،

أو انهم يقومون بذلك بانفسهم، وفي اثناء ذلك يتسلق الذين اتفق عليهم السلم،

وبلحظتين... وثلاث حركات ينتهي الامر.

ولوح بيده تحت انف الأم وهو يشرح خطته، وكان يرى ان كل شيء

يجب أن يتم ببساطة ووضوح وبراعة. لقد عرفته من قبل بطيئاً متردداً، تشع

عيناه بالرغبة، وبزجاج غضوب متجههم، أما الآن فهما على ما يبدو لها، مختلفان.

انها تشعان بضياء رتيب دافئ؛ فتسيطران عليها، وتثيران قلقها.

— فكري... سيكون ذلك في النهار. في النهار. فمن من الناس يخطر في باله

ان سجيناً يجرؤ على الفرار في وضح النهار، وعلى مرأى ممن في السجن جميعاً؟.

وقالت الأم وهي ترتمش:

— واذا أطلقوا النار عليهم وهم فوق!؟.

— من سيطلق النار؟. ليس هناك جنود.. والنظار يستخدمون مسدساتهم

في دق المسامير.

يكاد يكون ذلك يسيراً أكل اليسر.

— سترين ان هذه هي الحقيقة. باحثي الآخريين بالخطه، فلقد اعددت كل

شيء: سلم الجبال والخطاطيف... ثم ان صاحب البيت الذي استأجره سيقوم

بدور موقد المصباح.

وتحرك شخص وراء الباب وسعل، وسمعت ضوضاء صفائح التنك. وقال

فيسوشيكوف:

— هو ذا قد اقبل.

وظهر في اطار الباب حوض من صفيح، ودمدم صوت مبجوح:

— ألن تمر بالعين؟.

ثم بدا رأس مستدير رمادي الشعر أشعثه، جاحظ العينين، ولاح شارب في

وجه كله دماثة.

وساعده نيقولا فيسوشيكوف على ادخال الحوض، ودخل الرجل، فاذا

هو فارع القامة محدودب الظهر؛ ثم سعل نافخاً اوداجه الحليقة، وبصق ثم قال

بصوته المبجوح:

- مرحباً .

ونظر نيقولا الى الأم :

- هيا اسألنه .

- تسألني أنا ؟ عماذا ؟

- بشأن الفرار .

فصاح الرجل وهو يمسح شاربه بأصابعه السوداء :

- آه .. آه ..

أرأيت يا جاك ؟ . انها لا تصدق ان ذلك سهل !

- 'م .. انها لا تصدق ؟ . ذلك لأنها لا تريد ، اما نحن فنريده كلانا ومن

اجل هذا فاننا نصدق .

قال ذلك يهدوء ، وانحنى فجأة كأنه انقعم الى شطرين ثم اخذ يسعل ،

واستمرت نوبة سعاله طويلاً ، وكان وهو يقف في منتصف الحجرة يدلك صدره

متشققاً ، ويرنو الى الأم بعينيه المتسمتين .

وقالت الأم :

- لبول ورفاقه أن يقرروا ...

وأطرق نيقولا فيسوشيكوف برأسه متفكراً .

وسأل اللوجر وهو يجلس :

- ومن هو بول ؟

- انه ابني .

- من أي عائلة ؟

- من عائلة فلاسوف .

فهر رأسه وأخرج كيس تبغه وغليونه ، فحشا الغليون وهو يقول بصوت

متقطع :

- لقد سمعت هذا الاسم من قبل . ان ابن اخي ايفشنيكو يعرفه .. فهو

ايضاً في السجن ... فهل تعرفين ابن أخي ؟ . اما أنا فادعى «غوبون» ان

الشبان جميعاً سيكونون في السجن عما قريب ، وستطيب الحياة عندئذ لنا نحن

الشيوخ . لقد وعدني البيركي بارسال ابن اخي نفسه الى سيبيريا ، وسيبر الوغد

بوعده .

وأخذ يدخن ، ويصق بين الفينة والفينة على الارض ، ثم ما لبث ان استأنف

موجهاً الحديث الى فيسوشيكوف :

- انها لا تريد ؟ . هذا شأنها ، وهي حرة ، وانت اذا كنت قد تعبت من

الجلوس فامش ، ألا تريد أن تمشي ؟ ابق اذن جالساً .. أيسرقونك ؟ إخرس .

أبضربونك ؟ أستسلم . أيقتلونك ؟ أمكث هناك . اني اعرف ذلك ولكنني

سأنتشل ابن أخي من هناك .. أجل سأنتشله .

وكانت عباراته القصيرة المتقطعة كالمواء ترمي الأم في احضان القلق ، الا

ان كلماته الأخيرة أثارت فيها كوامن الحسد .

وفيما كانت تسير في الزقاق باتجاه معاكس لاتجاه المطر الذي حملته ريح

باردة ، كانت تفكر بفيسوشيكوف :

- أترين كيف غدا ؟ .

وتذكرت غوبون ، فقالت في نفسها كأنها تصلي :

- في الظاهر لست انا الوحيدة التي تحيا من جديد .

وشمخت في قلبها صورة ابنها فأ كملت :

- لبتة فقط يوافق على الخطة .

- ٢٢ -

ونهار الاحد ، فيما كانت تستأذن بول بالانصراف وهي في قاعة الاستقبال في

السجن ، شعرت به يدس في كفها كرة صغيرة من الورق ؛ فارتعشت كأن تلك

الكرة قد أحرقت كفها ، ورمقت ابنها بنظرة متسائلة متوسلة ، ولكن نظرتها

هذه لم تلق جواباً ، وكانت البسمة الحازمة المطمئنة التي تعرفها جيداً ، لطيف

كالعادة في عينيه الزرقاوين .

وقالت وهي تتأوه :

- ٣٧٩ -

- ٣٧٨ -

- أرايت ؟ اننا لن ننجح بأية وسيلة ..
وقالت الأم منبسطة الأسارير ، في حين كان النعم القاتم يغم صدرها :
- لا بأس دعوه يحاكم .

- لقد تلقيت رسالة من صديق لي في بطرسبورغ ..
- انه يستطيع ان يهرب من سيبيريا ايضاً .. أليس كذلك ؟ أهذا ممكن ؟
- طبعاً لقد كتب الي الرفيق يقول : «ستبدأ المحاكمة عما قريب ، والقرار معروف وهو النفي للجميع» ، أرايت؟ القرار يعرف في بطرسبورغ قبل المحاكمة .
وقالت الأم باستسلام :

- دع هذا يا نيقولا ، فعبثاً تحاول أن تسرّي عني وأن تشرح لي . ان بول لا يسيء التصرف ابداً . انه لا يعذب نفسه ولا يعذب الآخرين عبثاً . ثم انه يحبني . أجل انه يفكر في كما ترى ، فيقول : اشرحوا لها وواسوها . أليس كذلك ؟ وكان فؤادها يخفق بشدة ، والإنفعال يجعلها تشعر بدوار ، وصاح نيقولا بقوة لم تعودها منه :

- ابنك رجل مدهش ، وأنا أكنّ له كثيراً من الاحترام .
واقترحت : يجب أن تفكر بما سنفعله من اجل ريبين .
وكانت تود أن تباشر العمل فوراً ؛ أن تذهب الى ناحية ما ، ان تمشي حتى تتعب ولكن نيقولا رد عليها وهو يذرع الغرفة بخطاه :

- أجل .. يجب على ساندرين ان ..
- لن تلبث أن تحضر ، انها تأتي دائماً في الأيام التي اقابل بول فيها .
وجلس نيقولا الى جانب الأم ، على الأريكة ، مفكراً مطرقاً ، يقضم شفتيه ويداعب لحيته :

- الشيء الذي يؤسف ان شقيقتي ليست هنا .
- حبذا لو استطعنا ان نهيه ذلك في الحال ، وفي الوقت الذي يكون فيه بول ما يزال هناك ؛ فإنه سيكون سعيداً .
وصمتا فترة ، ثم قالت الأم فجأة وبصوت منخفض بطيء :

- وداعاً ..

فمد اليها يده ثانية ، في حين كانت موجة من الحنان تعبر وجهه مرتعشة :
- وداعاً اماء .

وانتظرت قليلاً وهي تحضن بيدها يده ؛ فاذا به يقول :
- لا تقلقي ، ولا تعضي

وكان في هذه الكلمات ، وفي التغصن العصي في جبهته ، الجواب الذي تنتظره ؛
فغمغمت وهي تطأطئ رأسها :

- لم تقول هذا ؟ . ماذا تقصد ؟ ...

وخرجت مصرعة دون ان تنظر اليه ، لكيلا تفضح انفعالها دموع عينها وارتماش شفتيها ، وفي الطريق ، كان يخيل اليها ان مفاصل يدها التي تنطوي على جواب ابنها تؤلمها ، وان ذراعها كله ثقيل كأن لكمة قوية نزلت على كتفها . وألقت القضاة الى نيقولا بسرعة وهي تدخل المنزل ؛ ونبض في اعماقها أمل جديد وهي تراه يفضها ، غير ان نيقولا قال :

- هذا طبيعي اسمعي ماذا كتب : «لن نهوب أيها الرفاق فنحن لا نستطيع ذلك ، ولا يستطيعه احد منا ، لاننا ان فعلت نفقد احترامنا في عين انفسنا .

اهتموا بالفلاح الذي اوقف مؤخرأ فهو يستحق عنايتكم ، وهو جدير بجهودكم انه يتعذب هنا كثيراً ، ويشترك كل يوم في اكثر من شجار مع الادارة . لقد سجنوه اربعاً وعشرين ساعة في الزنزانة . انهم يعذبونه ، ولقد توسلناهم جميعاً من أجله . وآسوا امي وكونوا عطفين عليها . واشرحوا لها فتفهم كل شيء .»

ورفعت رأسها وقالت بصوت راعش :

- ماذا يشرحون لي ؟ لقد فهمت .

واستدار نيقولا وسحب منديله ثم مخط بصوت مرتفع ودمدم :

- يجب ان اكون قد اصبت بالرشح .

وأمرّ يده على عينيه ، ليعيد نظارته الى مكانها ، وليستأنف وهو ينقل

الخطى في الحجره :

- أنا لا افهم لماذا يرفض ؟
ونفض نيقولا على الفور ، ولكن الجرس رن ، فتبادلا النظرات وهمس نيقولا :
- 'م' ، إنها ساندرين ..
وقالت الأم بصوت خفيض ايضاً :
- كيف تقول لها ؟
- أجل .. إنه لأمر صعب .
- اني لأرئي لها .

ورن الجرس ثانية أقل عنفاً من ذي قبل ، كما لو كان الطارق الذي يقف عند العتبة ، يتردد هو ايضاً . ومضت الأم ونيقولا معاً لاستقبال هذا الطارق ، ولكن نيقولا تراجع الى الورااء عندما اقترب من الباب :
- من الأفضل ان تستقبلها أنت .
وسألت الفتاة تجزم عندما فتحت لها الأم :
- ألم يقبل ؟
- كلا .

وقالت ساندرين ببساطة :
- لقد كنت اعرف ذلك .

وشحب وجهها وراحت تفك اضرار معطفها ، ثم تعيد اثنين منها الى ما كانا عليه ، ثم تحاول ان تخلعه فلا توفق ، وأخيراً قالت :
- طقس مزعج . مطرٌ وريح ... وهو .. هل صحته جيدة ؟
- نعم .

وأردفت ساندرين بصوت خفيض وهي تتفحص يدها :
- مسرورٌ ويتمتع بصحة طيبة .
فردت الأم دون ان تنظر اليها :
- لقد كتب طالباً تدبير وسيلة لتسهيل فرار ريبين
وغمغمت الفتاة ببطء :

- نعم ؟ يبدو لي ان علينا أن نلجأ الى تلك الخطة ..
وقال نيقولا وقد ظهر في الباب :
- هذا هو رأي ايضاً .. صباح الخير يا ساندرين .
ومدت له الفتاة يدها :
- ما هي العقبة التي تعترض تنفيذها ؟ ان الجميع يعترفون بأن هذه الخطة
يجب أن تنجح .

- ومن سينفذها ؟ فالكل مشغولون .

وقالت الفتاة وهي تنهض بسرعة :

- دعوني أقوم بها .. فلدي الوقت الكافي ..

- ليكن .. ولكن يجب ان تطلي الى الآخرين ..

- حسناً . سأفعل ، وسأذهب اليهم فوراً .

وأخذت تبكل اضرار معطفها بحركات واثقة .

واقترحت الأم :

- يجب ان تراحي قليلاً .

فابتسمت ابتسامة خفيفة واجابت وهي تخفف من صوتها :

- لا تزعجي نفسك ، لست متعبة .

وشدت يديها بصمت ، وانطلقت مقرورة قاسية الملامح .

واقتربت الأم ونيقولا من النافذة ، وتلبعاها ببصرها وهي تحتاز الساحة

وتتوارى وراء الحاجز ، وأخذ نيقولا يصفر ، ثم جلس الى الطاولة ، وبدأ

يكتب ، أما الأم فقد همست بسووم :

- سيشتغل هذا العمل .. وستجد فيه ما يعزبها .

وأجاب نيقولا :

- نعم هذا اكيد .

ثم استدار نحوها والبسمة تطيف في وجهه الطيب :

- هل فائك ان تتجرعي هذا الكأس ؟ أما تأومت ابدأ في اعقاب الرجل

فصاحت وهي تشير بيدها:

- يا لها من فكرة . أنا أتأوه ؟ ان الشيء الوحيد الذي كنت أخشاه هو أن ارغم علي الزواج من هذا او ذلك .

- ألم يكن هناك من يحظى بأعجابك ؟

ففكرت قليلاً ثم أجابت :

- لا اذكر يا صديقي العزيز . مما لا شك فيه ان كان هناك واحد .. ولكنني لا اذكر ابداً ..

ورنت اليه ثم اكملت كلامها ببساطة وبجزم هادىء :

- لقد كان زوجي يضربني كثيراً ، وكل ما كان قبله قد احتى تماماً من ذاكرتي .

وانكب من جديد على قرطاسه ، وخرجت هي لحظة ثم عادت ، فرنا اليها بجمان ، واستأنف الكلام هامساً ، وراح يداعب ذكرياته بحجة :

- اسمعي .. لقد كان لي انا ايضاً كساندرين قصة حب . لقد كنت احب فتاة بل مخلوقة مدهشة رائعة ، وها قد مضى على لقائنا الاول عشرون عاماً ، واعترف اني ما زلت حتى الآن احبها ؛ واحبها دائماً ومن كل ذاتي ؛ احبها بعرفان وإلى الأبد .

وكانت الأم ترى عينيه ، وهي يجانبه ، تشتعلان بلهب حار وضاء ، وكان يسند رأسه الى يديه المستقرتين على متكأ الكرسي ، ويرنو الى ناحية ما في البعيد . وكان جسده كله ، جسده الهزيل الرشيق ، القوي في الوقت نفسه ، يبدو كأنه يميل الى الامام ، كما يميل جذع النبتة نحو ضياء الشمس . ونصحته الأم :

اذا كان الأمر كذلك فتزوج .

- لقد مر على زواجها خمس سنوات ..

- ولم لم تتزوجها من قبل ؟

- أرايت ، لم يكن ليحالفنا الحظ . فعندما كنت في السجن كانت هي طليقة

وعندما كنت انا طليقاً كانت هي في السجن او المنفي . تماماً كوضع ساندين .

واخيراً ارسلوها الى سيبيريا لمدة عشر سنوات ، وانه لتأني رهيب ، وقد احببت

ان ألتحق بها الى هناك ، ولكننا خجلنا انا وهي . وهناك التقت برجل آخر ،

بصديق لي ، وهو فتى طيب جداً .. فلم يلبثا ان هربا معاً ، وها الآن يعيشان

في الخارج .. نعم ..

وتوقف ، ونزع نظارتيه فمسحها ثم نظر الى زجاجها في الضوء وعاد يفكرهما .

واندفعت الام تقول وهي تهز رأسها متأثرة :

- آه .. يا صديقي المسكين .

لقد كانت تشفق عليه .. ولكن شيئاً ما فيه كان يطرح ، على شفتيه ، في

الوقت نفسه ، بسمه حارة .. بسمه امومة . وغير من وضعه ، واخذ القلم بيده

ثانية ، ثم تابع وهو يلوّح به على وقع كلماته :

- ان الحياة العائلية تضائل فعالية الرجل الثوري : تضائلها باستمرار :

الاطفال ، وفقدان الموارد ، وضرورة العمل الدائب لكسب العيش ، في حين

انه لا بد للثوري من ان ينمي فعاليته بلا انقطاع ، وفي كل اتجاه . وهذا يتطلب

وقتاً . ومن واجبنا ان نكون دائماً في الطليعة ، لأننا نحن الكادحين الذين

اخترتهم قوة التاريخ لتهديم العالم الهرم ، وبناء الحياة الجديدة ، فاذا ما ظللنا

في المؤخرة ، واذا ما استسلمنا للنصب ، او لإغراء مغنم صغير قريب ، كان ذلك

وبالاً ، بل كاد ان يكون خيانة . ليس هناك من نستطيع ان نسير معه ، بنفس

الخطى ، دون ان يفسد علينا ايماننا ، ومن واجبنا الا ننسى ابداً ان مهمتنا

ليست في تحقيق مغنم صغيرة ، ولكنها فقط في تحقيق نصر كامل .

وتجلى الخزم في نبرته ، وشحب لونه ، وتألفت في عينيه قوة الشكيمة التي

عرف بها .

ورنّ الجرس من جديد ، عنيفاً هذه المرة ، فقطع عليه كلامه ؛ ودخلت لوميلاً مضرجة الوجنتين من البرد ، ترتدي معطفاً خفيفاً لا يصلح للشتاء ، وقالت بصوت خافت ، وهي تخلع حذاءها الممزق :

— لقد حُدد موعد المحاكمة . انه سيكون خلال ثمانية ايام .
وصرخ نيقولا من داخل الحجرة :

— صحيح ؟

واندفعت الأم نحوها ، دون ان تدري ما اذا كان الفرح او الخوف هو الذي يقلقها ؛ وتبعتها لوميلاً وهي تكمل بصوت خفيض تمازجه السخرية :

— اجل ... وفي المحكمة يقولون بصراحة ان القرار مهياً سلفاً . ولكن ماذا يعني ذلك ؟ هل تخشى الحكومة ان يعامل موظفوها اعداءها بلين ونعومة ؟ لا يبدو أن عملاءها أنذال ؛ رغم انها قد افسدتهم ، وربتهم على الفساد خلال زمن طويل ، وبدلت في سبيل ذلك كثيراً من الجهد والمران .

وجلست على المقعد وهي تفرك وجنتيها الهزيلتين ، ويشع الازدراء من عينيها المتجهمتين ، ويهدر صوتها بنقمة متنامية .

وقال لها نيقولا محاولاً ان يهديء من ثورتها :

— إنهم لن يسمعوك .. فلا تضعي جهدك عبثاً .

وكانت الام تصغي الى الفتاة بكل انتباهها ، ولكنها كانت تردد وراءها دون وعي ، وبصورة آلية ، نفس الكلمات :

— المحاكمة .. خلال ثمانية ايام .. المحاكمة ..

واحست فجأة بدنو حدث جديد القسوة ، وحشي الضراوة .

— ٢٣ —

وعاشت الأم نهارين طويلين ، في هذا الضباب من القلق والوهن ، وتحت وطأة غم الانتظار الثقيل . وفي اليوم الثالث اقبلت ساندرين لتقول لنيقولا :

— كل شيء معد ، للساعة الواحدة اليوم . !

واجاب هذا بدهشة :

— أعد كل شيء ؟

— ولم لا ؟ لم يكن عليّ إلا ان اجد ملجأ لربين وثياباً ... اما الباقي فقد تكفل به غوبون . وليس عليّ ريبين إلا ان يسير بضع مئات من الامتار فحسب ، وسيسير فيسوشيكوف امامه ، متتكراً بالطبع ، فيسلمه معطفاً وقبعة ... ويدله على الطريق ... اما انا فساأنتظر اويته ، فابدل ملابسي ثم اقوده ...

وقال نيقولا :

— لا بأس .. ولكن من هو غوبون هذا ؟

— إنك تعرفه .. فلقد كنت تقوم في منزله بالمحادثات مع صانعي الاقفال .

— آه .. اجل لقد تذكرت . إنه رجل عجوز .. طريف نوعاً ما ..

واجابت ساندرين وهي تنظر عبر النافذة :

— إنه جندي قديم ، ومهنته اليوم سقف السطوح ... وهو واسع الافق بعض الشيء ، ويكره كل عنف ، كرهاً لا ينفد .. إنه فيلسوف نوعاً ما ..

وكانت الام تصغي اليها بصمت ، وفي رأسها خاطر غامض ينضج ببطء :

— يود غوبون ان يدبر فرار ابن اخيه ايشانكو . ذلك الفتى الذي اثار اعجابك باناقته ونظافته المتصنعة بعض الشيء .. هل تتذكر ؟

وهز نيقولا رأسه بالايجاب .

وتابعت ساندرين :

— لقد اعد كل شيء بدقة ، ولكنني بدأت اشك في نجاح العملية ، فالسجناء يخرجون الى باحة السجن للنزهة في نفس الساعة ... وسيود الكثير منهم ان يفرؤا عندما يرون السلم .

وصمتت هنيهة ، مغمضة العينين ، فدنت منها الام :

— وبالطبع ، سيزاحم بعضهم بعضاً .

وكلوا ثلاثتهم امام النافذة ، وكانت الام تقف وراء نيقولا وساندرين ، وكان حديثهم الخاطف يثير فيها إحساساً شديداً الغموض .

وقالت فجأة :

— سأذهب .

وسألتها ساندرين :

— ولماذا ؟

ونصحها نيقولا :

— لا تذهبي الى هناك يا صديقتي ؛ فقد يصيبك حادث ما . يجب ألا تذهبي .

فرنت اليها ، ورددت بصوت اكثر خفوقاً ... ولكنه يزخر بالاصرار :

— بلي . سأذهب .

وتبادلوا النظرات ، وهزت ساندرين كتفها :

— هذا مفهوم ...

ثم استدورت نحو الام ، واحتضنتها بذراعيها ، وقالت لها ببساطة وتصميم :

— ومع ذلك فإني احذرك .. عيشاً تأملين ..

وصاحت الام وهي تجذبها الى صدرها بيدٍ مضطربة :

— خذيني معك يا عزيزتي . فلن أضيئك . يجب ان ارى . فانا لا اصدق ان

الفرار ممكن .

وقالت الفتاة لنيقولا :

— دعها تأتي معنا .

ورد نيقولا ، مظاًطناً رأسه :

— ذلك شأنك انت .

— ولكننا لن نستطيع البقاء معاً . ستسلكين انت طريق الحقول نحو الجنائن ،

فان سور السجن يرى من هناك .. ولكن .. ماذا ستقولين إذا ما سئلت عما

تفعلن في ذلك المكان ؟

واجابت الام ببقين وهي شديدة البهجة :

— لن أعدم جواباً .

وقالت ساندرين :

— لا تنسي ان حراس السجن يعرفونك ؛ وإذا ما رأوك هناك فأنهم ...

— لن يروني .

وفجأة اضطرم الرجاء الذي كان يستكنّ فيها طوال الوقت ، دون ان

ترتاب فيه ، فملأها بالحوية ، وفكرت وهي ترتدي ملابسها على عجل :

« ربما هو ايضاً .. »

وبعد ساعة كانت في الحقول وراء السجن ؛ وكانت الريح تهب عاتية فتعصف

بثيابها ، وتسفع الأرض التي يغطيها الجليد ، وتتمتع السياج الممزق ، سياج الحديقة

التي كانت تمر بقرها ، وتلطم بعنف جدار السجن القليل الارتفاع ، ثم تنطرح

في باحته فتكنس الاصوات المتصاعدة منها ، وتبعثرها ، وترقى بها نحو العلاء .

وكانت اليوم تفر مسرعة ، تاركة وراءها فجوات صغيرة من زرقة السماء .

ووراء الأم كانت تنبسط الحدائق وأمامها المقبرة ، وعلى يمينها يقوم السجن ؛

على بعد نحوٍ من عشرين متراً . وكان هناك بالقرب من المقبرة جندي يجر جواداً

من عنانه ، وآخر إلى جانبه ينفض سرجه ، ويصرخ ويصفر ويضحك ، انكن

بالقرب من السجن احد غيرهما .

وتجاوزتها ببطء وهي تتجه نحو سور المقبرة ، وتلقي نظرات مختلطة الى

اليمين والى الورا ، وأحست فجأة بساقيها يصطكان ، ويثقلان كأن الجليد قد

سمرها في الأرض ؛ وظهر عند زاوية السجن رجلٌ محدودب الظهر ، يحمل سماً

على كتفه ، ويسير بخطى سريعة كما يفعل موقد المصابيح .

وألقت ، وعيناها ترفان من الرعب ، ألقت نظرة خاطفة على الجنديين اللذين

كانا يضربان الأرض بأقدامهما في حين كان الجواد ينجب حولهما . ثم أبصرت الرجل

حامل السلم ، يسند سلمه الى الجدار ثم يتسلقه بتؤدة ، ويوميء بيده نحو الساحة ،

ثم ينحدر بسرعة ، ويختفي في منعطف السجن . وكان قلب الأم يخفق بشدة ،

والثواني تمر ببطء ، والسلم لا يكاد يرى على الجدار القائم ، الملطخ بالوحل ،

وبالبقع التي انقشر عنها الجير ، فانكشف تحتها القمرميد .. وفجأة ظهر فوق

الجدار رأس اسود ، ثم تآرجح من الناحية الأخرى جسم وانزلق إلى أسفل ،

وبعد قليل ظهر رأس آخر يمتد قبة من وبر ، وقفزت كتلة سوداء إلى الأرض ، واختفت بسرعة وراء منطف الجدار . وانتصبريين ، وتطلع فيا حوله ، وهز رأسه . وكانت الأم تغتمم وهي تركز الأرض بقدمها :
- هيا . انج بنفسك . انج بنفسك .

وملا الطنين أذنيها ، وتناهد الى سمعها بعض صرخات ، وظهر فوق الجدار رأس ثالث ، وكانت هي تراقبه جامدة ، ويدها تشنجان فوق صدرها ، ووثب الرأس الاشقر الحليق الذقن ، في الفضاء ، كأنه يود أن يفصل عن جسده ، ثم اختفى فجأة وراء الجدار .

وكانت الصيحات قد ازدادت ارتفاعاً وعتواً ؛ وكانت الريح تحملها في الفضاء ، وتحمل معها رجح الصغير الحاد . وسار ريبين بمحاذاة الجدار ، ثم تحطاه ، وعبر فسحة حرة بين السجن وبيوت المدينة ؛ وكان يبدو للأم انه يشي ببطء شديد ، وانه يشمخ برأسه عالياً وبلا جدوى للدرجة لا يمكن أن ينسى معها من يلتقيه ، وجهه ، فتغتمم :
- اسرع ، اسرع .

وطرطق يجفاف شيء ما في باحة السجن ، وسمع صوت ناحل كصوت كأس محطم ، وشد الجندي الجواد اليه ، وهو يثبت قدميه في الارض ، أما الآخر فقد صرخ ، بعد ما جعل من قبضته شيئاً كالقوق ، صرخ ببعض الكلمات باتجاه السجن ، ثم مال برأسه وراح يصغي .

وكانت الأم تتلفت الى كل جهة ، متشججة الأعصاب ، فلا تصدق عينها ان ما كانت تتخيله رهيباً معقداً ، تم بكل بساطة وسرعة ، وقد أذهلتها هذه السرعة وأفقدتها صفاهها .

ولم يعد ريبين يرى في الشارع ، بل كانت العين تقع على رجل مديد القامة ، يشي متدثراً بمطفه الطويل ، وعلى صبية صغيرة تركز . وبرز حراس ثلاثة عند زاوية السجن ، وكانوا يسرون متراصين ، وأيديهم اليمنى بمدودة الى الأمام . واندفع احد الجنديين للقائهم ، أما الآخر فقد ظل يدور حول الجواد ، ويبدل

جده لامتطاء صوة هذا الحيوان الذي كان يراوغ ويثب ، ويلوب حول نفسه . وكانت اصوات الصفارات تمرق الفضاء بلا انقطاع ثم تحتنق ، وكانت نداءاتها القلقة التائهة توقظ في بيلاجي حس الخطر ، فتستبد بها رعشة ، وتسير بمحاذاة سور المقبرة ، وهي تتتبع الحراس بعينها ، ولكن هؤلاء يلفون مع الجنود ، الزاوية الاخرى من السجن ، ثم يختفون ، ويجري في اثرهم نائب المدير الذي تعرفه جيداً ، ببذلته الرسمية المفككة الأزرار .

وكانت الريح تزوبع وتعضف كأنها فرحة ، وتحمل الى اذني الأم اشلاء الصراخ المختلط ، ودوي الصفارات ، فيهبها هذا الذعر ، وتغذ من سيرها وهي تفكر :

- « إذن ... يمكن ان يكون هو ايضاً قد استطاع ... »
وفجأة التقت عند زاوية سور المقبرة إثنين من رجال البوليس فصاح بها احدهما وهو يلث :
- قفي . أم تزي رجلاً ذا لحية ... ؟
فأشارت بيدها الى الحدائق ، واجابت برباطة جأش :
- لقد هرب في هذا الاتجاه ... فماذا حدث ؟
- انفخ صفارتك يا يغوروف .

وعادت الى المنزل يلاًها اسف مظلم ، ويفعم قلبها الغضب والمرارة ؛ وعندما بلغت المدينة قطعت الطريق عليها عربية ، فرفعت رأسها ، فاذا بها تبصر في داخلها شاباً اشقر الشاربين ، شاحب الوجه ، منهكاً ، ووقع بصره هو ايضاً عليها ، وكان يجلس جلسة جانبية بحيث بدا لها كتفه اليمين اعلى من اليسر ، وتلقاها نيقولا بفرح :

- والآن ... كيف جرت الامور ؟
- اعتقد ان الخطة قد نجحت ...
واخذت تقص عليه عملية الفرار ، جاهدة في ان تتذكر التفاصيل كلها ؛ وكانت تتكلم كأنها تقص عليه قصة سمعتها من شخص آخر ، ولا تصدقها هي .

يقولوا وهو يفرك يديه :

- لقد حاللنا الحظ ، ولكن الله يعلم كم ساورني من خوف عليك . اصفي الي يا نيلوفنا ، فسأقدم اليك نصيحة صديق . « لا تخيفنك المحاكمة ابدأ ، وصدقيني انه كلما اقترب موعدها ، اقترب اليوم الذي يطلق فيه سراح بول . ومن يدري ... فقد يهرب وهو في الطريق الى سيديريا ؟ ... اما فيما يتعلق بالمحاكمة فستكون هكذا على التقريب ...

وراح يصف لها الجلسة ، وكانت هي تصغي ، وتدرك ان المخاوف تساوره ولكنه كان يود ان يدها بالشجاعة .
وفاجأته بهذا السؤال :

- ربما كنت تعتقد اني سأقول شيئاً للقضاة ، واني سأقدم اليهم بعريضة ؟
- ماذا تقولين ؟

- انا خائفة ، هذا صحيح ، ولكن مم اخاف ؟ لا ادري !
وصمتت ، وظلت نظراتها نائمة في الحجره .

- يخيل اليّ احياناً انهم سيبنون بول ويستخرون منه ... وانهم سيقولون له :
« فلاح ... ابن فلاح ، فماذا حسبت نفسك ؟ » ... وبول عتي الكبرياء ، لذلك سيوقفهم عند حدم أو يهزأ بهم اندريه ... واقول في نفسي : إن صبرهم سينفذ بسرعة ، فهم جميعاً شديداً الفوران ، وسيصدرون عليها احكاماً قد لا نراهما بعدها ابدأ .

وتابعت بصوت خفيض ، في حين كان يقولوا يحتفظ بصمته المتجهم ، ويمسد لحيته المذبذبة :

- انا لا استطيع ان انتزع هذه الافكار من رأسي . إن الأمر رهيب عندما يجلسون للتدقيق والتحجيص ؛ فليس العقاب هو الرهيب ، بل المحاكمة . ما ارهب المحاكمة ... لا ادري ماذا اقول ...

وسيطر عليها إحساس لم يك يقولوا يدرك كنهه ، واريكها هذا الاحساس وزاد من عجزها في التعبير عن هلعها .

وكان هذا الهلع ، كالفن ، تسد عليها رطوبته بجاري النفس ، ولا يفتأ يتنامى في داخلها ، وعندما حان يوم المحاكمة حملت معها الى المحكمة حملاً ثقيلاً قائماً ، كان يقوس ظهرها ويحني رأسها .

وفي الشارع التقت بيجران من الضاحية تعرفهم ، فأنخت لهم بصمت رداً على تحياتهم ، وشقت طريقها بين الحشد الذي يرين عليه الغم ، وفي الاروقة ، وداخل القاعة اصطدمت بأقارب المتهمين ، وكانوا يتحدثون بأصوات خفيضة ، ويخيل اليها ان حديثهم الذي يترامى الي سمعها ، نافه لا جدوى فيه ، بل انها كانت لا تفهمه . وكان يستحوذ على الناس جميعاً إحساس واحد من الكتابة ، كتابة تنتقل عداواها منهم الى الأم ، فتضاعف من كدها وغمها .

وقال لها سيزوف وهو يفسح لها مكاناً إلى جانبه على المقعد :
- اجلسي هنا .

فأطاعت وسوت ثيابا ثوبها ، ثم رنت الى ما حولها ، وكان خليطاً من الخطوط الخضراء والقرمزية يتراقص امام عينيها ، وخيوط صفراء دقيقة تلمع في هاتين العينين .

وهمست امرأة كانت تجلس بجانبها :

- ان ابنك هو الذي جر ولدنا غريغوار الى الهلاك .

وأجاب سيزوف بلهجة مغمومة :

- اخبرسي يا ناتالي .

ونظرت الأم الى المرأة فاذا هي والدة سامووف ، وكان والده على بعد قليل منها ، وهو رجل اصلح ، حلو التقاطيع ، ذو لحية صهباء ، ممتشبة كالبروكة ، وعينين غائرتين في وجهه النافر العظم ، وكان يحدق أمامه ، ولحيته ترتعش .

ومن النواخذ العالمية للقاعة ، كان ينهمر ضياء رتيب كدر ، وتزلق نتف الثلج على الزجاج ؛ وبين النواخذ كانت لوحة كبيرة معلقة ، تمثل القيصر ، ويحيط بها إطار منذهب شديد الالاق ، تندس حواشيه تحت طيات ستائر ثقيلة ليلية ،

تدلى من النوافذ ؛ وإمام اللوحة كانت تقوم طاولة منطاة بقماش من الجوخ الأخضر ، تكاد تستغرق عرض القاعة كله ؛ والى اليمين ، ووراء حاجز مشبك مقعدان من الخشب ، وصفان من الأرائك القرمزية اللون . وكان عدد من الحجاب ذوي الياقات الخضراء والازرار المذهبة على الصدر ، والبطن ، يروحون ويحيثون دونما ضجيج .

وفي هذا الجواب المضطرب كانت تهم بخفر ، دمدمة من الاصوات المكبوتة ، وتقع رائحة غامضة كرائحة صيدلية .

هذه الألوان كلها ، وهذه الانعكاسات كلها ، وهذه الأصوات والروائح ، كانت جميعها تثقل على الأعين ، وتملأ القلب الخاوي بخوف مستكين يمازجه الاضطراب والوهن .

وفجأة أطلق أحدهم بضع كلمات بصوت مرتفع ، فارتعشت الأم ، ووقف الحضور جميعاً ، ووقفت هي أيضاً ، ولكنها عندما فعلت تعلقت بذراع سيزوف . وانفتح الى الزاوية الشمالية باب مرتفع ، وخرج منه عجوز ضئيل ، ذو نظارتين ، يترنح في مشيته ، وترتجف في وجهه الصغير الرمادي لحية بيضاء هزيلة ، وتغور شفته العليا الحليق في فمه ، وكانت وجنتاه النائتان وذقنه تستند الى ياقة بذلته العالية ، فيبدو كأنما لا اعتق له .

وكان يسنده من الورااء شاب ضخم ، ذو وجه خزي في احمر مستدير . ثم تقدم نحو المنصة ثلاثة رجال آخرين يرتدون زياً رسمياً ، موشى بالذهب ، وتبعهم بعد ذلك ثلاثة من المدنيين .

وتشاغلوا طويلاً ووراء المنصة ، ثم استقروا في أرائكهم ، وراح أحدهم ، بعد ان جلسوا - وهو امرد الوجه - يتحدث الى العجوز الضئيل وهو يحرك بتناقل وصمت شفته المنتفختين . وكان العجوز يصغي جامداً مشدود العضلات بشكل غريب ، وكانت الأم تبرى ووراء زجاج نظارتيه بقعتين صغيرتين لا لون لها .

وفي أقصى المنصة ، كان يقف أمام مكتب صغير ، رجل ضخم ، اصلع الرأس ، يقلب اوراقه ويسعل .

واهتز العجوز الى الامام ثم بدأ يتكلم ، ولفظ الكلمة الاولى بوضوح ولكن كلماته الاخرى كانت كأنها تتبخر على شفثيه الرقيقتين الرماديتين .

- انني أعلن ... أدخلوا ...

ووشوش سيزوف وهو يدفع الأم برفق ، وينهض :

- انظري .

ووراء الحاجز شرع باب ، ظهر منه جندي يتككب سيفه المسلول ، ويتبعه بول واندرية وثيومازين والاخوان غوسيف ، ويوكين ، وساموالوف ، وسوموف ، وخمسة شبان آخرين لم تكن الأم تعرف اسماءهم . وكان بول يتبسم بود ، كما كان اندريه يتبسم ابتسامة تكشف عن اسنانه ، ويوميء برأسه ، وكثت ابتساماتها وملاحمها وحركاتها النشيطة تضيء على الصمت المتوتر المصطنع ، كثيراً من البساطة والوضوح . وبهت الألق الشديد ، ألق الذهب اللذي يوشي الملابس الرسمية ، ومس قلب الام تيار من الثقة والبسالة ، ونفحة من القوة والحياة ؛ فأخرجها ذلك من خدرها .

وسرت خلفها ، على المقاعد ، حيث كان الحشد ما يزال يقتظر مرهقاً ، سرت غمغمة هي الرد على تحايا المتهمين .

وسمعت سيزوف يهس :

- انهم غير هيايين !

في حين كانت والدة ساموالوف الى يمينه تجهش بالبكاء .

وصاح صوت فيه قسوة :

- الصمت .

وقال العجوز الضئيل :

- إنني اخطركم ...

وكان بول واندرية يجلسان جنباً الى جنب ، ولمس معهم على المقعد الامامي مازين وبساموالوف والاخوان غوسيف . وكان بول قد حلق لحيته واطلق العنان لشاربيه فتهدلت أطرافها ، وبات رأسه المستدير شبيهاً برأس القط ، وكان

لقسماته تعبيراً جديداً ، ففي ثنيات فمه معنىً حاداً لاذعاً ، وفي عينيها تجهم ...
وكان يظلل شفة مازين العليا خطاً غامق اللون ، أما وجهه فكان ممتلئاً ، وكان
شعر سامو الوف مضافاً أكثر من ذي قبل . أما جان غوسيف فكان يحتفظ
دائماً بنفس البسمة العريضة ، كمعادته .

وكان سيزوف يفغم وهو مطأطأ الرأس .

— آه ... ثيو ... ثيو ...

وكانت الأم تصفي إلى الاسئلة الغامضة التي كان الرجل المعجوز يطرحها على
المتهمين دون ان ينظر اليهم ، وتصفي إلى اجوبة ابنا الهادئة الموجزة ، ويخيل
اليها ان رئيس المحكمة ورفاقه جميعاً لا يمكن ان يكونوا اشراراً قساة . لقد
كانت تقف من بانتباه في وجوه القضاة ، محاولة ان تستشف فيها شيئاً وكانت
تحس ان أملاً جديداً يتنامى في قلبها .

وكان الرجل ذو الوجه الخزي يقرأ بتؤدة وبلهجة لا مبالية ، وكان صوته
الذي لا طابع له يملأ القاعة بضجر يحدّر الجمع الجاثم على المقاعد بلا حراك ، وكان
اربعة من المحامين يتحدثون مع المتهمين بصوت خفيض ، ولكنه حار ، وتند
عنهم حركات عريضة سريعة تذكرها بالطيور السوداء الكبيرة .

وكان إلى جانب المعجوز قاض ضخم بدين تفرق عيناه الصغيرتان في الشحم ،
ويفيض جسمه من المقعد ، وإلى الجانب الآخر كان يجلس رجل مقوس
الظهر ، ذو شاربين أصهبين يشطران وجهه الشاحب ، وكان ، وقديداً عليه الإنهاك ،
يسند رأسه إلى ظهر مقعده ، ويفكر واجفانه مطبقة نصف إطباقة .

وكان النائب العام يبدو ايضاً متعباً ضجراً ، ووراء القضاة يظهر عمدة المدينة
وهو رجل قوي ممتلئ يداعب وجنتيه بسهوم ، ثم ماريشال النبلاء وهو ذو
شعر اشيب ، ولحية طويلة ، ووجه قرمزي ، وعينين ناعميتين ؛ ثم نقيب المقاطعة ،
وكان واضحاً ان كرشه يضايقه ، وانه كان يحاول ان يغطيه بمعطفه ولكن هذا
المعطف لا ينفك ينحسر عنه .

وارتفع صوت بول يعلن بحزم :

— لا قضاة هنا ولا مجرمون . بل سجناء ومنتصرون ...

وران للصمت ، ولم يتناه إلى سماع الأم ، لبضع دقائق ، الا خفق قلبها ،
وصرير القلم وهو ينساب على الطرس عجلان ناعماً .

وبدا رئيس المحكمة كأنه هو أيضاً ينصت إلى شيء ما ، ويهتظر ، وتلعل
زملأوه . واخيراً خرج عن صمته :

— نه ... م ... اعترف يا اندريه ناكودكا .

ووقف اندريه بثناقل وهو يمسد شاربته ، وينظر إلى رئيس المحكمة المعجوز
شزراً ، ثم قال بصوته الغريد المركز ، وهو يشغل كتفه :

— وماذا اعترفت لأعترف ؟ لست بقاتل ولا سارق ، ولكنني ببساطة تأثر
ضد نظام يُكرهه الناس على ان يختلس بعضهم بعضاً ، وان يقتل بعضهم بعضاً .

وزجره المعجوز بأجهاد ، ولكن بوضوح :

— اجب بأيجاز اكثر .

وشغرت الأم بتحريك رءاهها على المقعد : فلقد كان الحضور يتحدثون همساً ،
ويتسلطون كأنهم إنما يحاولون ان يتصلصوا من خيوط المنكبوت التي نسجتها
الكلمات الهكناه ، كلمات الرجل ذي الوجه الخزي .

ووشوش سيزوف : رأيت كيف يجيبون ؟

— اجب يا ثيو مازين ؟

ورده ثيو بوضوح وهو يثب واقفاً :

— لا اريد ان اجيب .

وكان الإنفعال يضرع وجهه ، وعيناه تبرقان ولأمر ما كان يخبيء يديه
وراء ظهره .

وصعد سيزوف آهة مخنوقة ، وجحظت عينا الأم من الدهشة .

— لقد رفضت توكيل محام ، ولن اتكلم ابداً . اني اقدر محكمتكم اللامرعية .
متي أتم ؟ هل منحكم الشعب حق محاكمتنا ؟ كلا ... إنه لم يفعل ، وانا لا اعترف بكم .

وجلس ، وتوارى وجهه المشتعل وراء كتف اندريه .

ومال القاضي الضخم برأسه نحو الرئيس، ووشوشه، ورفع القاضي ذو الوجه الشاحب اجفانه وألقى على المتهمين نظرة مزوّرة، ومدّ يده فخطب قلمه الرصاصي، شيئاً على الورقة المبسوطة امامه، وهز نقيب المقاطعة رأسه، وحرك قدميه بجذر، وألقى بكرشه على ركبتيه، ثم غطاه بيديه. واستدار العجوز الضئيل دون ان يحرك هامه، نحو القاضي الأصب اللون، ثم ارتعشت شفتاه... فحنى الآخر رأسه وراح يصغي إليه؛ وادار ماريشال النبلاء حديثاً مهموساً مع النائب العام، في حين كان العمدة يصغي إليها وهو يفرك وجنته. واخيراً هدر من جديد صوت الرئيس الخابي.

ووشوش سيزوف في اذن الأم دهشاً :

— أرايت كيف اهانهم؟ إنه، في الحقيقة أفضل من الآخرين.

وكانت الأم تبتسم دون ان تفهم ما يقول، وبدأ لها ان ما حصل كله ليس الا مقدمة تافهة مملّة لأمر رهيب سيسحق النظارة عما قريب، دفعة واحدة، بما يجعل من رعب شديد.

وجاءت اجوبة بول واندرية الهادئة فدوّت بكثير من الشجاعة والحزم، كأنها إنما يتفوهان بها في ذلك المنزل الصغير بالضاحية... لا امام المحكمة. ولكن جواب ثيو الفائز ألهبها ونشر في القاعة جواً من الجرأة، واستنتجت الأم من تحركات الناس الذين يجلسون وراءها، انها ليست الوحيدة التي تستشعر ذلك.

وسأل العجوز القميء النائب العام :

— وما هي مطالعتكم؟

فنهض النائب العام، وابدئ مطالعته بسرعة، سارداً بعض الارقام، ولم يكن في صوته ما يخيف، ولكن وخزة قاسية في قلب الأم بعثت في الوقت نفسه قلقها، فأحست معها إحساساً غامضاً بشيء عدائي، بعداء لا صراخ فيه ولا وعيد، ولكنه يتنامى دون ان تراه عين او تلمسه يد. وكان هذا العداء يرف حول القضاة أعشى، ويبدو كأنه يلقمهم بضبابه لا يمكن اختراقها، ولا

يمكن ان يتسرب اليهم عبرها شيء من الخارج.

وكانت الأم تزو إليهم، فيبدون لعينها كسر لا يمكن اكتناهاه، وعلى غير ما كانت تنتظر، لم يثرهم تصرف بول وثيو، ولم يوجهوا اليها كلاماً جارحاً، بل لاحظت ان اسئلتهم جميعاً لم يكن لها شيء من الأهمية في نظرهم، وانهم انما كانوا يطرحونها عليها مرغمين، ويصفون الى اجوبتهم يجهد. لقد كانوا يعرفون سلفاً كل شيء، لذلك لم يكن هناك ما يثير اهتمامهم.

ومثل امامهم دركي، وقال بصوت خفيض :

— لقد أجمع الناس على ان بول فلاسوف هو المخرّض الرئيسي.

وسأله القاضي البدين بلا مبالاة :

— وناكودكا؟

— وهو ايضاً...

وروقف احد المحامين :

— هل استطيع...؟

فسأل العجوز احدهم :

— هل من اعتراض لديك؟

وكان يخيل للأم ان القضاة جميعاً يعانون انحرافاً في صحتهم، وان اوضاعهم واصواتهم تم عن إعياء مرضي. وكانت تقرأ هذا الاعياء في وجوههم، وتقرأ معه الضجر القاتل. فأزايؤم الرسمية والقاعة والجنيد، والمحامون وتسمّرهم في مقاعدهم، واستجواب المتهمين والاصغاء اليهم... كل ذلك كان بلا شك، ثقيلاً عليهم، مثيراً لاشمئزازهم.

وجاء الآن دور الضابط الاصفر اللون الذي تعرفه، لقد كان يتكلم جاد الملامح، متساحب الكلمات، يتكلم بصوت مرتان عن بول واندرية، وكانت تقول في نفسها بعفوية، وهي تصغي اليه :

— إنك لا تعرف شيئاً كثيراً...

ولم يكن يداخلها اي خوف، او اشفاق، نحو اولئك الذين كانت ترام

وراء الحاجز . ان اشفاقها لم يك ينصب عليهم ، فلقد كانوا جميعاً يثرون . فيها الدهشة ، فحسب ، وحباً كان يشد قلبها بجملة هادئة ، وحبها ذلك سعيداً صافياً .

لقد كانوا ، وقد بدت عليهم امائر الفتوة والبأس ، يترزون بالقرب من الجدار ، ويكادون لا يولون أي اهتمام لأقوال الشهود المملة الرتيبة وحديثهم مع القضاة ، ولا للجدل القائم بين المحامين والنائب العام . وكانت تند عن احدهم - احياناً - بسمة ازدراء ، ثم يلقي ببضع كلمات الى رفاقه الذين كانت وجوههم ايضاً تطفح بالبسمة الساخرة .

وكان بول واندرية يتحدثان همساً ، وبأستمرار تقريباً ، الى واحد من وكلاء الدفاع كانت الأم قد رأتها في السهرة عند نيقولا ، وكان مازين وهو اكثر رفاقة انفعالاً واضطراباً يصيح بسمعه الى حديثهم ؛ وحياناً كان ساموا لوف يتحدث الى جان غوسيف ؛ وكانت الأم ترى هذا الاخير ، في كل مرة ، يلكر زميله ، خفية ، بمرقعه ، ويكبت يجهد ضحكة مدوية ، ثم يتخرج وجهه ، وتنتفخ وجنتاه ، ويخفض رأسه ليختبئ . وقهقه مرتين او ثلاثاً ، ثم ظل بضع دقائق يتصنع محاولاً ان يكون اكثر جدية واتزاناً . لقد كانت تغلي في كل منهم فتوة ، يبذل قصارى جهده ، ليحد من فورانها .

ولكن سيزوف الأم بمرقعه لكزة خفيفة ، فأستدارت نحوه فاذا هو منشرح الملامح ، بادي الاهتمام :

— انظري ... الى «الأشياء» كم هم مطمئنون ... إنهم يبدون كالأسياء ... اليس كذلك ؟

وكان الشهود في القاعة يدلون بأفاداتهم بأصوات عجلية لا لون لها ، وكان القضاة يستجوبونهم بلا مبالاة ، وعلى مضض ، وكان القاضي الضخم يتشاءب فيغطي فمه بيده المنتفخة ، أما الآخر ذو الشارب الأصهب ، فقد كان يبدو اكثر شحوباً ، وكان يرفع ذراعه احياناً فيضغط بأصبعه على صدغه بقوة ، ويجدق في السقف تائه النظرات ، بعينين متمددتين لدرجة تثير الاشفاق .

وكان النائب العام يدون ، من حين إلى آخر ، بعض الكلمات بقلمه الرصاصي ، ثم يستأنف الحديث مع ماريشال النبلاء الذي كان يقلب ، فيما حوله ، عينيه الواسعتين الحلوتين ، ويمسك لحيته الدكناء ، ويتسمم ، وهو يثني من جيده بشيء من التعاطف .

وكان العمدة يشبك ساقه ، وينقر على ركبته دونما ضجيج ، ويراقب بانتباه حركة أصابعه ، وكان كرشه المندلق يستريح على ركبته ، وتسنده كلتا يديه بجذره . اما نقيب المقاطعة فكان يجني رأسه ، ويبدو كأنه الوحيد الذي يصغي إلى طنين الاصوات الرتيب ، يشاركه في الاصغاء ، ذلك المعجوز الضئيل المنفرز في القعدة ، حيث يبدو نافرماً ، جامداً كناعورة الهواء ، في يوم لا ريح فيه . واستمر الحال طويلاً على هذا المتوال ، ثم عاد فتور الضجر يجذر النظارة من جديد .

وقال المعجوز الضئيل :

— إني أعلن .

ثم نهض بعد أن خنق الكلمات التالية بين شفتيه الرقيقتين .

وماجت القاعة بالصخب والزقزقات ، والهاثفات الصماء . والسعال ، وضجيج الاقدام المتحركة ، وأقتيد المتهمون ، وهم يتسمون ويومثون برؤوسهم إلى ذويمهم واصدقائهم ، وخاطب جان غوسيف احدهم بصوت هادئ :

— تشجع يا ايغور .

وخرجت الأم وسيزوف إلى الأزوقة ، فسألها العامل المعجوز بالحاج :

— هل ترافقيني لتناول قدح من الشاي في المشرب ، فلدينا ساعة ونصف الساعة سنقضها في الانتظار ؟

— كلا .

— حسناً .. وانا لن اذهب .. أرأيت إلى هؤلاء الفتيان ؟ لكانهم هم وجددم الرجال الحقيقيون هنا ، أما الآخرون فليسوا بنظرهم شيئاً مطلقاً . وثيو .. هل لاحظت ذلك ؟

واقترب والد ساموالوف منها ، وقبعته في يده ، وابتسم ابتسامة فظة :
رولدي غريغوار ؟ لقد رفض توكيل حمام ، وهو لا يريد أن يتكلم . إنه هو
أول من اكتشف هذه الطريقة .. أليس كذلك ؟ أما ابنك ، يا بيلاجي ، فقد
وافق على ضرورة وجود الحمامين ، في حين قال ابني انه لا يريد واحداً منهم ،
وقد حذا حذوه اربعة .

وكانت زوجته إلى جانبه ، ترف أجفانها بسرعة ، وتمسح أفقها بطرف
مندیلبا . وتابع زوجها ، وحيته في قبضته ، وعيناه تحدقان في الارض :
- عندما ينظر المرء إليهم ، إلى هؤلاء الفتيان .. «الملاعين» .. يظن بأنهم
يسلكون هذا السلوك في سبيل لاشيء . وانهم يخاطرون بأنفسهم بلا جدوى ،
ثم يتبين له فجأة انهم زبما كانوا على صواب . ان عددتم في المعمل يزداد بالطراد ،
ورغم انهم ، في كل لحظة ، يضطادون الكثير منهم فيه ، فإنهم يظنون كصغار
السماك في النهر . وهذا ما يدفع إلى التساؤل من جديد : هل هناك مهن قوة
وراءهم قدعهم ؟
ورد سيزوف :

- يعسر علينا أن ندرك هذه الأشياء .
ووافق ساموالوف : نعم .. هذا أمر عسير .
ونشقت زوجته بصوت مسموع وقالت :
- يا للأشقياء .. إنهم جميعاً بالصحة الجيدة .
ثم أضافت ووجهها المريض الشاحب يطفح بالبسمة :

- لا تقضي يا نيلوفنا ، لإلغائي منذ قليل ، التبعة على ابنك .. فأبي عفرت
يستطيع أن يعرف ، حقيقة ، من منهم هو الأكثر إجراماً . لقد سمعت ما قاله
الدرك والجواسيس عن ابننا غريغوار .. فله هو أيضاً .. هو الحيوان .. خطيئته !
وكان واضحاً انها فخورة بابنها ، وربما كان ذلك دون تمعد منها ، ولكن
الأم كانت تعرف هذا للشعور ، فأجابتها وهي تبسم بطيبة :
- إن القلوب الفتيه هي دائماً أكثر قرباً إلى الحقيقة .

وكان الحضور ينتشرون في الاروقة جماعات جماعات ، ويتحدثون بأصوات
صماء ، يتحدثون بروية او انفعال ؛ ولم ينزو أحد منهم ، بل كنت تقرأ بوضوح ،
وعلى وجوههم جميعاً ، الرغبة في التحدث والسؤال والإصغاء .
وفي المر الضيق الذي طرش ما بين جداريه باللون الأبيض ، كانوا يعثون
كانت ريحاً عاتية قد سلطت عليهم ، فراحوا يبحثون عن شيء راسخ ثابت
يتمسكون به .

وكان الأخ الاكبر لبوكين ، وهو فتى ضخم حائل اللون ، يفرط في حر كاته
وإشاراته ، ويتلفت بعنف في كل اتجاه مؤكداً :
- ان نقيب المقاطعة لا دخل له في هذه القضية .
وينهره والده ، وهو عجوز ضئيل الجسم ، ويتطلع الى ما حوله بنظرات خائفة :
- إخرس يا قسطنطين .
- كلا .. وسأقول ما أعرف عنه . يقال إنه قتل في العام الماضي كاتبه
بسبب امرأته ، وهي تعيش الآن معه . فكيف تفسرون هذا ؟ وفوق ذلك فهو
لص محترف ..

- أوه .. يا قسطنطين .. يا آلهي ..
وقال ساموالوف :

- هذا صحيح . هذا صحيح . إنه قاض غير مستقيم ..
واقترب بوكين الذي كان يسمع ذلك ، اقترب بسرعة وهو يجر الاخيرين
معه ؛ وراح يصرخ ، ويكثر من الاشارات ، ودم الانفعال يفرج وجهه :
- من أجل سرقة .. او جريمة يوجد مخلفون يحكون . مخلفون من الناس
العاديين ، والفلاحين والحرفين . أما اولئك الذين يعارضون الدولة ، فالدولة هي
التي تحاكمهم ، إن هذا أمر لا يستقيم . إنك إذا أهنتني فصفتك ، وكنت انت
الذي ستحاكمني من أجل ذلك ، فإنني سأكون أنا المخطيء بلا شك .. ولكن
الباديء .. من هو ؟ انه انت .
وفرق الجمع حارس مسن أعقف الأنف ، تزين صدره الأوسمة ، وقال

لبوكين وهو يتوعده باصبعه :

- هه .. انت الذي هناك .. لا ترفع صوتك فلست هنا في ملهى .

- اسمح لي أيها الفارس .. لقد فهمت .. اسمع . لو انني ضربتك ، وكنت انا القاضي الذي سيحاكمك فماذا تعتقد ..

فأجابه الحارس بقسوة :

- سترى .. سأطردك من هنا .

- إلى أين ؟ ولماذا ؟

- إلى الشارع لتتعلم كيف تنهق .

فأجال بوكين بصره فيما حوله وقال بصوت خفيض :

- المهم بالنسبة لهم أن تسكت ..

فصاح به المعجوز بشراسة :

- ألم تعرف ذلك حتى الآن ؟

ففتح بوكين ذراعيه ، واستأنف بصوت أشد خفوتاً :

- ثم .. لماذا لا يُسمح للناس بحضور المحاكمة ؟ بل يسمح بحضورها فقط

لذوي المتهمين !؟ لو كانوا يحكون بالعدل لتصرفوا علناً أمام الناس جميعاً .. اذ

لن يكون ما يخيفهم ..

فردد سامووف ، ولكن بلهجة أقوى :

- هذا هو الصحيح . إن المحاكمة لا تقضي الضمير !.

وكان بود الأم أن تقول له ما كانت قد سمعته من نيقولا عن لا شرعية

المحاكمة ، ولكنها كانت قد أساءت فهم ما قال ، ونسيت بعضه ، فابتعدت عن

الجميع لتحاول أن تتذكر ما نسيت ، وخلال ذلك لاحظت ان هناك فتىً وضاه

الشارب يرنو إليها ، ويده اليمنى في جيب بنطاله ، مما جعله يبدو كأن كتفه

الأيسر أدنى من الأيمن ؛ وقد بدا لها انها تعرفه ولكنه لم يلبث ان ادار لها

ظهره ، ولم تلبث هي أيضاً أن نسيتها في غمرة ذكرياتها .

وبعد قليل تناهى الى سمعها سؤالٌ طرح بصوت خافت :

- أفلك هي ؟

ورد أحدهم بصوت مرتقع ويجذل :

- نعم .

فطلعت .. فاذا الرجل المزور المنكب ، يستدير نحوها استدارة جانبية ، ويتحدث الى جاره وهو فقي اسود اللحية ، يرتدي معطفاً قصيراً ، ويتنعل حذاءً ضخماً .

وتحركت فيها من جديد ، وبقلق ، ذكرى لم تستطع ان تميزها ؛ وتلكتها رغبة طاغية في ان تحدث الناس عن مثل ابنها الأعلى وان تستمع الى الاعتراضات التي يمكن ان يوجهها اليه ، وان تستخلص من أقوالهم قرار المحاكمة .

وراحت تتحدث .. بصوت خفيض وهي توجه كلامها يجذر الى سيزوف :

- أهكذا تكون المحاكمة ؟ انهم يريدون أن يعرفوا ماذا فعل كل واحد ،

أما لماذا فعل ؟ فإن ذلك لا يعنينهم ابداً . ثم انهم جميعاً طاعنون في السن ، وللحكم على شبان يجب أن يكون هناك شبان ..

وقال سيزوف :

- أجل .. انه لمن العسير علينا جداً ان نفهم هذه القضية .. من العسير ..

ثم هز رأسه ساهماً .

وكان الحارس قد فتح باب القاعة وصاح :

- ذوو المتهمين فقط .. ابرزوا بطاقتكم !

وارتفع صوت كئيب يقول ببطء :

- بطاقات ! .. كما لو كنا في سيرك !

.. واجتاحت الناس سخط أصم ، واستشعروا في نفوسهم جرأة مبهمه ،

ولكنهم بدوا أقل ضيقاً ، فراحوا يضحون ويتجادلون مع الحجاب .

- ٢٥ -

وجلس سيروف على المقعد مغمغماً ، فسألته الأم :

- ما بالك ؟

- لا شيء . ان الناس بهائم ..

ورن جرس ، ثم أعلن صوت بلا مبالاة :

- تهيأت المحكة

ونفض الجميع ، كالمرة الاولى ، ودخل القضاة بنفس الترتيب وجلسوا في مقاعدهم ، ثم أدخل المتهمون .

ووشوش سيزوف :

- الانتباه . سيداً النائب العام مرافقته .

ومدت الأم عنقها ، ومالت الى الأمام بكل جسدها ، ثم جمدت ، فاذا بها

تسمع من جديد ما يثير الرعب .

وأطلق النائب العام زفرة ، وهو يقف ويدير رأسه نحو القضاة ، ويتكلم

بمرفقه على طاولته . ثم راح يتكلم ملوحاً بيده اليمنى في الفضاء بمركات متقطعة .

ولم تسمع الأم عباراته الاولى فقد كان صوته خفيضاً ممتلئاً ، غير متناسق للثبرة ،

فهو تارة بطيء وتارة اخرى سريع ، وكانت الكلمات تتمطى في سلسلة طويلة

رقيقة ، تتطاير فجأة وتتضغط ، وتهوم كسرب من الذباب الأسود فوق قطعة

من السكر ، ولكن بيلاجي كانت لا تجد فيها ما يربع او يتوعد ، بل كانت

هذه الكلمات تتناثر باردة كالثلج ، كمداء كالرماد ، وتنفطر فتملأ جو القاعة

بضجر قاحل ، كالرمل الدقيق الجاف .

وكانت هذه المرافعة التي شححت فيها العواطف وخصبت الكلمات ، لا تصل ،

بلا شك ، إلى آذان جان ورفاقه الذين كانوا لا يتأذون بها مطلقاً ، والذين كانوا

لا ينفكون يتهامون كالسابق ، آمنين ، ويبتسمون تارة ابتسامة عريضة ،

وتارة أخرى يجثون بساكنهم تحت ملاعهم الباسرة .

ونغمم سيزوف :

- انه يكذب .

ولم يكن باستطاعتها هي أن تقول اكثر من ذلك ، وكانت تصغي الى

النائب العام فتفهم من كلامه انه يتهم الجميع دونما تمييز ، وعندما أتى على ذكر

بول ، راح يتكلم عن ثبو ، ويضعه في نفس الوضع القانوني ، ثم يضم اليها بوكين

بأصرار وكان يبدو انه يحشر المتهمين جميعاً في جراب واحد ، ويسد عليهم بابه ،

ثم يصرهم هصراً ، غير ان المعنى الظاهري لكلامه لم يكن ليرضي الأم ، لا

يجرئها ولا يخيفها ، ومع ذلك فقد كانت تنتظر ذلك الشيء الرهيب ، فتبحث

عنه تحت كلمات النائب العام ، وفي ملامح وجهه ، وعينييه ، وفي يده البيضاء

التي كانت تلوح ببطء في الفضاء . أجل .. لقد كان ذلك الشيء ماثلاً هناك ،

وكان رهيباً ، تحسه الأم ، ولكنها لا تتحسسه ، فهو عصي على التعريف ، يسجن

قلبها من جديد في شبكة جافة خشنة .

وكانت تتطلع الى القضاة ، فتري بوضوح ان هذه المطالعة قد أضجرتهم ،

وكانت وجوههم الصفراء الكالحة التي لا حياة فيها ، لا توحى اليها بشيء ، وكانت

كلمات النائب العام تنتشر في الفضاء ضباباً لا تراه العين ، يتكاثف حول القضاة ،

ويلفهم بسحابة سمبكة من اللامبالاة ، والعياء المستسلم .

وكان رئيس المحكة جامداً كالمومياء لا يبدي حراكاً ، وكانت البقع

الرمادية الصغيرة تخنفي بين الفينة والفينة ، وراء زجاج نظارتيه ، وتنصر في

رقعة وجهه ، وازاء هذا الجمود الجيفي ، وهذه اللامبالاة الباردة ، كانت الأم

تتساءل بقلق :

- هل يحاكيون حقاً ؟

وكان هذا الشك يصر قلبها ويترد منه قليلاً قليلاً ، خوفها من ذلك الشيء

الرهيب الذي كانت تتوقعه ولكن شعوراً حاداً بالمذلة كان يأخذ بخناقها .

وتوقفت مرافعة النائب العام بغتة ، ولكنه أضاف بضع دمدمات سريعة ،

ثم انحى للقضاة وجلس وهو يفرك يديه ، فأوماً له ماريشال النبلاء برأسه مقلباً عينييه ،

ومد العمدة اليه يده ، أما النقيب فراح يتأمل كرشه ويبتسم .

إلا ان مرافعة النائب العام لم ترق ، على ما يظهر ، للقضاة الذين لم تبدر منهم

بعدها أية حركة .

وقال المعجوز الضئيل وهو يذني ورقة من وجهه :

– الكلام الآن لو كبل الدفاع عن فيدو سيف ، وماركوف وزاغاروف .
فوقف المحامي الذي كانت الأم قد رآته عند نيقولا ، وكانت عيناه الصغيرتان
تبتسمان وضائتين في وجهه العريض السمح ؛ وخيل للام ان تلك النقطتين
المستكيتين تحت حاجبيه الاصهين تنطلقان كالمقص لقطعاً شيئاً ما في الفضاء .
وأخذ يتكلم على مهل ، وبصوت جهوري واضح ، ولكن الأم كانت لا
تستطيع ان تسمعه ، فوشوش سيزوف في اذنها :

– هل فهمت ما يقول ؟ هل فهمت ؟ إنه يقول إنهم معتوهون مختلو الشعور
فهل صحيح ان تيودور كذلك ؟

ولم تجب ، وأرهقا شعوراً ألم يخيبه الأمل ، وكان شعورها بالمهانة يتزايد
فيسحق روحها . لقد أدركت الآن لم كانت تنتظر المحاكمة ؟ لقد كانت تعتقد
بأنها ستشهد نقاشاً قانونياً قاسياً بين ابنها وحقيقته ، والقضاة وحقيقتهم ، وكانت
تتصور ان هؤلاء سيستجوبون بول طويلًا وبدقة ، وانهم سيسألونه بتفصيل عن
حياة قلبه كلها . وانهم سيتفحصون بعينون نفاذة أفكاره كلها ، وتصرفاته ،
ومشاغله ، وانهم عندما يلمسون صواب نظرتة سيجهرون بعدالة :

– هذا الرجل على حق .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ؛ فلقد كان المتهمون ، كما يخيل اليها ، على بعد
مئة فرسخ من القضاة . وكان هؤلاء لا يثيرون في المتهمين اي اهتمام ، وكان
الجدل القائم لا يروق للام ، لذلك كانت لا تصغي اليه ، بل تفكر وهي
تشعر بالمهانة :

– أهكذا يحاكمون الناس ؟

وغنم سيزوف وهو يومي برأسه مؤكداً :

– إنها تليق بهم !

وانتقل الكلام الى حمام آخر ، ضئيل الجسم ، منعم الملامح ، باهت اللون ،
ساخر اللهجة ، ولكن القضاة قطعوا عليه كلامه . ووثب النائب العام ولفظ
بصوت سريع مهتاج كلمة «مخضض الضبط» ثم راح المعجوز الضئيل يتكلم داعياً

اياه الى الهدوء ، في حين كان المحامي يصغي اليها ، وقد طأطأ رأسه احتراماً ، ثم
لم يلبث ان استأنف الكلام .

وقال سيزوف :

– اسلخهم جيداً .. اسلخهم جيداً .

وساد الهرج القاعة من جديد ، وانتظم الهياج العنيف الجمهور ، وكان المحامي
يسوط جلد القضاة الهرم بكلماته اللاذعة ، فيبدون كأنهم يتجمعون على انفسهم
بشدة وينتفخون ، وينتفشون ليردوا عنهم طعناته الشديدة الواخزة .

ويقف بول فيسود القاعة فجأة صمت غير منتظر ، وتميل الأم بكيانها كله إلى
الأمام ، ويبدأ بول كلامه بهدوء :

– إني كحزبي ، لا اعترف بمحكمة إلا محكمة حزبي . لذلك لن اقول شيئاً
دفاعاً عن نفسي ، ولكنني ، تحقيقاً لرغبة بعض رفاقي الذين رفضوا توكيل محام ،
سأحاول أن أشرح لكم ما استعصى عليكم فهمه . لقد وصف النائب العام تظاهرنا
في ظل علم الاشتراكية الديمقراطية بأنها ثورة على السلطة العليا ، وتحدث عنا
كمهصاة مؤثرين ضد القيصر . ومن واجبي أن أعلن ان الاوتوقراطية ليست بالنسبة
لنا القيد الوحيد الذي يشد البلاد الى اغلالها ، بل إنها القيد الاول الذي نحسه
أكثر من سواه ، والذي يجب علينا ان نحرر الشعب منه .

وكان السكون قد زاد عمقاً عند انطلاق هذا الصوت الحازم الذي بدا كأنه
يباعد ما بين جدران القاعة ، كأن بول قد نأى كثيراً عن سامعيه .. ولكن هذا
الصوت ، كان في الوقت نفسه جليلاً واضحاً .

وتعلم القضاة بتناقل وقلق ، وهمس ماريشال النبلاء بضع كلمات في اذنين
القاضي ذي الوجه اللامبالي ، فحرك هذا رأسه ، واستدار الى المعجوز الضئيل
الذي كان يوشوشه من الناحية الاخرى القاضي ذو الملامح المتألمة ؛ ووجه المعجوز
وهو يترنج في مقعده ذات اليمين وذات اليسار ، بضع كلمات الى بول ، ولكن
صوته ضاخ في غمرة التيار العريض المتدفق الذي ينساب من فم بول :

– إننا اشترأ كيون . وهذا يعني اننا اعداء الملكية الخاصة التي تفكك الناس

وتؤلب بعضهم على بعض ، وتخلق بينهم عداة في المصالح لا نهاية له . اعداء الملكية الخاصة التي تكذب حين تدعي انها تعطي او تصفي هذه الخصومة ، والتي تقسد الناس جميعاً بالكذب والرياء والحقد . ونحن نقول ان المجتمع الذي يعتبر الانسان اداة لإثرائه هو مجتمع لا إنساني ، مجتمع بغيض بالنسبة لنا ، لا نستطيع ان نتقبل اخلاقيته المرائية الكاذبة . إن سفاهته الماجنة وقسوته بالنسبة للشخصية الانسانية تثيران كرهنا ، ونحن نريد أن نناضل ، وسنناضل ضد كل شكل من اشكال عبودية الانسان الجسدية والمعنوية ، في مجتمع كهذا ؛ سنناضل ضد كل الأساليب التي يُسحق بها الانسان في سبيل الجشع . ونحن ، أعني العمال ، نحن الذي يصنع جهدنا كل شيء ، من الآلات الضخمة الجبارة الى دُمى الأطفال . نحن الذي حرمانا حق النضال في سبيل كرامتنا كبشر ، والذين يدعي كل واحد ، حقاً له ممتازة بأن يجعل منا أدوات للوصول الى غايته . نحن العمال ، نريد الآن أن يكون لنا من الحرية ، ما يمكننا مع الزمن ، ان نظفر بالسلطة كلها . إن شعاراتنا بسيطة : لتسقط الملكية الخاصة . أدوات الانتاج كلها ملك للشعب . السلطة كلها للشعب . العمل إلزامي للجميع ! . وهكذا ترون أننا لسنا عصابة متمردين !

وقال الرئيس بصوت واضح قوي :

— ارجوك تكلم في الموضوع !

وكان قد استدار نحو بول وراح يحدق به ، وخيل للأُم ان عينه الشزراء الكدراء كانت تلمع ببريق شرير نهم ، وكان القضاة يرون جميعاً إلى الفتى بعيون تبدو كأنها تتسمر على وجهه ، وتخترق جسده لتمتص منه الدم ، فتحيى به أجسادهم المهترئة الفانية . أما هو فكان يقف منتصباً بكل قامته ، حازماً ، صلباً ، ويمد نحوهم ذراعه ويقول بصوت واضح هادىء :

— نحن نأثرون ، وسنظل كذلك ما دام البعض يأثرون والآخرون يعملون . نحن نكافح ضد مجتمع أمرتم بأن تحموا مصالحه ، مجتمع نحن خصومه الألداء

وخصومكم ؛ ولن يحل بيننا الوثام إلا حين ننتصر ، وسننتصر نحن ، نحن العمال . إن موليككم هم دون ما يتصورونه من قوتهم بكثير ؛ وثوراتهم التي يكسدونها ويحمونها بتضحية الملايين من البشر التي يستعبدونها ، وهذه القوة التي تعطيمهم السلطان علينا ، كل ذلك يثير فينا بينهم التنازع العدائي ، ويهدمهم مادياً ومعنوياً . ان الملكية تتطلب جهداً عظيماً جداً لتحمي نفسها ، وأنتم في الحقيقة ، أنتم جميعاً أيها الأسياد ، يا أسيادنا ، عبيد أكثر منا . ان عقولكم هي المستعبدة ، أما نحن فلسنا عبيداً إلا بأجسادنا . انكم لا تستطيعون أن تتحرروا من غير الاعراض والتقاليد التي تقتلكم معنوياً ، أما نحن فلا شيء يمنعنا من أن نكون أحراراً في ذواتنا : والسموم التي تنفثونها فينا هي أقل خطراً من الدواء الشافي الذي تهرقونه في وجداننا دونما إرادة منكم ؛ وهذا الوجدان يكبر وينمو بلا انقطاع ، ويزداد دوماً تأججاً ، ويحمر وراءه كل ما هو أفضل ، وأسلم معنوياً ، حتى ولو كان هذا الأفضل ، وذاك الأسلم من تراث طبقتكم .

انظروا .. انكم لا تجدون شخصاً واحداً يستطيع أن يناضل ايديولوجياً باسم سلطتكم ، فلقد استنفذتم حججكم كلها ، هذه الحجج القمينة بأن تحميكم من هجوم العدالة التاريخية . كما انكم لا تستطيعون أن تأتوا بجديد في نطاق الفكر ، اي انكم قد ابتليتكم بالعمق فكرياً . أما أفكارنا ، أفكارنا نحن ، فإنها تنمو وتتأجج وتزداد إشراقاً ، وتكتسح جماهير الشعب ، وتنظمهم في نضالهم من اجل الحرية . ان الشعور بالدور العظيم الذي يجب أن تلعبه الطبقة الكادحة ، هذا الشعور يوحد عمال العالم كلهم ؛ ويجعل منهم روحاً واحدة . ومن المستحيل عليكم ان توفقوا عملية تجدد الحياة إلا بالقسوة والحداد ، ولكن الحداد واضح ، والقسوة تثير النقمة . والأيدي التي تخنقنا اليوم ستشد أيدينا عما قريب في عنق أخوي . ان طاقتكم هي الطاقة الآلية لتضخم الذهب ، وهي تلم شتاتكم في جماعات تقدر لها أن يفترس بعضها بعضاً ، أما طاقتنا نحن ، فهي قوة الضمير الحية المتنامية أبداً ، النابتة من تضامن الكادحين جميعاً .

ان تصرفاتكم كلها اجرامية لأنكم لا تهدفون من ورائها الا الى استرقاق

وجلس دون أن ينظر إلى القضاة ، وكانت الأم وهي تمسك انفاسها ،
تركز بصرها عليهم وتترقب .

وشد اندريه بقوة على يد بول وهو مشرق الأسارير ، أما سامو الوف ومازين
والآخرون جميعهم ، فقد اشرأبوا نحوه . وكان هو يتنسم ، وقد اربكته بعض
الشيء حماسة رفاقه ، ثم ألقى نظرة على المقعد حيث كانت تجلس أمه ، فأوما لها
برأسه إيماءة كأنه يسألها :

— هل يعجبك هذا ؟

وردت عليه ، وقد غمرتها موجة من الحنان الملتهب ، بزفرة عميقة من الفرح .
وغغم سيزوف :

— لقد بدأت المحاكمة هذه المرة . فلقد حشرهم شر حشرة . أليس كذلك ؟
وهزت رأسها دون ان تجيب ، سعيدة لأن ابنها تكلم بكثير من الجرأة ،
ولعلها كانت أكثر سعادة أيضاً لأنه أنهى كلامه .

وكان هناك سؤال يطرق دماغها :

— والآن ... ماذا سيحل بكم ؟

— ٢٦ —

ولم يكن ما قاله ابنها جديداً عليها ؛ فلقد كانت تعرف افكاره ، ولخصها
كانت لأول مرة تحس ، هنا أمام المحكمة ، قوة إيمانه العجيبة الجارفة . وكان
هدوء بول يصعقها ، وخطابه يتكثف في صدرها ، في حزمة مشعة من يقين مضيء ،
كان يؤكد لها سداد خطاه وانتصاره . وخطر لها ان القضاة لن يلبشوا أن يناقشوه
بضراوة ، ويحايهوه بحقيقتهم غاضبين ، ولكن هو ذا اندريه ينهض ، ويترنح ،
ثم يلقي نظرة خاطفة الى تحت ، ويقول :

— أيتها السادة وكلاء الدفاع .

ولكن القاضي اذالوجه المربض صاح به بصوت قوي غضوب :

— المحكمة هي التي أمامك لا وكلاء الدفاع .

— ٤١٣ —

الناس ، أما علمنا نحن ، فانه يحمر العالم من الاشباح والغيلان التي يخلقها دجلكم
وحقدكم ، ونهيمكم ، ليرهب بها الشعب . لقد انتزعتم الانسان من الحياة وسحقتموه ،
ومهمة الاشتراكية أن تجمع العالم الذي مزقتموه في كل واحد جبار .
وستحقق ذلك .

وتوقف بول قليلاً ثم ردد بهدوء وبمزيد من القوة .

— سيتحقق ذلك .

وتهاوس القضاة فيما بينهم ، وندت عنهم حركات غريبة ، دون أن يقتلعوا
عيونهم الشرمة عن بول ، وأحست الأم كأنهم انما يدنسونه بنظراتهم هذه جسده
ابنها اللطيف الصلب ، هذا الجسد الذي يحسدونه على ما ينعم به من عاقبة ،
وقوة ، ونفارة .

وكان المتهمون يصغون بانتباه لكلمات رقيقهم وهم شاحبو الوجوه ، تتألق
الفرحة في عيونهم ، وكانت الأم تلتهم هذه الكلمات التهاماً فتتنحرف في ذاكرتها
مقاطع طويلة منها .

وقاطع العجوز القميء بول مرات عدة ، شارحاً له ما لا تدري ، وقد ارتسنت
على شفتيه في احدى المرات ابتسامة حزينة . وكان بول يصغي اليه بسكون ثم
يستأنف بصوت صارم ولكنه هادئ ، يرغم القضاة على الاصغاء اليه ، ويخضع
إرادتهم لإرادته .

وأخيراً أخذ العجوز يصرخ مشيراً بيده الى بول ، ولكن هذا اكتفى بالرد
عليه بأن قال بصوت تمازجه سخرية خفيفة :

— سأنبهي كلمتي . إني لا أفصد أن اوجه اليكم أية إهانة شخصية بل بالعكس ،
أما وقد أرغمت على حضور هذه المهزلة التي تسمونها « محاكمة » فأني اكاد استشعر
بعض الشفقة عليكم . انكم رغم ذلك كله بشر ، وإنه لشديد علينا دائماً ان نرى
اناساً ، وإن كانوا أعداءً لأهدافنا ، ينحدرون ، بشكل دنيء هكذا ، ليكونوا
في خدمة الإرهاب ، ويفقدون الى مثل هذه الدرجة الإحساس بكرامتهم
الإنسانية .

— ٤١٢ —

وكانت الأم تقرأ في ملامح اندريه أنه يريد أن يمزح . لقد كان شاربه يرتعش ، وفي عينيه يلتمع دعابٌ خبيث خداع تعرفه جيداً ، وفرك رأسه بيده الطويلة ، ثم تنهد ، وقال وهو يهز رأسه :

— ليس ذلك ممكناً ؟ لقد كنت أعتقد أنكم لستم قضاة بل وكلاء دفاع فقط !

ورد عليه المعجوز القمي ، يحفاف :

— ارجوك تكلم في صلب الموضوع .

— في صلب الموضوع ؟ حسناً ، أنا أريد أن أفترض إذن أنكم قضاة حقاً ،

ورجال مستقلو الرأي شرفاء ..

— ليست المحكمة بحاجة إلى تقديرك ..

— ليست بحاجة إلى تقديري ؟ ثم ... ومع ذلك سأتابع كلامي ...

لنفترض انكم رجالٌ لا أصدقاء لهم ولا خصوم ، رجال احرار ... وانه قد مثل

أمامكم فريقان : أحدهما يتظلم : « لقد سلبنى وحطم سحتي » ، والآخر

يجيب : « ان لي مطلق الحق في أن أسلب واحطم الرؤوس ... لأنني أملك

بندقية . »

وقاطعه المعجوز وهو يرفع من صوته :

— هل لديك ما تقوله في الموضوع ؟

وكانت يده ترتعش ، فيبهج الأم ان تراه يغضب ، ولكن الطريقة التي

تصرف بها اندريه لم ترق لها ؛ فهي لا ترتفع إلى مستوى دفاع بول ، وكانت

بيلاجي تود ان تستمع إلى نقاش حاد مركز .

ورنا البيوروسي الى المعجوز بصمت ثم قال بوقار وهو يفرك رأسه :

— في الموضوع ؟ ولم أتكلم فيه ؟ ان ما يتوجب عليكم معرفته قد قاله

رفيقي ، أما الباقي فسيقوله لكم آخرون عندما يحين الوقت ..

فوثب المعجوز الضئيل من مقعده وصاح :

— اني امنعك من الكلام . الكلام لفريفوار ساموالوف .

وتمالك اندريه على مقعده مطبق الشفتين غير مبال ، ووقف الى جانبه

ساموالوف والهواء يعبث بشعره الأجمد :

— لقد وصفنا النائب العام بأننا برابرة ، واعداء للثقافة ...

— عليك الا تتكلم إلا فيما يتعلق بالقضية .

— هذا ما افعله ؛ فليس هناك من شيء لا يتعلق بالشرفاء . ثم إني ارجوك

ألا تقاطعني ، وأسألك ... أن تقول لي اذن ما هي ثقافتكم ؟

وقال المعجوز وهو يفغر فمه :

— لسنا هنا أمام زميل لنا ... فادخل في صلب الموضوع .

وكان ظاهراً بوضوح ان موقف اندريه قد بدل من مزاج القضاة ، وبدا كأنه

قد عثى على شيء ما في نفوسهم ؛ فظهرت في وجوههم الغبراء بقع ، ولعلت في

عيونهم شرارات باردة صفراء . وكان دفاع بول قد أثار حفيظتهم ، ولكن قوته

غطت على غضبهم وفرضت احترامه عليهم ، ثم جاء البيوروسي يفرج عنهم هذا

الضيق ، ويظهر دونما جهد ما كان يخفيه .

وتهامسوا فيما بينهم وكانت ملاحظتهم تتقبض وتتغضن بشكل غريب ، وغدت

حركاتهم كقضاة يشوبها الافراط والمبالغة .

— انكم تدربون الجواسيس ، وتجرون النساء والشباب الى الفجور ، وتحيلون

الانسان الى سارق وسفاح ، وتسمونه بالكحول . المذابح الشاملة ، والدجل

العالمي ، والفجور ، وجر الشعب كله الى الجبل ، هذه هي ثقافتكم ... ونحن ،

أجل ، نحن ، أعداء لهذه الثقافة .

وصاح المعجوز الضئيل ولحيته ترتعش :

— ارجوك ..

ولكن ساموالوف كان يصيح في الوقت نفسه ، محتقن الوجه مشتعل العينين :

— ولكننا نحب الثقافة الأخرى ونحترمها ، الثقافة التي تعملون على ان يتغفن

في السجن خالقوها الذين تحيلونهم إلى مجانين ..

— اني اسحب منك الكلام ... لتيودور مازين .

ووثب مازين الصغير كجرذ خرج من حجره وقال بمجدة :

- اني .. اقسام واعلم .. بأن الحكم علي جاهز .

واختنق صوته واصفر لونه ولم يعد يُرى في وجهه إلا عيناه ، ثم صاح وهو يبسط ذراعه :

- اني أعطيك عهد شرف . ارسلوني انتي شتم ، فسأهرب ، وسأعود ، وسأعمل ابداً من أجل القضية طوال حياتي ، أعطيك عهد شرف ..

وسعل سيزوف بقوة ، وتلعل ، وكان الجمهور كله ، وقد جرفته موجة من الهياج تتنامى ابداً ، كان هذا الجمهور يزجر ، فتندد عنه ضوضاء غريبة . وبكت امرأة ، وسعل أحد الناس ، ثم نشج . وكان رجال الدرك ينظرون الى المتهمين بدهشة بلهاء ، والى الجمهور بغضب . وكان القضاة يتأيلون تارة إلى اليمين وتارة اخرى الى الشمال ، وأخيراً صرخ العجوز بصوت نحيل :

- غوسيف جان ...

- لا اريد أن أتكلم .

- بإسبل غوسيف .

- لن أتكلم .

- بوكين تيودور .

فنهض الفتى ذو الشعر الابنوسي متثاقلاً وقال بتؤدة :

- يجب أن تخجلوا ، فأنا رجل غير مثقف ... ومع ذلك افهم ما هي العدالة .

وكان يرفع ذراعه فوق رأسه . ولم يكلم بل أطبق عينيه نصف إطباق كأنه

يعير انتباهه الى شيء يراه في البعيد .

وصرخ العجوز الضئيل وهو ينقلب على ظهر أريكته ، وقال بدهشة

يخالطها الغضب :

- ما هذا ؟

- حسناً إني ...

وترامى بوكين على المقعد متجهج الوجه ، فلقد كان في كلماته القائمة شيء كبير

عظيم ، وكان فيها في الوقت نفسه تقريع "شجي" ساذج . ولمس الحضور هذا كله ،

وحق القضاة اصغوا اليه ، كأنهم يترقبون ان يرن في آذانهم صدى يحمل من الوضوح أكثر مما تحمل كلماته . وعلى مقاعد النظارة جمد القوم جميعهم ، فلا تملو من صفوفهم نائمة ، سوى نشيج "خفيف" . وشغل النائب العام كتفيه ، وهو يبتسم بازدياد ، وسعل ماريشال النبلاء بقوة ، وارتفعت المهمة من جديد ، ودبت الحركة في القاعة شيئاً فشيئاً .

ومالت الأم على سيزوف تسأله :

- هل سيتكلم القضاة ؟

- كلا فلقد انتهى الأمر ولم يعد هناك إلا اعطاء القرار !

- ابداً لن يتكلموا ؟

- ابداً .

ولم تصدقه .. وكانت والدة سامووف تتململ على المقعد قلقة ، وتلكز

بيلاجي بمنكبها ومرفقها وتسال زوجها بصوت خفيض :

- والآن ماذا ؟ أمن الممكن ان ...

- أنت ترين ان ذلك ممكن ...

- ولكن ... ولدنا غرينوار .

- دعيني وشأني .

وكنت تحسن ان كلاً من الحضور كان يماضي شيئاً من الضياع والتحول

والانسحاق ؛ وتقرأ الاضطراب في عيونهم الراحشة التي تبدو كأن نوراً شديداً

قد بهرها . وكانوا وقد خفي عليهم الاحساس بذلك الشيء العظيم الذي انبتق

فيهم فجأة ، كانوا ، يتمجلون فيغدقونه انطباعات حسية ، سهلة الادراك . وكان

شقيتي بوكين يقول بصوت خفيض ودونما عناء :

- أسمعون فتقولون لي لم لا يأذنون لهم بالكلام في حين يستطيع النائب

العام ان يقول ما يشاء ، وأن يتكلم طويلاً وبالقدر الذي يريد ؟

وكان بالقرب من المقعد حاجب ، فنهزه وهو يلوح بيده :

- على مهلك ... على مهلك .

واستلقى والد سامو الواف الى الورا ، وغغم وراء ظهر زوجته :
 - لنفترض انهم مجرمون حقاً ، فليسمحوا لهم ان يشرحوا وجهة نظرهم ،
 لئلا يسمحوا لهم ان يقولوا ضد ماذا ناروا ؟ اريد ان افهم .. فانا ايضا يعني ذلك ..
 وصاح به الحاجب وهو يهدده باصبعه :
 - الصمت . الصمت .

وهز سيزوف رأسه وهو متجهم الأسارى .

ولم ترفع الأم بصرها عن القضاة ؛ وكانت ترى غضبهم يتنلسلي ، ولا تتميز
 كلمة من تهامسهم التآمر . وكان رجح أصواتهم الخادع الباردي يلامس وجعها ،
 فترتمش له وجنتها ، وتحس في فمها طعم التقرز . لقد كان يخيل اليها انهم جميعاً
 يتحدثون عن جسم ابنها وأجسام رفاقه ، عن اطراف هذه الفتوة وعضلاتها التي
 تقور بالدم الحار والقوة الحية النابضة ؛ وان هذه الأجساد تضرم فيهم الحسد
 الكريه ، حسد المتسولين ، وتثير فيهم الشره الشديد ، شره المنهك والمريض ؛
 فتلمظ شفاههم ، ويتحسرون على هذه العضلات القادرة على ان تعمل ، وتثري ،
 وتمتع ؛ وتخلق . أما أجسادهم هم ... أجساد هؤلاء المعانين ، فإنها تجفو دورة
 الحياة الفاعلة وتنكرها ، وتفقد إمكانية التمتع بقوتها ، وإمكانية السيطرة على
 الحياة والتهاهما ، ومن أجل ذلك ، كانت تلك الفتوة تثير في القضاة المعانين ميلاً
 حقوداً الى الثأر ، كذاك الميل الذي تثيره في الوحش الجائع رؤية اللحم الطري ،
 دون ان تكون له القدرة على امتلاكه ، فيستشعر انه فاقد لتلك الحيوية التي تملأ
 الآخرين ، فيزجر بألم ، ويعوي بياس ، وهو يرى أود حياته يفلت هكذا من
 يديه .

وكانت الأم كلما اعارت القضاة انتباهاً أكثر ، كلما اتخذت هذه الفكرة
 الغريبة الفجة شكلاً واضحاً في رأسها ، ويخيل اليها انهم لا يعملون على اخفاء
 ذلك الشره القلق ، ولا ذلك السعار الخوار ، سعار الجياع الذين لا يتورعون
 عن التهام كل شيء يجدونه امامهم ؛ وكان يرهبا ، كأمراة ، وكأم تحب ، رغم
 كل شيء ، جسد ابنها أكثر من ذاك الذي يسمونه روحاً .. كان يرهبا ان ترى

تلك العيون المنطفئة تتساحب على وجهه ، وتتلس صدره ومنكبويه ويديسه ،
 وتحتك بيشرته الملتببة ، كأنهم إنما ينشدون فيها إمكانية الدفاء ، واذا كاه الدم
 في عروقهم المتصلبة ، وفي عضلاتهم المتهرئة ، عضلات رجال نصف اموات
 تبعت فيها بعض الحيوية وخزات الشهوة ، شهوتهم الى تلك الحياة الفتية التي تحتم
 عليهم ان يدينوها ، وأن يتلكوها . وكانت الأم تشعر ان ابنها يحس هذا
 التماس الكريه الخفض ، وأنه يتطلع اليها مرتجفاً .

وكان بول يركز عليها عينيه الهادئتين الودودتين ، المتعبتين بعض الشيء ،
 ويوميء لها برأسه من حين الى آخر ، ثم يبتسم ، وكانت ابتسامته تقول لها :
 - سأكون ظليقاً عما قريب .

فتدغدغ هذه الابتسامة قلبها .

وفجأة نهض القضاة جميعاً ، وتلبعت الأم تحركهم بصورة غريزية ، وقال سيزوف :
 - إنهم منصرفون .

- لوضع الحكم ؟

- نعم .

وتبدد بغمته ذلك التوتر الذي كانت تحسه ، وهدت كيانها اعياء مرهق ، وراح
 حاجبها يرتعش ، وتلألأت على جبهتها حبات من العرق ، وتفجرت في قلبها احساس
 ثقيل بالقرف والمهانة ، وسرعان ما تحول هذا الاحساس الى ازدراء شديد الوطأة
 للقضاة وقرارهم ، وشعرت بألم تحت جبهتها ، فأمرت يدها عليها بقوة ، ثم ادارت
 بصرها فيما حولها : لقد كان ذوو المتهمين يقتربون من الحاجز ، وكان صخب
 الأحاديث يملأ القاعة ، وتقدمت هي ايضاً من بول ، وشدت على يده وانفجرت
 تبكي وقد امتلأت هوناً وبهجة ، وضاعت في خليط من الأحاسيس المتناقضة ؛
 وحدثها بول حديثاً رقيقاً ، أما البيوروسي فقد كان يمزح ويضحك .

وكانت النساء جميعهن يبكين ، ولكن بكاءهن كان في الغالب بدافع العادة
 لا الأسى ، ولم يكن الألم هو الذي يذهلن بضربة على الرأس بلهاء ، بضربة
 وحشية مفاجئة ، بل الاحساس الحزين بفراق ابنائهن ؛ غير ان هذا الاحساس

نفسه كان يغرق ويدوب في انطباعات نهارها ذاك . وكان ذور المتهمين يرون الى ابنائهم وقد استولى عليهم شعورٌ قلقٌ يختلط فيه اختلاطاً عجيباً ارتياهم بالشباب ، واستعلاؤهم الذي تعسوده ، بضرب من الاحترام ؛ وكانوا يتساءلون بأسى : كيف ترام سيعيشون الآن ؟ وكان هذا الخاطر المحاح يصطدم بالفضول الذي يشيره هؤلاء الشبان الذين كانوا يتحدثون بجرأة ودونما خوف ، عن امكانية الوصول الى حياة اخرى ، الى حياة أفضل . وكانوا ، وهم اعجز من ان يعبروا عن هذه المشاعر ، يستنفدون قوامهم في فيض من الكلام غير انهم كانوا يتحدثون عن اشياء بسيطة : عن الفسيل والثياب ، وضرورة الاحتفاظ بالصحة الجيدة . وكان الابن البكر لبوكين بحث اخاه الأصغر بجرعات قوية :

— إننا نريد العدالة ... لا أكثر ...

ويحييه الأخ الأصغر :

— اعتن جيداً بالزرزور

— لا تقلق من هذه الناحية .

وكان سيزوف يمسك بيد اخيه ويقول ببطء :

— ها أنت ذا تذهب يا تيودور !

ومال ثيو عليه وأسر شيئاً في اذنه وهو يتسم ابتسامة خيثة ، وابتسم كذلك جندي الحراسة الذي يقف الى جانبها ، ولكنه لم يلبث ان استرد سحنه القاسية وسعل .

وكالآخرين كانت الأم تتحدث مع بول ، وفي المواضيع نفسها : عن غسله وصحته ، في حين كانت تزدهم في نفسها الأسئلة عن ساندرين وعنه ، وعنهما هي نفسها ؛ وفي ظل هذه الأحاديث كان ينمو شعورها بجبها العظيم لابنها ، ورغبتها الملحة في ارضائه ، في ان تكون اكثر قرباً الى قلبه . وكان ترقبها « للشيء الرهيب » قد تلاشى دون ان يترك وراءه شيئاً الا رعشة مزعجة ، كانت تهزها كلما مر في خاطرها ذلك التفكير المتجهم الدفين ، التفكير بالقضاة . وكانت تحس

بأن فرحاً غامراً وضاءً يولد في نفسها ، فرحاً لا تعرف له كنها ، ولكنه ... يقلقها . ورأت ان البيوروسي كان يتحدث مع احد الناس ، فتوجهت اليه ، لأنها أدركت أنه أحوج من بول الى الكلمة العطوف ، وقالت له :

— هذه المحاكمة لم تعجبني !

فصاح وهو يتسم بامتنان :

— ولم أيتها الأم الصغيرة ؟ انه طاحون عتيق ... ولكنه يدور ...

وأجابت هي بتردد :

— إنها لا تبعت الرهبة ... ولم تفهم معها أين هي العدالة ؟

— أوه . أوه ... أهذا ما كنت تريدني ؟ أتعقدن أنهم هنا يبحثون عن

الحقيقة ؟

فتأوهت ثم ابتسمت :

— لقد كنت أحسب أن المحاكمة ستكون شيئاً رهيباً :

وتعالى صوت :

— تهبأت الحكمة !

فأسرع الجميع الى مقاعدهم .

وأخفى للرئيس وجهه بورقة ، وهو يستند الى الطاولة ، ثم راح يقرأ بصوت

هزيل مدندن .

وقال سيزوف وهو يصغي :

— إنه القرار .

وخيم الصمت ، ووقف الجميع وقه تسمرت أبصارهم على المعجوز الذي كان يتصبب ضيلاً جافاً كعصا تمسك بها يد غير منظورة ؛ ووقف القضاة أيضاً ، وكان تقيب المقاطعة يحدق في السقف ، وعنقه مائل على كتفه ، وكان العمدة يشبك ذراعيه ، وماريشال النبلاء يمسد لحيته ، أما القاضي ذو الوجه المريض ، وزميله البدن ، والنائب العام فقد كانوا يتحدثون بالتمهين . ووراء القضاة ، وقوق رؤوسهم كان القيصر يرنو رافلاً بيزته الحمراء الرسمية ، ووجهه الأبيض الأبله

الذي كانت تحبو فوقه احدى الحشرات .

وقال سيزوف وهو يصعد زفرة عزاء :

- النفي ، لقد قطي الأمر أخيراً فشكراً لله . كنا نتوقع ان يحكم عليهم

بالاشغال الشاقة . ولكن ذلك لم يحصل .

وقالت بيلاجي بصوت منبهك :

- لقد كنت أعرف ذلك .

- ومع هذا فقد أصبح ذلك أكيداً ... ومن كان يستطيع ان يعرف !

واستدار نحو الحكوميين الذين كانوا يخرجونهم من القاعة ، وقال بصوت مرتفع :

- الى اللقاء يا ثيو . الى اللقاء جميعاً . وليكن الله في عونكم .

وأومات الأم برأسها الى ابنها ورفاقه ، أومات لهم وهي صامته ، وكان

بودها ان تلتحب ، ولكنها كانت تنجبل من دموعها .

- ٢٧ -

... وأدهشها وهي تغادر المحكمة ان ترى الليل قد لف المدينة ، والمصاييح

مضاءة والنجوم تتألق في السماء . وعلى مقربة من قصر العدل كان الناس يتجمعون

في المراء البارد جماعات صغيرة ، والتلج يصر تحت أقدامهم ، وأصوات قنية تتعالى

فيقاطع بعضها بعضاً ودنا من سيزوف رجل يرتدى قبعة رمادية وسأله

بصوت سريع :

- ماذا كان الحكم ؟

- النفي .

- لهم جميعاً ؟

- لهم جميعاً .

- شكراً .

وابتعد الرجل . ومال سيزوف على الأم ليحول لها :

- أرايت ؟ إن الأمر يثير الاهتمام ...

وأحاط بها فجأة فريق من الشبان والشابات ، وبدأت الهتافات تنهره :

وتجذب أشخاصاً آخرين .

وتوقفت الأم وسيزوف . وكان المتجمعون يودون معرفة الحكم ووقعه على

الحكوميين ، ومن منهم ألقى خطاباً وفي أي موضوع ، وكان يضح في هذه

الأسئلة كلها نفس الفضول النهم ، الفضول الصادق الحار الذي يثير الرغبة في اشباعه .

وقال أحدهم :

- أها السادة ، هذه هي والدة بول فلاسوف .

وصمت الجميع تقريباً .

- اسمحين لي بأن أشد يدك ؟

وشدت يد قوية بين الأم ، واستأنف الرجل كلامه وقد ملأه التأثر :

- سيكون ابنك بالنسبة لنا جميعاً مثلاً أعلى في الشجاعة ...

ودوت صرخة عالية :

- يعيش العامل الروسي !

وكانت الأصوات تتضاعف وتتنامي ، وتتفجر هنا وهناك ، والناس

يتوافدون من كل صوب ، ويزدحمون حول سيزوف والأم ، وكانت صفارات

البوليس تشق الفضاء ولكنها لا تنجح في كبت الصراخ ، وكان سيزوف العجوز

يضحك ، أما الأم ، فكان هذا كله يبدو لها كحلم جميل ، فتبتسم ، وتشد على

الأيدي ، وتنثر التحايا ؛ وتشرق لهاثها بدموع السعادة ؛ وترتجف ركبها من

التعب ، ولكن قلبها الذي غمرته بهجة تلقفت كل شيء ، كان يعكس انطباعاتها

كصفحة مشرقة لبحيرة صافية ، وعلى قرب شديد منها كان صوت متميز يتعالى

بعضية :

- أها الرفاق . إن العول الذي يفترس الشعب الروسي قد أشبع اليوم ، من

جديد ، نهم الجشع الطاغى ...

وقال سيزوف :

- هيا بنا نذهب أيتها الأم .

وفي اللحظة نفسها ظهرت ساندرين ، فتأبطت ذراع الأم وجرتها بسرعة الى

الرصيف الآخر :

— تعالي فقد يلجأ البوليس الى ضرب الناس وتوقيفهم .

ثم سألت :

— النفي ؟ الى سيبريا ؟

— نعم . نعم .

— وكيف تكلم ؟ أنا أعرف ذلك من قبل . لقد كان أشد هم بساطة ، وأصلبهم

كذلك وأقسام . إنه حساس ، رقيق ، ولكنه يجبل من اظهار عواطفه .

وكانت حرارة الكلمات التي تنطق بها همساً ، كلمات حبيها ، تهدى من اضطراب

الأم ، وتنعش قواها الخائرة .

وسألتها بصوت خافت وحنو وهي تشد يدها :

— متى ستذهبن للالتحاق به ؟

وأجابت الفتاة وهي تركز بصرها أمامها بثقة :

— عندما أجد من يحمل عني عبء عملي ؛ وعلى كل فأنا أيضاً سأحكم وسأنتفى

بلا شك مثله الى سيبريا . وسأصرح انني أرغب في أن أنتفى الى المكان الذي

سيكون هو فيه ...

وتعالي من وراءها صوت سيزوف :

— بلغيه اذن تحياتي ... انني ادعى «سيزوف» وهو يعرفني . اني عمي وممازين .

وتوقفت ساندرين واستدارت نحوه وهي تمد اليه يدها :

— أعرف قبو . واسمي ساندرين .

— واسم والدك ؟

— قرنت اليه وأجابت :

— ليس لي اب .

— هل هو متوفي ؟

وردت بجرارة ، وفي صوتها شيء من العناد والاصرار ، بديا في ملاحظتها :

— كلا انه ما زال على قيد الحياة . انه من أصحاب الأملاك ، وهو الآن مدير

الناحية ... انه ينتهب الفلاحين .

فقال سيزوف باعياء :

— هكذا ... اذن .

ثم اردف بعد صمت قليل ؛ وهو يتفحص الفتاة بطرف عينيه :

— حسناً ، وداعاً ايها الأم . سأسلك الشارع الذي على يسارنا . الى اللقاء

يا أنتسي انك شديدة القسرة على والدك ، وما من شك في ان ذلك من شأنك

انت ...

وصاحت ساندرين بانفعال :

— لو كان ابنك فتي سوء ، يلحق الأذى بالآخرين لدرجة تثير فيك الرعب ،

أما كنت تقول مثل قولي ؟

فأجاب بعد لحظة من التردد :

— ... أقول .

— إذا فستكون الحقيقة عندك اغلى من ابنك ، وهي بالنسبة لي اغلى من والدي .

وابتسم سيزوف وهز رأسه ثم قال متأوها :

— انك بارعة الجواب ، لا يطول الصراع معك . انك تعرفين كيف تقهرين

الشيوخ فأنت شديدة البأس . وداعاً ، وليحالفك الحظ ، ولتكن معاملتك للناس

أكثر حلاً وتسامحاً . وأنت يا نيلوفنا سلاماً . إذا اجتمعت ببول فبلغيه اني

استمعت اليه جيداً . صحيح اني لم افهم كل ما قال ، وأنه قد أثار رعيي في بعض

المقاطع ، ولكن ما قاله كان حقاً . قولي له ذلك .

ورفع قبعته واختفى متباطئاً في منعطف الشارع .

ولا حظت ساندرين وهي تشيخه بنظرة باسمة ؛

— يبدو أنه رجل طيب .

وأحست الأم ان في وجه الفتاة تعبيراً أفضل من المعتاد وأكثر رقة .

وعندما بلغتا المنزل جلستا على الأريكة متلاصقتين ، واستأنفت بيلاجي

الحديث عن خطة ساندرين ، في حين كان كل شيء يستريح في الصمت . أما

ساندرين فكانت تنو الى بعيد ، يعينها الواسعتين الحاليتين ، وقد تسامق حاجباها الكثيفان ، وكان وجهها الشاحب يمسك كالمرآة ما يطيف بنفسها من تأمل هادى .
- وفيما بعد ، عندما يصبح لكما اطفال - سألتحق بكما ايضا لا عنتني هم ، ولن يكون العيش هناك أسوأ من هنا ، إذ سيجد بول عملاً لأن له يدين من ذهب ..
ولفت ساندرين الأم بنظرة متفحصة :

- الا ترغين في اللحاق به حالاً ؟

فزفرت بيلاجي :

- وماذا يستفيد مني ؟ إني سأسبب له الازعاج فقط إذا ما عزم على الهرب ، ثم إنه قد لا يرضى ...

وهزت ساندرين رأسها :

- إنه لن يرضى .

وأضافت بيلاجي بشيء من الزهو :

-- ثم إن لدي هنا ما يجب ان اقوم به .

وردت ساندرين بسووم :

- اجل ... وهذا حسن .

وارتعت فجأة كأنها تتخفف من عبء ثقيل ، ثم قالت ببساطة وبصوت خفيض :

- لن يمكث هناك طويلاً ، ولا ريب انه سيهرب .

- ولكن ماذا سيحل بك انت والطفل إذا كان لكما طفل ؟

- سترى . يجب الا يدخلني في حسابيه ، وعليّ انا الا ازعجه . صحيح انه

سيؤلمني كثيراً ان انفصل عنه ، ولكن من المؤكد انني سأقلب على هذا الأم .

إني لن ازعجه ، لن ازعجه ابداً .

وشعرت الأم ان ساندرين جديرة بأن تتصرف وفق ما قالت ، فأخذتها

الشفقة عليها وضمها بين ذراعيها :

-- يا عزيزتي ... سيكون ذلك شديداً عليك .

وابتسمت ساندرين برقة والتصقت بالأم بكل كيانها ...

وأقبل نيقولا منهاكماً ، وقال على عجل وهو ينضو ثيابه :

- اسرع يا ساندرين ، وارحلي ما دام لديك متسع من الوقت ، فهناك جاسوسان ما فتئا يلاحقاني منذ الصباح واني ، بصراحة ، أشم في هذا رائحة الاعتقال . إن حدسي يقول ذلك . يجب ان يكون هناك شرٌ قد وقع في مكان ما . وبالمناسبة خذي ، هذه مراقبة بول ؛ لقد تقرر طبعها فاحلبها الى لومبلا ، وألحي عليها بانجاز ذلك بأسرع ما يمكن . لقد أجاد بول كثيراً يا نيلوفنا ، وأنت يا ساندرين ، حذار من الجواسيس ...

وكان وهو يتكلم يفرك ، بقوة ، يديه اللتين جدهما الصقيع ، ثم اقترب من الطاولة وأسرع في فتح ادراجها ، وأخرج أوراقاً مزرق بعضها ، ونحى بعضها الآخر ، وهو مضطرب مغموم :

لم يمض وقتٌ طويل على تنظيف هذه الأدراج ، ومع ذلك ، انظري هذه الرزمة الهائلة التي تكدست فيها . يا للشيطان . إنه من الأفضل بلا شك الاتنامي هنا يا نيلوفنا ، أليس كذلك ؟ إن مشاهدة تلك « المهزلة » شيء يبعث الضجر ، ولن يتورعوا عن اعتقالك أنت أيضاً ؛ ثم إنه يتوجب عليك كذلك ان تحملي خطاب بول لتوزيعه ...

- قل لي لماذا يمتقلونني ؟

فأجاب نيقولا بثقة وهو يلوح بيده أمام وجهها :

إني أستروح ذلك ، وعلى كل ، باستطاعتك ان تساعدي لومبلا ... أليس

كذلك ؟ إذهي إذن قبل ان تقعي في شدة الذنب .

وأجابت وقد أسعدتها فكرة الاسهام في طبع خطاب بول :

- إذا كان الأمر كذلك فإني سأذهب .

ثم أضافت ، ولكن بصوت خافت :

- الآن لم أعد أخشى شيئاً ، فشكراً لك يا رب .

وصاح نيقولا دون ان يلتفت إليها :

رائع ... ولكن آه ... قولي لي أين هي ثيابي وحقيقتي ؟ لقد قبضت على كل شيء ، بيديك النهمتين ، فأصبحت لا أستطيع ، على الإطلاق التصرف بلكي تصرفاً حراً .

وكانت ساندرين تلقي ، وهي صامتة ، الأوراق الممزقة في المدفأة ، وعندما احترقت هذه الأوراق حرصت على ان تخلط رمادها برماد الفحم .
وقال نيقولا وهو يبسط لها يده :

— هيا يا ساندرين ارحلي . الى اللقاء ، ولا تنسي ان ترسلي لي كتباً إذا ظهر منها ما يثير الاهتمام . الى اللقاء أيتها الرفيقة العزيزة ؛ كوني حذرة .
وسألته ساندرين :

— هل تعتقد ان بقاءك هناك سيطول ؟

— الشيطان وحده هو الذي يعلم ؛ ولكن مكثي سيطول بلا شك ، فهناك أشياء كثيرة تؤخذ علي . اذهباً معاً يا نيلوفنا لانه من الصعب تتبع شخصين ، الا توافقانتي على ذلك ؟

— سأذهب ؛ وما أنذا ارتدي ثيابي .

وكانت تراقب نيقولا بانتباه ، ولكنها لم تلاحظ في ملاحظه شيئاً إلا ذلك الاهتمام الذي كان يجب ما في وجهه من طيبة ورقة معتادة ، ولم ترفه ، هو الذي كان أعز لديها من الآخرين ، لم تر أية اماره من امارات العصبية الزائدة ، أو علامة من علامات الاضطراب . لقد كان يولي الجميع نفس الانتباه ، وكان ودوداً متزنًا مع الجميع ، ورغم هدوئه ووحده فقد ظل بالنسبة لاصدقائه ، كسابق عهدهم به ؛ رجلاً يعيش حياة داخلية خفية ، حياة يبدو معها كأنه يسبق الآخرين . ولكنها كانت تدرك أنه أقرب إليها ، وأشد انسجاماً ، لذلك أحبته حباً حذرًا يبدو غير واثق من نفسه . أما الان فهي تشعر انها تشفق عليه اشفاقاً يفوق الحد ، ولكنها تسيطر على هذا الإحساس ، لإنها تعلم انها إذا ما جهرت به وأعلنته ، فإن نيقولا سيفقد سعة صدره وسيماني القلق ، وينقلب الى رجل مضحك بعض الشيء كعادته ؛ وهي لا تحب ان تراه كذلك .

وعادت الى الغرفة ، وكان هو يشد يد ساندرين :

— رائع . أنا واثق من ان ذلك سيكون خيراً لك وله ؛ فقليل من السعادة الشخصية لا يضر شيئاً . هل أنت على استعداد يا نيلوفنا ؟ .

ودنا منها باسمًا ، وغدال من وضع نظارتيه :

— حسناً الى اللقاء . بعد ثلاثة أو أربعة أو ستة أشهر . لنقل ستة أشهر . فإنها شيء كثير في الحياة . رجائي ان تعني بنفسك . أليس كذلك ؟
تعالني تتعانق .

ولف بذراعيه عنق بيلاجي ، وحدث في عينها ضاحكاً وقال :

— سيقال اني وقعت في غرامك ، فأنا اعانقك دائماً .

وقبّلت جبينه ووجنتيه دون ان تتكلم ، وكأنت يدها ترتعشان فتركتها تهويان كيلا يلاحظ ارتجافها .

— كوني حذرة ؛ واوفدي اليّ ، صباح الغد ، غلاماً لمقابلتي هنا ... عند ليوميلاصي شاطر ... الى اللقاء أيتها الرفيقتان ، ولتسر الأمور على ما يرام .
وعندما أصبحت ساندرين في الشارع قالت :

— إذا أضطر لأن يذهب الى لقاء الموت ، فسيلاقيه بنفس البساطة مسرعاً بعض الشيء ، مثل الان . وعندما يأتيه الموت ، سيسوي نظارتيه ويقول له :

« رائع ، ثم يموت .

وتغتمت الأم :

— إنني احبه اشد الحب .

— إنه يدهشني ، اما اني احبه فلا . ولكني اقدره أشد التقدير . إنه جاف بعض الشيء رغم انه طيب ودود احياناً ، ولكنه ليس بشرياً كفاية ... يبدو ان الارصاد يتبعوننا فلنفترق . لا تذهبي الى لوميللا إذا رأيت ان هناك من يراقبك .
وقالت الأم :

— اعرف .

ولكن ساندرين أصرت :

- لا تذهبي اليها ، ومن الأفضل ان تأتي الى منزلي ، وبانتظار ذلك ، استودعك الله .

واستدارت بسرعة ، وعادت على اعقابها .

- ٢٨ -

وبعد بضع دقائق كانت بيلاجي تصطلي قرب المدفأة في حجرة ليوميل الصغيرة ، وكانت هذه ، وقد ارتدت ثوباً اسود يله مشدٌ جلدي ، تروح وتجيء ببطء في الغرفة التي تملأها بخفيف ثوبها ونبرات صوتها الامر . وكانت النار في الموقد تفر وتصفى وهي تعب هواء الحجرة ، وصوت لوميل الرتيب يلعلع :

- إن الناس بهائم ، اكثر بكثير مما هم أشرار .. فهم لا يرون ما هو قريب منبٍ حقير ، وكل ما له قيمة في نظرهم ناهٍ بعيد . إنهم سيفيدون جميعاً بكل تأكيد ، وسيسدون إذا ما تبدلت الحياة ، وغدت اكثر يسراً وغدوا هم اوسع عقلاً ، ولكن يجب علينا ، لبلوغ ذلك ان نتخلى عن الطمأنينة مؤقتاً ... وانتصت فجأة امام الأم ، وقالت بصوت اشد خفوتاً كأنها تعذر :

- إني لا أرى إلا القليل من الناس ، لذلك إذا مر أحدكم لمقابلتي انعمت في الشرة ... أليس هذا مضحكاً ؟

وأجابت الأم :

- لماذا ؟

وكانت تحاول ان تكتشف المكان الذي تطبع فيه ليوميل المنشورات فلا ترى حولها شيئاً غريباً . ففي الغرفة التي تطل نوافذها الثلاث على الشارع ، توجد اريكة ، ومكتبة ، وطاولة ، وبعض الكراسي ، وسريرٌ بالقرب من الجدار ، وفي إحدى الزوايا مغسلة ، وفي الأخرى مدفأة . أما الجدران فكانت تغطيتها الصور . وكان كل شيء يبدو جديداً ، قوياً ، نظيفاً ، يخلع عليه الشبح الرهباني لربة المنزل ظلاً بارداً ، ويستشعر المرء كأن هناك شيئاً خبيثاً خفياً ، ولكنه لا يدري أين هو ... وتطلعت الأم الى الأبواب ، لقد ولجت الغرفة من احدها

الذي يطل على رواق صغير ، أما الآخر وهو مرتفع ضيق فقد كان بالقرب من المدفأة .

وشعرت ان ليوميل تراقبها ، فقالت بارتباك :

- لقد جئت بمهمة ...

- اعرف ذلك ، فليس هناك من يأتي اليّ لامر آخر ..

ولمست الأم في صوتها نبرة غريبة ، ورنت اليها فإذا البسمة على حفاف شفيتها الرقيقتين ، وإذا عينها الخابيتان تلتزمان وراء نظارتها . وحولت بيلاجي بصرها عنها ومدت اليها يدها بخطاب بول :

- تقضي . إنهم يرجونك ان تطيعه بأسرع ما يمكن .

وراحت تحدثها عن تدابير نيقولا الاحتياطية خشية اعتقاله .

ودست ليوميل الورقة في زناها بصمت ، وجلست على احد المقاعد ، فانعكس لهب النار الأحمر على زجاج نظارتها ، واختالت في وجهها الخالي من كل تعبير بسمة لاهبة ، وبعد ان استمعت الى حديث الأم قالت بصوت خفيض مصمم :

- سأطلق عليهم النار عندما يخيئون اليّ . فمن حقي ان اذفح عن نفسي ضد العنف ، ويجب عليّ ان افعل إذا كنت ادعو الاخرين الى نضاله .

واختفت انعكاسات اللهب على وجهها ، وارتسم في ملامحها شيء من القسوة وظل الكبرياء .

وحدثت الأم نفسها بورد :

- « إن حياتك ليست مضحكة . »

وأخذت ليوميل تقرأ خطاب بول ، تقرأه في بادىء الأمر مكرهة ، ثم لم تلبث ان زاد انكبابها على الورق ، وكانت تطرح بعنف الأوراق التي انتهت قراءتها ، حتى إذا انتهت من قراءة الخطاب ، وثبتت من مقعدها واقتربت من الأم قائلة :

- إنه رائع .

وأطرقت برأسها قليلاً ثم أردفت :

- لم أشأ ان احثك عن ابنك ، فأنا لم أره أبداً ، ثم إني لا أحب الأحاديث

الحزينة ؟ وأعلم ماذا يعني ان يرى المرء احد ذويه يسير الى المنفى ؛ ولكنني أود ان أسألك : هل من الخير ان لك ولدٌ مثله ؟

وأجابت الأم :

- أجل .

- ولكنه شيء رهيب .. أليس كذلك ؟

وابتسمت الأم برقة :

- كلا .. ليس في ذلك ما يرهب حتى الآن !

وسوت ليوميلا بيدها السمراء شعرها الأملس ثم استدارت نحو النافذة ؛ ورفاً فوق وجنتيها ظلٌ خفيف ، لعله ظل لبسمة مكبوتة

- سأبشر العمل بسرعة . أما أنت فستطجعين . لقد كان نهارك شاقاً ، وأنت تعب . نامي هنا على السرير ، فأنا لن انام ، وربما ايقظتك اثناء الليل لتساعديني ، وقبل ان تغفي ، اطفئي المصباح .

وألقت النار قطعتين من الخطب ، ثم نهضت ، وخرجت من الباب الضيق بالقرب من المدفأة ، وأغلقت وراءها بعناية ، وتبعتها بيلاجي بعينها ، ثم اخذت تنضو عنها ثيابها وهي تفكر بمضيفتها :

- انها تقاسي حزناً ما ..

وكان التعب يعصف برأسها كالدوار ، ولكنها مع ذلك كانت تشعر ان نفسها هادئة أشد الهدوء ، وأن كل شيء يتألق في عينيها بضياء ناعم مدغدغ ، ضياء رتيب ساكن ؛ يملأ قلبها . لقد كانت تعرف من قبل هذه الطمانينة التي تجيء دائماً في أعقاب الانفعالات الكبرى ، والتي كانت من قبل ، ترعبها بعض الشيء ، أما الآن فهي توسع آفاق نفسها ، وتوثقها باحساس قوي كبير . وأطفأت المصباح ورددت في السرير البارد ، وتجمعت تحت الغطاء ، ثم لم تلبث ان غرقت في سبات عميق .

وعندما فتحت عينيها كان انعكاس النور يملأ الغرفة بضياء أبيض جليدي ، ضياء يوم من أيام الشتاء . وكانت لوميلا تستلقي على الأريكة ، وفي يدها كتاب

وكانت ترنوا الى النائمة وعلى شفيتها بسمة لم تعودها منها .

وصاحت بيلاجي مرتبكة :

- أوه يا إلهي ... هل مرّ علي وقت طويل وأنا نائمة ؟

وردت ليوميلا :

- طاب صباحك . لقد بلغت الساعة العاشرة ، فانهضي وهيا بنا لتناول الشاي .

- لماذا لم توقظيني قبل الآن ؟

- أردت ان أفعل ، ولكن بسمتك كانت حلوة جداً وانت نائمة !

ونهضت بحركة ناعمة انتظمت كيانها كله ، واقتربت من السرير ، وانحنت فوق وجه الأم ، فقرأت هذه في عينيها الخابيتين شيئاً فيه الفة ، وقرب ، ووضوح .

- لقد ندمت لا يقاظي إياك ؛ اذ لعلك كنت تفرقين في حلم جميل ؟

- لم أحلم في حياتي ابداً ...

- حسناً ، هذا لا يهم ... ولكن بسمتك اعجبتي ، فهي وادعة جداً ،

وطيبة جداً ... وعظيمة جداً ...

وراحت ليوميلا تضحك وكانت ضحكها صماً عالياً .

- لقد بدأت أفكر بك . فهل حياتك شاقة ؟

وارتعت حاجبا الأم ، وصمتت تفكر .

وسارعت ليوميلا الى القول :

- حتماً ... انها شاقة .

وقالت الأم بتردد :

- لا إدري ... ويخيل الي في بعض الاحيان انها كذلك . ان هناك كثيراً

من الاشياء وكلها جاد ومدهش ، وهي تتعاقب بسرعة ... بسرعة جداً .

وتساعدت موجة القلق التي تعرفها جيداً ، تصاعدت الى قلبها فملأته بالصور والافكار ، ثم جلست في سريرها ، وسارعت تجسد افكارها تلك .

- هذا يروح وهذا ييجيء . والنتيجة هي دائماً ذاتها . ان في الحياة لوتعلمين ،

كثيراً من الاشياء المؤلمة ، فالناس يتعذبون ، ويضربون ، يضربون بقسوة

وتحرم عليهم كثير من المباح؛ وهذا لعمرى أمر شديد القسوة بالنسبة اليهم .
ورفعت ليوميلا رأسها بتأثر ، ولفتت الأم بنظرة عميقة ؛
- انك لا تتكلمين عن نفسك .

ورنت اليها الأم ، ثم نهضت ، واخذت ترتدي ثيابها !

- وكيف يمكننا ان نغزل انفسنا عن الناس عندما نحب واحداً ، ويكون
الأخر عزيزاً علينا ، وعندما نخاف من اجلهم جميعاً ، ونشفق عليهم ... ان ذلك
كله يصطرح في القلب ... فكيف نبقي في معزل ؟

وظلت ساهمة لحظة ، وهي نصف عارية في وسط الحجرة ، وخيل اليها انها لم تعد
تلك التي اغتمت كثيراً ، واكتأبت كثيراً من أجل ابنها ، وعاشت على أمل
الاحتفاظ به سالماً معافى . ان يبلاجي هذه لم تعد موجودة . لقد انفصلت ،
ونأت بعيداً الى مكان لا يعرفه أحد ، ولعل نار الانفصالات قد التهمتها ، ولعل
نفسها قد انطلقت متخلفة من أثقالها ، مطهرة ، ولعل قوة جديدة راحت تبرىء
قلبها من جديد . وكانت تصغي لذاتها وتشتهي ان تكتشف ما يدور في نفسها
وتساورها الخشية في ان توقظ من جديد همومها العتيقة .

وسألتها ليوميلا بود وهي قدنوت منها :

- بم تفكرين !

- لا أدري .

وصمتت كلتاها وتبادلتا النظرات وابتسمتا ثم خرجت ليوميلا وهي تقول :

- ماذا حدث لا يريق الشاي ؟

وسرحت الأم بصرها من النافذة ، وكان يلف الدنيا في الخارج نهار بارد
شديد البرودة ، وكان جو قلبها صافياً كذلك ، ولكنه حار . وكانت تشتهي ان
تتحدث عن كل شيء ، ان تتحدث طويلاً وبغبطة غامرة ، يحدها شعور غامض
من عرفان الجميل نحو كائن مجهول .. ان تتحدث من اجل ما يستاقط في نفسها
فيضيئها ، من ألق ارجواني كذاك الذي يسبق شفق الغروب ..

وتملكتها رغبة في ان تصلي ، رغبة لم تشعر بها منذ زمن بعيد ، وتذكرت

وجهاً غنياً ، وتعالى في خاطرها صوت مرثان : « إنها والدة بول ساموالوف » ،
وتألفت في ذاكرتها عينا ساندرين حائنتين ممتطتين ، واتصب شبح ريبين
الاسود ، وابتسم وجه بول البرونزي الحازم ، وغمز نيقولا بعينيته مرتبك الملامح .
وراحت هذه الصور كلها تتراقص فجأة ، وتحركها نسمة عميقة خفيفة فتختلط
وتتأرجح في سحابة شفاقة غنية الألوان تغمر خواطرها كلها بحس الدعوة
والاطمئنان .

وقالت ليوميلا وهي تعود الى الغرفة :

- لقد كان نيقولا على حق ... فلقد اعتقلوه . لقد أرسلت الصبي كما قلت
فوجد رجال البوليس عنده ، وكان أحدهم يختبئ وراء الرتاج ، والجواسيس
يطوفون حول البيت ، وكان الصبي يعرفهم ...

وقالت الأم وهي تهز رأسها :

- آه . يا للمسكين .

وزفرت ، ولكن من غير حزن ، وهذا ما أدهشها بعض الشيء .

وقالت ليوميلا وقد بدا في ملامحها التجهم والهدوء :

- لقد عقد في المدة الأخيرة كثيراً من الاجتماعات عند عمال المدينة ، ومع
ذلك كان لديه متسع من الوقت لكي يتواري ، ولقد نصحه الرفاق بذلك فلم
يصغ اليهم . اعتقد انه في مثل هذه الحالات ينبغي ان يكره المرء إكراهها
لا أن ينصح ...

وظهر على العتبة فتى مورد الوجنات ، اسود الشعر ، ذو عينين زرقاوين

حلوتين ، وأنف أقي ؛ وسأل بصوت جهور :

- هل آتي بالشاي !

- اذا أردت يا سيرج ... انه ريبني .

وكانت الأم تلاحظ ان تغيراً قد طرأ على ليوميلا هذا الصباح ، فهي أكثر
بساطة وأقل تأيماً ، وفي حركاتها الرشيقة ، حركات جسمها المتناسق كثير من
الجمال والقوة ، وهذا ما كان يلطف قلباً من قسوة وجهها الشاحب . وكانت

الهلات الزرقاء حول عينها قد توسعت أثناء الليل فم ذلك عن الجهد المتواصل الذي تبذل ، وكانت نفسها متوترة ، كحبل مشدود الى النهاية .

وحمل الصبي ابريق الشاي .

— هذه هي ياسيرج ، بيلاجي نيلوفنا ، والدة ذلك العامل الذي حكم عليه البارحة .

وانحنى الصبي دون ان ينبس بكلمة ، وشدّ يد الأم ثم خرج ، وعاد يحمل بضع قطع صغيرة من الخبز ، ثم جلس الى المائدة . وأقنعت ليوملا بيلاجي ، وهي تصب الشاي ، بالألا تعود قبل ان يُعرف ما اذا كان رجال البوليس مازالوا ينتظرون عند نيقولا .

— لعلهم بالتأكد يريدون ان يستجوبوك انت ...

وأجابت الأم :

— ليستجوبوني ، وليوقفوني فلن يزيد ذلك من شقائي ، ولكن ينبغي أولاً توزيع خطاب بول في كل مكان .

— لقد صُفّ اليوم ، وسيكون لنا غداً نسخ كافية للمدينة والضاحية . هل تعرفين ناتاشا ؟

— كيف لا أعرفها ؟

— احلي اليها من هذه النسخ ...

وكان الصبي يقرأ في احدي الجرائد، ويبدو عليه كأنه لا يسمع شيئاً، ولكن عينيه كانتا احياناً تستقران على وجه الأم ، فيسرهما ان يلتقي بصرها بنظرته الحادة ، ويدفعها ذلك الى الابتسام .

وعادت ليوملا الى الحديث عن نيقولا دون ان يظهر عليها التأثر لاعتقاله ، وبدت لهجتها طبيعية تماماً في نظر الأم . وكان الوقت يمر سريعاً أكثر منه في الايام الأخرى، وعندما انتهوا من طعام الفطور ، كان النهار قد انتصف أو كاد . ووطرق اليب يعثف ، فتهض الصبي وألقى نظرة متسائلة على سيدة المنزل وهو يقطب حاجبيه .

— افتح ياسيرج . من تراه يكون ؟

وبحركة هادئة دست يدها في جيب تنورتها وقالت للأم :

— اذا كانوا من رجال الدرك فاجلسي هنا في هذه الزاوية ، وأنت

ياسيرج ...

فقاطعها الصبي بصوت خفيض :

— اعرف ..

ثم تواری .

وابتسمت الأم ، فهذه الاستعدادات لم تعد تحركها ، لأنها لم تعد تحس بأي شقاء جديد .

وكان الاقدام هو الطبيب الصغير الذي سارع الى القول :

— أولاً : لقد اعتقل نيقولا . آه . آه . أنت هنا يا نيلوفنا؟ ألم تكوني هناك

عندما اعتقل !

— لقد أرسلني الى هنا .

— 'م' ... لا أعتقد أن هذا سينفعك ... وثانياً : لقد استخرج عددٌ من الشبان ، هذه الليلة ، خمسية نسخة من الخطاب . ولقد رأيتها ، وأعتقد أن لا بأس بها فهي واضحة مقروءة . إنهم يريدون ان يوزعوها في المدينة هذا المساء ، أما أنا فأعارض ذلك لأنني أفضل توزيع الأوراق المطبوعة في المدينة .. أما هذه المخطوطة فينبغي ان ترسل الى ناحية أخرى .

وصاحت الأم بحماسة :

— حسناً أعطوني اياها لأحلبها الى ناتاشا !

لقد كانت تعاني رغبة فظيمة في أن تنشر خطاب بول بأسرع ما يمكن، وان تفرق الأرض بكلمات ابنها ، وكانت ترنو الى الطبيب بعينين يقظتين ، ينهل منها التوصل .

وقال الطبيب بتردد :

— آه يا للشيطان . انا لا أدري ما إذا كان من المناسب ان نكبل اليك هذا

الأمر الآن !

وأخرج ساعته ثم تابع :

- الساعة الآن الحادية عشرة والدقيقة الثالثة والأربعون ، وسيصل القطار في الثانية وخمس دقائق ، وستكونين هناك في الخامسة والربع ؛ أي في المساء ولن يكون الوقت متأخراً على كل حال ... ثم ان القضية ليست هنا ...

ورددت ليوميلا متفضنة الجبين :

- كلا ... القضية ليست هنا ...

وسألت الأم وهي تدنو منها :

- إذن ؟ .. الأمر يتوقف فقط على حسن انجاز العمل .

وركزت ليوميلا بصرها عليها ، وقالت وهي تمسح جبينها :

- إن في ذلك خطراً عليك ...

وأجابت الأم بإصرار لاهب :

- ولماذا ؟

وردد الطيب بصوت عجلان ، ولكنه متفاوت النبرة :

- السبب هو هذا : لقد تركزت المنزل قبل اعتقال نيقولا بساعة من الزمن .

ويحتمل أنك كنت في المعمل حيث يعرفونك كعملة للدراسة . وبعد وصولك

ظهرت منشورات ممنوعة . إن هذا كله سيكون كالأنشودة التي تضيق حول

عتقك .

وأكدت الأم بجملة :

- إنهم لن ينتبهوا لي ، وإذا أوقفوني عند العودة ، فليألووني أين كنت ؟

وتوقفت لحظة ثم أردفت :

- وسأعرف كيف أجيبهم ، وسأنتقل من هناك ترواً الى الضاحية حيث يقم

احد معارفى ويدعى سيزوف . وسأقول بأني قد توجهت بعد صدور الحكم على

الفور الى منزله ، وبأني كنت حزينة ، وكان هو كذلك ، فلقد حُكم على ابن اخيه

مع بول . وسيقول هو نفس القول . أرايتما ؟ ...

ولست الأم انها يميلان الى الرضوخ لرغبتها ، فراحت تبذل جهدها لاقتناعها نهائياً ؛ وكانت تتكلم بالحاح متزايد الى أن رضخوا في النهاية .

- لا حيلة في اليد فاذهي ..

وكانت ليوميلا صامته ، تروح وتجيء في الغرفة وهي مطرقة . وكان وجهه هو متجهماً وخدها غائرين ، وعضلات عنقه تبدو مشدودة ، كأن رأسه قد نقل فجأة ، وتدل على صدره بصورة لا إرادية .

وتأملته الأم وقالت له باسمه :

- إنكم ترفقون بي كثيراً ولكنكم لا ترفقون بأنفسكم !

وأجاب :

- ليس هذا صحيحاً ، فكلانا بالآخر رفيق ، ويجب ان نكون كذلك .

إنها تلوم أولئك الذين يبعثون قوام على غير طائل ، أجل يا سيدتي ... ولنعد الى موضوعنا الآن . سننملك نسخ الخطاب في المحطة .

وراح يشرح لها ما يجب عليها ان تفعله ، ثم نظر اليها مواجهة وقال :

- حسناً . أتتني لك حظاً طيباً .

ومضى ... وقد بدا عليه انه لم يكن مع ذلك راضياً ؛ وما ان اغلق الباب

ورآه حتى دنت ليوميلا من الأم ، وعلى شفتيها بسمة صامته :

- انني أفهمك ...

وتأبطت ذراعها ، ثم سارت من جديد بضع خطوات في الحجره :

- وأنا أيضاً لي ولدٌ بلغ الثالثة عشرة من عمره ؛ وهو يعيش مع والده .

إن زوجي وكيل نيابة ، والصبي معه ، واني غالباً ما أتساءل : ماذا سيكون

مصيره ؟

وارتعت صوتها ؛ واستأنفت بصوت ساهم خفيض :

- إن من يشرف على تربيته عدوٌ واعٍ لأولئك الذين أعتبرهم أفضل من

حلت الأرض ؛ وقد يصبح ابني ، عندما يكبر ، عدواً لي أيضاً ؛ فأنا لا

أستطيع ان أخذه ، لأنني أعيش تحت اسم مستعار ، ولقد مضى علي ثمان سنوات

لم أره خلالها ؛ ثماني سنوات ... إنه لأمد طويل .

وتوقفت بالقرب من النافذة ، ورننت الى السماء الباهتة المقفرة :

- لو كان معي لكنت أقوى ، ولما كان في قلبي هذا الجرح الذي يعذبني ابدأ .
وحتي لو كان في عداد الأموات فإن عذابني سيكون أخف وطأة ...

وقالت لها الأم بصوت شديد الحفوت ، وقد هصرت الشفقة قلبها :

- يا صغيرتي المسكينة .

وأردفت ليوميلا باسمه :

- إنك سعيدة . وانه لرائع ان تمشي أم وابنها جنباً لجنب ، وهذا

امر نادر .

وصاحت بيلاجي وقد أدهشها هتافها :

- أجل . . انه لميل .

وأردفت وهي تخفض من صوتها كأنها تبوح بسير :

- انكم جميعاً ، انت ونيقولا وكل أولئك الذين يعملون من أجل الحقيقة

تسيرون أيضاً جنباً الى جنب ؛ لقد أصبح الناس ، دفعة واحدة ، اقرباء اعزاء ،

واني لأقهمهم جميعاً . صحيح اني لا أفهم ما يقولون ... ولكنني أفهم الباقي

كله ... افهمه ...

وقالت ليوميلا :

- نعم .. انه كذلك .

وألقت الأم يدها على كتفها ، وضغطت بلين ثم تابعت بصوت كأنه الغمغمة

وكانها انما تصغي الى افكارها هي نفسها :

- ان الابناء يتقدمون في الدنيا ؛ هذا ما أدركه ، انهم يتقدمون في الدنيا ،

في الأرض كلها ، وفي كل مكان ، نحو هدف واحد . ان انقي القلوب ، إن

العقول الشريفة تزحف باصرار ضد كل ما هو سيئ ، وتستحق الدجل بخطواتها

الصامدة ، والشبان ، الشبان الأصحاء ، يوجهون قواهم التي لا تقهر ، في سبيل

غاية واحدة هي تحقيق العدالة انهم يسرون نحو الانتصار ، الانتصار على العذاب

الناس ، ويمتشقون للسلاح ليقضوا على شقاء الكون ؛ ويناضلون ليتقروا الحسة ،

وسينتصرون !

لقد قال لي احدهم : « اننا سنشعل شمساً جديدة » ؛ وسيشعلون تلك الشمس .

« وسنجمع القلوب الحطيمة كلها في قلب واحد » ، وسيجمعون تلك القلوب

الحطيمة كلها ... في واحد .

وعادت الى ذاكرتها كلمات من صلوات منسية ، فأذكت ايمانها الجديد الذي

كان ينبعث في صدرها كالشرر :

- ان ابناءنا الذين يسرون في سبل العدالة والعقل يحملون حبهم الى الأشياء

كلها ، ويرتقون الضياء على كل شيء ، ضياء نار لا يمكن ان تحبوا ، نار تنبع

من اعماق النفس . ومن هذا الحب الملتهب ، حب ابنائنا للعالم كله ، تولد حياة

جديدة . فمن ذا يستطيع ان يطفىء هذا الحب ؟ من ؟ وهل هناك قوة مها سميت

تستطيع ان تقهره ؟ ان الارض هي التي انبتته ، والحياة كلها تريد له ان ينتصر ،

الحياة كلها !

وابتعدت عن ليوميلا وقد ارهقها الانفعال ، وجلست لاهئة ، فجلست

ليوميلا ايضاً بهدوء وحذر كأنها تخشى ان تحطم شيئاً ما ، ولكنها لم تلبث ان

نهضت تنتقل في الحجرة بخطى رشيقة ؛ وهي تركز في البعيد نظرة عميقة من عينيها

التي خبأ فيها الألق ، وبدت كأنها اشمخ قامة ، واشد استقامة ، واكثر

نحولاً . وكان وجهها الهزيل الصارم منقبض الاسارير ، وكانت تضغط شفيتها

بعصية . وهذا الصمت المسيطر ، اعصاب الأم بسرعة ، فسألت وهي ترقب

ملامح المرأة الشابة ، وسألت بصوت خفيض جبان النبرة :

- لعلني قلت شيئاً ما كان يجب ان اقله .. ؟

فأستدارت ليوميلا بعنف ، ونظرت اليها كالمذعورة ، وسارعت الى القول

وهي تمد يدها كأنها تود ان توقف شيئاً ما :

- كلا ... إن ما قلته صحيح ، ولكن ... دعينا من الخوض فيه ، ولنظل كما

قلت منذ قليل ...

ثم اردفت وهي اكثر هدوءاً :

— ربنني لك ان تذهبي يا كراً ... فالمكان بعيد ...

— نعم يجب ذلك . آه . لو تعلمين كم انا مسرورة ؟ فسأحمل كلمات ابني ،

كلمات دمي ... إنها عزيزة عليّ كروحي .

وكانت تبسم ، غير انه لم يكن لبسها سوى انمكاس باهت على وجه ليوميلا ، وكانت تشمران تحفظ السيدة الشابة يضي على غبظتها شيئاً من البرود ، فعصفت بها فجأة رغبة ملحة ، رغبة في ان تصب من وهجها في تلك الروح القاسية ، وان تشملها بلهبها لتزهها هي ايضاً ، تلك الغبطة التي تقعم جوارحها .

واخذت يد لوميلا ، وضغطتها بشدة :

— لكم هو جميل يا عزيزتي ان نعرف ان في الحياة نوراً يهدي الناس جميعاً ، وانه سيأتي اليوم الذي يبصرون فيه هذا النور ، ويمانتقونه بكل جوارحهم . ارتعش وجهها الكبير الطيب ، وتألقت عيناها ، ورفرت اجفانها ، كأنها إنما تهب لألق احداها اجنحة . وبعثت فيها النشوة افكاراً عظيمة ، افكار كانت تولد متنامية الحيوية ، وتزدهر متزايدة الضياء ابداً ، في قلبها الخزيفي الذي تنيره القوة الخلاقة لشمس ربيعية .

لكأن إلهاً جديداً قد وُلد ، فالواحد للكل ، والكل للواحد . هكذا افهمكم .. انتم الآخرين . إنكم جميعاً ، في الواقع ، رفاق ، وذوو قربي ، وابناء لأم واحدة هي الحقيقة .

وغمرتها من جديد موجة من الانفعال ، فتوقفت قليلاً لتتنفس ، ثم قالت وهي تفتح ذراعها كأنها تعانق شيئاً ما :

— وعندما امس في نفسي هذه الكلمة « رفاق » اسمع في قلبي غمغمة :

« إنهم يتقدمون ! »

... ونجحت خطتها ... فاذا وجه ليوميلا يشتعل بلهب غريب ، واذا شفتاها ترتعشان ، واذا بدموع ثقيلة متألعة تنهمر من عينيها .

واحتضنتها الأم بين ذراعيها ، وضحكت بصمت ، وقلبا مغمم بالزهو ،

زهو انتصارها .

وعندما افترقتا ، حدقت ليوميلا في عينيها وقالت بصوت خفيض :

— هل تعرفين كم يسعد المرء ان يكون معك ؟

— ٢٩ —

... وفي الشارع عصفت بها الهواء الجاف البارد ، وشد حنجرتها ، ونقتر انفها ، وحبس انفاسها في صدرها لحظة ، فتوقفت وتطلعت حولها ، فاذا في زاوية الشارع وعلى مسافة غير بعيدة منها ، حوذي يعتمر قبعة من وبر ، وعلى مسافة أبعد ، رجل يسير بحني الظهر ، يفرق رأسه بين منكبيه ، وامامه جندي يعدو بوثبات سريعة وهو يفرك اذنيه .

وقالت في نفسها :

— لا شك انهم اطلقوا هذا الجندي الصغير في سباق !

ومضت في طريقها وهي تصفي بنشوة الى الصرير المفتي الجهور تحت قدميها ، صرير الثلج .

ووصلت الى المحطة مبكرة ، ولم يكن قطارها قد اعدُ بمد ، إلا ان صالة الانتظار في الدرجة الثالثة ، هذه الصالة القُدرة التي سودها الدخان ، كانت تمج بالخلق ، فلقد ألبأ البرد إليها عمال الخط ، وعدداً من الحوذيين ، وسيني الكسوة الذين لا مأوى لهم ، فجاءوا يلتمسون فيها بعض الدفء . وكان فيها ايضاً عددٌ من المسافرين ، وبعض الفلاحين ، وتاجرٌ ضخم يلتف برداء من القرو وكان تصحبه صبية مجدورة الوجه ، وخمسة من الجنود أو ستة ، وبعض البرجوازيين الصغار الذين يبدو عليهم الانهالك .

وكانوا جميعاً يدخنون ويثرثرون ويشربون الشاي والفودكا ، بالقرب من المقصف كان احدهم يطلق ضحكة داوية ؛ وكانت سحب الدخان تهم فوق الرؤوس ؛ والباب يصير عندما يُفتح ؛ ويهتز زجاجه ، ويحدث صوتاً عندما يُصفق ، وكانت رائحة التبغ والسلك الملح تزكم الانوف بشدة .

وانخذت الام مكاناً لها بالقرب من الباب ، مكاناً وجيباً ، وراحت تنتظر .
 وكان كلما دخل داخل تهب معه نفحة من الهوام البارد ينسرح لها صدرها ، فتتنفس
 ملء رئتيها . وكان الناس يتوافدون ، وفي ايديهم رزم ، وعليهم ثياب ثقيلة
 فيعلقون بالباب ، وهم يلجونه ، فيشتمون ، ويقذفون بجاحياتهم الى الارض او
 يلقون بها على احد المقاعد ، وينفضون نفث الثلج عن ياقات معاطفهم واكمامهم ،
 ويسجونه عن لحام وشواربهم ، ويدمدمون ...
 ودخل شاب كان يحمل حقيبة صفراء ، فالتقى على ما حوله نظرة سريعة ، ثم
 اتجه مباشرة نحو الام وسألها بصوت خافت :

- الى موسكو ؟
- نعم لزيارة تانيا .
- حسناً .

ووضع الحقيبة بجانبها على المقعد ، وسحب سيجارة من جيبه ، وأشعلها وهو
 يرفع قبعته قليلاً ثم خرج من باب آخر دون ان ينس بكلمة .
 ودأبت الام بيدها جلد الحقيبة البارد ، ثم اسندت اليها مرفقها وراحت
 تتفحص وجوه الناس مسرورة ؛ وبعد لحظة نهضت لتجلس على مقعد آخر قريب
 من المخرج الذي يقضي الى الرصيف . وحملت دون عناء الحقيبة التي لم تكن كبيرة ،
 وراحت ، شاخة الرأس ، تحديق في وجوه اولئك الذين يرون امامها .
 واصطدم بها شاب يرتدي معطفاً قصيراً عالي القبة ، ثم ابتعد عنها دون ان
 يتفوه بكلمة ؛ في حين كانت اصبعه تلامس قبعته . وخيل اليها انها قد
 رأته من قبل ، فاستدارت نحوه ، وكانت عين الرجل الصافية تتركز عليها من
 وراء قبعته العالية ؛ واختارتها هذه النظرة اليقظة ، فارتعشت يدها التي كانت
 تمسك بالحقيبة ، واحسبت بحملها يغدو ثقيلاً فجأة .

وهستت في نفسها : « لقد رأيتك من قبل في مكان ما ! » وكانت تقاوم احساساً
 كريباً معتكراً بملأ صدرها ، ولم تشأ ان تحدد ، بكلمات اخرى ، ذلك الشعور
 الذي كان يهصر قلبها بهدوء ، ولكن بصلف ؛ غير ان هذا الاحساس كان
 يتنامى ، ويتصاعد ليملأ حنجرتها ، ثم فيها ، ببرارة جافية .

وهصفت بها رغبة لا تقاوم في ان تستدير وتلقي الى الورا نظرة اخرى ،
 فاذا بالرجل ما يزال مكانه ، يستند تارة الى احدى رجليه ، وطوراً الى الثانية
 باحتراس وحذر ، وكانت يده اليمنى تندس بين ازرار معطفه ، في حين تستقر
 اليسرى في جيبه ، فيبدو كفته الايمن ، وهو في هذا الوضع ، أعلى من الأيسر .
 واقتربت متمهلة من المقعد ، وجلست بجذر وبطء كأنها تخشى ان تجتث شيئاً
 ما في داخلها ، واستحضرت لها الذكرى التي ايقظها حدسها الرهيف بالشقاء ،
 استحضرت لها هذا الرجل على صورتين : الاولى في الحقول بعد هرب ريبيّن ،
 وعلى مقربة من السجن ، والثانية في المحكمة . فلقد رأته فيها الى جانب رجل
 التوليس الذي كذبت عليه وضلته حين دلته على الطريق الذي سلكه ريبيّن .

وظلت تسائل نفسها لحظة :

- ترى ... هل وقعت في الشرك ؟

وفكرت مرتعشة :

- ربما كنت لم اقع حتى الآن !

ثم اردفت بعد ذلك :

- لقد وقعت !

وتطلعت حوالها فلم تر شيئاً ، وكانت خواطرها تتدفق واحدة بعد الاخرى
 كالشرر ، ثم تنطفئ في رأسها .

- هل اترك الحقيبة ؟ وامضي في سبيلي ؟

ولكن شرارة اخرى التمعت اكثر تألقاً :

- وكلمات ابني اطرحها في ايدي كهذه ؟

وضمت الحقيبة الى صدرها :

- هل انجو بها واهرب ؟

وكانت هذه الافكار تبدو غريبة لها كأنها إنما ادخلت الى رأسها عنوة ؛
 وتلدغها ثم تخترق حروقها تلك ، دماغها ، وتحطم قلبها وتفسخه كخيوط عمجرة ،
 وقدلها وتنشئها عن نفسها ، عن بول ، عن كل ما كان من قبل متحدأبقلبها . وكانت

تشم ان قوة بغيضة تطبق عليها فتصهرها وتسحق منكبيها وصدورها، وتنيخها لتغرقها في رعب ميمت ، وكانت عروق صدغيها تنبض ، والحرارة تتصاعد الى جذور شعرها .

ويجهد سريع صلب ، استطاعت ان تخنق كل هذه الرمضات الخبيثة الواهنة المسكينة ، وان تسيطر على نفسها :
- عار عليك يا نفسي .

وشمرت بالعزاء يتسرب الى جوانحها فجأة ، فقوت من عزمها وتصميمها :
- لا تكوني عاراً على ابنك ... لا احد يخاف ..

والتقت عيناها بنظرة حزينة رعديدة ، وتراءت لها صورة ريبين في لمحة خاطفة ، وبدا لها كأن هذه اللحظات القليلة من الحيرة قد عادت فثبتت كل شيء فيها ، وراح قلبها ينبض بهدوء اكثر من ذي قبل .
وتساءلت وهي تراقب الجاسوس :

- ماذا سيحدث الآن ؟

وكان هذا قد اوما الى احد الحراس ثم راح يوشوشه ، وهو يشير اليها بعينه ، فرنا اليه الحارس ثم تراجع الى الوزاء ، ودنا حارس اخر ، واضاخ بسمعه وقطب حاجبيه ، وكان عجوزاً وقور الشكل ، أشهب اللحية والشعر ، وأوماً الى الجاسوس برأسه ثم تقدم نحو المقعد الذي كانت تجلس عليه الأم ، في حين كان الجاسوس يتوارى .

وسار العجوز متمهلاً وعيناه الحائقتان تتفرسان بدقة في وجه الام ، فانكفأت هذه الى الطرف الآخر من المقعد :

- المهم ألا يضربوني .

ووقف بالقرب منها شامتاً ثم سالها بصوت خافت قاس :

- الى م تنظرين ؟

- لا شيء .

- حسناً ايها اللصة ... لقد بلغت من العمر عتياً وما زلت تمارسين هذه المهنة ؟

ولطمتها هذه الكلمات كصفتين أليمتين على وجهها ، صفتين شريرتين داويتين ، خيل اليها كأنها مزقتا وجنتيها ، واقتلعتا عينيها .
وصاحت بكل قوتها :

- أنا ؟ أنا لصة ؟ إنك تكذب .

واخذ كل شيء يدور في دوامة سخطها ، واسكرت الإهانة المرة قلبها ، فشدت غطاء الحقيبة الذي لم يلبث ان انفتح ، وصرخت وهي تثب :
- انظر ... انظروا جميعاً .

وانتزعت رزمة من المناشير ، ولوحت بها فوق رأسها ؛ وسمعت من خلال الطين في اذنيها ، هتاف الناس الذين كانوا يتدكضون من كل صوب .
- ماذا حدث ؟

- هو ذا مفتش سري ...

- ما هذا ؟

- يُقال إنها سرقت ...

- إن مظهرها يوحي الاحترام ... اذا كان لا يوحي البؤس !
وعادت الأم تعلن بصوت داوٍ ، وقد هدأ من روعها بعض الشيء منظر الجمهور المحتشد الذي اكتظ حولها .

- لست لصة . لقد حُك البارحة على بعض السجناء السياسيين ، وكان ابني احدهم وقد القى فلاسوف خطاباً ؛ هوذا ... إنى احمله الى النساس ليقرأوه ، وليستمعوا في الحقيقة ...

واختطف احدهم بعض الأوراق من يدها بجذر ، ولوحت هي بالآخرى في الهواء ثم القت بها الى الجمهور .

وتعالى صوت مدعور :

- انهم لن يقدموا لك التهانى من اجل هذا ...

وكانت الأم تلاحظ أنهم يتخطفون الأوراق ، ويخبثونها في معاطفهم وجيوبهم ، واحست من جديد انها اشد ثباتاً على ساقها ؛ فزاحت تتحدث ،

وهي اكثر هدوءاً ، وقوة ، وتوتراً ، واشد احسلاً بالزهو الذي كان يتنامى في داخلها ، وبالفرحة العارمة التي كانت تلهب جوانحها ، تتحدث وهي تنتزع من الحقيية رزم الاوراق ، فتذفها ذات اليمين وذات الشمال ، وتلقي بها الى ايدٍ رشيقة نهمة .

- اتدرون لماذا حُك على ابني ، وعلى كل اولئك الذين كانوا معه ؟ سأقول لكم السبب ، وستصدقون قلب أم وشعرها الأشيب : بالأمس حُك على قوم لأنهم كانوا يحملون الحقيقة اليك ؛ اليك جميعاً . وبالأمس عرفت ان هذه الحقيقة لا يستطيع احد ان ينكرها ... لا يستطيع احد . وكان الحشد الذي سيطر عليه الصمت يتزايد شيئاً فشيئاً ويتكاثف ويحيط بالأم بجلقة حية :

- الفقر والجوع والمرض ... هذا ما يربح الناس من عملهم . كل شيء يقف ضدنا ، و يوماً بعد يوم نغرق في العمل طوال حياتنا ، نغرق في الوحل والحديعة في حين يتختم الآخرون ؛ ويتمتعون على حساب شفائنا ، ويستبقوننا كالكلاب في قبضة القيد والجهالة ، لأننا لا نعرف شيئاً ؛ ويستبقوننا في قبضة الرعب لأننا نهرب كل شيء ، ان حياتنا هي الليل ... وانه الليل حالك الظلمة .

وتعالى بعض الأصوات :

- هذا هو الواقع .

- سدوا شديها .

وابصرت الأم الجاسوس وراء الحشد ، يصحبه دركيان ، فأسرعت في توزيع الرزم الاخيرة ، ولكن عندما غاصت يدها في الحقيية ، التقت بيد اخرى فيها :

- خذوا .. خذوا ...

وصاح الدركيان :

- تفرقوا ...

واندفعوا يبعدان الناس الذين كانوا يرضخون لدفعها مرغمين ، ولكنهم كانوا يحشرونها ويضيقونها بكتلتهم ، وربما كان ذلك عن غير قصد منهم .

وكانت تلك المرأة ذات الشعر الاشهب والنظرة الصريحة والوجه الناضج بالطيبة ، كانت تستهوي الناس استهواء طاغياً ، فاذا بهم ، وهم الذين عزلتهم الحياة وباعدت فيما بينهم ، ينصرون الآن في كل واحد ، ويبحث فيهم الحرارة لهب كلامها ، هذا الكلام الذي ربما كان الكثيرون منهم قد سمعوه منذ امد طويل ، ولكن قلوبهم التي أذلتها مظالم الحياة تحس نحوه الآن بظماً حار مسعور . ولف الصمت اولئك الذين كانوا اقرب اليها من الآخرين ، ولكنها كانت ترى عيونهم اليقظة النهمة ، وتشعر بلهائهم الفاتر يلفح وجهها .

- اغربي ايتها المعجوز .

- انهم يوشكون ان يقبضوا عليك .

- إنها غير هيابة !

وصاح الدركيان اللذان كانا يقتربان :

- تفرقوا ...

وكان الناس يتموجون متدافعين ، ويتعلق بعضهم بالبعض الآخر ؛ ويخيل للأم انهم على أتم الاستعداد لفهمها وتصديقها ، وكانت تود ان تقول لهم ، على عجل ، كل ما كانت تعرف ، ان تبوح لهم بكل تلك الخواطر التي تحس زخمها ، والتي تنضاد من اعناق قلبها دونما عناد ، وتجمع على شفيتها كأغنية ، ولكنها كانت تتحقق بأنكسار ، ان الصوت ينقصها ، فصوتها مبجوح ، يرتعش ويتمزق .

ان كلمات ابني هي الكلمات الطاهرة ، كلمات فتى انبنته الطبقة الكادحة . انها صوت النفس التي لا يشوبها الفساد ، فأعرفوا الرجال النزهاء من جرأتهم ! .. ورمقها عيون فتية بجحاس ورعب .

وتلقت ضربة في صدرها ، فترخت ، وهوت على المقعد ؛ وكانت ايدي الدركيين تلوح فوق الرؤوس ، فتلك اعناق الناس ومناكبهم ، وتنحنهم جانباً وتقتلع قبعاتهم وتلقي بها بعيداً .

وترنح كل شيء امام الأم ، وغرق في الظلمات ، ولكنها استطاعت ان تسيطر على نفسها ، وان تصرخ بما تبقى لها من صوت :

- ليجمع الشعب قواه في قوة وحيدة !
واهورى احد الدرकिन بيده الكبيرة الحمراء على عنقها وهزها :
- اخرسي .

وارتطم عنقها بالجدار ، وثغرت قلبها ، للحظة ، دخان من الرعب لاذع ، لم يلبث ان بددته حرارة لهبها الداخلي .
وقال لها الدركي :

- امشي .
- لا تخشوا شيئاً ، فليس هناك شقاء اشد وطأ من ذلك الذي تتنفسونه
طوال حياتكم ...

وامسك الدركي بذراعها وشدها بضراوة :

- اخرسي ... قلت لها اخرسي .

وامسك بذراعها الثاني دركي آخر ، وسحبها معها بخطى سريعة .
- من يفرض كل يوم قلوبكم ، ويخفف صدوركم .

واندفع الجاسوس امامها ، ولوح في وجهها بقبضته المهددة بآجماً :
- ألن تخرسي آيتها الماهرة ؟

واتسعت عينا بيلاجي ، وتطاير منها الشرر ، وارتجفت فكها ، وصاحت
وهي تثبت قدميها فوق البلاط الاملس :

- انكم لا تستطيعون قتل روح بعثت من جديد .
- آيتها الصلبة .

وصفها الجاسوس على وجهها ، ولطم صوت شرير :

- حسناً فمت هذه الجيفة الشمطاء !

وطمس عيني الأم ، للحظة قصيرة ، سائل اسود اللون احمره ، زملاً قهياً
لفضم نالنج ، طعم الدم .

- لا تضربوها .

- ايها الغثيان .

- سافل .

- اهجموا عليه .

- العقل لا يُحرق بالدم !

وكانوا يدفعونها من عنقها وظهرها ، ويضربونها على كتفيها ورأسها فيارتنج
كل شيء امام عينيها ويدور في دوامة قائمة من الصراخ واصوات الصفارات ،
والعويل ، واخترق اذنيها احساس بشيء فيه كثافة ، وصمم ، فلأحنجرتها ،
وسد انفاسها .

ومادت الأرض تحت قدميها ، وانشقت ، وتقوقت ركبتيها ، واختلج
جسدها تحت وطأة الألم ، ثم تناقل ، وترنج ، سائر القوى ، ولكن عينيها كانتا
تلتصمان ابدأ وتزنوان الى عيون اخرى تشتعل بنسار باسلة عنيفة كانت تعرفها
بيدأ ، بارغالية على قلبها .

ودفعوها من الباب ، فانتزعت احدي يديها من وثاقها وتمسكت بشيء فاني ،
- انكم لن تخنقوا الحقيقة في اعماق مجاز من الدم ...

وسقطت على يدها ضربة .

- يا لكم من مجانين . انكم لن تراكموا الا الحقد ، وينصب هذا الحقد عليكم .
وامسكها دركي من عنقها ، واخذ يضغط ، فحشرجت :

- يا للأشقياء ...

ورد عليها احدهم بشهقة .